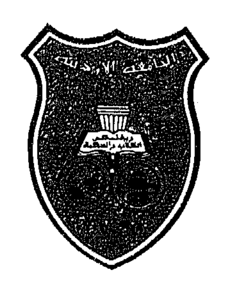
منشورات الجامعة الأردنية



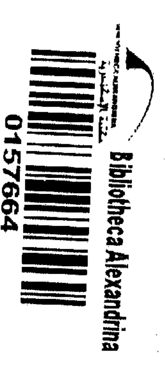
يوري ميخايلوفتش كوبيشانوف

الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة

وعلاقاته بالجزيرة العربية

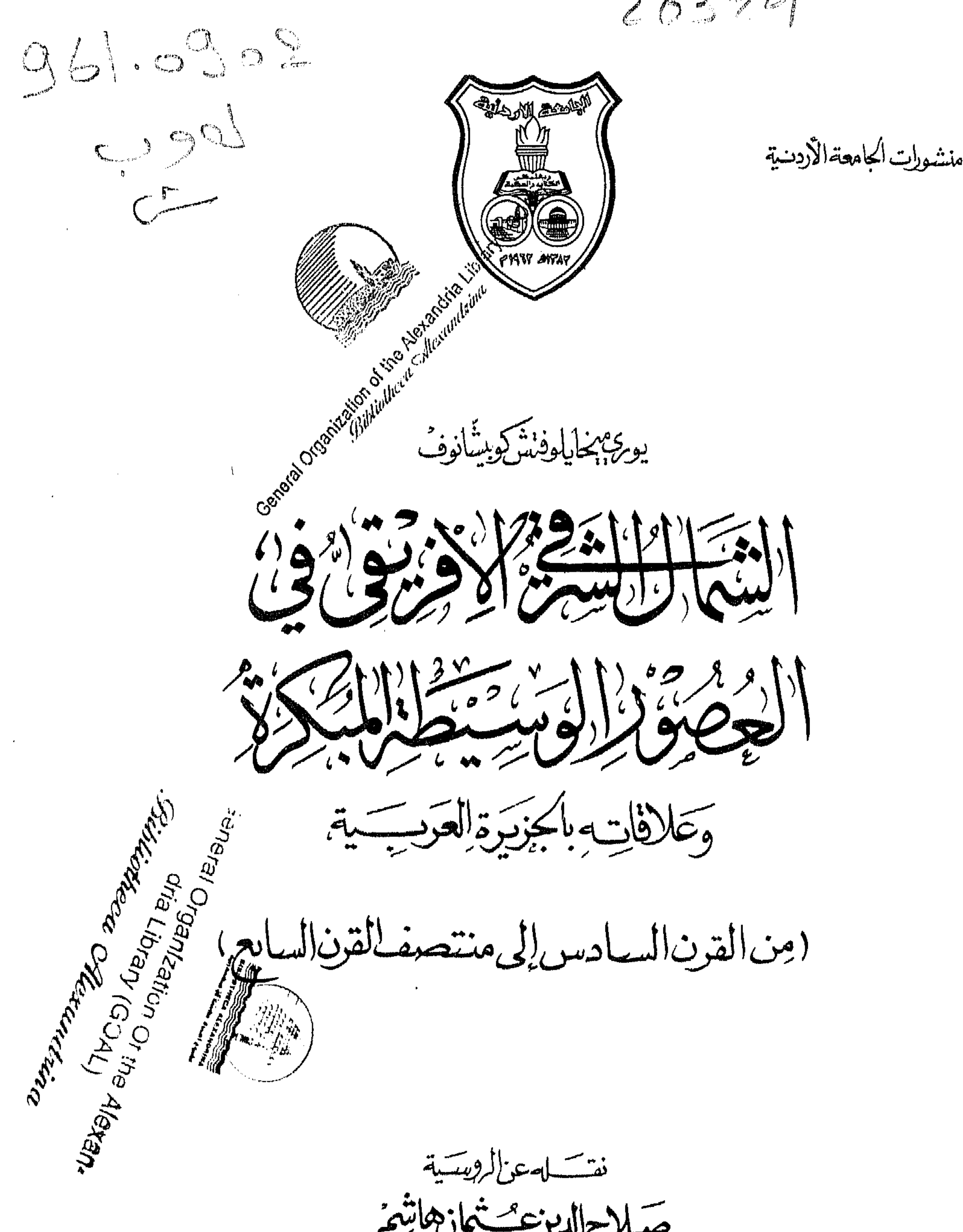
(من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع)

نقله عن الروسية
صلاح الدين عثمان هاشم



عمان/١٩٨٨م

منشورات الجامعة الأردنية



يوري ميخايلوفتش كوبيشانوف

الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة

وعلاقاته بالجزيرة العربية

(من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع)

نقله عن الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم

عمان/١٩٨٨

٩٦١،٠٢
كويب	كويبشانوف . يوري ميخايلوفتش
الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية من القرن السادس الى منتصف القرن السابع / يوري ميخايلوفتش كويتشانوف ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - . عمان : الجامعة ، ١٩٨٨ .
(٤٩٦) ص
ر. أ (٥٣١/٩/١٩٨٨)
١ - شمال افريقيا - تاريخ
أ - العنـــــوان
ب - صلاح الدين عثمان هاشم «مترجم»

(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية
(٥٣١/٩/١٩٨٨)

هذه ترجمة كتاب

АКАДЕМИЯ НАУК СССР
ИНСТИТУТ АФРИКИ

Ю. М. КОБИЩАНОВ

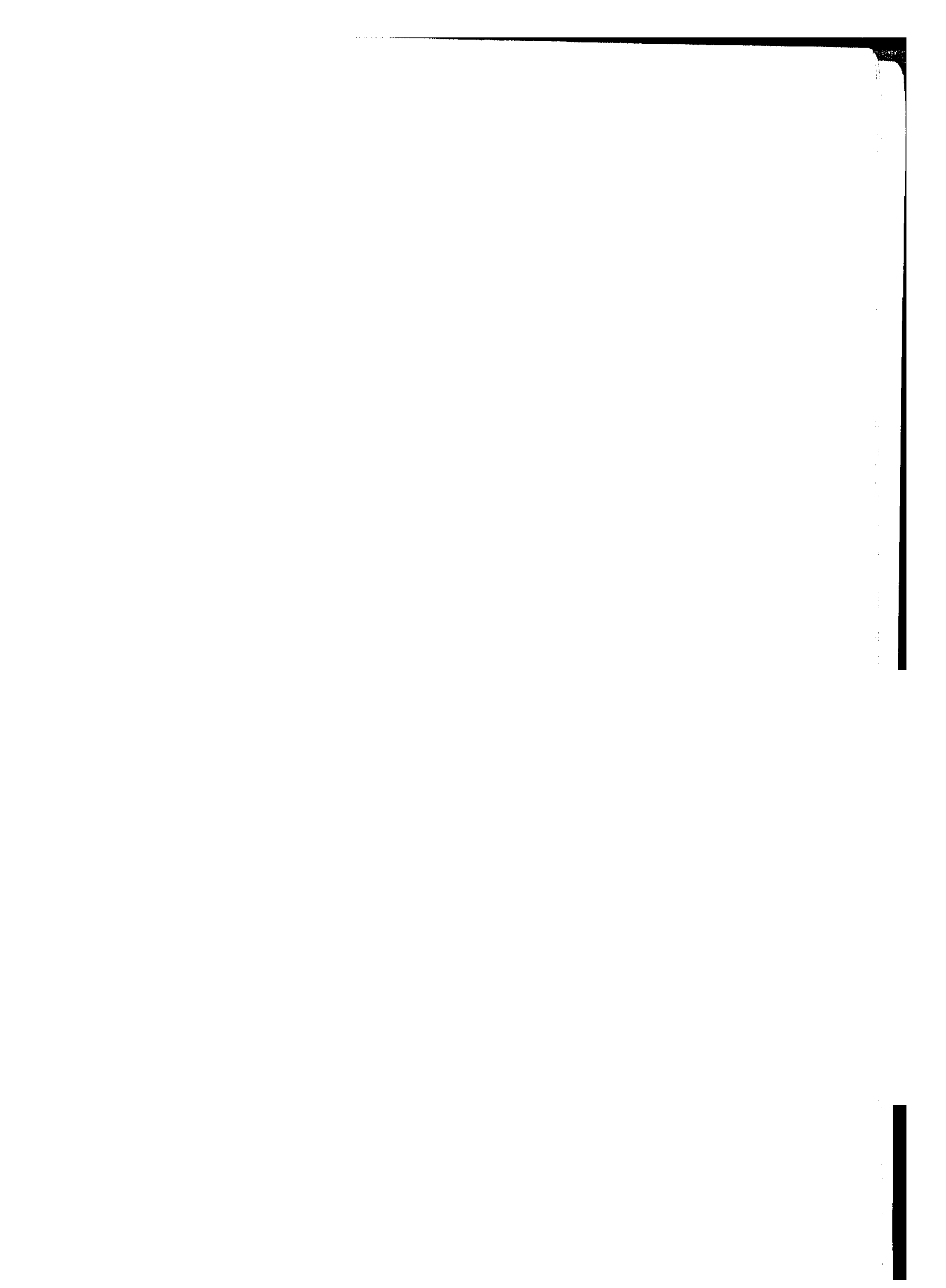
СЕВЕРО-ВОСТОЧНАЯ АФРИКА

В РАННЕСРЕДНЕВЕКОВОМ МИРЕ

(VI — середина VII в.)



ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
ГЛАВНАЯ РЕДАКЦИЯ ВОСТОЧНОЙ ЛИТЕРАТУРЫ
МОСКВА 1980



المحتويات

﴿ بسم الله الرحمٰن الرحـــيم ﴾

تقـديـــــم

يسرني أن أقدم للمؤرخين والمهتمين بدراسة التاريخ بخاصة وبالمعرفة الانسانية بعـامـة ، هذا الكتاب وعنوانه « **الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع** » تأليف المؤرخ الروسي يوري ميخايلوفتش الصادر عام ١٩٨٠ ، وقام بترجمته للغة العربية الأستاذ الجليل المرحوم صلاح الدين عثمان هاشم الذي اختطفته يد المنون وطباعة الترجمة في مراحلها الأخيرة ، وهكذا شاءت قدرة الله أن ترى ترجمته النور وروحه عند الرفيق الأعلى ، ونحن نسأل الله القدير ، الرحمة لروحه الطاهرة وأن يسكنه مسكن الصالحين من عباده الأتقياء.

والكتاب يعتبر بحق مدرسة متميزة لدراسة التاريخ وخاصة أن المؤلف أثراه بالمكتشفات والرقوم الأثرية ، وقد جعلته هذه الميزة مكملاً لجوانب الدراسة العلمية التـاريخية الجادة ، حيث وقف الكاتب موقف الباحث المتمكن ازاء كل المشاهدات الأثرية والانثروبولوجية .

والقاريء لهذا الكتاب يجد فيه معلومات فريدة وجديدة عن منطقة مهمة من مناطق العالم التي شهدت سيرة الرسالات السماوية الثلاث ابتداء من اليهودية التي حاولت أن تجد لها مكاناً في الشمال الشرقي الافريقي وجنوب الجزيرة العربية ، ومروراً بالنصرانية التي وجدت لها مكاناً في القارة الافريقية ، وانتهاء بالاسلام ، والحضارة العـربية الاسـلامية التي استطاعت أن تفصل افريقيا المسيحية عن العالم الغربي المسيحي ، وأخـذت افـريقيا المسيحية تدخـل تدريجياً في اتصال ومشاركة أكثر مع الحضارة العربية الاسلامية التي ازدهرت ازدهاراً عريضاً.

والقاريء الجاد يجد فيه ما يضيف إلى معرفته أكثر مما يجدها في أي مؤلَّف آخر عن تاريخ افريقيا خاصة إذا ما استعرضنا العناوين الرئيسية لموضوعات هذا الكتاب.

وعن مؤلِّف هذا الكتاب لا بد من أن أشير إلى ما جاء في مقدمة المترجم المرحوم صلاح الدين عثمان هاشم ، بأنه من المؤرخين وعلماء الانثروبولوجيا المرموقين بالاتحاد

السوفيتي ، ويعد حالياً المؤرخ الأول في تلك البلاد بل هو أكبر خبير في العالم ، بتاريخ اثيوبيا القديم. واستاذنا المترجم هو سوداني الجنسية (١٩٢٢ ـ ١٩٨٨) لم يكن في عمله المترجم والناقل للمعلومات بل كان المحقق لكل ما ورد من معلومات ، وجاءت تعليقاته لتضيف إلى الكتاب قيمة علمية. ولا غرابة في ذلك فالأستاذ صلاح الدين يلم إلماماً كافياً باللغة الروسية واجادته لها جاء لخدمة اللغة العربية التي تملك ناصيتها.

وحرصاً من الجامعة الأردنية ورئيسها الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي بأن تبقى الرائدة بالاتصال بما ينشر في ميدان العلم وتقديم كل جديد في العلم والمعرفة ، جاءت الموافقة على نشر هذا الكتاب ، فللجامعة الأردنية ورئيسها وللذين ساهموا في اخراج الكتاب أجزل الشكر والتقدير .

ولا بد لي أيضاً من تقديم الشكر والعرفان للدكتور أحمد جلبي رئيس مجلس إدارة بنك البتراء على تبرعه السخي لطباعة هذا المجلد .

وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم تنزيله « **ونعم أجر العاملين** » .

عميد البحث العلمي

(الدكتور محمد عدنان البخيت)

عمان في ٨ صفر ١٤٠٨ هـ
الموافق ١٩أيلول ١٩٨٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

استرعى اهتمامي مؤلف هذا الكتاب منذ أعوام عندما طالعت مصنّفه الجيد «اكسوم»، ثم اطّلعت بالتالي على عدد من بحوثه في تاريخ افريقيا وانثروبولوجتها. لذا ما كاد يظهر كتابه «تاريخ الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكّرة»

Severo–Vostochnia Afrika v rannesrednevekovom mire (1980)

حتى التهمته سريعاً واقتنعت على الفور بأنني أمام قطعة نموذجية في مجال تدوين التاريخ. هذا فضلاً عن أن الكتاب يمسّ موضوعاً أوليته اهتمامي في الأعوام الأخيرة هو علاقات الجزيرة العربية بالقارة الافريقية قبل الاسلام. عندئذ صحّ مني العزم على نقله إلى لغة الضاد، وخاصة أنه لم تظهر له ترجمة ما في أية لغة من اللغات.

ومؤلف الكتاب يورى ميخايلوفتش كوبيشّانوف Iu. M. Kobishchanov من المؤرخين وعلماء الانثروبولوجيا المرموقين بالاتحاد السوفيتي، ويعدّ حالياً المؤرخ الأول لافريقيا في تلك البلاد بل هو أكبر خبير في العالم في تاريخ اثيوبيا القديم.

ولد مؤلفنا عام ١٩٣٤م بمدينة خاركوف Kharkov بجمهورية اوكراينا السوفيتية، ونال تعليمه في معهد اللغات الشرقية التابع لجامعة موسكو. وحسب علمنا فإنه يضطلع حالياً بالتدريس «بمعهد افريقيا» Institut Afrika التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية بموسكو.

وبدأ نشاطه منذ أوائل الستينات مركّزاً على دراسة اثيوبيا القديمة والوسيطة، وتُوّج ذلك بظهور مصنفه الفريد « اكسوم » (1966) Aksum الذي عرض فيه بمهارة ومقدرة كبيرة تاريخ مملكة اثيوبيا القديمة. وفي السبعينات امتد

نطاق نشـاطـه العلمي ليشمـل تاريخ السـودان الشـمالي (بلاد النوبة وقبائل البجه)، ولم يلبث بالتالي ان اتسع حتى شمل القارة الافريقية جميعها، وذلك في المجـالـين التـاريخي والانثـروبولوجي . وفي بداية الثمانينات أصبحت معرفته بافريقيا شيئاً موسوعياً ، حتى اكتسب سمعة عالمية في مجالات بحثـه .

وقد ظهر له في ربع القرن الماضي ما لا يقل عن الخمسين مؤلفاً ، بين كتب ومقالات ونقود . من أهمها مؤلف جماعي أخذ فيه بنصيب الأسد ، وهو «أفريقيا لم تكتشف بعد» Afrika yeshche ne otkryta (1967) ؛ وأسهم في كتاب «افريقيا : ملتقى الحضارات» Afrika: Vstrechi tsivilitsatsii (1970) ؛ ثم كتاب «فجر الحضارة الافريقية» : Na zare tsivilisatsii Afrika: V drevneishem mire (1980) .

وأمـــا في مجـــالات الانثربولوجيا فقد تـــوّج بحوثه العديدة بظهور مؤلفـــه القيّم « الانتـــاج الطبيعي المحـــــدود في المجتمعات الافريقيـــة البدائية » Melke–naturalno proizvodstvo v obshchino–kastovykh sistemakh Afriki (1982) ، الذي تنعكس فيه مقدرته التي لا تجارى في الربط بين أحداث التاريخ ومعطيات الانثروبولوجيا. وذلك بالاضافة إلى بضع مقالات بالانجليزية والفرنسية . ولم ينقـل إلى لغـة أجنبية سوى مصنفه «اكسوم» الذي ظهرت ترجمته الانجليزية عـــام ١٩٧٨ م .

أمـا مصنفـه هذا الـذي نقّدم ترجمته إلى القارىء العربي وهو «الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكّرة» فقد رأى النور عام ١٩٨٠م. وهو يعالج الكلام أساساً على تاريخ اثيوبيا والسودان ومصر والمناطق المتاخمة لها من القارة الافريقية في العصور الوسيطة المبكّرة. غير أنه يصورّ كل ذلك على قاعدة الأحداث التي كان مسرحها الشرق الأدنى، وبخاصة الجزيرة العربية. لذا استمحت لنفسي العذر في أن أضيف إلى عنوان الكتاب « وعلاقاته بالجزيرة العربية» ، حتى ألفت نظر القارىء العربي إلى ما أولاه المؤلف في كتابه من اهتمام لعـلاقـات منطقة الشمال الشرقي الافريقي بجزيرة العرب، حين غدا البحر الأحمر في تلك الآونة أشبه ببحيرة ربطت بين الساحلين العربي والافريقي .

تتميز نظرة المؤلف بالإحاطة والشمول، فهو إلى جانب سرده للأحداث التاريخية (مما يشهد له بالمهارة كمؤرخ متمرّس) يفصّل القول في التركيب الاجتماعي للشعوب والقبائل الافريقية، ويبيّن أهمية الحضارة المادية والتبادل التجاري في علاقاتها مع الشعوب الأخرى. كما يولى اهتماماً كبيراً للصراع الدائر بين الأديان والمذاهب في منطقة الشرق الأدنى في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ البشرية، ويلقى ضوءاً ساطعاً على بزوغ فجر الاسلام في بداية القرن السابع الميلادي وانتشاره في الشرق الأوسط والشمال الافريقي.

والمؤرخ عالم لغوي موهوب يجيد عدداً من اللغات بين سامية وافريقية وهندية ـ أوروبية، لذا استطاع أن يغوص في المصادر الأصلية ويعتصر مادتها. هذا إلى جانب معرفته بعدد من اللغات الأوروبية الاوروبية الحديثة، مما مكّنه من متابعة جميع ما ظهر من بحوث حول سوضوع دراسته. وهو ناقد أمين ومحقّق ثبت لا يقبل الآراء على علاّتها، بل يقارن بينها ويتعرّض لصحتها. وله مقدرة لا تجارى في الربط بين الأحداث التاريخية والظواهر الحضارية، حتى وإن فصلت بينها أبعاد سحيقة، زمانية كانت أو مكانية. ليس ذلك فحسب بل نراه يربط بين مختلف حضارات الفترة التي يعالج الكلام عليها، حتى أوشك كتابه هذا أن يكون موجزاً لتاريخ البشرية في العصور الوسيطة المبكّرة. فهو إذن توينبي النزعة (Toynbean) ، إذا ما جاز هذا التعبير. كذلك طبق بالكثير من المهارة نظرية «المركز في مقابل الأطراف» (center versus periphery) .

والخلاصة أننا بإزاء كتاب موجز ولكنه يحفل بالمادة التاريخية وبالنظريات، هذا إلى جانب ما امتاز به المؤلف من سعة الأفق وصرامة المنهج .

وكما ذكرت فقد بذلت جهداً في الرجوع إلى المظان التي استقى منها المؤلف مادته، وأوردت الاقتباسات والشواهد من مصادرها الأولى. كذلك أثبتّ أرقام صفحات الأصل الروسي على هامش ترجمتي هذه حتى يرجع إليه من يودّ ذلك.

وقد اقتصرت في تعليقى على القليل والجوهري، وإلى جانب هذا زوّدت ترجمتي بعدد من الرسوم والخارطات مما لا وجود له في الأصل الروسي للكتاب.

هذا وأوصي القــاريء بأن يطّلع على ترجمتي العــربية لمصنف العالمــة السوفيتية الجليلة نيناڤكتورڤنا بيغوليبيڤسكيا «العرب على حدود بيزنطة وايران» (الكــويت ١٩٨٥) قبــل قراءة هذا الكتاب، لأن مصنف بيغوليبيڤسكيا يقدم القاعدة المتينة لدراسة تاريخ الفترة بحالها.

ولا يفوتني في الختام أن أعرب عن شكري للأديب السوداني السيد صلاح أحمد إبراهيم الذي راجع متن الترجمة وأدخل عليه بعض التحسينات.

والله المستعان

الخرطوم في ٣١ مايو ١٩٨٦ صلاح الدين عثمان هاشم

مقدمة المؤلف

ما زال تاريخ افريقيا ، باستثناء مصر وساحل افريقيا الشمالي ، غير مدروس دراسة كافية لدى مقارنته بتاريخ أوروبا وحوض البحر المتوسط والشرقين الأوسط والأقصى . ويصدق هذا الحكم بصورة خاصة على المناطق الداخلية للقارة، وبالذات تلك الواقعة في ناحية الشمال الشرقي ؛ أي اثيوبيا وبلاد النوبة والقرن الافريقي والأجزاء الشرقية من الصحراء الكبرى ؛ وذلك في الفترة بين امتداد سلطان رومه وفتح العرب لتلك المناطق . ويمكن إرجاع ذلك إلى النقص في المصادر وأيضاً إلى نوعيتها فهي قليلة العدد ومتناثرة وتفتقر إلى الوضوح، كما أنها تحوى من وقت لآخر أخباراً مشوّهة للغاية . وهذا النقص من العسير تحاشيه، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أنه لا سبيل إلى تداركه بمواد جديدة . لأن تزايد الاهتمام بدراسة تاريخ الشعوب الافريقية من شأنه أن يؤدي إلى توسيع نطاق المصادر، وخاصة عن طريق البحوث الأثرية .

فالاكتشافات الأثرية التي تمت خلال الأعوام الأخيرة في شمالي اثيوبيا وبلاد النوبة واليمن وغيرها من الأقطار قد أثرت العلم بمادة مهمة وجديدة، بما في ذلك النقوش الكتابية . مثال ذلك ما تم الكشف عنه من رقوم غير معروفة من قبل للملكين من ملوك اكسوم من القرن السادس هما كالب ووأذب . وبخلاف هذا تم العثور على عدد كبير من النقوش الأكسومية من القرنين السادس والسابع ، كما تم الكشف أيضاً عن رسائل ترجع إلى الفترة ذاتها .

وفي الخمسة عشر عاماً الأخيرة ظهر عدد من المؤلفات العلمية أعان في إلقاء ضوء جديد على أحداث القارة الافريقية في العصور الوسيطة المبكّرة . غير أنه باستثناء المقالات التي دُوّنت حول مسائل مختلفة من التاريخ والآثار والمسكوكات (Numismatics) والنقوش (Epigraphia) وغيرها ؛ وأيضاً باستثناء فصول منفردة في المؤلفات التاريخية المتعلقة باثيوبيا وبلاد النوبة ومصر وبيزنطة والجنوب العربي أو بالجزيرة العربية وافريقيا في جملتها، فإنه لا توجد إلى اللحظة في التدوين التاريخي العالمي بحوث علمية تعالج بصورة عامة الكلام على داخل افريقيا في الفترة التاريخية المضطربة من القرنين السادس والسابع . وبحث من

هذا القبيل ضروري لتوضيح مكانة التاريخ الافريقي في مسيرة تاريخ البشرية أجمع .

ومصنفنا هذا الذي نقدّمه للقاريء يمثل محاولة لسرد تاريخ أقطار الشمال الشرقي لافريقيا طوال فترة القرن ونصف القرن الممتدة من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع ، وذلك في سياق التاريخ العام للبشرية .

ومن الممكن أن نتصور بحثنا في حيز المكان على أنه أشبه بنواة تُحيط بها ثلاثة أغلفة أو دوائر . أما النواة فهي افريقيا التي لم تُدرس دراسة كافية والتي تهمنا أكثر من غيرها ، والواقعة إلى الجنوب من ليبيا ومصر ؛ وسنحاول عرض الأحداث التاريخية التي كان مسرحها هذه المنطقة بطريقة أكثر تفصيلاً . أما أولى الدوائر المحيطة بالنواة فتمثلها أقطار الشمال الافريقي ، مضافاً اليها الجزيرة العربية ، وإلى حد ما أجزاء من سورية وفلسطين (ومن وجهة نظر تاريخ البشرية العام فإن هذه الأقطار كانت البؤرة التي وجدت منها الحضارة طريقها إلى داخل افريقيا) . وإن حدث أن كانت مصر وسورية وفلسطين بالنسبة لأوروبا قبل كل شيء أقطاراً من منطقة حوض البحر المتوسط ، فقد كانت بالنسبة لافريقيا الشمالية الشرقية أقطاراً من منطقة البحر الأحمر . فالبحر الأحمر شأنه شأن البحر المتوسط فصل بين قارات وأقطار مختلفة ، ولكنه وصل بينها في ذات الوقت في وحدة حضارية تاريخية يمكن أن ندعوها بالبحر ـ أحمرية [الارثرية][1] . لكل هذا فإن تاريخ افريقيا الشمالية الشرقية يرتبط أجمعه ارتباطاً وثيقاً بجزيرة العرب وسورية وفلسطين ، مما يحتّم الاستفادة من المادة التاريخية المتعلّقة بهذه الاقطار في دراسة ذلك التاريخ . غير أن الأحداث التي كان مسرحها تلك الأقطار التي تشكّل حالياً جزءاً أساسياً من العالم العربي ، سنعرضها فقط بالقدر الذي ارتبطت فيه عن طريق مسبباتها وعواقبها بتاريخ الأقطار الافريقية .

---

(١) بيّن هذا بصورة خاصة ف. التهيم F. Altheim ور. اشتيل R. Stiehl في كتابهما «النصرانية بالبحر الأحمر» [125]، وأيضاً عرفان شهيد [381 ؛ ولكنهم لم يستعملوا مصطلح « الوحدة الحضارية التاريخية البحر احمرية » .

وأما الدائرة الثانية فتمثلها أوروبا البحر المتوسط ومعها آسيا الصغرى وايران والهند وسرى لانكا ، حيث قامت المراكز الكبرى الاقتصادية والسياسية للعالم في ذلك العهد ، وحيث تقرّر في المقام الأول مصير ذلك العالم . والأحداث السياسية التي جرت في تلك المنطقة سنتناولها هي أيضاً بإيجاز بالنظر لأهميتها في تحديد مسيرة التاريخ البشري [60, p. 31 ff.] . ذلك أنه في افريقيا والجزيرة العربية ، كما كان عليه الحال في أوروبا الوسطى والشرقية وأيضاً في جنوب شرقي آسيا ، كانت مسيرة التاريخ بطيئة لدى مقارنة ذلك بما حدث في حزام الحضارات القديمة .

وكانت القارة الأوراسية (باستثناء منطقتي البحر المتوسط وآسيا الجنوبية) وجنوب شرقي آسيا تشكّل بالنسبة لإطار بحثنا شيئاً أشبه بالطبقة الخارجية [أي الدائرة الثالثة] للنواة التاريخية الافريقية التي تشغل اهتمامنا هنا، بحيث لم يكن لهذه الأخيرة في ذلك العهد سوى اتصالات نادرة مع تلك المناطق القصيّة ؛ وتمّت هذه الاتصالات من وقت لآخر عن طريق الحضارات المركزية التي أومأنا إليها قبل قليل (أي الدائرة الأولى والثانية). وسيخرج من نطاق بحثنا شطر كبير من المعمورة (oikumene)، مثل الدنيا الجديدة ، وأيضاً أطراف من افريقيا واوراسيا وجزر البحار الجنوبية مما لم يكن لها أثر ذو بال (ولو بطريقة غير مباشرة) على تاريخ حضارات افريقيا للعصور الوسيطة المبكّرة.

ولقد جرى الصراع من أجل السيطرة في النصف الغربي من العالم القديم على الحد الفاصل بين القرنين الخامس والسادس وذلك بين ثلاث امبراطوريات، هي الامبراطورية الرومانية الشرقية وامبراطورية الفرس الساسانيين وامبراطورية الهفتاليين Hephtalites [الهياطلة]؛ وكانت هذه الأخيرة قد وحّدت بالتقريب جميع آسيا الوسطى إلى هنغاريا والهند الشمالية الغربية. أما الدول المترامية الأطراف التي ظهرت إلى الشمال وإلى الجنوب من منطقة الحضارات والامبراطوريات القديمة هذه، فلم تكن في جوهرها طويلة العمر. وينطبق هذا الحكم بقدر متساو على امبراطورية الخاروثشي Kharothshi وخاقانيات سهوب اوراسيا، كما ينطبق أيضاً على الممالك الصغيرة للنوبة السفلى

وشمالي جزيرة العرب . فهل شكّلت اكسوم استثناء لهذه القاعدة؟ إن الجواب بالنفي كما سنبيّن في هذا الكتاب .

ولقد تم تدوين الكتاب اعتماداً على وصف مفصّل للأحداث الواردة بمصادر جرت الإشارة إليها بالتفصيل أثناء العرض . وهذه المصادر أفاد منها المؤرخون بصورة غير متكاملة ، على الرغم من أنها تتمتع بقيمة غير عادية . وما حازته هذه المصادر من ثقة قد يرتبط إلى حد ما بطابعها ، وبقربها من الأحداث أو بعدها عنها ، وبمنشئها واللغة التي دُوّنت بها ، أو نقلت عنها (اليونانية أو اللاتينية أو الجعزية أو غيرها) . أما المصادر النقوشية فتمثلها الرقوم المعاصرة للأحداث : الجعزية من اثيوبيا الشمالية والحميرية من الجنوب العربي واليونانية والقبطية من بلاد النوبة وغيرها .

وأما الوثائق الدبلوماسية فتتمثل في متون الاتفاقيات التي حفظت لنا في آثار المؤرخين (وتمثل اتفاقية الهدنة بين العرب والنوبة لعام ٦٥٢ أهمية خاصة بالنسبة لنا في هذا الصدد) .

وفيما يتعلق بالرسائل فإن أكثرها صدقاً هي الرسائل السريانية لشمعون الأرشمي ؛ ثم كتب النبي محمد ﷺ إلى الملوك التي حفظتها لنا الرواية الإسلامية والنصرانية .

وتتمتع مادة الأدب الجغرافي (خاصة «الطبوغرافية النصرانية» لقزما الذي أبحر إلى الهند Cosmas Indicopleustes ، ومدونات نّنوس Nonnosus) بقيمة كبيرة ، وإن كانت نزرة نسبياً بالنسبة للفترة موضوع بحثنا .

أما الأدب التاريخي بالمعنى الدقيق للفظ فيتمثل في آثار المؤرخين البيزنطيين مثل بروقوبيوس Procopius القيساري ويوحنا ملاله Malala وثيوفان Theophanes البيزنطي ، والمؤرخين من السريان والقبط الذين أفادوا من التقاليد البيزنطية . وبخلاف هذا توجد المادة المدوّنة باللغة العربية ، سواء كانت عربية إسلامية أو عربية نسطورية . وأما التراث التاريخي الاثيوبي فتمثله في الأساس آثار معقّدة مثل « قوائم ملوك أكسوم » .

وكذلك تقدّم لنا سير الشهداء والقديسين للقرن السادس مجموعة من المصادر القيّمة، مثل «كتاب الحميريين» لشمعون الأرشمي بالسريانية، وباليونانية و « استشهاد الحارث » Martyrium Arethae (المعروف أيضاً في ترجمات بلغات عديدة) ، و « سيرة القديس جريجنتي » Vita Sancti Gregntii ، وغيرها. وثمة معلومات ذات أهمية تحويها مصنفات ذات طابع اسطوري مثل المصدر الاثيوبي « عظمة الملوك » [كبره نجاست] ، أو اليوناني « مجادلة القديس جريجنتي مع اليهودي ربن » .

ومن الممكن أن نستخرج من شعر العصور الوسيطة المبكّرة باللغات اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية بعضاً من الأخبار التاريخية. وأخيراً يمكن أن نستكمل معطيات المصادر المكتوبة بالمسكوكات والمواد الأثرية.

١ - افريقيا في نطاق العلاقات الدولية خلال القرنين السادس والسابع

يمثل القرنان السادس والسابع فترة من أحفل فترات التاريخ البشري بالأحداث، ففي مجال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية كان هذا عصر استتباب الإقطاع، عندما أعادت الحضارات القديمة لأوراسيا صياغة كاملة وجديدة للنظام الاقتصادي لمجتمعها، وذلك بعد أن أفاقت من الهزّة الكبرى التي أعقبت هجرات البرابرة وما صحبها من اضطرابات داخلية، وأعدّت طبخة جديدة مكوّنة من عناصر شتى فوضعت بهذا أساس حضارات العصور الوسيطة التي ازدهرت بالتالي. غير أنه في تلك الأزمنة لم تكن العلاقات الاقطاعية قد امتدت إلى مناطق جديدة، بل ظلت داخل حدود منطقة الحضارات القديمة. وفي مقابل هذا دخلت القوى السياسية في نزاع وراء حدود عالم القرون الوسيطة المبكّرة الذي لم تكن قد رسخت أقدامه بعد، جاهدة لاستعادة حدود الامبراطوريات القديمة الكبرى (الرومانية البيزنطية على عهد يوسطنيان،

والسوي Sui ثم التانج Tang بالصين، وبعض دول الهند) أو لخلق امبراطوريات جديدة ذات أبعاد لم تعرف من قبل (دولة الساسانيين في القرن السادس وبداية السابع، والخلافة الإسلامية، أو خاقانيات الترك والأقار). ولقد سار النضال تحت راية الدين، فتدخلت الحكومات بصورة نشطة في نزاع المذاهب الدينية، وظهرت عقائد جديدة فرضت نفسها بالقوة واضطهدت من لا يؤمنون بتعاليمها ودخلت في صدامات عنيفة مع بعضها بعضاً لأسباب دينية وعقائدية. ولقد تشابكت المسائل العقائدية تشابكاً وثيقاً مع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، واكتسبت مغزى سياسياً لم يعرف من قبل. وأضحى التعصب الديني هو السلوك الغالب لذلك العهد.

وتقدّم لنا بيزنطة في القرنين السادس والسابع أمثلة حيّة لحركات التعصب الديني. غير أنها لم تكن الحالات الوحيدة آنذاك؛ فبإمكاننا أن نبصر حالات مشابهة لذلك العهد حتى في أقطار أخرى من الشرق، في إيران [89] والهند [21, p.287] والجنوب العربي وافريقيا الشمالية تحت حكم الوندال.

وقد توّج كل هذا في آخر الأمر بظهور دين جديد في القرن السابع، تحدّى جميع الأديان الأخرى وضرب بجرانه سريعاً على مناطق مترامية الأطراف في القارات الثلاث، وهو الإسلام. ولقد كان الإسلام منذ لحظة ظهوره ديناً وحركة سياسية في آن واحد.

واصطبغت الحضارات التي تشكّلت في القرنين السادس و السابع بصبغة عقائدية واضحة للغاية(٢). بل إن الجماعات العرقية اعتمدت أحياناً على أساس مذاهب دينية، وهو أمر لم يعرف من قبل بالتقريب.

وشكلت افريقيا الداخلية التي لم تكن جزءاً من البحر المتوسّط شيئاً أشبه بالأطراف الجنوبية لعالم الشرق الأدنى والبحر المتوسط، مشاطرة في مصيره وآخذة

---

(٢) ينطبق هذا بدرجة أقل على حضارات افريقيا الغربية للعصور الوسيطة المبكّرة وآسيا الوسطى قبل الاسلام. وذلك لوجودها في الأطراف الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية للعالم التاريخي الذي نعالج الكلام عليه ها هنا. ولكنه ينطبق انطباقاً تاماً على الأقطار الواقعة بينهما.

طرفاً لم يكن في الوسع تلافيه في أحداث التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للحضارات المركزية. وهكذا انجذبت هذه الأطراف الافريقية طوعاً أو كرهاً إلى السياسة الدولية لذلك العهد. وفوق هذا استغلّت دول افريقية معّينه التنافس بين الدول الكبرى آنذاك، فتوخّت سياسة مستقلة انعكست أحياناً في مجالي التجارة والدين، بل جهدت في أن تلعب دور الوسيط بين الدول الكبرى (الرومانية البيزنطية، والساسانية، وأيضاً امبراطورية الخاروثشى بشمالي الهند وغيرها من الدول الهندية في الشمال والجنوب) وبين دول صغرى وأحلاف قبلية.

وكانت أكبر الدول الافريقية في القرنين السادس والسابع هي مملكة أكسوم، التي كانت قاعدتها الأساسية هضبة التيجرة بشمال اثيوبيا. وقد عملت هذه الدولة منذ القرنين الثالث والرابع على اخضاع القبائل النازلة بالمناطق الجبلية والسهول المحيطة بالهضبة لسلطانها بل بسطت سيادتها على جيرانها الأغنياء، مثل الجنوب العربي والسودان الشرقي أي مملكتي مروة وحمير. وفي المساحات العريضة لبلاد النوبة والصحراء الليبية والنوبة السفلى كانت تلتقي حدود النفوذ السياسي لمملكة أكسوم ولبيزنطة؛ أما ببلاد العرب الوسطى فكانت تتلاقى حدود أكسوم وبيزنطة وايران. وكانت ايران في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع قد وضعت يدها على أملاك أكسوم وبيزنطة بالقارة الأسيوية، بل إن ايران وضعت يدها على مصر، وأصبحت بهذا جارة لمملكة أكسوم في الشرق والشمال فعزلتها عن بيزنطة والدول النصرانية بأوروبا. غير أنه في بلاد العرب التي دخلت بأجمعها في دائرة نفوذ ايران، بدأت حركة الاسلام القوية التي لم تلبث أن غيّرت خارطة العالم السياسية والحضارية بشكل جذري. فظهرت إلى الوجود أبعاد لم تعهد من قبل لدولة كبرى ودين عالمي جديد غلبت على المنطقة الممتدة من المحيط الاطلنطي إلى المحيط الهندي وحدود الصين لثمانية قرون، وقطعت كل اتصال لافريقيا المدارية بأوروبا.

ولقد أجبر التوسع الايراني (ثم بالتالي دولة الإسلام) وخطر الغزو من جانب دولة أسيوية أتت بدين جديد، أجبر شعوب افريقيا الشمالية الشرقية على التقارب وتوحيد قواها العسكرية والروحية. وكان حامل اللواء الروحي لهذا

الاتحاد هو النصرانية المونوفيزية، أما الزعامة السياسية فكانت لدولة أكسوم التي كانت من قبل هذا تتطلع إلى نيل الغلبه في هذه المنطقة من العالم. غير أن ضياع بلاد العرب الوسطى والضربة القاصمة التي رمى بها الفرس والعرب تجارة عدولى في المحيط الهندي والبحر الأحمر نتج عنها إضعاف مملكة أكسوم. وبالإضافة إلى هذا فقد ظهر على حدودها الشمالية دولة المُقُرّه االتي بدأت تتطلع إلى السيادة في النيل النوبي.

أما منطقة جبال الأطلس والصحراء الكبرى، وأيضاً سواحل افريقيا الشرقية فقد كانت أكثر استقلالاً عن دول البحر المتوسط وآسيا الغربية في فترة القرن السادس إلى منتصف القرن السابع مما كان عليه الحال في العهد السابق لهذا، فيما عدا بعض قبائل البربر التي خضعت للوندال عندما وضعوا يدهم على جزء كبير من الشمال الافريقي في الفترة ٤٣٩-٥٣٤م، قبل أن ينتزعه البيزنطيون منهم.

وابتداء من الربع الأخير من القرن الخامس انفصلت القبائل البربرية الجبلية من مملكة الوندال والالان وشرعت تغير على أراضيها. وكان يتولى الحكم في موريتانيا القيصريه Mauretania Caesariensis حوالى عام ٥٠٨ ماسونا Masuna «ملك المـوز و الرومان»، الذي عيّن زعماء البربر ولاة على الولايات الرومانية السابقة. وقد شيّد ماسونا معسكرات حصينة، وجهد في الحفاظ على الحياة المدنية. وقامت في المغرب الأقصى دولة رومانية بربرية مركزها فوليوبيليس Volubilis [قرب فـاس الحالية] [37,p. 326 ; 33,p.281] . وفي الثلث الثاني من القرن السادس اعترفت هذه الدولـة بسيادة بيزنطة ، ولكن خضوعها لم يكن دائمـاً .

وفي آن واحد تحرك البدو من الصحراء، والمزراعون من المناطق الجبلية ضد السهول الساحلية. وقد قدموا مع أسرهم وجميع أمتعتهم محمّلة على ظهور إبلهم [32,p.78–79;249 , t.1 ,p.348–350] . وفي رأي بيتس O.Bates أن انتقال بربر الصحراء الشمالية إلى السهول الساحلية كان سببه جيرانهم الشرقيين ، أي

قبائل البربر بولاية طرابلس Tripolitania ، مثل المزيك Mazices والاستور Asturiani وغيرهم . فحوالي عام ٤٩١ أغار المزيك والاستور على الأملاك البيزنطية بقورينية Cyrenaica [أي برقة الحالية] ولكنهم لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فيها وجرى ردّهم في اتجاه الجنوب الغربي [143,p.238] .

وفي عام ٥٢١ ـ ٥٢٢م زحف البدو من الصحراء الليبية على الأراضي التابعة للوندال في ولاية طرابلس الحالية وفي تونس. ويصف المؤرخ البيزنطي بروقوبيوس القيسارى ، معاصر هذه الأحداث ، زعيمهم كاباون Cabaon بأنه وثني ولكنه كان « رجلاً بعيد النظر للغاية ومتمرساً في شؤون القتال » . فعندما أبلغه عيونه باقتراب خيّالة الوندال الثقيلة نظّم قواته بالطريقة الآتية، إذ «خطط دائرة في الأرض أحاطها بسياج ووضع الجمال بالعرض في شكل دائرة لحماية معسكره ، جاعلاً خطه الذي بازاء العدو في عمق اثنى عشر جملاً. ثم وضع الأطفال والنساء وكل من لا يستطيع القتال ومعهم الأمتعة في الوسط، بينما أمر مقاتلته أن يقفوا بين أقدام الجمال محتمين بدرقهم» [32, p.78-81; 249,t.I, p.,348-350] . وهو أسلوب الدفاع نفسه الذي كان يلجأ إليه بربر بيزاسيوم Byzacium [تونس الجنوبية] [249,t.I,p.472] .

ويروي الشاعر اللاتيني الافريقي للقرن السادس وهو قوريبوّس Corippus أن بربر مارماريقا Marmarica الواقعة إلى الشرق من ليبيا كانوا يلجأون إلى الطريقة نفسها لصد هجوم العدو ، وأنهم لا يضعون في الدائرة إبلهم فحسب بل الثيران أيضاً ، مقرنين رباط بعضها ببعض . وقد ورد في ما لا يقل عن عشرة مواضع من قصيدة قوريبوّس وصف لهذا الأسلوب في صدّ العدو . ويذكر قوريبوّس عن درق البربر أنها غير كبيرة الحجم ومصنوعة من جلود الحيوان ، وذلك بالطريقة نفسها التي وصفها لنا اسطرابون من قبل [104, XVII, III,7] . كذلك يصف أيضاً سيوفهم أو خناجرهم بقوله : «وهم لا يحملون كبقية المقاتلين دروعاً على الجانب وسيوفاً ضخمة، بل حلقه في الذراع يمكن بسهولة تعليق الخنجر بها». هذه الألفاظ الأخيرة تلتقي مع ألفاظ بروقوبيوس بصدد «المورالعراة» [32,p.135;249,t.I,p.392] .

وقد حفظت لنا الصخور الموجودة في جوف الصحراء العديد من الرسوم التي تصوّر مقاتلين من المشاة ومن ممتطي الإبل مسلّحين بالرماح والدرق وبسيوف قصار، وحامين أنفسهم بحلق على اذرعتهم [257,p.164,fig.7] . ولا يزال الطوارق والتبّو والقبائل الصحراوية المجاورة لهم يحملون مثل هذه الدرق والاسلحة حتى الآن [257,p.165] .

ونلتقي في قصيدة قوريبوس أيضاً بذكر لقبائل البربر النازلين في الصحراء الشمالية والمناطق الجبلية الملاصقة لها، وذلك ابتداء من واحة ورجله (وهي حالياً في الجزائر) حتى واحة جالو (بشرقي ليبيا) ، ولكن دون أن يضيف معلومات ما [295, 342,ch.II, p.77–123, 149,390, ch.IV, p.486] . غير أنه يستبين من فحوى القصيدة أن جميع هذه القبائل بدأت تحركاتها في العهد السابق لهزيمتها عام ٥٤٦ علي يد البيزنطيين .

وكانت تقوم بالمناطق التي يقطنها حالياً التبّو مملكة الغرمانطيين التي أصبحت في القرن الأول الميلادي من أملاك الامبراطورية الرومانية، ولكنها لم تتلاش داخل إطار الامبراطورية . ولا نكاد نعلم شيئاً في واقع الحال عن الوضع في مناطق الغرمانطيين السابقة في القرنين الرابع و الخامس . ولقد بيّنت الحفريات التي أجريت في مقابرهم أنه إلى القرن السادس كانت تصل إلى مواضع سكنى الغرمانطيين مختلف السلع من منطقة البحر المتوسط [204] . ويحدثنا عن الغرمانطيين في القرن السادس قزما الذي أبحر إلى الهند ، وذلك حوالي عام ٥٥٠ م . [310, p.120; 413, p.119] ؛ وأيضاً قوريبوس [342,ch. VI, p.245, 285–286] ، وأخيراً يوحنا البكلارى Johannis Biclarensis (تحت أخبار عام ٥٦٩). ووفقاً لقزما ويوحنا فإن النصرانية انتشرت بين الغرمانطيين، أما قوريبوّس فيتحدث عن مشاركة الغرمانطيين في كفاح القبائل الليبية ضد بيزنطة . ويبدو أن مملكة غرما، على الرغم من دخولها في فترة تدهور، ظلت واحدة من مراكز التجارة والنظام الحكومي في الصحراء . ولقد استمرت مدة قرن بعد ذلك حتى أخضعها العرب .

في تلك الآونة قامت ببلاد البرنو وبمنطقة بحيرة تشاد ما عرفت بحضارة

دَيْمه، التي ربما تأثرت بحضارة الغرمانطيين. أما علاقات غرما بقبائل الصحراء الشرقية فغير معروفة لنا. وفيما يتصل بالأطراف الجنوبية لدولة الغرمانطيين هذه والتي قارب محيط نفوذها الحضاري الأطراف الغربية لبلاد النوبة فإننا لا نعلم شيئاً في واقع الأمر عن الوضع بهذه المنطقة من افريقيا في الفترة من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع.

وأما فيما يتعلق بالساحل الشرقي للقارة الافريقية والجزر القريبة منه فقد ظل جزءاً لا يتجزأ من عالم افريقيا الوسطى والشرقية، الذي غلبت عليه بصورة واسعة في الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثامن حضارات لعصر حديدي كانت وثيقة الصلة ببعضها بعضاً وارتبطت عادة بانتشار شعوب البانتو. وبين المناطق التي نزلتها هذه الشعوب وبين أكسوم كانت تقوم حضارات لشعوب تتحدث بالكوشية واتصفت بالعراقة والقدم؛ وكذلك مجموعات أخرى اختلفت من حيث العرق واللغة والحضارة القومية. وأما إلى الجنوب من الصحراء وإلى الغرب من بلاد النوبة، فقد ظلت تتطور حضارات القرون الوسيطة المبكّرة في السودان الغربي والأوسط التي كانت لها صلات وثيقة بافريقيا الشمالية الشرقية قبل نفاذ التجار العرب إلى هذه المنطقة. والأطراف الجنوبية لهذه المنطقة الحضارية التاريخية والتي من الممكن تسميتها بالسودانية القديمة يمثلها القسم الأوسط من غانا الحالية حيث تم العثور على مخلّفات أثرية تكشف عن اتصالات حضارية أو تجارية مع مصر القبطية وبلاد النوبة للعصور الوسيطة المبكّرة.

والموقع النائي لأقطار افريقيا الواقعة في المنطقة الحارة ساعد في آخر الأمر على احتفاظها باستقلالها عن الامبراطوريات العالمية للقرون الوسيطة المبكّرة. غير أن هذا لا يعني أن الأفارقة ظلّوا بعيدين عن الحركة الحضارية والعقائدية لذلك العهد. ولئن حدث في الفترة السابقة لذلك أنه قلّما زجّوا بأنفسهم في الصراعات المذهبية والحركات العقائدية، إلّا أننا نبصر في القرنين السادس والسابع الاكسوميين وشطراً من النوبيين ينشرون النصرانية والمونوفيزية في افريقيا

والجزيرة العربية بنشاط بل يساندون دعوة الإسلام في زمانها الأول؛ مما ترك أثراً هاماً في تاريخ الإسلام المبكّر.

وفي القرنين السادس والسابع توقفت حضارة أكسوم النصرانية وكذلك حضارة مصر القبطية عن الازدهار؛ وأعقب ذلك ازدهار حضارة النوبة المسيحية التي عرفت منذ القرنين السادس والسابع بأنها بلاد حضارة عريقة. ولقد ربطت العلاقات التجارية والروحية أكسوم والنوبة ومصر مع أكثر الحضارات تقدماً في القرنين السادس والسابع، أي بيزنطة وغاليا واسبانيا وارمينيا وسورية وايران والهند الشمالية والجنوبية وسري لانكا. وكانت افريقيا الشمالية الشرقية آنذاك قريبة للغاية من مراكز تلك الحضارات التي برزت معالمها بانتشار ديانات عالمية كالنصرانية والبوذية؛ ومن ثم فقد لعبت هي أيضاً دوراً مهماً في تاريخ العالم في العصور الوسيطة المبكّرة.

٢ ـ النصرانية واليهودية في الجنوب العربي خلال القرن الخامس وبداية السادس

أصبحت بلاد العرب التي التقت بها دوائر نفوذ بيزنطة وايران وأكسوم في الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس مسرحاً للتنافس بين الديانات الرسمية لهذه الدول. ولقد اعتنقت قبائل العرب الشمالية النصرانية في مذاهبها المختلفة، وهي النسطورية والأرثوذكسية والمونوفيزية. أما في الجنوب العربي فإن النصارى لم يظهروا في نطاق حدود حمير قبل منتصف القرن الرابع، وذلك عندما نالت الدعوة الاريوسية التي روّج لها تاوفيلس الهندي (مبعوث امبراطور بيزنطة) نجاحاً مهماً وهي الدعوة التي يخبرنا عنها فيلوستورغ [312, t.65, p.32-34]. واما النسطورية فلم تظهر في بلاد العرب قبل عام ٤٢٠م، ولكنها بلغت جزيرة سقطرى في أقصى الجنوب. غير أن التوفيق ببلاد العرب الجنوبية كان من نصيب دعاة المونوفيزية.

وقد اعتنق النصرانية جماعات قبلية ارتبطت بتجارة البحر الأحمر (مثل الأشعـريين وفَرَسَان) ، وبتجارة القوافل مع بيزنطة المارة بمكة وببلاد العرب الشمالية نصف النصرانية (مدينة نجران إلى الشمال من مملكة حمير)[٣] . وفي بداية القرن السادس غلب النصارى على نجران وعلى المناطق الساحلية لحمير، ولكن وجدت مجموعات منفصلة منهم على ما يبدو بالمناطق الداخلية للبلاد .

وتحـدد المصـادر طرقاً مختلفة لتنصير بلاد العرب الجنوبية ، وهي (١) البعوث الرسمية التي أرسلتها حكومة نصرانية (بيزنطة) والتي قُصد بها الحكام المحليون . (٢) إدخال التجار المحليين في العقيدة ، وهم ممن كانوا يقدمون بقوافلهم إلى الأقطـار النصرانية (أو الذين أخـذوا إليها طريق البحر) . (٣) نشاط النصارى الأجانب ، بما في ذلك أولئك الذين وقعوا في أسر الأغنياء والأعيان بحمـير ونجـران . (٤) إدخـال أربـاب الأسر الكبـيرة ممن اعتنقـوا النصرانية أهل بيوتهم وأقاربهم في العقيدة الجديدة .

كما لعب الشعـراء أيضاً دوراً خاصاً في نشر النصرانية ببلاد العرب . ولسوء الحظ فإن الشعر الحميري لم يصلنا منه شيء بالكاد ، وليس بمقدورنا الحكم عليه بصورة أساسية إلاّ من أوجه الشبه بينه وبين الشعر العربي حيث تقـابلنـا القصـائد والأوزان الشعرية نفسها . ومعروف لنا مجموعة بحالها من الشعراء النصارى للعهد الجاهلي تكشف أثارهم الشعرية عن قاعدة مهمة من الأفكار المسيحية التي نفذت إلى الوعي الجماعي للعرب [100] .

هذه الأساليب نفسها في الدعوة لجأ إليها في واقع الأمر منافسو النصارى بالجـزيرة العربية وهم اليهود . فقد وجد في وسطهم أيضاً شعراء مشهورون قرضوا الشعر بالعربية . كذلك من الطبيعي افتراض وجود شعر يهودي بلغة الجنـوب العـربي القـديمة (السبئية) تنعكس فيه الدعوة إلى الأفكار الدينية والسياسية لأصحابه . ولم يكن يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام أحفاداً لليهود

(٣) تشير قرائن الأحوال إلى أن فريند W.H. Frend قد جانبه التوفيق في زعمه أن المونوفيزية والنسطورية لم تجتذبا العرب كثيراً [233, p. 285 ff.] .

المهاجرين من فلسطين إلاّ في شطر يسير منهم ،. أما الغالبية فكانت تنتمي إلى السكان الأصليين لجزيرة العرب . وكانوا منتشرين على طول طريق القوافل الممتدة من فلسطين إلى ظفار [125,p.436 i sui.] ووراء ذلك بالبحر وإلى الهند والصين التي وجد بها أيضاً منذ تلك الأزمنة جاليات يهودية في أغلب الظن [118, t.I, p.374-376] . لهذا لم يكن غريباً أن ورد ذكر اسم ظفار عاصمة الحميريين في السفر التلمودي « مدراش برشيت » [244, p. 163] . كذلك قدّمت لنا الحفريات التي أجريت في فلسطين مواد جديدة بصدد المستعمرات اليهودية بالجنوب العربي في القرنين الثاني والثالث [78 p.19,note 9] .

وتذكر لنا مصادر القرن السادس اسم شخصين من أعيان حمير كانا يدينان باليهودية ، أحدهما ملك حمير يوسف ذو نواس والآخر القائد ابن القيل (أي الأمير) حجّي ابهر - وكلاهما ينتمي إلى عشيرة ذي يزن من الأعيان . وكان الأول ابناً لأمة يهودية من أهل نصيبين [378, p. 331] ، أما الثاني (الرقيم Ry 512) فكان أيضاً ابناً لأمة [78, 28, 104, 119, note 104] . ويبدو أن أ. ج . لندين A. G. Lundin مصيبٌ في افتراضه أن الاسم التوراتي حجّى «يسمح بالجزم بالأصل العرقي لأمة» . [78, p. 123, note 125] ، أي أنها كانت يهودية أو سامرية[٤] .

أما الآثار اليهودية في الجنوب العربي فتتمثّل في الرقوم المدوّنة بالكتابة العبرية ، والمعروف لنا منها إلى اللحظة اثنان فقط . أحدهما ترجمة لرقيم حميري تم العثور عليه قرب ظفار في عام ١٩٦٩م [234] ، والثاني فقرة من متن « المراتب الكهنوتية الأربعة والعشرين » تم الكشف عنها عام ١٩٧١م بقرية بيت خدر قريباً من صنعاء على يد المستشرق السوفييتي پ . أ . غريازنيڤتش P. A. Griaznevich . وهذا الرقيم يقف شاهداً على وجود معبد يهودي كانت تعقد فيه الخدمات الدينية بانتظام .

(٤) لا بد أن سبي اليهود والسامرة من فلسطين ببلاد العرب عقب قمع ثورة السامرة الأولى عام ٤٨٦ . ولنضيف أنه عند قمع ثورة السامرة الثانية (والتي شارك فيها اليهود) عام ٥٢٩ - ٥٣٠ سيق إلى بلاد العرب عشرون ألفاً من الجواري والغلمان والشبان وبيعوا بجميع البلاد إلى حدود إيران و«الهند» (أي اليمن) [210, p. 446-477]

أما أولى الرقوم اليهودية المدوّنة باللغة العربية الجنوبية فلا تتجاوز بداية القرن الخامس . وهي تقف شاهداً على وجود جماعات يهودية حميرية كانت تتحدث بلغة الجنوب العربي وتدين باليهودية ، لكن أصولها العرقية مختلطة على الأقل في قسم كبير منها . ولقد دلّ أ. ج. لندين بطريقة مقنعة على بطلان الرأي المنتشر في الرواية العربية المتواترة وإلى حد ما في المؤلفات الأجنبية الذي يقول بأن آخر أسرة مالكة بحمير (من نهاية القرن الرابع إلى بداية القرن السادس) كانت يهودية برمّتها [78, p. 117] . على أن اليهودية أصبحت عقيدة شطر معيّن من المجتمع الحميري ، شمل طبقة أعيان العشائر التي كانت مختلطة الأصول أو من أصل محلي خالص أحياناً .

ولقد بدّل هذا بصورة حادّة من الطابع التقليدي للديانة اليهودية ، فأصبحت ديناً من أديان الدعوة وكسبت لنفسها أتباعاً في وسط السكان المحليين ممن كانت تربطهم صلة الرحم بالطبقة الرفيعة من الحميريين اليهود . وعلى عهد الملك ذي نواس (٥١٧ - ٥٢٥م) أصبحت اليهودية الديانة الغالبة بحمير وجرى تثبيتها قسراً وذلك بالطريقة نفسها التي حدثت مع النصرانية بأراضي الدولة البيزنطية . ومن الطبيعي أن يكون الحميريون اليهود ، شأنهم شأن بقية اليهود بالجنوب العربي وإخوتهم في الدين بالشمال ، قد اتخذوا موقفاً في السياسة الخارجية يعكس عداءهم الشديد للبيزنطيين ومناصرتهم لايران ، وخاصة أن الساسانيين على وجه العموم وقفوا موقف التسامح من اليهودية . غير أنه من العسير أن نستنتج من هذا أنه ببلاد العرب « أصبحت اليهودية عقيدة الدوائر المهتمة بتنمية العلاقات الاقتصادية والسياسية مع ايران » [78, p. 119] أو المرتبطة بالتجارة بين حمير وايران [94,p .266,277;396, p.215,223] . ولعل ي . هرماتا J. Harmatta كان أقرب إلى الحذر في افتراضه أن « الروابط الدينية لم تكن هي الوحيدة التي انضمت إلى الروابط الاقتصادية والتجارية ؛ بل إن انتشار النصرانية وتدعّم كلمتها نتج عنه ازدياد حدة التوتر والخلاف المستمر بين اليهود العرب الدائرين في فلك الحيرة (مملكة اللخميين) ومن ورائها ايران الساسانية من جهة ، وبين النصارى الذين كانوا يدورون في فلك الدولة

البيزنطية من الجهة الاخرى » [246, p. 101] . ولكن يجدر التذكير في هذا الصدد بأن الحيرة نفسها لم تكن دولة يهودية (وإن وجد فيها يهود) بل نصف نصرانية ذات روابط وثيقة ببلاد النصارى السريان . وكانت تجارة القوافل القادمة من الولايات السريانية والايرانية للدولة الساسانية والتي كانت تمر بالحيرة واليمامة ونجد في الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس في يد النصارى في المكانة الأولى ، أي النصارى من النساطرة والمونوفيزيين ؛ ولا علم لنا البتة بوجود ملاحة لليهود في الخليج الفارسي أو خليج عدن . أما فيما يتصل بطريق القوافل الذي يخترق الحجاز فلم يمر بمنازل يهودية فحسب بل بمنازل نصرانية كذلك ، وكان لا يؤدي إلى ايران بل إلى أملاك الدولة البيزنطية .

ويلوح أنه كان للنصارى بجزيرة العرب في الفترة من نهاية القرن الرابع إلى بداية القرن السادس الغلبة في محيط الاتصال بالعالم الخارجي وبالذات ببيزنطة وايران واثيوبيا ، وأنهم قادوا هجوماً مكثّفاً على وضع الجاليات اليهودية . وابتداء من منتصف القرن الرابع وذلك على عهد الامبراطور البيزنطي قسطانس الثاني ، شيّدت البيع بظفار وعدن ، وقدّمت بيزنطة الإمكانيات لبنائها [147, p.92; 94, p.74-75; 346, p.73-74] . وفي عام ٤٨٥م وجدت بحمير أبرشية للنساطرة من السريان الشرقيين [140, p.410] . ويمكن الاعتقاد بأنه قرابة القرن السادس ظهر أيضاً عنصر محلي وسط الجاليات النسطورية بالجنوب العربي يتكونّ في الأساس من أناس من أصل مختلط سرياني بعربي جنوبي ؛ ومن الممكن أن انضاف إليه جماعة من أهل البلاد ممن اعتنقوا النسطورية . واستنتاجاً من جميع الملابسات فإنه ليس بالامكان مقارنته بالحميريين اليهود ، سواء من حيث العدد أو من حيث النفوذ . وفي هذا على ما يبدو تكمن الإجابة على سؤال مفاده لماذا أصبحت اليهودية بالذات وليست النسطورية هي عقيدة شطر من أعيان حمير اتخذ موقف العداء من بيزنطة وأكسوم ؟ .

ومن المستحيل التقليل من أهمية العامل السياسي الخارجي للمسألة ،

فعلى الرغم من أن السكان الأصليين لبلاد العرب الجنوبية لم يكن من شأنهم أن يجهلوا حقيقة الانشقاقات العقائدية التي اخترمت النصرانية ، إلّا أنهم بالكاد أولوها ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه إياها السريان مثلاً . وأهمية كبرى بالنسبة لطبقات الأعيان بأقطار البحر الأحمر المستقلة (عن بيزنطة) نالها الاتجاه السياسي لإحدى الطوائف النصرانية أو الأخرى. وفي هذا الصدد ارتبطت النسطورية ارتباطاً وثيقاً بامبراطورية الساسانيين، فهل كان بمقدورها في مثل هذه الظروف أن تصبح لواء عقائدياً تقاتل تحته طبقة الأعيان بحمير التي كانت تجهد في الحفاظ على استقلال البلاد؟ أضف إلى هذا أن المنافسة الحادّة بين الطوائف النصرانية نفسها أضعفها جميعاً وحطّ من قدرها في أعين الصفوة المحلية . وعلى نقيض هذا كانت اليهودية في أعينهم ديناً أكثر أصالة من النسطورية حتى وإن كانت «مناصرة للساسانين» ؛ هذا بجانب قربها من عدد كبير من العبادات التقليدية لقبائل العرب الجنوبية .

أخيراً فإن أهمية المكانة الأولى يجب أن تنالها الجوانب السياسية الداخلية للمسألة ؛ مثل العلاقات ما بين العشائر المختلفة لطبقة الأعيان الحميرية، ثم مابين الحميريين ككل والجماعات العرقية الخاضعة لهم . وانتشار النصرانية بين هؤلاء الأخيرين حقيقة لا يرقى الشك إليها . لذا فإنه من المقبول الافتراض بأن هذا الدين كان بإمكانه أن يصبح اللواء العقائدي الذي التفّوا حوله للوقوف في وجه الحميريين، فضلاً عن كونه أداة لدمج هذه المجموعات الممزّقة التي تنتمي إلى أصول مختلفة تنزل على حدود مملكة حمير، وذلك في كفاحها ضد الحكومة المركزية والمجموعة العرقية المسيطرة بحمير.

أضف إلى هذا أننا نعلم القليل جداً مما يتعلق بالأساليب التي انتشرت بها اليهودية والنسطورية في وسط أعيان حمير. فمثلاً بخلاف ذكر الأمتين اليهوديتين اللتين ولدتا أطفالاً لأقيال حميريين، لا علم لنا البتة بدور النساء والذي كان على الدوام كبيراً في إدخال الصفوة في العقيدة الجديدة أي اليهودية . وبالمقارنة مع الدول الأخرى لذلك العهد فمن الممكن أن نفترض أن أهمية كبرى

في تدعيم وضـع هذا الـدين أو ذاك كانت منوطة بالعقيدة التي اعتنقها نساء الملوك. ففي ايران مثلاً كان ارتفاع شأن الزوجة المفضّلة لدى الشاه بالبلاط، يهودية كانت أو نسطورية أو مونوفيزية أو من أتباع العقائد الأخرى ـ قد يصحبه ارتفـاع شأن الجالية التي تدين بعقيدتها على حساب الجاليات الأخرى. وفي الصين في عهد أسرة التانج لعب اعتناق زوجات الأباطرة للبوذية أو النسطورية أو غيرها دوراً مماثلاً. فهل حدث شيء من هذا القبيل بحمير أيضاً؟

كان النصارى بالجنوب العربي في بداية القرن السادس أكثر عدداً من اليهود فيما يبدو وإن كانوا أقل عدداً من أتباع الديانات المتعدّدة الآلهة ـ من عبدة النجوم والطقوس الزراعية أو حتى الديانات الوحدانية المبهمة(٥). ولا بد أن عدد النصـارى قد تزايد نتيجـة لتـدفق الـلاجئـين من ايران، حين حدثت اضطهادات كبرى لأتباع النصرانية بعد عام ٥٠٢.

وفي الأعوام التالية للهدنة بين بيزنطة وايران التي عُقدت في عام ٥٠٦ وضـع النصـارى بحمير يدهم على السلطة العليا، وعاونت على هذا ظروف الأحـوال السياسية بين الـدولتـين الكـبريين؛ فقـد قيّد من يد ايران المشاكل الداخلية مثل ارتفاع شأن الحركة المزدكية من جديد. أما في الجزيرة العربية فقد تجدّد النـزاع بين دولتي كنـدة واللخميين. وفي حمير حدث أن تغـيّرت الأسرة الحاكمة والاتجاه السياسي في وقت واحد، إذ رفع الأكسوميون بمساندة النصارى المحليين والقبائل النصرانية النازلـة حول حمير، إلى العرش معد يكرب يعفر الذي لم يكن أبوه ملكاً (ولا يخلو من مغزى أن معديكرب ويوسف الذي حل محله، لا يذكران اسمي أبويهما في رقيميهما Ry 510). ووفقاً لرأي أ. ج. لندين فإن الرواية العربية المتواترة عرفت ذلك الملك الحميري باسم معديكرب ذي يزن [78,p.87,88] . فإن كان الأمـر كذلك فإن معديكرب كان ينتمي إذن إلى عشيرة ذي يزن المرموقة وكان أول ملوك أسرة ذي يزن بحمير.

---

(٥) تشكّل تحت تأثير اليهودية والنصرانية دين وحداني ببلاد العرب نسيج وحده، هو الايمان بالرحمن «رب السموات والأرض» [78,p.117-119]

وتوكّد المصادر السريانية علاقة هذا الملك الذي تدعوه معد يكرم ومعد يكرب بالعرب النصارى من أهل نجران الذين عاونوه مالياً، فقد أقرضته سيدة نصرانية من أعيان نجران تدعى رحيم [رومي] اثني عشر الف دينار [329, p.43b –44a ; 383, p.60,94] . ومن المرجح أنه على عهد حكم معد يكرب بالذات أرسل انسطاس امبراطور بيزنطة (٤٩١ - ٥١٩) أسقفاً إلى الحميريين [155, p.322] . كما وجد منذئذ بنجران أسقف مونوفيزي من أهل البلاد يدعى بولص الأول [383, p.46] .

ووجود أبرشيتين على الأقل وعدد من البيع للمونوفيزيين بمختلف مناطق الدولة (حضرموت ، أشعران ، مخوانه ، سبأ مدينة مأرب) يقف شاهداً على تنصرّ مملكة الحميريين تحت حماية الحاكم الذي نصّبه الاثيوبيون المونوفيزيون على العرش . ومما يوكّد هذا أن مبعوث معد يكرب إلى اللخميين بالحيرة كان على صلة وثيقة بالنصارى [239, p.20] . ويعد يوحنا الأفسوسي معد يكرب هذا نصرانياً يتمتع بحماية اثيوبيا . ويعتمد يوحنا الافسوسي على «الرسالة» الثانية لشمعون الأرشمى ليعرض لنا روايته بصدد المكتوب الذي أرسل به ملك حمير اليهودي ذو نواس إلى المنذر الثالث ملك الحيرة والذي يقول فيه : «ولتعلم أن الملك الذي نصبه الكوشيون (الأكسوميون) ببلادنا قد مات وجاء في وقت الشتاء فلم يعد بمقدور الكوشيين العبور إلى بلادنا لتنصيب ملك نصراني كما جرت العادة » [177, p. 58] .

والإشارة إلى فصل الشتاء فيها تلميح إلى نظام الملاحة بالبحر الأحمر آنذاك، التي كانت تنشط في الربيع والصيف ببداية الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فتسمح للسفن بالإبحار من الساحل الاثيوبي إلى الساحل العربي. أما في الشتاء فقد كان هذا أمراً مستحيلاً (انظر ما يلي). أما الألفاظ «كما جرت العادة» فليست لها علاقة بنظام الملاحة فحسب، بل ترتبط إلى حد كبير بالعلاقات السياسية بين اكسوم وحمير أيضاً. على أن الألفاظ «كما جرت العادة» لا وجود لها في أصل رسالة شمعون [239, p.14] . وقد جذب الانتباه إلى هذا منذ وقت طويل أولئك الباحثون الذين كانوا محقّين في ارتيابهم في صحة أقوال

يوحنا الافسوسي هذه. لأن الرواية المتعلقة بتبعية حمير سياسياً لأثيوبيا أضافها يوحنا الافسوسي من عنده، وذلك على الارجح بسبب جنوحه إلى المبالغة وعدم التزامه الحياد في أقواله وعلى كل فإن رقوم الملكين مرثديل ومعديكرب لا تقدّم دليلاً ما على تبعيتهما لاكسوم.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد لملوك اكسوم في واقع الأمر ادّعاء بالسيادة على بلاد العرب الجنوبية. فمعديكرب بوصفه نصرانياً اضطر إلى التحالف مع بيزنطة وأكسوم، قابلاً دور الشريك الأصغر. وكان مما اضطره إلى هذا التحالف أنه، وفقاً للتقاليد المتّبعة في وراثة العرش، عُـدّ مغتصباً. ولا يخلو من مغزى أن أحد الأقيال ممن ولدوا في زمن حكم معديكرب كان يحمل اسم اكسوم ذا معاهر مما يقف شاهداً آخر على وجود نفوذ اكسومي بحمير في زمن معديكرب.

ومهما يكن من شيء فلا ينبغي المبالغة في القول بامتداد سلطان ملوك اكسوم وراء حدود اثيوبيا الشمالية، وبالذات في وادي النيل في بلاد النوبة وبلاد البجا، أو الجنوب العربي. وأغلب الظن أن المسألة تتعلق فقط بادعاء اكسوم السيادة على هذه الأقطار، وأقل من ذلك بكثير اعتراف تلك الأقطار بالتبعية السياسية لها. وكان فقط على عهد أقوى حكامها أن جهدت اكسوم في واقع الأمر لتحقيق ادعاءاتها. أما ملوك اكسوم لبداية القرن السادس فقد حصلوا بالكاد على سيطرة حقيقية خارج حدود اثيوبيا الشمالية: وعلى أحسن الأحوال مدّوا نطاق نفوذهم السياسي على بلاد العرب الجنوبية وبلاد النوبة. هذا وقد دعّم اعتلاء ملك نصراني العرش في الجنوب العربي ارتباط هذه البلاد بكل من اكسوم وبيزنطة.

ولم يكن من شأن ملك اللخميين الـذي كان على رأس القوة المعارضة لبيزنطة بالجزيرة العربية ويعترف بالتبعيّة لايران أن يرحب بهذا الاتجاه السياسي لكبرى الدويلات العربية. لذا فإنه اتخذ على ما يبدو موقفاً معادياً من معديكرب بوصفه مغتصباً للعرش وعدواً لحلفائه من الفرس واليهود. غير أن التناقضات بين الملكين العربيين اللذين فصلت بين أملاكهما/ المساحات الشاسعة لبلاد

العرب الوسطى لم تكن بدرجة من العداء لتحول دون حدوث وفاق بينهما. وحملة اللخميين بالجنوب جاءت بطبيعة الحال في مصلحة المجموعة المناصرة لليهودية بحمير؛ غير أن نجاح جند معديكرب واتفاقية الصلح التي عقدها مع المنذر (والتي يرد الحديث بصددها في الرقيم Ry 510) أعادت الحال إلى ما كانت عليه (status quo) وحرمت اكسوم من ذريعة التدخل في بلاد العرب.

على أن الأحداث التالية اضطرت الاكسوميين إلى التدخل بصورة أكثر فاعلية في شؤون البلاد و إلى بسط سيطرتهم على حمير. وكانت هذه هي نقطة البداية للحروب الاثيوبية بجزيرة العرب والتي انتهت بوضع الفرس يدهم على الجنوب العربي واختفاء مملكة حمير وتهافت النفوذ الاكسومي في الأقطار المجاورة.

٣ ـ حدوث انقلاب في حمير عام ٥١٧ وحملة الاثيوبيين على البلاد

فقد ملك حمير معديكرب في عام ٥١٧ عرشه وحياته. فقد انتزع العرش منه ممثل عشيرة ذي يزن الارستقراطية (وربما كانت تربطه به صلة الرحم) الذي كان في الوقت ذاته على ما يبدو حفيداً للملك أبي كرب أسعد وابناً لأمة يهودية أصلها من نصيبين. ومن الممكن أن المغتصب عدّ نفسه وقتاً ما نصرانياً [383,p.266-268] ؛ كذلك من المحتمل أنه كان يهودياً في طفولته وترعرع في ذلك الدين. وسواء أكان هذا أو ذاك، فقد حمل الاسم اليهودي - النصراني يوسف وجعل من اليهودية الديانة الرسمية لحمير ووفقاً لأسس العقيدة اليهودية فقد عدّ نفسه يهودياً، وإن ظلّ في أعين الحميريين ابن جلدتهم وممثل طبقة الأعيان الحميريين القديمة الجذور؛ بل إن عرب نجران لم ينازعوه من حيث المبدأ حقه في العرش. وكما هو الشأن مع أعيان حمير فقد حمل الملك يوسف عدداً من الأسماء والألقاب. فالرقوم المحلية تدعوه يوسف شراحيل عرب اسار يسار؛ أما المصادر السريانية و الأخبار العربية المتواترة (والاثنان على لسان عرب

نجران وغيرهم من القبائل العربية) فتدعوه يوسف مسروق ذا نواس. واللقب الأخير نلتقي به في صورة مغايرة بعض الشيء في المصادر اليونانية والاثيوبية التي لا تربط بينها أزمنة الأحداث.

والمصادر السريانية التي تعكس لنا رواية النجرانيين والغساسنة تشهد بصورة لا تقبل النقض على أنه لاحادث انتزاع العرش ولا حادث الدعوة إلى اليهودية كانا بأية حال من الأحوال هما السبب الجوهري في توتر العلاقات بين يوسف ذي نواس والنصارى، سواء من رعاياه أو من الأجانب. غير أن العملية في حد ذاتها ساقت إلى تغيير حاد في الاتجاه السياسي لمملكة حمير. حقاً إن اليهودية المضطهدة في بيزنطة والتي تمتعت بالتسامح في ايران ربطت الملك الجديد بالاتجاه الساساني كضرب لإحلال التوازن مع النفوذ البيزنطي؛ أما داخل بلاده فقد كانت سياسة يوسف موجّهة ضد فئة من أعيان الجنوب العربي جمعت ثروة لا يستهان بها من المتاجرة مع اثيوبيا/ وبيزنطة واعتنقت النصرانية. ونظراً لأن قاعدة هذه الفئة من الأعيان كانت مناطق الأطراف التي تقطنها جماعات غير حميرية، فقد بدا هذا في أعين القبائل العربية وكأنه نزاع عنصري بين الحميريين واليهود من ناحية وعرب نجران وسكان تهامة سمر الألوان وأهل حضرموت من ناحية أخرى. أما في أعين الاكسوميين والسريان فقد كان يعني مجرد اعتداء من طرف الحميريين على النصارى العرب.

وبخلاف هذا تعرّض التجار من البيزنطيين والغساسنة والاثيوبيين للنهب والفتك بحياتهم في خضم الأحداث التي كان مسرحها آنذاك الجنوب العربي، وتحكى لنا المصادر السريانية واليونانية كما جاءت في رواية يوحنا الانطاكي وديونيزيوس المنحول Pseudo-Dionysius (وفقاً لرواية يوحنا الافسوسي) ويوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي - وذلك في عبارات متقاربة للغاية - عن مصارع التجار البيزنطيين ونهبهم على يد ملك حمير اليهودي؛ مما ألحق أذى بالمصالح التجارية لاكسوم وغيرها من الدول وكان هذا في حد ذاته انعكاساً للعداء تجاه بيزنطة واكسوم والدول النصرانية العربية. وإلى جانب الخسائر السياسية

تعـرضّت اكسوم أيضاً لخسائر اقتصادية فادحة ، لأن ذا نواس « عطلّ تجارة عدولى ومكوسها » . لكل هذا سارع نصارى الجنوب العربي بطلب العون من اكسـوم ، فسـافـر توما اسقف نجران إلى اثيوبيا برجاء للاكسوميين من أجل التـدخل ضد ذي نواس واعداً إياهـم دون شك بتعضيد السكان المحليين ، خاصة النصارى الذين كان يتحدث باسمهم . وقد كرّس « كتاب الحميريين » فصلاً خاصاً لهذه السفارة ، ولكن لم يُحفظ من هذا الفصل سوى عنوانه وهـو « حكـايـة مجيء الأسقف تومـا إلى الحبش وإبـلاغهم اضـطهـاد الحميريين للنصارى » [229,p.36] .

وتحرك ملك اكسوم سريعاً. فما كادت تبدأ الرياح الموسمية الملائمة في مايو ـ يونيو ٥١٧ حتى عبر الاكسوميون البحر ونزلوا بالساحل العربي لليمن بناحية مخوان [المخا] [78,p.32] . واتفاقـاً مع رأي عرفان شهيد فقد شارك معهم في الحملة أيضـاً العرب الغساسنة من فلسطين ممن اعتنقـوا المونوفيزية [383, p.147- 148,152] . ولم تكن سيطرة ذي نواس قد توطدت بقدر كاف يسمح له بابداء مقاومة جادّة ، بل إنه كما يفترض أ. ج. لندين لم يكن « تم الاعـتراف به بعـدُ في جميع منـاطق الجنوب العربي » [78, p.33] . واحتل الاكسوميون ظفار عاصمة مملكة الحميريين ، وبهذا أزاحوا الملك يوسف عن العـرش . وهـرب يوسف ذو نواس إلى الجبال [305, p.722] بعد أن أفلت بصعوبة من الجند الاثيوبيين عندما أخفاه أحد التجار من الحيرة [383, p.56] ؛ ولعل هذا الأخير كان نسطورياً من حيث العقيدة . ولم يلبث الجنوب العربي بأجمعه أن خضع لسلطان اكسوم .

وثمة سؤال مؤداه من الذي كان على رأس الاكسوميين في هذه الحملة؟ يقول « استشهاد الحارث » إنه كان إلا أصبحه [305, p.722] ، ولكن وصف الوقائع المتصلة بالحملة الأولى يسوده بصورة عامة الاضطراب في ذلك المصدر. فمثلا يرد في محل يوسطين الأول معاصر إلا أصبحه اسم الامبراطور الروماني يوسطنيان. كما أن تاريخ الحملة نفسها يرد مغلوطاً على أنه العام الخامس من

حكم يوسطنيان وهو عام ٨٣٥ وفقاً للتقويم الانطاكي [305, p.721] الذي يوافق عام ٥٢٢ للميلاد ؛ هذا على حين تشهد الرقوم العربية الجنوبية بأن أول حملة للأكسوميين على حمير جرت عام ٥١٧ [78, p.32] . وهذا العام الذي اقترحه لأول مرة أ. ج. لندين [76] وجد التعضيد لدى ج. ريكمانس [369] ، ثم بالتالي في بحوث عرفان شهيد [383] و ب. ديڤو P. Devos [206] وفان اسبروك [222] التي اعتمدت على المصادر السريانية وبعض روايات «استشهاد الحارث».

ولم يحفظ لنا « كتاب الحميريين » وصف الحملة ، ولكن تبقى عنوان الفصل المتعلق بها وهو «حكاية مجيء ح ي و ن ء والكوشيين في المرة الأولى» [229, p.3.Cl] . هذا الاسم يقترح التهايم F. Altheim واشتيل R. Stiehl قراءته حيونه وفقاً للقواعد الصوتية للغة الاثيوبية ، أسوة بما عليه الحال مع اسم عيزنه [124T, p.304; 125, p. 439–444]. وهما يريان أن عيزنه ليس سوى إلا أصبحه نفسه [124B, p.236]. غير أن عرفان شهيد يفترض أن عيزنه (أو على الأصح مدّون الرقوم المنسوبة إلى ذلك الملك) وكالب (إلا أصبحه) و ح ي و ن ء واندوج[٦] جميعهم شخص واحد [383, p.259–260]. وبخلاف هذا لا ترد تفاصيل ما بصدد ح ي و ن ء هذا «في كتاب الحميريين». فمن كان هذا الشخص؟ من العسير القول بأن ظهور هذا الاسم مبعثه إلى خطأ في الكتابة. فالناسخ لم يكن بمقدوره تشويه اسم الملك كالب إلا أصبحه بهذا القدر، وخاصة أن اسمه وردغير مرة في أقسام أخرى من الكتاب وفي المصادر التي تنتمي إلى الوسط نفسه. إذن فإن ح ي و ن ء هذا ليس بكالب بل ملك أو قائد اكسومي آخر. فإن جاز الرأي الأول، فإن الأمر يتعلق إذن بسلف كالب على العرش. ونتيجة لهذا فإن إلا أصبحه لم يعتل العرش إلّا بعد عام ٥١٧ ـ ٥١٨ . وهذا الرأي توكّده إلى حد ما ألفاظ قزما الذي أبحر إلى الهند، فهو يقول إنه عند

(٦) تقدم لنا بعض المصادر السريانية والبيزنطية (يوحنا الافسوسي، يوحنا ملاله، ثيوفان البيزنطي إلخ) اسماً مخالفاً للملك اكسوم الذي اضطلع بالحملة ضد اليهود الحميرين، وذلك في صورة اندوج، ايدوج، اندس، ادد وغيرها.

زيارته لاكسوم « قبل خمسة وعشرين عامــاً من أيامنا هذه » (وترتفع روايته إلى عـــام ٥٥٠) لم يكن الملك إلا أصبحــه الـــذي كان يعـــدّ لحملتــه على الحمـيريين (وبحسب رأينا فـإن الأمر يتعلق بحملة ٥٢٥) قـد تجــاوز بالكاد عمر الشبــاب [413,p.319] . وفي هذه الحال فقد كان في عام ٥١٧ يصغر عن ذلك بثمانية أعوام ؛ أي أنه كان صبياً بمعنى الكلمة .

والاسم ح ي و ن ء يذكّر كثيراً باسم إلّا أحيوه الوارد في «قوائم ملوك اكسوم» (الرواية «ج») ؛ وهو السلف المباشر لابرهة وإلّا أصبحه . وقد حكم إلا أحيوه على ما يقال عامين أو ثلاثة على الأكثر [195, p.292] . بيد أن سكة إلا أصبحــه ورقيمه الذي تم الكشف عنه باكسوم منذ أمد غير بعيد تعطى اسماً مغايراً لأبيه ـ وهو تازنه أو تزنه [376, p.773] ، المعروف أيضــاً من قوائم الملوك [195, p.272, 281, 294, 295] . غير أنه لم يحفظ لنا شيء من سكة هــذا الملك الأخير ؛ مما يمكن الاستقراء منه أنـــه لم يحكم طويـلاً . وواقع الأمــر أن قوائم الملوك تبـــينّ أن تازنه والد إلا أصبحه لم يحكم اكسوم لأكـــثر من عامـــين [195, p.294, 295] . فهل من الممكن أن يكون تازنه وإلا أحيوه هما حيونه هذا؟ وأن الأسماء الثلاثة إنما تتعلق بهذا الملك الاثيوبي الذي لم يحكم أكثر من عامين أو ثلاثة؟ هذا الرأي الذي أفصحتُ عنه لأول مرة في عام ١٩٦٤ [53 a, p. 5] ثم فيما بعد في ١٩٦٦ [54 p.78–79] ، اعترف عرفان شهيد باحتمال صحته [383, p.260] ؛ ذلك أن عرفان شهيد خلال محاولاته للكشف عن هوية ح ي و ن ء أُضطر إلى اطراح عدد من الاحتمالات الأخرى لضعفها [383, p.146, note 1] .

وأيّــاً كان الشخص الذي قاد الاكسوميين فإنه لم يعبأ بأن ينصّب ملكاً جديداً ؛ إذ لم يتعرضّ أي مصدر من المصادر للكلام عن ذلك . والسبب في هذا أن يوسف كان لا يزال في عداد الأحياء ؛ ووفقاً للمفهوم الاثيوبي فإن الملك كان بالإمكان قتله ولكن ليس حرمانه من العرش وهو حيّ ؛ وبالتالي فقد ظل يوسف ذو نواس « ملكاً طريداً » وكانت هذه من هفوات الاثيوبيين السياسية .

وفي شتاء عام ٥١٧ اغتنم الاكسوميون ريحاً مواتية فأعادوا قسماً من جندهم إلى أرض الوطن، تاركين في ظفار وحدة بين خمسمائة وستمائة من المقاتلين. وهناك كان الاثيوبيون قد ابتنوا بيعة لأنفسهم (أو أعادوا تعمير بيعة قديمة) [329, p.CI, CV; 383, p.44] . ويضيف « استشهاد الحارث » أن وحدة من الاثيوبيين تركت في نجران أيضاً [305, p.722] . غير أن المصادر الأخرى الأجدر بالثقة لا تسند هذا الزعم . ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد بصورة خاصة تفاصيل وردت بالرقوم الحميرية لذلك العهد تتعلق باستئصال شأفة الاثيوبيين بظفار وما لحق من عقاب صارم بالنصارى من أهل البلاد الأصليين وذلك بتهامة ونجران، وإن كانت هذه التفاصل لا تتحدث عن مصارع الاكسوميين في نجران أو غيرها من مدن بلاد العرب باستثناء ظفار. وما كان لشمعون الأرشمي بل ومؤلف «استشهاد الحارث» أن يغضّا الطرف عن ذكر مصارع الاثيوبيين في نجران ـ لأن منطق الأشياء يحتّم بداية القمع على يد اليهود الحميريين بذلك الحادث لو وجدت فعلاً في نجران وحدة من الاثيوبيين آنذاك . غير أنهما لا ينبسان ببنت شفة عن مصارع للجند الاثيوبيين وأسرهم مع بقية النجرانيين. ولا يتحدث شمعون الأرشمي إلاّ عن استشهاد الشمّاس الاثيوبي يوحنا ومصرعه مع بقية القسس والشمامسة في مدينة الشهداء [383, p.64; 329, p.14 b, CX] . أضف إلى ذلك أنه من المستبعد أن يكون ملك اكسوم قد أنزل جنده في مدينة تجارية صديقة كما لو كانت مركزاً لمقاطعة معادية ومتمرّدة .

وغير معلوم لنا على وجه الدقة ما الذي كان عليه الوضع الاجتماعي للجند الاثيوبيين في عاصمة حمير، وإن كان من غير المشكوك فيه أنهم شكّلوا عبئاً ثقيلاً للسكان المحليين. وهو أمر من شأنه أن يثير شعور السخط ضد المحتلين لدى شطر من المواطنين ومن الفلاحين النازلين حول المدينة. وعلى الرغم من عدم حدوث اضطهادات دينية فإن عدداً من الجماعات المحايدة وغير المستقرة من الوثنيين والنساطرة مالت الآن إلى جانب ذي نواس، في حين أخفق الاكسوميون بسبب الرياح الموسمية الشتوية في ارسال الامداد من الساحل الافريقي إلى بلاد العرب.

٤ ـ انهيار سلطان الاكسوميين
وعودة السلطة إلى ذي نواس

جمع يوسف جنـد أقيال حمير والجماعات اليهودية ليستغل الوضع الذي تحوّل إلى مصلحته كي يسترد العاصمة والمناطق التي انتفضت على الاثيوبيين. ثم قررّ العمـل بهمّـة، فأرسل يستنفر أنصاره بجميع أنحاء مملكة حمير وظهر بجميع قواته العسكرية أمام ظفار.

ويرى أ. ج. لندين أنه « كان بالمدينة جالية نصرانية ذات بال ، أبدت ليوسف مقاومة عنيدة » [78, p.34]. غير أن الرقوم والمصادر التاريخية («كتاب الحميريين» و «رسائل» شمعون الأرشمي وغيرها) التي تحكي عن الاعدامات والمـذبحـة التي جرت بنجران، وأيضاً بمخوانه وحضرموت وغيرها من أنحاء الجنوب العربي، لا تنبس ببنت شفة عن تقتيل لسكان ظفار او قمع لهم. ذلك أن حدوث مذابح وسط سكان عاصمة حمير، باستثناء استئصال شأفة الحامية الاثيوبية وحدها، كان لا بد أن تنوّه به المصادر ؛ وإذا لم تنوه به الرقوم فعلى الأقل المصادر الإخبارية السريانية.

ورغم وجود عدد ليس بالضيئل من النصارى في ظفار ، فإن السكان جميعهم عانـوا من وطـأة الاحتلال الاثيوبي بحيث يصعب القول بأنهم كانوا متّحدي الكلمة أو مجمعين في عدائهم لذي نواس. ولا بد أن هذا الوضع فتّ كثيراً في عضد الاثيوبيين وفي عزمهم على المقاومة.

وعلى الرغم من هذا فلم يكن ذو نواس في وضع يسمح له باقتحام ظفار عنوة، أو أنه لم يجرؤ على ذلك. ولكنه قدّر أن الاكسوميين أنفسهم كانوا يتوقون للعودة إلى وطنهم ومغادرة بلاد أجنبية ومعادية، لذا فقد وجّه إلى ظفار بمكتوب يعرض فيه على الاثيوبيين الأمان إذا ما غادروا المدينة [329, p.CV; 383, p.44] «وقطع لهم عهداً بإرسالهم سالمين إلى ملك الكوشيين» [383, p.44].

وكان قائد الاثيوبيين بظفار هو في ذات الوقت قسّهم الأكبر ويدعي وفقاً «لكتاب الحميريين» و «رسالة» شمعون الأرشمي الثالثة هكذا: ءق ءق و ت

ويجب نطق هذا الاسم باللغة الجعزية على أنه «أبّا أبويت»، أي «أبو الآباء» (وأغلب الظن أنه لقب اكسومي غير معروف من مصادر أخرى). غير أن أبّا ابـويت هذا وقـع ضحية لخدعة قاسية. ووفقاً لقول «كتاب الحميريين» فإنه «عندما تسلّم الاثيوبيون مكتوبه (أي مكتوب يوسف) إليهم، واستمعوا بجانب هذا إلى كلام مبعوثيه يوكّدون عهده الذي قطعه صدّقوه ببساطة قلوبهم وخرجوا إليه؛ أي قائدهم الذي يدعى أبّا ابويت ومعه ثلثمائة رجل» [329, p.CV]. فلما تسلّمـوا مكتوباً بعهده، خرجوا إليه وهم ثلثمائه ومعهم قس الكوشيين الأكبر الـذي يدعىٰ أبّـا ابويت. فما كان من ذلك اليهودي إلاّ أن استقبلهم بحنق وقسمهم بين قادته وقال لهم: «ليقتل كل منكم الكوشي النازل عنده». وكان في تلك الليلة عند بزوغ الفجر أن قتلوا عن آخرهم وكدّست أجسادهم بعضها فوق بعض» [383, p.44; cf329, p.CV]. كذلك تحكي عن هذه المذبحة الأخبار العربية المتواترة.

أمـا الاثيوبيون الذين بقوا بظفار والبالغ عددهم مائتين و ثمانين (وفقاً «لكتاب الحميريين») أو مائتين (وفقاً «للرسالة» الثالثة لشمعون الأرشمي) فقد أغلقت عليهم البيعة وأحرقوا معها [329 p. CV; 383, p.44; cf 239, p.489]. ومن المؤسف أن المواضع المقابلة من «رسائل شمعون» مقتضبة للغاية، كما أن حكاية «كتاب الحميريين» لهذه الأحداث مشوّهة جداً ولا تجد التأييد في الرواية المتواترة العربية ـ النصرانية إلاّ في شطر ضئيل منها. على أن القطع التي حفظت منها تسمح بتقديم لوحة للمذبحة الليلية الغادرة والتمثيل بالجثث و حرق الناس أحيـاء بالبيعة حينما كانوا يقيمون الصلاة. وتلا هذا اعادة بنـاء البيعة الاثيوبية بظفـار/ وتحـويلهـا إلى معبد يهودي [239, p.480]. كل هذا حـــدث بأمر

أما رقيم شراحيل يقبول فيروي بايجاز أن الحميريين « عند استعادة الملك يوسف لعرشه » تقاتلوا « مع الأحباش بظفار (ع ل ي ح ب ش ن ب ظ ف ر) وأحرقوا البيعة (د هـ ر و ق ل س ن) » (Ry 508,3) [366, p. 295–296]

وفيما يبدو فإن هذه الأحداث نفسها يكّررها الرقيم Ry 507,4 : «عندما أحرقوا البيعة (ك د هـ ر و ق ل س ن) وقتلوا الأحباش بظفار»(٧) (و هـ رج و ء ح ب [ش ن] ب ظ ف ر) [366, p.285-295] . ويرد في الرقــيم الثالث Ja) (1028,3 . «لمّا أحرقوا البيعة وقتلوا الأحباش بظفار» (انظر مايلي) .

ويلي هذا في الرقـوم الثـلاثـة جميعهـا الحـديث عن حملة يوسف عسر وشراحيل يقبـول على المنـاطق السـاحلية وهي مخوان واشعران وفرسان وشمر وركبان ورمع(٨) (وفي مختلف الرقوم يرد ذكر هذه النواحي والمواضع مرة واحدة ولكن مخوان واشعران تردان في الرقوم الثلاثة معاً؛ وكما هو معلوم فإن مخوان إنما هي منـطقة ثغرالمخا؛ بينما أشعران هي منطقة قبيلة الأشاعرة أو على الأصح حلف الأشاعرة) . وأكثر الروايات تفصيلاً عن هذه الحملة هي التي يحويها الرقيم Ry 508,36 (المنحوت على صخرة بواحة كوكب قرب نجران) :

«وانحدر الملك (يوسف) إلى أشعران . وكان على رأس جيش وتقاتل مع مخوان وقتل جميع أهلها (ك ل هـ و ر هـ و) . وأحرق البيعة(٩) (و د هـ ر ق ل س ن) وتقاتل مع جميع حصون شمر وسهلها . وتوجّه الملك إلى أشعران وكان عـــدد القتلى أجمعين ومن وقع في يد جنـــد الملك : ثلاثة عشر ألف قتيل وتسعـــة آلاف وخمسـمائه أسير ومائتين وتسعين ألف رأس مـــن الإبل والبقر والضأن . . . » .

ويحكي لنا أيضاً عن هذه الحملة الرقيمان Ry 507, 4-5 و Ja 1528, 3-4 . فالأول منهما (الذي تم العثور عليه عند بئر الحمة الواقعة على تسعين كيلو متراً

---

(٧) هذه هي الـترجمة التي يقترحها أ.ج لندين و م. رودنسون. أما ترجمة غ. ريكمانس فترد بالصورة الآتية: «فوثبوا على البيعة وقتلوا الحبش (؟) بزاموا؟» [ils se sont jete's sur lg'lise et ils tués sur léglise et ils tuèrent les Abyssins (?) à Zamûch 366, p.296]

(٨) عن مواقع هذه النقاط بالساحل الجنوبي العربي للبحر الأحمر انظر [78, p. 35-37] .

(٩) في ترجمة غ. ريكمانس ترد بالألفاظ الآتية «وثب على البيعة» il se jeta sur Léglise [366, p. 296] .

لى الشمال الشرقي من نجران» وهو وإن لحقه خرم شديد بالموضع المقابل، إلّا نه من الممكن أن نميزّ فيه «حصون شمر وركبان» ومخوان، حيث قتل جنود شراحيل الأعداء. أما في الرقيم الثاني فيرد ذكر موجز لحملة أقيال ذي يزن « ضد أشعران وركبان وفرسان ومخوان ». ويرد في الرقوم بصدد الأعمال العسكرية بمخوان تحت قيادة الملك يوسف نفسه ذكر «الأحباش» (ح ب ش ت، أ ح ب ش ت) ، مسبوقة بحرف الجر ب ن « مع » و اللفظ ب م ق ر ن ت «ضد» (Ry 507, 10; Ry 508, 8; Ja 1028,8) .

ويتحدث بتفصيل أكثر من غيره رقيم جام ١٠٢٨ . وهو كالرقيم Ry 508 نُحت في شهر ذو مزرعن عام ٦٣٣ من التقويم الحميري ، على حين نُحت الرقيم Ry 507 في شهر ذو قيظن من العام نفسه الموافق في أغلب الظن لشهر يونيو ٥١٨م . وأما ذو مزرعن من عام ٦٣٣ فيوافق سبتمبر ٥١٨م [78, p.33, note 50, p.39] والرقيم [Ja 1028] هو الأغنى في محتوياته دون جميع رقوم شراحيل يقبول؛ أضف إلى هذا أنه تم الكشف عنه ونشره في وقت تال للآخرين. وأول ترجمة له يقدمها لنا ناشره أ. جام A. Jamme ، ثم ترجمه بصورة مخالفة في الكثير م. رودنسون M. Rodinson . وفيما يلي ترجمة لهذا الرقيم تعتمد في الأساس/ على ترجمة رودنسون ولكنهاتأخذ في الاعتبار أيضاً تفسيرات أ. جام:

١ ـ فليبارك رب السموات والأرض الملك يوسف أسار ملك كل الشعوب (م ل ك ك ل ء ش ع ب ن)[10]، وليبارك الأقيال

٢ ـ لهيعت يرحوم وسميفع اشوع وشراحيل اشوع وشرحبيل اسعد اولاد شرحبيل يكمول من عشيرة (ء ل هـ ت) يزن وجدن[11].

(١٠) يترجم أ. جام عبارة ء ع ش ع ب ن بلفظ «الشعب» people ، هذا بينما يترجمها رودنسون «القبائل» tribus ، ظناً منه أن الأمر يتعلق بالقبائل المشتغلة بالزراعة وذلك على نقيض الرّحل؛ وهو يشير إلى الاستعمال المماثل بتدمر والمغرب وغيرها من أقطار الأطراف العربية. أما أ. ج. لندين فيترجمها «الجماعات» obshchiny [78, p.93, 97-103, 107, 110] .

(١١) يترجم م. رودنسون عبارة ء ل هـ ت ي ز ء ن و ج د ن م ـ «من قبيلة يزن وج د ن».

٣ ـ [فقد] عاونوا ملكهم يوسف أسار عندما أحرقوا البيعة(١٢) وقتلوا الأحباش
(ء ح ب ش ن) بظفار، وفي قتاله(١٣) مع أشعران وركبان وفر
٤ ـ سان ومخوان وقاتلوا ببسالة ضد نجران(١٤) وعملوا سلسلة المندب(١٥) (و ت
ص ن ع س س ل ت ن م د ب ن)؛ وجمعوا الناس (م هـ و) فأوكل
إليهم أمر الجيش(١٦)؛ وإليك ما فعله
٥ ـ الملك وضع يـده عليه من غنيمة في حملته : اثنا عشرة ألف وخمسمائة قتيل
(م هـ ر ج ت م) وأحد عشر ألف أسير (س ب ي م) و
٦ ـ مائتـان وتسعـون ألف رأس من الابل والبقر والغنم. ودوّن هذا النقش
القيل شراحيل يقبول من (عشيرة) يزن؛ وذلك عندما تقاتل ضد نجران
٧ ـ ومعـه قبيلة (ب ش ع ب) همدان وسكـان المـدن والبـدو (ء ع ر ب)
والمقاتلون(١٧) من الأزانيين وبدو كندة ومراد ومذحج، ومع الملك الأقيال
وإخوته عندما تعرّض للهجوم
٨ ـ من البحـر (ب ح ر ن) من الأحباش (ب ن أ ح ب ش ت) فعملوا
سلسلة المندب. وهذا كل ما رووه في هذا الرقيم بصدد القتلى من الاعداء
والغنائم والمعارك خلال الحملة التي اضطلعوا بها

---

(١٢) يترجم أ. جام العبارة د هـ ر و ق ل س ن «واستولوا على [موضع] قلسن»؛ أما ج. ريكمانس وأ. ج. لندين وم. رودونسون وغيرهم من علماء السبئيات فقد قبلوا الترجمة «فحرقوا البيعة» [367, p.373, n. 4; 368, p.13, n.47; 76, p.104–105; 78, p.34; 359, p.29].

(١٣) يترجم أ. جام العبارة وع ل ي ح ر ب «غلبوا الجيش»

(١٤) يترجم أ. جام لفظ م ق ر ن ت الذي يقابلنا هنا على أنه «الوحدات العسكرية»، هذا على حين يترجمه ف كاسكل «فأقام الحرس»، وم. رودنسون «فقاتلوا بشجاعة» [359, p.28].

(١٥) يستند أ. جام على التشبيهات في الشعر العربي ليترجم العبارة بالطريقة الآتية : «وأقام التحصينات على كثبان المندب». كذلك يرى أ. ج لندين أن «عبارة «سلسلة مدبّن» بأجمعها إنما تعنى على ما يلوح خط التحصينات الدفاعية التي كانت تحمي الساحل من هجوم الحبش في أكثر نقاط المضيق تعرضاً للخطر. ويبدو لنا أن لفظ «سلسلة» إنما هي استعارة»[78, p.39, n.77].

(١٦) يترجمها أ. جام «وجمعوا رجالاتهم».

(١٧) هكذا يترجمها أ. جام. أمام. رودنسون فيترجمها «الصفوة (؟)» [359, p.27,30].

٩ ـ وعـادوا منها إلى ديارهم بعد ثلاثة عشر شهراً. بارك الرحمن في أولادهم شرحبيل يكمول وهعن أسار ولد لهيعت

١٠ ـ ولهيعت يرحـوم ابن سميفع ومرثديل يمجود ابن شراحيل (من عشيرة) يزن. في شهر مزرعن

١١ ـ من (عام) ستمائة وثلاثة وثلاثين . . . » [359, p.26–29; 260, p.39–42].

والسطران الأخيران من هذا الرقيم يحتويان على مصطلحات دينية هي «رب اليهود» (ر ب هـ د)، «وتحت حماية السماء» و «الرحمن غالب لكل كذّاب كفور» و «باسم الرحمن» و «باسم المحمود» (ب م حم د؛ التي يمكن قراءتها بمحّمد أو بمحمود) [260, p. 55; 359, p.27,33]. أمـا في الرقيمين Ry 507, و Ry 508 فنلتقي بالمصطلحات «رب [السـ]ماء و الأرض» و « الله الذي في السماء والأرض» (ع ل هـ ن ل هـ و س م ي ن و ء ر ض ن) (Ry 508,) و «رحمـة الرحمن» (Ry 508, 11) ، والتوجـه إلى الرحمن بطلب الرحمـة (ر ح م) ,Ry 508 (11 . وفي رقوم أخرى من ذلك العهد نفسه وهي Ry 513 و Ry 515 وغـيرها يرد أيضاً ذكر « الرحمن ورحمته » (ر ح م). ومن بـين جميع هذه المصطلحات ليس يهوديـاً سوى الأولى فقط ، وهي رب هـ د التي نلتقي بهـا أيضاً في رقيم موجز من كوكب وهـو Ry 515 الذي ينتسب لزمن رقيم جـام ١٠٢٨ نفسه. أمـا المصطلحات الباقية الأخرى فقـد استعملت في الصـلاة بصوت عال/ لدى اليهود وغيرهم من «الموحّدين بصورة مبهمة»، وأيضـاً لدى النصارى والحنيفيين و أخيراً المسلمين. وحتى في وسط الأقيـال من يزن الواردة أسماؤهم في هذا الرقيم وفي رقوم أخرى لذلك العهد

(RES 3904 ;RES 40 69, ;Ry 507–508 ;Ry 512–515,Ja 1029–1032)

[365; 366, p.311–314; 77, 260, p.55–58] ، يمكن الالتقـاء بمن بدّلـوا عقيدتهم وفقـاً للوضـع السياسي؛ وكان من بينهم ملوك حميريون مثل يوسف وسميفرع أشوع.

وكما يشهد الرقيم الذي مرّ قبل قليل، فإن أنصار يوسف تقاتلوا في صيف عام ٥١٨م، وهو الموافق لشهر مزرعن لعام ٦٣٣ من التقويم الحميري، لمدة

ثلاثة عشر شهراً تمكنوا خلالها من القضاء على أهل نجران الذين كانوا ينتظرون الغوث من اكسوم، كما صدّوا محاولة للاثيوبيين من بربره للنزول بمنطقة باب المندب. و «مدّبن» (م د ب ن) الواردة بالرقيم هي دون شك باب المندب، وذلك بنفس الطريقة التي كتب بها اسم قبيلة كندة في صورة «كدّت»؛ غير أن لفظ س س ل ت يمكن ترجمته بطريقة مخالفة، وعلى هذا يعتمد مغزى العمل في «تحصين» منطقة المضيق الذي اضطلع به شراحيل يقبول.

وقد اجتذب أ. جام A. Jamme الانتباه إلى أن يوسف لم يحمل في هذا الرقيم اللقب المعتاد لملوك حمير، «ملك سبأ وذوريدان و (ذو) حضرموت و (ذو) يمنات وأعرابهم بالطود و تهامه»، وذلك بالطريقة التي لُقّب بها السابق له مباشرة على العرش وهو معد يكرب (Ry 510) خليفة سميفع أشوع ، أو التالي له وهو أبرهة . فيوسف يدعى في هذا الرقيم « ملك كل القبائل » أو ببساطة «الملك»؛ وفي رقوم أخرى لشراحيل يقبول (Ry 507 و Ry 508) ، وفي رقوم سميفع أشوع (CIH 621) يدعى أيضاً « الملك » مجردة من أي شيء . ووفقاً لرأي أ. جام فإن لقب « ملك كل القبائل » إنما يشير إلى وضع يوسف بوصفه «ملكاً لمنطقة محلية» [260, p.10; 261, p.29] . غير أنه من الممكن تقديم تفسير آخر ، إذا ما قارنّا لقب « ملك كل القبائل » بإصراره الشديد على استعمال «ملك كل الشعوب» الذي أطلقه على حركته التي انضم إليها لا اليهود الحميريون وحدهم بل مختلف القبائل من الحضر « أهل المدن » والبدو . وفي رأينا أن ما طرأ من تعديل على اللقب إنما يشير إلى منعطف عقائدي ما، من الممكن أنه لم ينحصر عند حدّ الدعوة إلى اليهودية بل تعدّاه إلى القيام بمحاولة لتوحيد الجماعات المختلفة الأعراق والعقائد بالجنوب العربي ضد اكسوم .

وجميع المصادر تذكر من بين أنصار يوسف وشراحيل يكمول لا اليهود وحدهم بل الوثنيين كذلك. وحكماً من الرقوم فقد انضم إلى اليهود الحميريين عرب كندة من حضرموت والبادية. بل انضم إليهم شطر من نصارى الجنوب العربي كذلك. ومن بين المبعوثين الذين وجهّ بهم يوسف إلى الاثيوبيين بظفار يرد اسم كاهن لاوى من طبرية التي كانت آنذاك مركزاً لليهود، واثنين من

العرب «النصارى بالاسم فقط» هما عبدالله بن مالك من أهل نجران وكونب بن موهبة من أهل الحيرة [383, p.44; 288, p.CV] . ووفقاً لرأي ي . ڤ . هرشبرج J.W. Hirschberg [253, p.334, note 25] الـذي تسـانـده أيضـاً ن . ڤ . بيغوليبيڤسكيا N.V. Pigleevskia [94 p.282] ، فقد كانا من النساطرة .

ذلك أن النسطورية التي انتعشت بايران/ وبكيرالا في جنوبي الهند ، لا بد أن وجد لها أتباع ليسوا بالقليلين بالمـدن التجارية في بلاد العرب أيضاً . ومن بين الأبرشيات السريانية تذكر المصـادر هجر وبينات اردشير ودرومش - ما هك في الشمال الشرقي من جزيرة العرب ، هذا إلى جانب عمان وحمير أيضا [240, p.409, 410, 412; 65, p.108, 109] . ووفقاً لألفاظ قزما الذي أبحر إلى الهند فإن رجال الدين بجزيرة ديوسقوريدس (سقطرى) أخذوا التعميد من «بـلاد الفـرس» [310, p.119; 413, p.119]، أي من بطريرك النساطرة[١٨] . كذلك وجد نساطرة وسط قبائل العرب الرحّل، مثل بكر بن وائل [16, p.137] . وقد لفت ت. نولدكه Th. Nöldeke النظر من قبل إلى وجود تعاطف غير مفهوم للرواية التاريخية العربية تجاه ذي نواس. ويفسّر ي . ڤ. هر شبرج هذا بالأصل النسطوري لهذه الرواية، ويشير أيضاً إلى النبرة «الهادئة» للغاية و إلى «المـوضـوعية» (أو على الأصح «مـوقف التجّـرد») الـذي تحكي به الحـولية النسطورية عن مسروق (ذي نواس) و استئصاله للنصارى. ولا يخلو من مغزى أن الـرواة (حملة الأخبـار المتواترة) الذين يرجعون في أصلهم إلى وسط عربي يهودي فضّلوا الرواية النسطورية بالذات في عرضهم للأحداث التاريخية التي كان مسرحها نجران [253,p.331 ff.] . ويمكن أن نضيف إلى هذا أن الحولية النسطورية في قولها إن أم مسروق كانت يهودية من أهل نصيبين، كأنما تريد بذلـك أن تقول «إنها من أهل بلادنا، حتى وإن لم تكن من أهل عقيدتنا». وبخـلاف ذلك فإن «استشهاد الحارث» يتهم الأسقف النسطوري سيلا بأنه

(١٨) ما زالت النسطورية بسقطرى إلى أيامنا هذه. وينقل قزما أسطورة تتعلق بهجرة الهيلينيين إلى هذه الجزيرة على عهد البطالمة. فهو يقول «أبحرنا على طول الجزيرةولكن لم ننزل بها»، غير أنه التقى بجماعة من سكانها بأثيوبيا وتحادث معهم باليونانية «لأن لغتهم كانت اليونانية». [310, p. 119;413, p.119].

جهد في تبرير استئصال مسروق للنصارى في مجمع للنساطرة بالحيرة حضره قساوستهم وعلمانيوهم [305, p.742](19) .

غير أن كل هذه ليست سوى أدلّة غير مباشرة لصلة يوسف ذي نواس بالنساطرة؛ أما الأدلة المباشرة للمصادر فلم تزل مفقودة، وإن كان من الممكن العثور عليها يوماً ما في المستقبل. وحكماً على معطيات المصادر فإن يوسف ذا نواس استطاع أن يوحّد حول شخصه جميع العناصر الساخطة على السيطرة الاثيوبية على البلاد. غير أن عدداً من المناطق قاومته؛ وكانت هذه هي مخوان (ثغر المخا أو مخا، وهي موزا القديمة) وأشعران بناحية مضيق باب المندب، وأخيراً مدينة نجران بالمنطقة الشمالية للبلاد. فهنا غلبت العناصر النصرانية المرتبطة بالمصالح التجارية مع افريقيا والامبراطورية الرومانية.

وبعد أن حسم مسروق الأمر مع قبائل الساحل الجنوبي بعث شراحيل يقبول إلى الشمال ضد مدينة نجران، أما هو نفسه فظل مع شطر من جيشه على الساحل خشية نزول جديد للاثيوبيين. ولّما اقترب جيش شراحيل من نجران استسلم النجرانيون وقدّموا له الرهائن، ولكنهم كانوا على استعداد للانتفاض في أول فرصة تسنح. وفي آخر خريف عام ٥١٨ عندما حالت رياح غير ملائمة بين الاثيوبيين وبين العبور إلى جزيرة العرب، وصل إلى نجران ذو نواس نفسه واحتل المدينة من جديد. وبدأت على الفور سلسلة الاعدامات، وهي مذابح شهر نوفمبر المشهورة، ضد النصارى النجرانيين. وبلغ عدد القتلى وفقاً لرواية «استشهاد الحارث» سبعمائة وسبعين [305 p.728a, 734] .

وقد نجا من الإعدام كل من/قبل اعتناق اليهودية، وربمابضعة أشخاص مثل عبدالله بن مالك الذي مرّ ذكره قبل قليل؛ وهو ذلك النجراني الذي قيل في حقّه إنه كان «نصرانياً بالاسم فقط» [383, p.44; 329 p.CV] . فإن حدث

(١٩) يرى هرشبرج أيضاً أن مؤلف «كتاب الحميريين» اعتمد على الرواية الشفوية التي حصل عليها من النساطرة بالحيرة، وأيضاً على الرواية المتواترة للتجار النساطرة ممن تم ترحيلهم إلى العراق من نجران على عهد الخليفة عمر [338–253, p.335] . وعرفان شهيد محقّ في رفضه لهذا الراي بوصفه ينطوي على مغالطات (fallacious) ولا يجد التأييد في المصادر [38. p.356] .

وأن كان هذا الرجل نسطورياً في واقع الأمر، فمن المحتمل أن النسطورية تمتعت بالتسامح[٢٠]. ولكن هل أولى الحميريون من اليهود والبدو خلال اضطهادهم للنصارى معاملة خاصة للنساطرة؟ إن مصادرنا مع الأسف نزرة للغاية بحيث لا تمكّننا من الرد بصورة أدقّ على سؤال مؤدّاه من الذي نجح من بين سكان نجران باستثناء الهاربين والمرتدين في الإفلات من القتل.

ولقد شمل اضطهاد النصارى وحرق البيع مناطق أخرى، مثل حضرموت ومارب وهجران [329, p. VII–VIII] . ويحكى لنا بإيجاز عن استئصال النصارى بحضرموت « كتاب الحميريين » [329,p.VII] ، وأيضاً « الرسالة الثالثة» لشمعون الأرشمي التي تم الكشف عنها مؤخراً [383, p.45] . وقد هرب عدد كبير من النصارى إلى خارج حدود مملكة حمير، ووجدت حكاياتهم عمّا لحق بالنصارى من اضهاد وقتل صدى في الأوساط النصرانية.

ووجد بعض الهاربين الملاذ باثيوبيا. ومن الواضح أن الكلام عن هذا ورد في «كتاب الحميريين»، وذلك في الفصول التي تتلو مباشرة الحكايات المتعلقة بالشهداء النجرانيين؛ وهي الفصول الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون والحادي والأربعون. هذه الفصول لم يحفظ لنا منها سوى العناوين فقط؛ بل إن الفصل الأربعين لم يحفظ منه حتى مجرد العنوان. والفصول المعروفة لنا من عناوينها هي الآتية:

«الثامن والثلاثون. (حكاية) كيف انتقم الرب سريعاً لدم عبيده الذي أساله اليهودي الصالب وذلك بقدوم الأحباش الى أرض الحميريين.

التاسع والثلاثون. الحكاية عن كيف جاء أمية الشريف إلى بلاد الحبش بدافع الغيرة للرب وأبلغ قداسة الأسقف اوبروبيوس وكالب ملك الحبش تابع الإيمان الصحيح عن كل ما ارتكبه مسروق الصالب في حق النصارى.

---

(٢٠) تحكي الحولية النسطورية بصدد ملك الحميريين مسروق إنه أدان بالقتل «قسماً من النصارى». ويرى ي. ف. هرشبرج أن المقصود بذلك المونوفيزيون وحدهم، أما النساطرة فظلوا على قيد الحياة.

الحادي والأربعون. العريضة التي جلبها أمية الحميري تابع الإيمان الصحيح إلى قداسة الاسقف اوبروبيوس وإلى كالب ملك الحبش من كنيسة بلاد حمير [329, p. CIII] .

ولم تكن الاضطهادات الدينية معهودة في الجزيرة العربية إلى تلك الآونة بالتقريب. غير أن ما حاق بالنصارى من اضطهاد على يد يوسف ذي نواس ما لبث أن فتح الباب لعهد طويل من التعصب الديني وأعمال القمع والحروب باسم نشر العقيدة؛ وجميع هذه الظواهر لم تبدأ بالجزيرة العربية إلّا بعد وقت طويل من حدوثها بأراضي الامبراطوريتين الرومانية والفارسية المجاورتين لها؛ ولم تنته إلّا بعد ألف وأربعمائة سنه من الأحداث التي وصفناها هنا. ومما لا شك فيه أن هذا ترك أثراً ليس بالضئيل في التطور العقائدي لأقطار افريقيا الشمالية الشرقية المجاورة للجزيرة العربية؛ فمنذ تلك اللحظة ارتفع عدد ضحايا الاضهاد الديني وأيضاً عدد الداعين إلى عدم التسامح الديني.

لمّا بدأ ذو نواس اضطهاده شرع في إرسال تحديّاته إلى العالم النصراني لذلك العهد، أو على الأصح لشطريه الارثوذكسي والمونوفيزي بمركزيهما في بيزنطة واكسوم. أما فيما يتعلق بالقسم الشرقي والنسطوري للنصرانية، فقد كان في حال من العداء مع كل من الارثوذكسية والمونوفيزية بصورة حالت دون ضمّ الصف معهما من أجل القيام بعمل مشترك.

ولقد وجد في وسط القبائل العربية أتباع للمذاهب الثلاثة الكبرى للنصرانية، غير أن حدّة الخلاف بينهم لم تبلغ الحال التي بلغتها مثلاً بالمدن السريانية التي وجد فيها الارثوذكس والمونوفيزيون والنساطرة؛ وإن وجب الاعتراف بأن الأهمية الأولى شغلها موقف النصارى من غير النصارى. ومن بين القبائل العربية التي اعتنقت النصرانية في بداية القرن السادس كان الغساسنة وسليح وقسم من كندة ومن اللخميين وغيرهم [97, p.264 ff.] .

أما اليهود فلم تقم لهم في ذلك العهد دولة ما باستثناء حمير، وإن شكّلوا في واقع الأمر شطراً مهماً من سكان العراق وسورية وفلسطين وأيضاً الاسكندرية

والقسطنطينية وطيسفون وغيرها من المدن الكبرى. ولكن نظراً لعدم معرفتهم تنظيماً حكومياً ما فقد كان عونهم للملك يوسف ذي نواس محدوداً للغاية واتخذ في الغالب صورة عون مالي.

وانتشرت المستعمرات اليهودية في الجزيرة العربية نفسها (بجزيرة يوتابه عند مدخل خليج العقبة، وبمناطق تيماء والحِجْر، وبواحات أذرعات وفدك وخيبر ومقنا ووادي القرى ويثرب والطائف) حيث كان اليهود يتحدثون بالعربية وانتظموا على شكل عشائر ربطت بينها صلة الرحم واشتغلوا أساساً بالزراعة. وكانت أقرب المستعمرات اليهودية إلى حمير تلك التي بالطائف ويثرب الواقعتين على الحدود الشمالية لمملكة حمير، حيث كانت تلتقى طرق القوافل القادمة من بيزنطة وايران إلى اليمن. وإلى جانب اليهود أقام بهذه الواحات أيضاً العرب الذين دانوا بالوثنية، كقبائل ثقيف وغيرها بالطائف وكالأوس والخزرج بيثرب. أما حول الواحات فكانت تترحّل القبائل البدوية التي كانت على الوثنية أيضاً. وكذلك ظهرت في وسط المقيمين بالواحات مجموعات من النصارى ممن ارتبطوا بتجارة القوافل.

بعث يوسف ذو نواس بسفارة إلى يثرب قوبلت بحماس من طرف القبائل اليهودية المحلية الثلاث؛ ولكن هذه السفارة لم تحقق أهدافها. ولقد كان بوسع ملك الحميريين أن يجد التعضيد من يهود الجزيرة العربية لأجل توسيع أملاكه مستقبلاً في تجاه حدود بيزنطة، غير أنه من العسير القول بأنه كانت لديهم آنذاك امكانيات عسكرية تسمح بذلك.

كذلك حاول ذونواس أن يجد سنداً من الفرس وعمّالهم اللخميين، وأن يحصل في الوقت ذاته على النفوذ والمكانة بين القبائل العربية. وبهذا الهدف وجّه بسفارة إلى شمال شرقي الجزيرة العربية، شفعها بأخرى عام ٥١٨ إلى الحيرة تحمل مكتوباً إلى المنذر الثالث يدعوه إلى قطع دابر النصارى ببلاده ويعده في مقابل ذلك بثلاثة آلاف دينار [305, p.742] .

وكان المنذر قد عاد في تلك اللحظة من غارة له على أراضي البيزنطيين خرّب فيها أملاكهم بسورية. ولقد أجبرت غارات ملك اللّخميين أكبر الدول النصرانية قاطبة على تقييد قواتها على الحدود الجنوبية الشرقية للامبراطورية؛ مما كان فيه خدمة كبرى لمصالح الحميريين اليهود. ومن ثم كان لهم الحق كل الحق في أن يروا في اللخميين حلفاء لهم، وإن لم يعن هذا بأية حال من الأحوال قيام حلف متين وتنسيق للعمليات بين أقوى مملكتين عربيتين. وواقع الأمر أن سفارة ملك الحميريين إلى الحيرة وإن كانت استمراراً لسفارته إلى يثرب، إلّا أنها حملت طابعاً مخالفاً تماماً. /وإن حدث أن كانت يثرب والطائف ومكة أهدافاً تقليدية للتوسع وللنفود الحميري، فإن حيرة اللخميين كانت أقوى منافس لتلك المملكة. وإذا ما تصورنا أن الأعمال العسكرية للمنذر ضد معديكرب في عام ٥١٦ كان المقصود منها مدّ يد العون إلى ذي نواس وليس ضد حمير كدولة [246, p.104]، فإن هذا يعني تجاهل التنافس بين اللخميين والحميريين في وسط الجزيرة العربية. لذا فإنه لم يكن ليقدّر لهذه السفارة في أحسن الظروف سوى نجاح محدود.

وتُلي مكتوب ذي نواس أمام رجال البلاط والجيش اللخمي والسفراء الأجانب. وكان من بين هؤلاء الأخيرين ممثلون مرموقون للطوائف النصرانية؛ فقد وُجد بالحيرة في تلك الأثناء القس ابرام سفير الامبراطورية الرومانية الشرقية، وشمعون الأرشمي الأسقف المونوفيزي لبلاد الفرس سفيراً لملك الفرس، والأسقف الأرثوذكسي سرجيس الرصافي، والأسقف النسطوري سيلا. وكان سيلا هو الوحيد فيما يبدو الذي حاول تبرير تصرفات ذي نواس؛ فإن كان « استشهاد الحارث » لم يهدف للافتراء عليه فإن سيلا « كان يبغي ارضاء الوثنيين واليهود » 305, p.742. أما بقية السفراء بما في ذلك الفارسي شمعون، وأيضاً النصارى المحليون فقد أدانوا ذا نواس بصورة جازمة. واضطر النصارى اللخميون ملكهم المنذر لأن يرفض مساندته؛ أضف إلى ذلك أن الملك كان قد فرغ للتوّ من عقد معاهدة

صلح مـــع بيزنطة [94 p. 292-297; 97, p. 277 ff.; 346, p.238-241] .

هذا وقد عملت الدوائر النصرانية بالمشرق وعلى رأسها الأساقفة الذين اجتمعـوا بالحيرة على إثارة دعاية عنيفة ضد ذي نواس، أو مسروق كما كانوا يدعونه. فدبج شمعون الأرشمي ثلاث «رسائل» عن أحداث حمير مجّد فيها الشهداء النجرانيين. ولم تحفظ لنا الأولى منها والتي يرجع تاريخها إلى ديسمبر ٥١٨م ؛ أما الثانية فتاريخها آخر فبراير ٥١٩م . وأما الثالثة التي تم نشرها منذ أمـد غير بعيد وهي أغنـاها بالتفاصيل فقد دوّنت في يوليو من عام ٥١٩م . والشخصيات التي وجّـه شمعون الأرشمي برسائله إليها هم شمعون أسقف حيرة جبلة [الجبوّل، جبيثا] عاصمة إمارة الغساسنة، وأيضاً في أغلب الظن سويرس بطريرك انطاكية الذي كان آنذاك بالمنفى بمصر. ووفقاً لألفاظ شمعون نفســه فقـد كان غرضه إطلاع «جميع أتباع الإيمان الصحيح»، يقصد بذلك المونوفيزيين*، وغيرهم من أتباع المذاهب النصرانية الأخرى على أفعال مسروق يوسف الشنيعة. وكان شمعون يهدف قبل كل شيء إلى أن تبلغ رسائله رؤوس المونوفيزية المرموقين، خاصة أكسوم . وفي خاتمة «رسالته» الثالثة كتب يقول: «وأرسل إلى قداستكم طيّه صور الرسائل الخاصة بالإيمان التي بعث بها أتباع الإيمان الصحيح من الكوشيين [أي الأحباش] إلى أتباع الإيمان الصحيح من الفـرس، ومعهـا صورة العريضة و الكلمة التي رفعها شخصنا الضعيف إلى قداسة اوبروبيوس أسقف الكوشيين وإلى كالب ملكهم تابع الإيمان الصحيح والتي سبق وأن أرسلنا صورة منها إلى قداستكم من قبل» [383, p.63] .

---

* *كان المـونـوفيزيون يعـدّون أنفسهم دعاة الإيمان الصحيح «الارثوذكسية»، لذا دعوا أنفسهم بهذه التسمية الأخيرة . أما غير المونوفيزيين من بين النصارى فهم الذين دعوهم بالمونوفيزيين أي القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، بينما غلب اسم الارثوذكس على معارضيهم الذين قالوا بطبيعتين للمسيح. وكان هؤلاء الأخيرون أي الارثوذكس هم أتباع العقيدة الرسمية التي اعتنقها أباطرة بيزنطة (الخلقدونية)، لذا فقد عرفوا باسم الملكانيين . ولدراسة نشأة المونوفيزية يمكن الرجوع إلى كتاب* W.H.C Frend, The Rise of the Monophysite Movement, 1972. *(المترجم)*

من هذا يفهم أن رسائل شمعون الأرشمي التي لم تصل إلينا قد بلغت اكسوم أيضاً، وأنه تسلّم بصفة رد عليها رسائل من الملك كالب ومن أسقف اكسوم اوبروبيوس. وبخلاف هذا يشير/ شمعون إلى وثائق مدّونة باللغة «النجرانية» (العربية) نقلها بنفسه إلى السريانية وجرى توزيعها أيضاً بهدف الدعاية [383, p.242-250] .

وفي ذكره « للفرس » الذين تبادلوا الرسائل مع «الكوشيين» أهل اكسوم فإن شمعون الأرشمي انما يعني نفسه بالذات. ولقد كان شمعون الأرشمي داعية متحمساً لجمع كلمة المونوفيزيين في كنيسة واحدة ، بل في تنظيم سياسي بغض النظر عن أصلهم العرقي. فلما أصبح أسقفاً لبيت أرشم وزعيماً لمنوفيزيي الدولة الساسانية في واقع الأمر، جهد في مدّ دائرة نشاطه شمالاً إلى ارمينيا وجنوباً إلى حضرموت واكسوم. وكان يجيد أجادة تامة عدداً من اللغات بين ساميّة وهندية ـ أوروبية؛ وساح كثيراً يدعو إلى تعاليم المذهب المونوفيزي والتحم في جدال عنيف مع النساطرة والخلقيدونيين، وعرض على الملوك النصارى خططه للعمل السياسي. ويصف يوحنا الافسوسي شمعون الأرشمي بأنه «مناضل غيور من أجل الإيمان الصحيح» [124, p.137] .

ولقد كشف الأسقف المونوفيزي عن طاقة نادرة ومقدرة أدبية في دعايته الموجّهة ضد ملك الحميريين ولصالح ملك الأكسوميين. ويلوح أن شمعون كان يتوق بهذه الطريقة إلى جمع كلمة نصارى البحر الأحمر، بحيث يسوق هذا إلى عمليات حربية يشارك فيها الاكسوميون والغساسنة وما أمكن الشعوب النصرانية الأخرى بافريقيا وبالجزيرة العربية. هذا المشروع الذي قد يسوق تحقيقه إلى احتواء حمير اليهودية بين فكّي الكماشة، بل الى خلق قوة سياسية عتيدة في الشرق الادنى تستطيع الوقوف على قدم المساواة مع الدولتين الكبريين أي بيزنطة وايران، قوة تستند على العقيدة المونوفيزية؛ أقول هذا المشروع كان من المفروض أن يكون فيه قائد حلف الملوك المونوفيزيين هو ملك أكسوم.

وكما نبّه ب. ديفو P. Devos بحق فإن آثار شمعون يتردّد فيها النداء إلى ملك اكسوم، والمكررّ ثلاث مرات في «الرسالة» الثانية، ليتدخل من أجل

المونوفيزيين إخوته في الدين الذين اضطهدهم «الروم والفرس والحميريون» وهزأ بهم العرب اللخميون [206, p.109]. وقد دلّل عرفان شهيد على أن شمعون الأرشمي (لاسرجيس الرصافي كما افترض أ. موبيرج A.Moberg [329, p.IXV]) هو مؤلف «كتاب الحميريين» الذي يمجّد على قدم سواء شهداء نجران والاكسوميين الذين حرّروا بلاد العرب الجنوبية «وانتقموا لآلاف الضحايا البريئين». ولعله من العسير الالتقاء «في كنسية المؤمنين»★ المونوفيزيه بشخص تميّز بسعة الأفق السياسي كما أتيح لهذا الأسقف السرياني الفارسي الذي يقول بصدده عرفان شهيد إنه أول من فكّرَ في جمع كلمة «العالم الافريقي - الأسيوي المونوفيزي للقرن السادس» [383, p.169, 172].

وفي زمن واحد مع شمعون الأرشمي بالتقريب دوّن أحد رجال الدين من المونوفيزيين، وهو سرياني يدعى يعقوب السروجي (مات عام ٥٢١) «رسالة إلى النجرانيين» [377, p.360-399; 94, p. 227; 346, p.185] كذلك نظم سرياني ثالث نشيداً كنسياً [معنيثا] في شهداء نجران، هو يوحنا بسلطوس [رئيس ديرقنسرين المتوفى عام ٦٠٠]. / هذا النشيد نقله من اليونانية إلى السريانية بولص الرهاوي [377, p. 400-405; 94, p. 227; 346, p.185](٢١). ولا شك أن الدعاية ضد ذي نواس حدثت في كل من سورية وفلسطين والعراق. كذلك انبعثت «رسائل» وأسفار باللغتين السريانية واليونانية بمصر(٢٢) وارض الجزيرة

★ *استعمل المؤلف ها هنا مصطلح «كنيسة الحجاج» tserkvi pilgrimov ؛ وقد بدا لنا هذا غير مناسب فاستبدلناه بمصطلح «كنيسة المؤمنين» لأنه من المعلوم جيداً أن المونوفيزيين عدّوا أنفسهم دعاة الإيمان الصحيح. (المترجم)*

(٢١) لم تلبث هذه القصيدة أن اجتذبت الاهتمام فيما بعد. وقد نقلها إلى السريانية من اليونانية للمرة الثانية يعقوب الرهاوي عام ٥٧٥[377, p.405; 94 p.227; 346, p. 185].

(٢٢) وفقاً لرأي عرفان شهيد فأن آثار الدعاية ضد يوسف ذي نواس حفظت لنا في المصنف التاريخي الاثيوبي المهم «كبره نجاست» الذي يستند في الأصل على مصنف أدبي بالقبطية يرجع تدوينه فيما يبدو إلى القرن السادس [384, p.138, 141, 145]. أما عن «كبره نجاست» فراجع مايلي في كتابنا هذا.

وآسيا الصغرى والقسطنطينية وطيسفون، ولم تلبث أن راجت وانتشرت في الشرق الأوسط بأكمله. وقد أعلن القتلى شهداء قديّسين؛ ومن المؤكد أن الصلوات والأدعية تُليت في البيع على أرواح الشهداء. هذا وقد اهتز العالم النصراني، وخاصة المونوفيزي، من أسسه عند سماعه الحكايات المتعلقة بضحايا ذي نواس؛ ومما يؤكد هذا ظهور أدب كثير عن الشهداء النجرانيين (وإلى جانب ما ذكرناه من آثار فيها مر، يمكن أيضاً إضافة «كتاب الحميريين» و «استشهاد الحارث»). ومما لا شك فيه أن القس ابرام وسرجيس أسقف الرصافة عاونا أيضاً في إثارة الرأي العام على ذي نواس. ولقد أثمرت جهودهما، اذ وجد ملك حمير نفسه وحيداً ولم يتلق العون لامن الفرس أو اللخميين أو حتى من الجاليات اليهودية بالامبراطوريتين البيزنطية والساسانية.

ولا يرتقي الشك إلى ما لعبته الدبلوماسية البيزنطية الرسمية من دور في هذا الصدد، فقد قامت بنشاط كبير في ايران ومملكة اللخميين في الفترة بين عامي ٥١٨ و ٥٢٦. أضف إلى هذا أن القس ابرام كان دبلوماسياً ينتمي إلى دوحة دبلوماسية عريقة، إذ كان أبوه أوبور سفير بيزنطة إلى العرب وكان هو نفسه أباً للسفير ننّوس [94,p.230 ff;346,p.187; 97, p.157–158] .

غير أن خصوم شمعون الأرشمي المباشرين لم يكونوا اليهود بل النصارى النساطرة. ذلك أن نشاط شمعون المتفجّر بايران أثار حقد منافسيه من رجال الدين النساطرة فنجحوا في إثارة ريبة الشاهنشاه بتصويرهم نشاط شمعون على أنه من أجل مصلحة بيزنطة. فألقى به في سجن نصيبين حيث بقى سبعة أعوام قبل أن يحصل على العفو نتيجة لتدخل دبلوماسي من طرف كالب ملك اكسوم (وهو أمر ذو مغزى كبير). ووفقاً لقول يوحنا الافسوسي فإن الذي توسط من أجل الداعية المونوفيزي لدى الشاهنشاه قباد هو أخوه في الدين (ووفقاً لمصطلح يوحنا الافسوسي «الارثوذكسي»، أي المونوفيزي) سفير ملك اثيوبيا بطيسفون. ولقد توّجت هذه الوساطة بالتوفيق فأطلق سراح شمعون من سجن الفرس وسمح له آنذاك أو بعيده بقليل بمغادرة الامبراطورية، ويجب أن نفترض أن

السفير الاكسومي نجح في اقناع الشاهنشاه بأن أي عون يقدم لذي نواس سيفضي إلى خلاف مع الحكومة الاثيوبية. كما يلوح أنه تم الالتجاء أيضاً إلى حجج ذات طابع اقتصادي.

وكان قباد يهيىء نفسه آنذاك لمواجهة نهائية مع المزدكية، لذا لم يكن بوسعه الدخول في مغامرة عسكرية في الجنوب العربي النائي. أضف إلى هذا أنه قبل أحداث عام ٥١٧ كانت لايران تجارة رابحة مع اثيوبيا يحدثنا عنها قزما الذي أبحر إلى الهند [310, p.50, 372; 413, 69,325] ؛ وكانت هذه التجارة في أيدي التجـار النصارى. كذلك لا بد أن أحداث القمع والاعدام التي نظّمها ذو نواس مست الرعايا الايرانيين الذين/ نلتقي بهم حتى بين الشهـداء بنجران [383, p.64] ؛ ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث ساقت إلى تقلّص حجم التجارة الدولية في سواحل بلاد العرب الجنوبية والغربية وعلى طرق القوافل المارة بالجزيرة العربية؛ مما مس أيضاً مصالح ايران. وكان هذا في حدّ ذاته كافياً لكي يكبح من أي ميل للشاهنشاه قباد نحو الحميريين اليهود الذين لم يكونوا في واقع الأمر سوى أعداء أعدائه. ولم يكن من شأن سياسة ذي نواس الموجّهة ضد النصرانية أجمع ألّا تمس النساطرة أيضاً بمرور الزمن؛ فازداد بهذا عدد مناوئيه بعاصمة الساسانيين. أضف إلى ذلك أن الجوانب السلبية في سياسة ذي نواس والحميريين اليهود أخذت تبرز بصورة أوضح عاماً فعاما كالانعزالية - اختيارية كانت أم اضطرارية؛ وكالنزاع مع طبقة تجار المدن لأن هذه الأخيرة كانت في أساسها نصرانية وأجنبية؛ وكعدم التسامح مع الداخلين حديثاً في عقيدته؛ وما شابه ذلك.

ويتحدث «استشهاد الحارث» عن سلسلة من الحديد مدها الحميريون عبر البحر لايقاف الغزو الاثيوبي، وعن «أمواج عالية» قذفت بالسفن الاثيوبية فوق هذه السلسلة [305, p.753-754] . وفي الـرواية العـربية «لاستشهاد الحارث» جاء في الموضع المقابل ما نصه «عند ذلك أمر (ذو نواس) بمدّ سلسلة من الحـديد في الموضع المعروف باسم المضيق بين أرض الحبش وأرض سبأ،

وثبتها في ذلك الموضع بجزيرة» [383, p.198–199] . ولما رأى عرفان شهيد أن هذه الرواية ليست واضحة تمام الوضوح فقد افترض أن الحديث انما يدور حول جزيرة بريم Perim [ميّون] الواقعة بمضيق باب المندب [383, p.199] . أما الرواية الاثيوبية «لاستشهاد الحارث» فزاد في إبهام معناها استعمال الفعل ت ك ل، الذي هو تحريف للفعل العربي ث قّ ل، أي «جعله ثقيلاً». وبالموضع المقابل من الرواية العربية للكتاب والتي نقلت الاثيوبية عنها، جاء ما نصه: «وثقّل هذه السلسلة فزاد كثيراً من وزنها(؟)» [383, p.199] .

ويورد الرحالة الدمشقي من القرن الثالث عشر وهو يوسف بن يعقوب ابن المجاور كلاماً عن سلسلة مُدّت عبر المضيق من حصن المندب، مؤكداً أن أثرها بقي إلى يومه [383, p.218] . وفي الرقيمين [Ry 507,10 و Ja 1028] نلتقي باللفظ س س ل ت القريب الشبه بالعربية بسلسلة (وجمعها سلاسل) التي تعني سلسلة من المعدن أو السحب أو الجبال أو التلال أو الكثب الرملية إلخ. وكان جاك ريكمانس J. Ryckmans أول من أثبت أن «مدد بن» الواردة في الرقوم إنما هي ثغر المندب وترجم س س ل ت م د ب ن «سلسلة المندب»، وربط هذا الموضع من الرقوم بما جاء في رواية «استشهاد الحارث» بصدد السلسلة من الحديد التي يقال إن ذا نواس/ مدّها على طول مضيق باب المندب [367, p.334–335; 368, p.14] .

ويجتذب أ. جام انتباهاً خاصاً إلى موضع يعرف بالسلاسل قرب باب المندب ، وأنه عرف بهذا الاسم بسبب سلسلة من الكثبان الساحلية [260, p.47–48, 52] . لذا فإنه يترجم الألفاظ ت ص ن ع س س ل ت م د ب ن ، الواردة مرتين بالرقيم على أنها « حصّنوا الكثبان الرملية لمدّبن » أو المندب ؛ يريد بذلك المواضع المحصنة .

على أنه من الممكن تقديم تفسير آخر. فعرفان شهيد لا يكتفي بالإشارة إلى اختلاف القراءة الوارد في «استشهاد الحارث» الذي يحكي عن «السلسلة الحميرية»، بل يقدّم لنا حالات كلاسيكية لاستخدام سلاسل الحديد في حصار

الثغور البحرية وفي القتال ضد الغزاة من البحر في العصور القديمة والوسيطة [383, p.217] . وهكذا فإلى جانب الأهمية الدفاعية البحتة ـ وذلك لحماية عدن وحضرموت من غارات أسطول عدولي ـ فإن مد سلسلة من الحديد عبر المضيق كان اجراء ضرورياً لحصار ميناء عدولي وقطعها عن موانى المحيط الهندي .

غير أن هذا الاجراء كانت له عواقب خطيرة حتى بالنسبة للحميريين أنفسهم ، كما هو الحال مع كل خلل تتعرض له طرق التجارة البحرية التي تربط بين المناطق وبين القارات في تلك الفترة التاريخية (نهاية العالم القديم وبداية القرون الوسيطة) . فلكي يحصل ذو نواس على المؤن الضرورية فقد زاد الضرائب ؛ وقاسى من ذلك بصورة خاصة النصارى [30, p.272; 249, t.I, p.107] . وبهذا فإن تجارة الحميريين التي بدون هذا تعرضّت للاضطراب بسبب ما لحق من اضطهاد بالنصارى، بلغت الآن أقصى درجات التدهور.

وكان الامبراطور البيزنطي يوسطين الأول يبحث جاهداً عن وسائل أكثر فاعلية ضد مسروق.. وقد تبيّن أن القوة الوحيدة التي بمقدورها القضاء على ملك حمير هي الأكسوميون . غير أن الدبلوماسية والكنيسة البيزنطية لم تتجها إلى اكسوم للوهلة الأولى . وهو أمر يبدو غريباً ، لأنه كان من المحتوم أن يحدث رد الفعل المباشر على نشاطات ذي نواس من اثيوبيا بالذات . ذلك أن مسروقاً هاجم قبل كل شيء السيادة الاكسومية ، وكان ضحايا مذبحته الأولى هم الاكسوميون وحلفاؤهم . بل إنه حتى بنجران نفسها ، كما حدث وأن مر بنا القول ، وجد من بين القتلى الشمّاس الاثيوبي يوحنا [383, p.94; 329, p.CX, 14b] . وأوقع أثراً على الاثيوبيين مما حدث بنجران ، كان دون شك مصارع بني وطنهم بظفار ومخوان . ولقد أتيح للاكسوميين الوقت الكافي لغزو بلاد العرب الجنوبية ، حتى من قبل انتهاء الكفاح بين أتباعهم في تلك البلاد واتباع ذي نواس . ذلك أن جيش ملك حمير ، الذي كان متحداً في هيئة جيش واحد تارة ، أو انقسم إلى وحدات تارة آخرى ، قد تابع لأكثر من عام نشاطاته العسكرية ضد أهل فَرَسان وغيرهم من القبائل النازلة بساحل

البحر الأحمر وضد حامية ظفار كما بيّنا من قبل ، وضد بدو جنوبي الحجاز ، بل حاصر نجـران مرتـين [78, p.33-43] . وعلى الرغم من ذلك لم يحرك الاكسوميون ساكناً قبل عام ٥٢٥ ـ أي لسبع سنوات!ـ لاستعادة وضعهم بحمير.

غير أنه يبرز رأي آخر يعتمد في جوهره على رواية غير واضحة جاءت في «استشهاد الحارث» ، مؤداها أن الا أصبحه أرسل خمسة عشر ألفاً من / «البرابرة الاثيوبيين» في حملة ضد الحميريين فهلك معظمهم من مشاق الطريق خلال مفـازات ليس بها ماء وشعـاب جبلية «بجنوب اثيوبيا» [305, p.747] . هذه الرواية ساقت إلى ظهور افتراضات خيالية لدى بعض المعلّقين حول أمر الملك اكسـوم إلى الكوشيين ببربرة بالغارة على اليمن من جهة باب المندب أو حتى خليج عدن .

وفي هذه الحكاية الغريبة من « استشهاد الحارث » تنعكس قبل كل شيء التصـورات الجغـرافية لمؤلفه، الذي يتبع الفكرة القديمة التي تزعم بأن آسيا وافريقيا («اثيوبيا») متصلتان معاً في موضع ما بأقصى الجنوب، بحيث يمكن الغارة على أرض حمير من ناحية افريقيا الشرقية مروراً باليابس. وبخلاف هذا يمكن مقارنة هذه الحكاية [222, p.129 ff.] بموضع من رقيم شراحيل يقبول (Ry 507, 7–8 و Ja 1028, 7–8) ، وإن كان مغزاه غير واضح تمام الوضوح لأن معنى اللفظ المفتاح فيه غير مفهوم وهو ق ر ن م [260, p.45 ff.] . على أية حال فإنه لا متن الرقيم الحميري ، ولا «استشهاد الحارث» يقدمان الدليل على أن الاكسـوميين اضـطلعـوا قبـل ٥٢٤ـ٥٢٥ بمحـاولتين جديدتين لإسقاط ذي نواس. وأولئـك المؤرخـون الذين يميلون إلى تصديق حقيقة هذه المحاولات سيواجهـون صعوبة هائلة في تحديد تواريخها على وجه الدقة. فرقيم Ja 1028 يرجع بتواريخها إلى ما بعد احتلال شراحيل يقبول بقليل لنجران في عام ٦٣٣ من التقويم الحميري (أي حوالى عام ٥١٩ للميلاد)؛ هذا على حين يفضّل فان اسبروك M.Van Esbroeck تأريخ الحملة الفاشلة للاكسوميين بعام ٥١٩ وإن اعـترف بأن «استشهـاد الحـارث» يضع «حملة الخمسة عشر ألفاً من البرابراة

الاثيوبيين» في شتاء الاندقطيون الثالث، أي شتاء ٥٢٤/٥٢٥ [222, p.129] .
غير أن اجتياز البحر من اثيوبيا أو الصومال إلى اليمن في ذلك الفصل من السنة لم يكن ممكناً إلّا بالمجاديف عبر باب المندب، لا بالسفن الشراعية الكبيرة لتلك العهود التي كان بامكانها نقل قوات عسكرية كبيرة.

ويجب أن نفترض أن نقل خمسة عشر ألف مقاتل، بل نقل وحدة أصغر من ذلك عشر مرات، إلى بلاد العرب في فصل الشتاء كان أمراً مستحيلاً في القرن السادس. وأكثر ما يمكن أن تضطلع به وحدة غير كبيرة من البربر هو إزعاج مؤخرة الحميريين اليهود فحسب بمنطقة باب المندب.

وعلى ما يبدو فإن الاكسوميين لم يلتحموا لسبعة أعوام في قتال مع ذي نواس، على الرغم من أنه لم يكن باستطاعته خلال ذلك أن يعتمد على عون خارجي؛ بل إنه داخل بلاده نفسها لم يتمتع بتعضيد عام من جميع الأطراف.

٥ ـ اثيوبيا وحمير عشية الحرب بينهما

لماذا لم تحرك اكسوم ساكناً خلال هذه الأحداث؟ إن قرائن الأحوال تشير إلى أن الحرب مع حمير أعاقتها أحداث داخلية، وهي في أغلب الظن نشوب حرب أهلية. ومن رأينا أنه يشير إلى هذا بالذات رقيم لكالب إلا أصبحه [376, p.770-777] تم الكشف عنه منذ وقت غير بعيد باكسوم. هذا الرقيم الذي يقع في أربعين سطراً يشمل حوالي ثلاثمائة وخمسين لفظاً مدوناً باللغة الجعزية ولكن بالكتابة الحميرية للقرن السادس المزوّدة بعلامات إعجام حديثة؛ وتعرّض في مواضع منه لخرم شديد صعّب من قراءاته. وعلى الرغم من ذلك فإن ناشر الرقيم وهو رز اشنايدر R.Schneider يقدّم لنا ترجمة لمعظم سطوره ولألفاظ من الأسطر الأخرى. والترجمة التي نقدمها [هاهنا] تعتمد في الأساس على تفسيرات اشنايدر.

وتضم الأسطر العشرة الأولى ونصف السطر التالي لقب مؤلفه ورمز عقيدته. أما الأسطر الخمسة الأخيرة فيشغلها القسم التكريسي (dedicatory)

للرقيم. وبين الاثنين تقع قصة الأحداث (السطور من الحادي عشر إلى الرابع والثلاثين).

١١ ـ . . . . بعون [الإل]ـه

١٢ ـ قاتلت أجوزت (ء ج ر ت) وخاست (خ س ت) . . .

١٣ ـ بعد أن قسّمت شعبي. وقاتلوا بعنف. . . وقمت (أو أرسلت؟). . .

١٤ ـ بعنف . . .

١٥ ـ . . . . . .و ذاـ ع م ل و ع ن ح قاتلت مع. . . مدينتي. . . ومع. . .

١٦ ـ عدت ف ر [ع ف ر؟] رجل خاره ودكوين و. . . و. . . و. . .

١٧ ـ ساروا نهاراً وليلاً و. . .

١٨ ـ ج ر ع د وقتلوا. . . وهم قتلوا اجوزت

١٩ ـ الذين ارتكبوا المظالم (؟). وارسلت اتجو وجبله(؟)

٢٠ ـ و م ع ط و ج و (اجو؟). وارسلت فلخه و ز ب و (ازابو؟ . . .)

٢١ ـ وقتلوا خاست؛ وتحركت ب. . . .

٢٢ ـ هدّأت (؟) بعد أن حررّتهم من ربقتهم (؟). . . وبعد أن قتلت

٢٣ ـ . . . . . . بقوة الرب . . .

٢٤ ـ وأسرنا . . .

٢٥ ـ . . . أجوزت، وأمرت. . . هم، بعد ذهاب

٢٦ ـ . . . ارسال؛ ووصلت

٢٧ ـ هناك. . . هم، الأرض بهداياهم

٢٨ ـ عشرة (أم عشرون؟)[٢٣] من المئات. . . والبقر

٢٩ ـ بعد عودتهم، الذي كانوا طلبوه منّي، و. . . هم من أجل أجوزت وحملت[٢٤]

---

(٢٣) التهجية ع ش ر يمكن فهمها على أنها «عشرة» أو «عشير» (بمعنى عشرة» أو «عشرين»).

(٢٤) و. . . ل م [و ل ء ج ز] وح ز ل هـ [ن ج س م] ب م ر د (و. . . لومو ل ـ اجويزات و ـ ح ز ل ـ هه نيجوشومو ب ـ ميرد).

٣٠ ـ ملكهم في غارة. وقُتل من أجوزت وخاست أربعمائة من الرجال، ومن النساء

٣١ ـ والأطفال مئات؛ وكان كعدد القتلى والأسرى (أجمع) مئات. . . وسبيت من الرجال والنساء والأطفال. . . مئ

٣٢ ـ آت أربع؛ والقتلى والأسرى (أجمع مئات. . . وغنمت من البقر مئات

٣٣ ـ ثلاث ومن الإبل مائتين. هذا منحه لي الرب

٣٤ ـ . . . . ومنحنى اسم . . . ـ هم (؟) لقتال حمير (؟). وقمت (أو أرسلت). . .

ومعنى الـرقيم واضح بوجـــه العموم. فالملك يشكر الله على النصر الذي ناله على الإمارات العاصية الواقعة في موضع ما من شمال ارتريا الحالية. ويـرد ذكر أجوزت في رقوم الملك الاكسومي عيزنه الذي أخضعهم لسلطانه مرتين على الأقل؛ ويرد في أحـد هذه الرقوم الكلام عن ملك لاجوزت اسمه سوسـوت (س و س و ت) [298, p.18,19] . وفي رقيم آخـر/ عن ملك لاجوزت اسمه أبّا ألكِيو [298, p.24,25] . ومن قبل ظننت سهواً أن إمارة اجوزت قد اختفت في أغلب الظن عقب انهيارها على زمن عيزنه. غير أن رقيم كالب هذا الذي تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد يشهد بالعكس. فأين كانت تقع هذه الإمارة؟

يذكر أحـــد رقـــوم عيزنـه كجـــيران لاجـــوزت شعـــب اتْجَـــوْ [298, p.24,25] (DAE,9,7) . وفي رقيم عدولي المدوّن باليونانية والذي دوّنه ملك اكسومي مجهـــول الاسم ، يرد إلى جانب الشعـــوب التي كانت تـنزل على الحـــدود الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربيـــة لمملكة اكسوم شعب اثجـو (Αθαγαυ) [413, p.74] أيضـــاً . ووفقـــاً لرأي ل. ف. دي ســان مارتان

★ تكازّه هو الاسم الحبشي للنهر، أما السودانيون فيعرفونه باسم نهر ستيت. (المترجم)

L.V. de Saint-Martin. فإن اسم قوم اتجـو حفظ لنا في اسم ناحية اثجو على الضفة اليمنى لنهر تكّازه [371, p.356]★ . غير أن أ. ديلمان A.Dillmann يقطع اسم اثجو إلى اد وأجو، مقرباً اللفظ الأول من التيجرية «دا، أدِّي» («القرية، العشيرة»)، والثاني هو اسم قوم أجَوَ. ووفقاً لرأي ديلمان فإن إمارة اتجو وأيضاً أجوزت، كانتا تقعان إلى الجنوب الشرقي من اكسوم وذلك بنواحي منطقة لاستا حيث لا تزال تعيش إلى هــذه اللحظة مجموعتان قوميتان تتحدثان بلغة الأَجَوْ وهمـــا خَمير وخَمْتـه [208, p.196] . وهـذا التحـديد لهوية اتجـو سانده أكبر المتخصصين في الدراسات الاثيوبية لنهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، وهما [الألماني] إنّو ليتمان E. Littmann [299, p.26] و [الإيطالي] كونتي - روسينى Conti-Rossini [194, p.183] . فبلاد انجبو القديمة التي ورد ذكرها في عديد من الـرقـوم الاكسومية جنباً إلى جنب مع اجوزت، يضعها إنّو ليتمان بناحيه انجـوت وذلك إلى الجنوب من لاستا؛ ثم يخرج بنتيجة مؤداها أنه «إذا ما تم الربط بين انجبو و انجوت فان اجوزت كانت تقع إذن إلى الشرق أو الجنوب الشرقي من اكسوم» [298, p.43;299, p.26] .

أما رقيم كالب الجديد فيتحدث عن اتجو واجو على أنهما في المكانة الأولى اســمان لقومين مختلفين، مما لا يمكن عدّه في ذات الوقت أساساً لوضع إمارة بمنطقة لاستا أو بالمناطق الواقعة على القمم الشرقية للهضبة الاثيوبية. والأرجح أن أجو كانت توجد في أَجَوْ مديره الواقعة إلى الجنوب الغربي من هضبة التيجرة، بينما كانت اجوزت تقع إلى الشمال أو الشمال الغربي من أَجَوْ.

وخاست الواردة برقيم كالب هي على ما يبدو شعب الخاسَه χασα الوارد برقوم عيزنه بصدد حملته على وادي النيل [298, p.32; 195, p.265-266] ، والخاس الوارد ذكرهم لدى المؤرخين العرب للعصور الوسيطة. وكان الخاسة يقطنون إلى الجنوب من البجا، وذلك بين الصحراء النوبية والهضبة الاثيوبية. ويتضح من هذا أن إمارات أجوزت وخاسَت وأَتَـجَـوْ كانت تقع بمناطق شبه صحراوية بين هضبة التيجره والصحراء النوبية ووادي النيل. وتناسب مع هذا

الموقع الجغرافي حرفة السكان وهي تربية الماشية كبيرها وصغيرها، بما في ذلك الإبل.

وقد انتفضت قبائل أجوزت وخاست ضد سياسة اكسوم، وأغارت على أراضي القبائل والجماعات التي احتفظت بولائها لها. وتأتي الإشارة إلى هذا في الأسطر ٢٨-٣٠ حيث يرد الكلام عن البقر الذي استولى عليه ملك اجوزت في الغـارة، وأيضـاً في الأسـطر ١٨-١٩ التي تتحدث عن «المظالم» (عمدا) التي ارتكبتها اجوزت.

وجمـع كالب قوات ذات بال/ لقمـع الثورة. ونلتقي في جيشه بالجنود النظاميين الاكسوميين من قدامى المحاربين «فيل»: وهم دكو إين أودكين وفلحه وكتيبـة «حـرس» الخارة الوارد ذكرهم من قبل في رقيم عيزنه [48] ، وأيضاً وحدات من قبائل مثل اتجو ومآت وجبله وأجَوْ وازبو (إن كان ضبطنا للثلاث الأخيرة لم يتنكب الصواب)؟ .[٢٥] وجبله على ما يبدو كانوا يقطنون على حدود صحراء عفار، أما أجو وازبو ففي ناحية بحيرة تانه. وهكذا تحركت ضد اجوزت وخاست الوحدات النظامية التابعة للإمارات، والقبائل التي دانت بالتبعية على الحدود الجنوبية لمملكة أكسوم. ولم تساند اتجو ثورة اجوزت وخاست، بل على العكس من ذلك أخذت بطرف في قمعها.

ولم يرد في الرقيم شيء بصدد الأملاك الشمالية والشمالية الشرقية لاكسوم بارتريا الحالية، فهل اتخذ حكّامها بما في ذلك حاكم عدولي موقف الترقّب في انتظار ما يسفر عنه القتال؟ أم تعلّق الأمر بمطالب آخر بعرش اكسوم؟

على أي فقد كانت ثورة اجوزت وخاست بمثابة ضربة شديدة لمملكة اكسـوم؛ لأنها عاونت القوة الطاردة من المركز (centrifugal) بأملاكها الاثيوبية والخارجية. فهي قطعت اكسوم من أملاكها بالنوبة العليا وبالصحراء النوبية،

---

(٢٥) في المتن : و ج [.] ل و م ع ت و ج و . . . . و ز ب و. وإنني اقترح قراءتها: وجـ [ب] لا و- معات وأجو. . . وأزَبَوْ.

بل لعلها شكّلت خطراً على عاصمة الدولة نفسها. لهذا لا يمكن الحديث عن حملات بها وراء البحار، طالما لم يتم إخماد العصاة بالغرب والشمال الغربي من هضبة التيجرة.

وفي الحرب مع العصاة « قسمت شعبي » ؛ هذه العبارة تسمح بعدد من التفسيرات. وينبغي فهم الرقيم بأن المقصود بذلك وحدات خاره ودكو إين وثلاث أخرى غيرها وُجّهت في غارة شعواء على اجوزت، هذا بينما أرسلت وحدات فلخه وجبله ومات وأجَوْ وأزبو ضد خاست. ومن بين الستة الأخيرة كانت واحدة اكسومية هي فلخه، وأيضاً وحدات من شعوب الكوشيين. ويلوح أن الأخيرة كانت تكّون القسم الأساسي من القوات التي وجّه بها ملك الاكسوميين ضد خاست، بينما وُجّهت ضد اجوزت أكثرية القوات النظامية للاكسوميين ومعهم « حــــرس » الخارة . ولفـــظ « احزابيه » أو « أحزابي » (أي « شعوبي ») يستعملها ملوك اكسوم، بما في ذلك كالب في رقيم مأرب، بمعنى «جنودي» [165; 332; 54, p.90, note 230] . ومن المحتمل أن اللفظ اتسع انتشاره فوجد طريقه إلى السبئية والعربية في صورة حزب (وجمعها أحزاب) بمعنى «الوحدة العسكرية»، بل الفئة السياسية وغير ذلك . ومن المعلوم أن لفظ «شعب» في الاستعمال الرسمي الاكسومي، وأيضاً في الاستعمال النوبي والحميري المعاصر له، يظهر في صيغة الجمع . فمثلاً إن استعملت اللغات المعاصرة من أمهرية وتيجرية وتجرينية للكلام عن « شعب بلاد ما » لفظ حزب واستعملت العربية والعربية الجنوبية (بحضرموت وسقطرى) لفظ «شعب» فإنه في العصور الوسيطة المبكرة وفي العصور القديمة كانت لغات هذه الاقطار تستعمل صيغ الجمع «أحزاب» و «شعوب» التي حفظت معنى «الجماعة» أو «الأمة بوصفها جمّاع الجماعات» ؛ هذا بينما اقتصر مفرد هذا اللفظ/ ليعني «القوم» .

أخيراً يجب التنوية بأن العبارة «قسّمت أحزابي» لها صبغة رسمية للغاية، حيث توشك أن تكون الطابع الأدبي للنقوش الكتابية الملكية لاكسوم ؛ هذا إلى جانب أنها معروفة لنا من رقوم عديدة.

إن ما اتصف به رقيم كالب من اقتضاب، مضافاً إلى ذلك الحال السيئة التي وجد عليها، ليس من شأنه أن يسمح بأن نستخرج منه تفاصيل «الحملة الافـريقية» لذلـك الملك. فهـو يسـير على نمط النقـوش الرسمية ويستعمل العبـارات المردّدة (stereotype) ليحكي لنـاعن إخماد كالب لعصيان القبائل، وكيف أنها فقدت أربعمائة رجل وبضع مئات من النساء والأطفال، بينما وقع في السبي أربعمائة شخص؛ هذا بجانب أخذه الكثير من الغنائم لاسيما القطعان؛ ثم كيف انتهى الأمر بحمل شعب اجوزت للإتاوة وإعلانه الخضوع.

وهكذا استتب الوضع بالنسبة لكالب إلا أصبحه بالقارة الافريقية فأخذ يخطّط لفتح حمير ـ ء ض ب ء ح م ر؛ هذا إذا ما اتبعنا اشنايدر في تفسيره للسطر ٣٤ من الرقيم الجديد.

ومما لا شك فيه أن كالب والا أصبحه إن هما الّا شخص واحد. وكما هو الشأن مع عدد كبير آخر من ملوك اثيوبيا في العصور الوسيطة فقد حمل اسمين، إن لم يكن أكثر [398, p.56 (ff.),62–64] . فباسم إلا أصبحه (مع تشويه كثير وقليل للاسم) تدعـــوه المصادر الآتيـة : رقيم سميفع أشوع باللغة السبئية (CIH 3904,6) ، و« قوائم الملوك » ، وقزما الذي أبحر إلى الهند، ونّنوس، ويوحنا ملالـه، وثيوفـان، و «استهشـاد الحارث»، و «سيرة جريجنتي»، وبروقوبيوس القيساري والمصادر التي اعتمدت عليه. أما الاسم التوراتي كالب فنلتقي به في «قوائم الملوك»، وفي السكة، وفي رقيم اكسوم الذي تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد، وفي «كتاب الحميريين». وفي رقيم اكسوم يرد اسم الملك على أنه «كالب إلا أصبحه ابن تزنه، أهل لزن» [376, p.771, 773] ؛ مما يزيل في آخر الأمر أي شبهة في أن كالب إنما هو إلا أصبحه.

وفي رقيم سميفع أشوع يظهر اسم إلا أصبحه في صورة ء ل ء ب ح هـ، باسقـاط حرف الصاد. وبطبيعة الحال فإن حرف الهاء ظهر كما هو الحال في العربية في انطباق تام مع القاعدة: فإن كان مدوّن الرقيم لم ينسخ النطق الأثيوبي

بمثل هذه الدقة ، بل دوّن اسم الا أصبحه على الطريقة السبئية ، لظهر حرف التاء التي تلحق بنهاية الأسماء.

ومن بين جميع المؤلفين الأجانب كان أدقهم جميعاً في تدوين اسم الا أصبحه هو قزما الذي أبحر إلى الهند؛ فهو يدوّنه باليونانية في صورة الآ تسبآ (س) Ελλατζβααs [310, p.56; 413, p.72] . وإذا ما أخذنا في حسابنا أن اللغة اليونانية لا تعرف الحرف السامي ح الذي كثيراً ما سقط في الاستعمال، وأن حرف الصاد قد تحوّل منذ العهد الاكسومي فيما يبدو إلى حرف (تس) اليوناني، وأن ألف اصبحه اندمجت في أغلب الظن مع حرف الألف في الكلمة السابقة لها؛ فإن الدقة المتناهية في تصوير الاسم الاثيوبي بالأحرف اليونانية لتسترعي النظر حقاً. وحكماً من تهجئة قزما وغيره من المؤلفين الأجانب فإن اسم الملك إلّا أصبحه كان ينُطق بفتح الباء، وفقط في وقت تال جنح نطقه إلى الإمالة؛ وكان في هذه الصورة الأخيرة أن ظهر «بقوائم الملوك» وفيما بعد في المؤلفات التالية لذلك. ويعني إلّا اصبحه باللغة الجعزية «الأصبح والحاصل على انبلاج الصباح». ويضغط المؤرخون الاثيوبيون/بصورة خاصة على المغزى الرمزي لذلك الاسم لان نشاط إلا أصبحه يتفق مع انبلاج صباح النصرانية باثيوبيا. فعلى عهده أشرقت شمس العقيدة النصرانية التي لم تلبث أن أصبحت بالتالي الدين الرسمي للدولة. غير أن السياسة الدينية لإ لا أصبحه كان لها جوانبها الايجابية والسلبية معاً، كما كان لها انتصاراتها وهزائمها؛ أضف إلى هذا أن الحروب التي خاض غمارها إلا أ صبحه والمعترفون له بالتبعية لم تعط النتائج المرغوبة في آخر الأمر.

وتتفق المصادر في تصوير الا أصبحه كرجل مستنير محب للاستطلاع، وكحاكم متزن وراع للمعارف العلمية والدينية. كذلك تشهد روايات بعض المؤلفين المعاصرين له باهتمام ليس بالقليل بالتاريخ من جانبه. فقد أصدر أمراً إلى حاكم عدولي بأن يبعث إليه بنسخة من الرقوم اليونانية المنحوتة على ما أطلق عليه «عرش بطليموس» وعلى النصب الذي أقامه إلى جانب ذلك «العرش»

أحد ملوك اكسوم القدماء[٢٦] . ومن الممكن أن هذا الاجراء له صلة ما بالحملة التي أعدّت ضد حمير وبالنصر الذي يقال إن الا أصبحه حازه على حاكم عدولي الذي يدعوه قزما «الارخونت» . ذلك أنه بالنسبة لملك اعتنق النصرانية بصورة نهائية فإن المذبح الوثني («العرش») ليس من شأنه أن يتمتع بقيمة دينية .

غير أن اهتمام ملك اثيوبيا بالوثائق التاريخيـــة من العسير القول بأنـــه خـــلا من اعتبارات سياسية ؛ بل على العكس من ذلك لعلّ من الطبيعي أكثر أن نقول إنه لعب دوراً من الدرجة الأولى ؛ لهذا وجب أن نعترف بأن عرفان شهيد محق في افتراضه أن نسخة الرقيم الذي نقشه ملك اكسومي مجهول الاسم قد احتاج إليها الا أصبحه لكي يوكّد حقوقه على الجنوب العربي ؛ ذلك أن رقيم سلفه يتحدث عن حملة إلى تلك البلاد وعن اخضاع الأكسوميين لها إخضاعـــاً تامـــاً [384, p.153] .

ولقد عدّل إلاأصبحه بصورة حادّة من السياسة الدينية لمملكة أكسوم . فالتسامح الديني العريض الذي عرفته البلاد في الماضي والحماية المعتدلة التي بُسطت على النصارى، حلّ محلها الآن نشاط مكثّف لنشر النصرانية التي تم إعلانها ديناً رسمياً للدولة . والروايات المتواترة للتاريخ الاثيوبي تصوّر إلاأصبحه حامياً «لانبـلاج صبـاح» النصرانية، وتـزعم أن على عهده نشط «القدّيسون السبعة» . ومن الممكن أنه في فترة حكم الا أصبحه بالذات نقلت أقسام عديدة من العهدين القديم والجديد إلى اللغة الجعزية، وأيضاً أسفار نصرانية أخرى .

وانعكس التحوّل الحاد للاتجاه الرسمي في كتابات السكة الأثيوبية ؛ ففي مكان «المصطلحات الدياجوجية» السابقة [48] ، احتوت سكة كالب على الألفاظ τεου ευχαοιστ'ια « الشكر لله » [408, p.36–38, 72 ff.] . ولقد اضطر

(٢٦) يروي قزما الذي أبحر إلى الهند أن إلاأصبحه عند تهيئته للحملة على الحميريين كتب الى حاكم ادوليس (عـدولي) يأمـره بعمل نسخة للرقيم الذي على «عرش بطليموس» والذي على النصب ويرسل بذلك إليه . فكلّف الحاكم «واسمه اسبس» قزما و«تاجراً آخر اسمه مينا الذي أصبح فيها بعد راهباً في ريتو ومات منذ عهد غير طويل» القيام بذلك، فاضطلعا به على خير ما يكون ولكن قزما احتفظ لنفسه بنسخة من ذلك [310, p.56; 413, p.72–73] .

حدة العداء الديني في الجنوب العربي، ومن المحتمل في أثيوبيا أيضاً في أغلب الظن، اضطر ملك اكسوم إلى أن يحدّد بدقة موقفه من الأديان مستعملاً في ذلك جميع امكانيات السلطة الحكومية. (ويضع «كتاب الحميريين» على لسان كالب ملاحظات ذات مغزى كبير؛ فقد عدّ الحميريين برابرة واعتبرهم دونه ودون بني وطنه بكثير من حيث المستوى الروحي (329, p.55b, CXXXIX) .

ومن الأهمية بمكان التنبيه إلى أن الاثيوبيين لم يعتنقوا النصرانية في شكلها الارثوذكسي، أي الدين الرسمي لبيزنطة. بل اعتنقوا المونوفيزية، التي جرى تارة اضطهادها وطوراً التسامح معها بالأقطار الشرقية للامبراطورية البيزنطية. وكما بيّنا فيما مر فإن الأسقف الاكسومي او بروبيوس ويوحنا الذي خلفه فيما يبدو قد عينهما البطريرك المونوفيزي للاسكندرية. كذلك كان البطريرك الاسكندري هو المرجع الروحي الأول لإ لاأضبحه؛ وفي هذا لا تنعكس الروابط البعيدة الأمد لاكسوم مع مصر وللكنيسة الاثيوبية الفتيّة مع المونوفيزية المصرية فحسب، بل أيضاً سياسة ملوك الاثيوبيين الرامية في وقت واحد إلى تدعيم الروابط مع بيزنطة وإلى الاستقلال عنها.

وبعد أن أخضع إلاأصبحه التابعين العصاة ودعمّ سلطته باثيوبيا، أضحى واضحاً أن اكسوم ستكون متهيئّة في المستقبل القريب للقيام بعمليات عسكرية بالجنوب العربي.

وقرابة عام ٥٢٤ تجدّد وتدعّم بصورة نهائية أيضاً الحلف السياسي والعسكري للامبراطورية الرومانية الشرقية مع مملكة اكسوم ونصارى الجنوب العربي الموجّه ضد ذي نواس. وكانت كل من بيزنطة واكسوم تسعيان ما أمكن للتقارب الدبلوماسي. ولم تكن بيزنطة وحدها هي التي أخذت بزمام المبادرة كما ظن الباحثون السابقون، بل كذلك الجانب الاثيوبي. فالسفارة الكنسية للاكسوميين إلى الاسكندرية لم يكن من شأنها ألاّ تطرق المسائل السياسية الراهنة. كما أن نتيجة المفاوضات أبلغها بطريرك الاسكندرية إلى الامبراطور يوسطين الأول فيما يبدو. إذ أعقب هذا توجيه يوسطين بسفارة إلى أكسوم تحمل

مكتـــوبـــاً إلى إلا أصبحـــه . وبنفس الأسلوب تصرف طيمثـــاوس بطريرك الاسكنــدرية (٥١٧ ـ ٥٣٥) بأمر الامبراطور، فأرسل إلى الاأصبحه ببركات رهبان النطرون والاسقيطيين، وأيضاً ببركاته هو وبالهدايا [305, p.743] .

وقـد عرض امبراطور بيزنطه على الا أصبحه القيام بهجوم مشترك على حمير. وكانت خطة الحملة ترمي إلى ارسال قوات بيزنطية إلى اثيوبيا بطريق البر مجتازة مصر ومارة بميناء برنيقى المصرية وأراضي البلميين والنوباديين، لتنضم إلى الاكسوميين ثـم تنزل القوتان في الجنوب العربي [305 p.743] . وشطر من الطريق المقترح كان على القوات البيزنطية أن تجتازه مخترقة أراضي النوبيين والبجا المرتبطين سياسياً بطريقة أو أخرى مع الامبراطورية البيزنطية ومملكة اكسوم . وهذه الخطة لم توضع موضع التنفيذ؛ بسبب وعورة الطريق [94, p.298; 346, p.242] ، ولكن في رأينا أن السبب الأساسي كان عدم رغبة الاكسوميين في أن يأذنوا لقوات اجنبية أياً كانت بدخول أراضيهم أو أراضي المعترفين لهم بالتبعية حتى وإن كان هؤلاء الأجانب حلفاء لهم . ويلوح أنه لهذا السبب لم يتم ارسال القوة البيزنطية إلى اثيوبيا، سواء عن طريق البر أو البحر. وبهذا فإن القوات العسكرية لبيزنطة لم تبلغ أرض حمير؛ واضطر الامبراطور إلى الاقلاع عن فكرة التدخل المباشر في شؤون الحميريين والاكسوميين .

غير أن قوات ذي نواس كانت من العدد بحيث لن تكفي للقتال ضدها مثل تلك الوحدات الاكسومية العادية التي أرسلت في الماضي على سفن محلية . لذا فقد اتجه النجاشي وفقاً للرواية العربية إلى الامبراطور يرجوه امداده باسطول [10, p.926; 80, p.22,26] . وهـذه الـواقعة تؤكدها المصادر البيزنطية كذلك (انظر مايلي) .

وبخلاف جيش أكسوم فقد استعد للغزو أيضاً نصارى الجنوب العربي الذين كانوا التجأوا إلى اثيوبيا؛ وبعام ٥٢٤ كان قد تجمع بها مهاجرون عديدون من شتى أنحاء مملكة حمير. بل ووجد بينهم ممثلو طبقة الأعيان من نصارى وغير نصارى؛ مثل سميفع أشوع من عشيرة يزن وهو أخو شراحيل يقبول وابن عم

الملك يوسف نفسه (انظر ما مر) . وكان من أغنى رعايا ذي نواس وأشرفهم محتداً وأكثرهم نفوذاً، وظل باثيوبيا معترفاً به رأساً للمهاجرين الحميريين[٢٧] . وفي عام ٥١٧ ـ ٥١٨ قاتل سميفع أشوع مع إخوته وأقاربه إلى جانب ذي نواس ؛ وحكماً على ما جاء بالرقوم فقد اعتنق اليهودية . ومن المؤسف أننا لا نعلم كيف تخاصم مع الملك ليجد نفسه في المهجر. ومن الممكن أنه حدثت انقسامات داخل عشيرة يزن أدت إلى قمع ذي نواس لأقاربه . على أنه حتى أولئك من بينهم الذين اعتنقوا اليهودية (وتذكرهم الرقوم ، بما في ذلك Ja 1028 و Ry 515,) من العسير القول بأنهم أخذوا جانب ذي نواس دون قيد أو شرط . ويبدو أن سياسة التمركز والتوحيد التي اتبعها يوسف نفرت أعيان الجنوب العربي منه ، كما نفرت أيضاً أفراد الجماعات المنضّمة إليه . وتزايد السخط وعدم الرضا بالبلاد من ادارة ذي نواس وضاعف من ذلك المصاعب الاقتصادية ؛ إذ تحاشى التجار النصارى مملكة حمير سواء عن طريق البر أو البحر ؛ كما بدأت الحكومتان البيزنطية والاثيوبية حصاراً اقتصادياً علي حمير. وهكذا آل حكم ذي نواس للسقوط .

ثم جاءت اللحظة الحاسمة لإلا أصبحه وحلفائه لاتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة الغزو. فحوالى عام ٥٢٤ نضجت خطتهم لغزو الجنوب العربي ، وكانت أنموذجاً رائعاً للاستراتيجية العسكرية والسياسية لاكسوم . وكان من الضروري أن يسبق الغزو المباشر للقوات الاثيوبية انزال المهاجرين من الجنوب العربي الذين كلّفوا ببث الاضطراب وراء خطوط الحميريين ، وتشجيع المتردّدين على هجر الملك والانضمام إلى الغزاة ، وإثارة الساخطين لحمل السلاح ضده ، وتخريب وسائل الدفاع المعدّة بالساحل ، وتجريد القتال بين ذي نواس والاكسوميين من أي طابع وطني ، وأخيراً تهيئة الوضع لنزول القوات الاثيوبية .

---

(٢٧) وفقاً لقول قزما الذي أبحر إلى الهند فإن «ارخونت» عدولى في ذلك الأوان كان شخصاً يدعى اسبس Ασβας و [413, p.72] . هذا الاسم يقرأه ف . التهيم ور. اشتيل «اشوع» على افتراض أن الأمر يتعلق بسميفع أشوع [125, p.465 . وفي رأينا أنه لا توجد أسس كافية لتبرير هذا الافتراض . ويفضّل ج . و. مكر يندل قراءة الاسم على أنه عباس 310, p.56 .

ويبدو أنه في ربيع عام ٥٢٤ (وكانت الرياح الموسمية قد بدأت في الهبوب بمنطقة باب المندب وخليج عدن من السواحل الافريقية منذ شهر فبراير) نزل المهاجرون من الجنوب العربي على ساحل اليمن الجنوبية، وذلك على مسافة خمسمائة كيلو متر إلى الشرق من/عدن بموضع يحمل حالياً اسم حصن الغراب. فهنا وجدت ثلاثة مراس ممتازة للسفن، أحدها «بمضيق قصير وضيّق يحيط به من جهة جزيرة صخرية منخفضه ومن الجهة الأخرى جرف عال شديد الانحدار»؛ أما الاثنان الاخران فيمثلها خليجان بالجزيرة يقف أحدهما بمعزل من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية والآخر بمعزل من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية. ويضيف ج. ر. ولستد G.R. Wellsted الذي ندين له بهذا الوصف الذي يرجع إلى عام ١٨٣٤ أن الجزيرة ارتبطت على عهده بالقارة ببرزخ رملي، ولكنها كانت بالتأكيد منفصلة عنها تماماً في العصور القديمة (المرجع نفسه 100a, p.266). أما اسم حصن الغراب فقد حمله على وجه الدقة الساحل القاري المرتفع، فهنا توجد أطلال لقرية وحصن لا يؤدي اليها سوى ممر ضيّق يمر بحافة الهاوية. ومما لا شك فيه أنه من حيث تضاريس الأرض فإن موضع النزول قد اختير بالكثير من التوفيق. غير أنه لا يقل أهمية عن ذلك أن حصن الغراب كان قريباً من الأملاك التقليدية لعشيرة يزن. ويمكننا أن نتصوّر مبلغ الحماس الذي قوبل به القيل سميفع من طرف أتباعه المخلصين بالقرى المحيطة. وجنباً إلى جنب مع المهاجرين شرع الفلاحون الذين ينتمون إلى جماعات اليزنيين في تهيئة حصن ماويت الذي قدّروا أنهم سيصمدون فيه ضد قوات ذي نواس قبل وصول العون من اثيوبيا.

ويمكن القول إن الحصن الواقع على قمة حصن الغراب كان من المتعذر الوصول إليه؛ ولا تزال أطلاله ماثلة إلى اليوم. أما قلعته الرئيسة فأشبه ما تكون ببرج مربعّ مبني بقطع من الصخر. وعند مدخل القلعة وذلك في ثلث الطريق الذي يُفضي من قاعدة التل إلى القمة نحت بناة الحصن على صخرة عمودية تطل على الممر الوحيد، ورقيم لا يختلف عن الرقوم التقليدية في شكله ولكنه كان في جوهره إعلاناً للثورة [270].

وقد عجز ذو نواس عن القضاء على الثوار، إذ ساندهم السكان المحليون وهرع إليهم فيما يبدو النصارى وغيرهم من الساخطين من جميع أنحاء اليمن. وحكماً من الرقيم فقد وجد بين المهاجرين الثوّار ممثلو العديد من القبائل والمدن ـ من نجران في الشمال إلى قتبان وحضرموت وحدود عمان في الجنوب. ومن الممكن أن بعض أسماء الأعلام و المواضع الواردة بالرقيم تنتمي إلى اثيوبيين ممن صحبوا مهاجرى الجنوب العربي في هذه المغامرة [78, p.46-48] . ومن المؤكد وجود عدد ليس بالقليل من النصارى، غير أن الغالبية بما في ذلك سميفع أشوع نفسه لم تكن قد اعتنقت النصرانية بعد. وكان سميفع اشوع ، وفقاً لوضعه وتبعيته الدينية والسياسية ، هو الشخص الذي من الممكن أن تلتف حوله أكثر العناصر المتشاكلة بالمجتمع الحميري. وهكذا وجد ذونواس نفسه ببساطة وسط حرب أهلية، اتخذ فيها معظم رعاياه موقف الحياد أو انضموا إلى أعدائه. /وقد نجح الثوار الذين نزلوا بحصن ماويت في خلق ما يطلق عليه في مصطلحنا المعاصر «منطقة محرّرة»، واجتذبوا إليهم قوات ذي نواس الذي اضطر بهذا إلى إضعاف الدفاع عن الساحل الغربي لبلاده ـ أي الموضع التقليدي لنزول القوات الاثيوبية بالجزيرة العربية.

ويرى أ.ج. لندين أنه وجدت خطة أخرى لحرب عام ٥٢٤ ـ ٥٢٥. ووفقاً لقوله فإن حصن ماويت «كان الغرض منه أن يكون أيضاً نقطة ارتكاز للغزو الحبشي القادم. حقاً إن سميفع لم يشارك في قتال الا أصبحه ضد يوسف، ولكن من الممكن تفسير هذا بأن الظرف تغيّر بحيث أضحى تدخّله غير ضروري» [78, p.48-49] . على أن الثوار وعلى رأسهم سميفع أشوع حالوا بين أنصار ذي نواس بالقسم الجنوبي من مملكة حمير وبين الانضمام لمليكهم، وبهذا قاموا بما فيه الكفاية لخلق ظروف حرب أهلية في الجنوب العربي. هذا يفسّر إلى حد كبير رد أقيال الجنوب العربي على ذي نواس (وفقاً للرواية العربية المتواترة) عندما استدعاهم في لحظة نزول القوات الاثيوبية: «فليقاتل كل عن ناحيته» [10, p.929]. وبخلاف هذا لم ينجح اليهود الحميريون على ما يبدو في السيطرة على ارخبيل فرسان الذي قطنته تلك القبائل الداكنة اللون نفسها من

تهامة اليمن، مثل سكان ساحل اشعران الذي قام فيه أيضاً أنصار ذي نواس يوماً ما بمذبحة. وكان سكان فرسان وفقاً للرواية العربية المتواترة يعتنقون النصرانية في ذلك الوقت. ويقول الهمداني بصددهم: «وفرسان قبيلة من تغلب وكانوا قديماً نصارى ولهم كنائس في جزائر الفَرسَان، وفيهم بأس وقد حاربهم بنو مجيد. وحملوا التجارة إلى بلاد الحبش ولهم في السنة سفرة فينضم إليهم كثير من الناس. ونُسّاب حمير يقولون إنهم من حمير» [70, p.137,140] .

ويفيدنا «استشهاد الحارث» أنه قدمت في عام ٥٢٥ إلى مرفأ عدولي المسمى غبزه، وذلك للمشاركة في نقل القوات الاكسومية إلى الجزيرة العربية (أو ربما للمتاجرة فقط؟) سبع سفن من «جزيرة فرسان» [305, p.747] ؛ التي يفهم منها على ما يبدو «الفرسان الكبير» وهي الجزيرة الكبرى بالأرخبيل. ومن العسير القول إن هذه السفن كانت للاثيوبيين الذين لم يوجد ما يدعوهم إلى ارسال هذا العدد من سفنهم في وقت اضطربت فيه التجارة مع الجنوب العربي. والارجح أن الأمر يتعلق بسفن لأهل فرسان كانت تمخر البحر الأحمر وتعمل كوسيط لنقل التجارة من المواني البيزنطية والعربية الشمالية إلى اثيوبيا. ووجود سفن لأهل فرسان في «جيش الغزو» الاكسومي، وكان من الواضح أنها تحت قيادة فرسانيين، إنما يقف شاهداً في مصلحة الرواية التي تقول بنزول الغزاة بمنطقة أشعران؛ وهو ما حدث في واقع الأمر.

من هذا يبدو أن الثوار العرب الجنوبيين بحضرموت و/فرسان اضطلعوا بالمهمة التي ألقيت على عاتقهم. وبهذا جاءت لحظة تنفيذ الغزو المزمع على يد القوات الاكسومية. ففي صيف عام ٥٢٥ كان كل شيء معدّاً للغزو. وتجمع بمرفأ غبزه اسطول نقلي هائل يتكون من سبعين سفينة. ويصفه لنا بالتفصيل «استشهاد الحارث» الذي يحدّد عدد السفن التي قدمت من هذا الميناء وغيره. ومن الجلي أن أنموذج تعداد السفن هو مقابله من «إلياذة» هومير. ولقد تم جمع السفن من مختلف « المواني الرومانية والفارسية والاثيوبية » ومن جزيرة فرسان [305, p.747] . ومن ناحية أخرى فإن أسماء المواني الفارسية والاثيوبية غائبة في هذا التعداد . ومن الممكن أن الإشارة إلى الأولى سببّه خلط اسم فارس مع

اسم فرسان . أما فيما يتعلق بالمواني الاثيوبية فلا بد أن كان من بينها غبزه (فرضة عدولي) وسواكن إلى الشمال و أواليت ومواني القرن الافريقي إلى الجنوب . غير أن هذه الأخيرة بما في ذلك أواليت كانت منقطعة في ما يبدو عن عدولي بسبب الحصار الذي ضربه الحميريون اليهود على باب المندب .

ومن المؤسف أن متن « استشهاد الحارث » لا يعين في تحديد تبعية السفن التي تم جمعها بمرفأ غبزه ـ فهل كانت لمملكة اكسوم أم كانت ملكاً لتلك المواني التي قدمت منها . على أن الاحتمال الثاني هو أقربها إلى الصحة في تصورّنا . والأرجح أنها كانت سفناً تجارية أجنبية تم التحفظ عليها بمرفأ غبزه بأمر كالب . فالاحتمال ضيئل بأن سفناً من الهند وبلاد الفرس أرسلت خصيصاً من تلك البلاد للمشاركة في حرب الاكسوميين ضد حمير. أما فيما يتعلق بالسفن القادمة من المواني البيزنطية فإن المصادر اليونانية البيزنطية لا تذكر شيئاً البتة بصدد ارسالها بواسطة السلطات بمصر وفلسطين أو بواسطة الإدارة الامبراطورية ، ولذلك تقاعس بروقوبيوس القيسساري ومؤلف «استشهاد الحارث» عن الاستفادة من هذه الواقعة لأجل تمجيد السياسة البيزنطية . وقد اقتصر بروقوبيوس على القول بأن «الا أصبحه جمع اسطوله وجيشه وهجم» على الحميريين 30, p.272–273; 249, t.I,p.107 .

وكما ذكرنا قبل قليل فقد قدمت من جزيرة الفرسان الكبيرة إلى غبزه سبع سفن . وقدمت تسع من الهند . وفيما بعد وصلت عشر سفن «هندية» . وفي ذلك العهد كان من الممكن أن يفهم من اسم «الهند» إما بلاد الهند نفسها أو اثيوبيا أو الجنوب العربي . ومن الممكن استبعاد الأخيرة بسبب انقطاع العلاقات بين اكسوم وحمير. كذلك فإن اثيوبيا ورد ذكرها في بداية التعداد، بحيث لا يوجد مجال لخلطها «بالهند» . ومن ثم فقد بقيت الهند ومعها سرى لانكا ، حيث أبصر مؤلف الكتاب المنسوب خطأ إلى كاليستين Pseudo – Callisthenes وقزما الذي

أبحر إلى الهند سفناً من اثيوبيا وعدولي [351, p.278;413, p.324] . أما القسم الأكبر من الاسطول الذي احتيج إليـــه لنقل القوات الاكسومية فقد جاء مـــن الأملاك البيزنطية : من مصر (عشرون سفينة مـــن القلزم واثنتان من برنيقي المصريـــة) ومن فلسطين (خمس عشرة من أيلة وسبـــع سفن مـــن يوتابه) [305, p.747] .

وكان موضع اجتماع الاسطول المتحد هو مرفأ غبزه بعدولي [305,p.747] الـذي يقـــع على بعـــد اثني عشـــر استاديون مـــن تلك المدينـــة [30, p.250; 249,t.l,p.103] . ولم يتكـوّن الاسـطول من سفن مختلف الأقطار فحسب، بل ومن مختلف الأنواع . ويقدم لنا بروقوبيوس وصفا لإحداها ، كانت واسعة الانتشار فيما يبدو، وذلك في حديثه عن البحر الأحمر فيما يتصل بحملة الاكسـوميين بالـذات عام ٥٢٥ . ومن المؤكـد أنـه استقى معلوماته هذه من البيزنـطيين الـذين شاركـوا في الحملة ، أو من السفراء البيزنطيين . وهو يميّز بوضوح بين السفن «الرومية» و «الهندية» ، فيقول بصدد الأخيرة «وجميع السفن المستعملة بالهند وفي هذا البحر (أي الأحمر) ليست مبنية كما هو الحال مع السفن عادة (أي الرومية). فهي ليست مقلفطة بالقار أو بغيره، كما أن ألواحها غير مثبته بمسامير الحديد بل موثوقة بالحبال» [30, p.251; 249. t.l, p.103-104] . ويضيف بعد ذلك : «وليس السبب في هذا ما يفترضه معظم الناس بوجود نوع من الصخور هنا يجتذب إليه الحديد . ومما يقف شاهداً على خطل هذا القول أن السفن الـــرومية تبحـــر من أيله في هذا البحـــر فلم تتعـرض لشيء من هذا القبيل، علـى الـرغـم من أنها مشبكّـة بكمية كبـيرة من الحديد» . هذا صدى للأسطورة البحرية فيما يتعلق بالصخرة التي تجتذب الحديد . و يختتم بروقوبيوس قولـه «إن اليهود والاثيوبيين لا يوجد لديهم الحديد أو المواد الأخرى الصالحة لهذا» [30, p.253; 249, t.l,.p.104] . وتوكد الرواية العربية أن سكان البصرة لم يستعملوا الحديد في بنـــاء السفن الاّ على عهد الحجـاج بن يوسف [16, p.233]

أما سكان عدن وسواحل البحر الأحمر فلم يتعرفوا على هذه الطريقة إلاّ في عهود تالية لذلك★.

ولم تكن حمولة السفن «الهندية» كبيرة بطبيعتها. وثمة مصدر عربي من بداية القرن السابع يدفع إلى الاعتقاد بأن السفن المحلية لم تكن تنقل أكثر من عشرين مسافراً [10, p.1181] . حقاً إننا نلتقي في الشعر الجاهلي بأمثلة لسفن عدولية كبيرة حسب مفهومهم ؛ فالشاعر طرفة [بن العبد] يتغنى بسفن عدولي، كما أن كثيّر [عزّة] يشبه حمولة ركوبته بحمولة السفن العدولية المبحرة من جزر دهلك [200, p.204] .

أما بالمصادر الاثيوبية للعصور الوسيطة المبكّرة فلا نلتقي البتة بوصف لسفن ما. وفيما يتعلق بتسمية السفن فإن المراكب النيلية الوارد ذكرها في الرقيم DAE 11 ، وأيضاً سفن البحر الأحمر التي نقلت القوات الاثيوبية إلى بلاد العرب عام ٥٢٥ كما ورد الكلام عليها في رقيم كالب بمارب، وكذلك أنواع السفن

★ جاء لدى ابن جبير (الرحلة، طبعة ليدن، ص ٧٠) : «والجلّاب (المراكب) التي يصرفونها (أي أهل هيذاب) في هذا البحر الفرعوني ملّفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة انما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيّط ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخلّلونها بدرس من عيدان النخيل. فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها. وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى فيه. ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري. وعود هذه الجلّاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور. ومن أعجب أمر هذه الجلّاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل [أي الدَوْم ـ المترجم]، فمجموعها متناسب في اختلاف البنية ووهنها». كذلك يرد لدى المقريزي (الخطط، الجزء الأول، ص ٢٠٣) في وصفه لجلّاب البحر الأحمر التي كانت تحمل الحجيج بين عيذاب وجدّه : «وجلباتهم التي كانت تحمل الحجاج في البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما يخيط خشبها بالقنبار وهو متخذ من شجر النارجيل، ويخللونها بدسر من عيدان النخيل، ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش وهو حوت عظيم يبتلع الغرقى ؛ وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل». (المترجم). .

المختلفة الواردة في الترجمات الاثيوبية للعهدين القديم والجديد؛ أقول جميع هذه أطلق عليها على السواء لفظ حَمَرَ (والجمع أحمار أو إحمار). غير أن السفن الرومية نفسها، سواء بالبحر الأحمر الذي لم تكن وسائل القتال البحري قد طوّرت فيه بصورة كبيرة، أو بالبحر المتوسط، لم تكن ذات حجم كبير للغاية وإن فاقت السفن «الهندية» في حمولتها.

ومن المحتمل أنه لم يحدث أن وجّهت اكسوم بطريق البحر مثل تلك القوة الكبيرة، بل يستبعد أن تكون أرسلت مثلها في الأزمنة التالية. / ويقول الطبري إن عدد من نزل من الجيش ببلاد العرب لفتحها كان يبلغ السبعين ألف مقاتل [10, p.927]. أما «استشهاد الحارث» وهو مصدر أقرب إلى زمن الأحداث فيورد عدداً أقل من ذلك بكثير وهو خمسة عشر ألفاً [305, p.747] (٢٨). ومن رأي بيغولييفسكيا أن هذا العدد نفسه مبالغ فيه بوضوح «لأن السفن السبعين التي كانت تحت تصرفه (أي إلاأصبحه) لم يكن بوسعها أن تقلّ مثل هذا العدد من الجند» [94, p.300;346, p.243]. غير أن أ. ج. لندين على العكس يرى أن «العدد... لم يبالغ فيه: فرقيم شراحيل وحده يعدّ خسائر اعدائه بأربعة عشر ألف قتيل واحد عشر ألف أسير (Ry 507,8)؛ وبهذه الصورة فقد كان الحميريون يمثلون بالنسبة لإلاأصبحه عدواً لا يستهان به حيث أن جيشه البالغ تعداده خمسة عشر الفاً لم يكن شيئاً كبيراً للغاية... ونقل هذا العدد يحتاج إلى عدد من السفن بمعدل سفينة لكل مائتين من الرجال ـ وهو عدد بدوره ليس بذلك القدر من الكبر. فالحملة البحرية للفرس بالجنوب العربي التي اجتازت مسافة أكبر بكثير كان معدّاً لها سفينة لكل مائة شخص. أضف إلى هذا أن الجيش الاثيوبي نزل بموضعين، ولهذا فمن الممكن أن نفترض أن الاسطول اضطلع بنوبتين لنقل القوات» [78, p.49, et note 121]. هذه

---

(٢٨) بل إن الرواية الأرمنية «لاستشهاد الحارث» تزعم أن الأصبحة (اجزبوم Egezbovam) خرج في حملته ضد دوفنس (ذي نواس) بجيش بلغ تعداده مائة وعشرين ألف فارس ومائة وتسعين الف راجل أقلّتهم ستون سفينة [222, p.124-125].

هي الحجج التي أوردها أ. ج. لندين؛ وهي تبدو لنا مشوّشة في جميع نقاطها.

فأولاً خسائر اعداء شراحيل لا علاقة لها بالاثيوبيين. وكانت خسائر الأعداء الأفارقة لعيزنه وكالب أقل من ذلك بعدة مرات. فعندما كسر الاثيوبيون قبائل الأفان الأربع، قتل الاكسوميون سبعمائه وخمسة أشخاص كان من بينهم خمسمائة وثلاثة من الرجال ومائتان واثنتان من النساء [299, p.29]. وفي الحملة ضد النوبيين عندما اجتاح الاكسوميون جميع النوبة العليا والوسطى قتلوا سبعمائة وثمانية وخمسين شخصاً، كان من بينهم ستمائة واثنان من الرجال ومائة وست وخمسون من النساء والأطفال [299, p.36]. ويقول كالب بعد قمعه لعصيان اجوزت وخاست إنهم فقدوا أربعمائة قتيل من الرجال وعدداً من النساء والأطفال (راجع ما مر). وبهذا فإن خسائر أعداء الجيش الاكسومي تراوحت بين اربعمائة وستمائة مقاتل وهو عدد يجب أن يقرب من عدد المنتصرين. وفي الثلاثينات من القرن السادس لم يوجّه الا أصبحه لاخضاع حمير أكثر من وحدة من ثلاثة آلاف [30, p.101; 249, t.I, p.108]. بل من المشكوك فيه أن ذا نواس في عام ٥٢٥ وقد هجره معظم رعاياه كان بامكانه أن يتصرف في جيش كبير العدد كما فعل شراحيل قبل أعوام من ذلك.

وفي ذات الوقت فإن حمولة سفن البحر الأحمر وشرقي افريقيا في العصور القديمة كانت في العادة أقل من حمولة سفن البحر المتوسط أو مراكب المحيط الهندي. وفي القرن الخامس قام الرحالة الصيني فا ـ هسيين Fa-hsien برحلة بحرية من سري لانكا إلى جاوة بمركب يحمل مائتي شخص وكانت هذه أكبر السفن المعروفة لنا في ذلك العهد بالمحيط الهندي [21, p.244]. وعلى الرغم من أن الرسوم الجدارية (Frescoes) بأجانتا Ajanta تصوّر سفناً ذات ثلاث صوار، فإن المستعمل في تلك الأزمنة كانت مراكب تتراوح حمولتها من عشرة وخمسة عشر إلى بضع عشرات من الركاب. لهذا من العسير القول إن المراكب الأكبر منها وهي التي جُمعت بمرفأ غبزه عام ٥٢٥، كان بمقدور الواحدة منها أن تحمل مائتي شخص حتى في عبور بحر ضيق كالبحر الأحمر.

وفوق ذلك فإن الناس في تلك الأزمنة لم يجرأوا على الإبحار في وجه الرياح الموسمية الشمالية الغربية، ما لم يكن لهم علم بأسلوب المناورة مع الريح. والإشارة إلى الملاحة بالبحر الأحمر خلال الرياح الموسمية نلتقي بها فقط في «مرشد الملاحة بالبحر الأحمر» Periplus Mari Erythrae (6) الذي يوصي بأن يكون الإبحار من المرافىء المصرية بالبحر الأحمر إلى الجنوب الشرقي في شهر سبتمبر[٢٩]. وتؤكد «رسائل» شمعون الارشمي و«استشهاد الحارث» أن الملاحة شتاءً من اثيوبيا إلى الجنوب العربي لم تكن ممكنة آنذاك [239, p.14; 305, p.724; 383, p.41]. وفي زمن تال لذاك يذكر الهمداني والمسعودي وناصر خسرو وغيرهم من المؤلفين العرب والفرس أن السفن الشراعية بالبحر الأحمر لم يكن بوسعها الإبحار إلّا في فترة الرياح الموسمية. ومن ثم فإن سفن الحلفاء لم يكن باستطاعها العودة إلى اثيوبيا لنقل نوبة ثانية من الغزاة خلال أشهر / لكل هذا فإنه لا يجدر الحديث عن «نوبتين».

ومن ثم لا يزال متمتعاً بالوجاهة رأي ن. ق. بيغوليفسكيا من أن العدد الوارد «باستشهاد الحارث» مبالغ فيه. وبذلك فإن الحملة على حمير لم يكن بالمقدور أن يأخذ فيها بطرف سوى بضعة آلاف من مقاتلة الاثيوبيين[٣٠].

(٢٩) وفقاً لهذا فإن الابحار إلى ميناء الصومال (بربره) يفضّل في شهر يوليو، أو شهر ابيب وفقاً للتقويم القبطي [66, n.14]

(٣٠) وفقاً لرأي ف. التهايم ور. اشتيل فإن الاسطول البيزنطي الاثيوبي كان بوسعه أن ينقل عبر البحر الأحمر سبعة آلاف شخص في كل نوبة [125, p.445]

٦ ـ حرب اكسوم مع حمير عام ٥٢٥ وخضوع حمير للسيادة الاثيوبية

إن وصف المصادر لحملة الاكسوميين هذه عبر البحار يجعل منها شيئاً أشبه بالحملات الصليبية. ووفقاً « لكتاب الحميريين » فقد تشاور كالب طويلاً عشية الحملة مع الأسقف اوبروبيوس عن كيفية التصرف مع المرتدّين عن النصرانية [229, p.5, XXXIII] . كما يحكي «استشهاد الحارث» عن اجتماع لمجلس رجال الدين بمدينة الاسكندرية تحت رئاسة البطريرك طيمثاوس في ابريل من عام ٥٢٥ بارك فيه حملة الاكسوميين. كذلك أرسل طيمثاوس إلى الملك إلا أصبحه بركات رهبان النطرون والرهبان الاسقيطيين، وإناءاً من الفضة بصفة هدية [305, p. 743] . وقبل اقلاع الحملة عقد الملك صلاة جامعة بالبيعة الكبرى بعاصمته وبدأ الحملة في عيد الخمسين (العنصرة) Pente-cost في يوم الثالوث المقدّس (١٨ مايو ٥٢٥) [305, p.754] . ويلوح أن من أخذوا طرفاً في الحملة قد أحسّوا بأنفسهم فعلاً كمجاهدين في سبيل النصرانية.

وفي عرض البحر (ولعل ذلك في العشرين من مايو) انقسم اسطول إلا أصبحه إلى مجموعتين غير متساويتين، إحداهما من عشر سفن والأخرى من ستين. توّجهت الأولى منهما إلى أقرب موضع بساحل الجزيرة فبلغتها في خمسة أيام. ويقول بروقوبيوس في تعليقه على حملة ٥٢٥ «والبحر الفاصل بينهما (أي بلاد العرب الجنوبية واثيوبيا الشمالية) يمكن عبوره تحت ريح مواتية معتدلة في خمسة أيام» [30, p.250, 249, t.I, p.103] . وإلى الموضع المتوقع أن تنزل به القوات من هذه المراكب العشر، أرسل ملك حمير بخيله [305, p.755] . وكان القسم الأساسي من الاسطول قد قذفت به عاصفة بحرية إلى الوراء، ولكنه بلغ السواحل العربية خلال ثلاثة أيام من ذلك. وهنا انقسم إلى/وحدتين، إحداهما من أربعين سفينة والأخرى من عشرين. وبهذا اضطر ملك الحميريين إلى تقسيم خيله إلى ثلاث مجموعات ليعوق من نزول الاثيوبيين في نقاط ثلاث من الساحل [305, p.745] . ولا تخلو من ملاحظة «استشهاد الحارث» من مغزى،

بأن قيادة الوحدة التي وجّه بها ملك حمير ضد القسم من الاسطول المكّون من عشرين سفينة قد أوكل قيادتها إلى أحد أقربائه [305, p.754] . وبالرغم من ذلك تمكّن الاكسوميون من النزول بالساحل العربي الجنوبي في موضعين.

كذلك وصل أول باحث «لكتاب الحميريين» وهو أ. موبيرج A. Moberg إلى نتيجة مفادها أن نزول الاثيوبيين تم في وقت واحد بموضعين 329, p.XXXV ، وذلك عند مقارنته ما جاء « بكتاب الحميريين » بما جاء في « استشهاد الحارث » [305, p.754] . أما الآن فيوجد تحت تصرفنا معطيات الرقوم التي توكد بدورها أيضاً الافتراض القائل بموضعين لنزول القوات الاثيوبية فالرقيم السبئي CIH 621, 8-9 يستعمل صيغة المثنى في روايته لنزول القوات الاثيوبية في عام ٥٢٥ . أما الرقيم الاثيوبي لإلا أصبحه الذي تم العثور عليه بمارب فيقول إن الملك وجّه « بنصف » قواته إلى ناحية ، بينما وجّه بالنصف الآخر إلى ناحية أخرى (أنظر ما يلي) . و « كتاب الحميريين » هو أكثر المصادر تفصيلاً فيما يتعلق بالنزلتين اللتين قام بهما الاكسوميون ، فيذكر أن إحدى الوحدتين قادها الملك كالب نفسه أما الأخرى فكانت تحت إمرة قائده زأونس (ز ء و ن س) . [329, p.6a, CIII]

وكان جوهر الخطة الاثيوبية فيما يبدو هو القيام بهجمة مفاجئة في آن واحد على أهم نقطتين استراتيجيتين بالساحل. وقد اعتمد نجاح الخطة على فرض مؤداه أن ذا نواس لن يستطيع الاعتماد على المساندة المطلقة لأقيال المناطق الساحلية. ويبدو أن موقف هؤلاء الاخيرين حدّده سؤال مفاده من الذي سيظهر بأراضيهم قبل غيره، هل القوات الاثيوبية أم جيش الحميريين اليهود؟ ويذكر الرقيم من حصن الغراب أنه في المعركة التي جرت مع «الأحباش» لم يتلق ملك حمير العون إلاّ من الحميريين وحدهم، ومن أقيال الارحبيين (بطن من همدان) . أما زعماء بقية القبائل فلم يعاضدوا ذا نواس. وتوكد الرواية العربية المتواترة بدورها أن زعماء القبائل رفضوا إطاعة أوامره [10,p.928-929] . وهكذا تعلّق مصير بلاد العرب الجنوبية بنتيجة أولى المعارك أو الاثنتين الأوليين، لأنها ستؤدي إما إلى تدعيم وضع ذي نواس أو تثبت أنه بلغ نهاية الشوط.

ويحكى لنـا عن المعركة التي دارت عند الساحل « كتاب الحميريين » و « استشهاد الحارث » [305, p.755; 529, p.45a–45b, CXXXIV–CXXXV] . فقد تحمّل فيها الحميريون خسائر فادحة، وكان نصيبهم الهزيمة والفرار. أما ملكهم فسقط صريعاً بيد جندي اثيوبي جرّ جثمانه على الضحضاح ثم اجتز رأسـه «بـالسيف» (أغلب الـظن خنجـر معقـوف. ذلك أن السيوف الطوال استعملهـا الأعيان الاكسـوميون وحـدهم، أمـا المقـاتلون العـاديون فكانت أسلحتهم الـرمـح والـدرق والخنجـر). وعقب مصرع الملك أصبح هرب الحميريين عاماً، ولم تعد هناك مقاومة منظّمة. فالحميريون الذين أسرعوا إلى القتـال انـدفعـوا/ الآن لإعـداد جيادهم للهرب من ساحة المعركة، ولم يبق للاثيوبيين سوى اللحاق بالهاربين وقتلهم أو أخذهم أسرى [329, p.CXXXV]

وحكمـاً من القـطع التي بقيت من « كتـاب الحميريين » فإن الجندي الاثيوبي الذي قتـل ذا نواس لم يتحقّق للوهلة الأولى من شخص ضحيته، ولم يحدس بهـذا إلّا من رد فعل الحميريين [329, p.45b, p.CXXXV] .

وروايات الرقوم عن المعركة على ساحل البحر، كما يجب أن نتوقع، أكثر إيجـازاً. فرقيم سميفـع أشوع من حصن الغراب (CIH 621, 8–9) يقتصر على الألفـاظ : « وأرسل الأحباش حملتين إلى بلاد حمير قتلوا أثناءها ملك حمير وأقياله من الحميريين والأرحبيين » [368, p.10; 78, p.50] . وعن هذه الأحداث نفسها يحكي الرقيم المدوّن باللغة الجعزية الذي تم الكشف عنه بمارب عام ١٩٤٧ وجـرى نشره مرتين، مرة في عام ١٩٦٣ وأخرى في عام ١٩٦٥. هذا الرقيم أصابه خرم شديد، كما أن بدايته ونهايته مفقودتان. أما الأسطر الواقعة بين ذلك فقد قرأها عالم الساميات المصري المعروف مراد كامل، ثم فيما بعد بصورة مخالفة كثيراً عالم الاثيوبيات الفرنسي أ. كاكو [165, p.223–228; 332, p.224–226] A.Caquot . هذه القراءة الثانية لكاكو تبدو هكذا في الترجمة :

١ ـ . . . (لم يحفظ) . . .

٢ ـ . . . « . . . وسيرفع من ذكرك»

٣ ـ . . . واجتـ]زت بميناء زاله (؟)

٤ ـ . . . [وقاتلت] إلى جانب شعوبي . . .
٥ ـ . . . [ك]ما يقول المزمور: « . . .
٦ ـ . . . هم (أي الأعداء الهاربون) أمام وجهه . . .
٧ ـ . . . آسراً وآخذاً الغنائم . . .
٨ ـ . . . ومطارداً الشعوب أمام . . .
٩ ـ . . . ودخلت السفينة . . .
١٠ ـ . . . ساحله الذي منحه الر[ب] . . .
١١ ـ . . . ـ ـمران ونصف شعـ
١٢ ـ بي صعدوا إلى الفتحة . . .
١٣ ـ [ونص] ف شعبي صعدوا [الى . . .]

وصاحب الرقيم فيما يبدو هو الا أصبحه. وطريف استعماله للألفاظ. فلفظ أحزاب («الشعوب») عندما تلحق به الأداة «يه» يأخذ معنى «جيشي» (الأسطر ٤ و ١٢ و ١٣)، وبدون هذه الأداة يعني «الكفار» أي الوثنيين (السطر ٨). أما ميناء زاله، فإن أ. كاكو يفترض بكثير من الوجاهة أنها عدولي أو زوله. والقسم من الرقيم الذي حُفظ لنا يحكي عن دخول «جيش الغزو» الاثيوبي السفن واجتياز البحر الأحمر والنزول بموضعين والمعركة التي دارت بالساحل.

ولا يذكر بروقوبيوس سوى انتصار إلا أصبحه ومصرع أعداد كبيرة من الحميريين ومعهم ملكهم [30, p.273; 249, t.I, p.107] . أما المصادر العربية فإنها تحوى اصداء مضطربة للمعركة التي جرت بساحل البحر وتجعل من مصرع ذي نواس على يد اثيوبي عملية انتحار لملك حمير نفسه؛ فيقال إنه لما رأى أن الأمر أفلت من يده ركب فرسه واقتحم البحر فغرق [10, p. 928–930] .

ويفرد « كتاب الحميريين » أهمية خاصة للجندي الذي قتل ذا نواس وإن لم يشر إلى اسمه؛ والأرجح أن اسم قاتله سقط من المتن الشديد التشويه لذلك المصنف السرياني. غير أن المعروف عنه هو الآتي (١) أنه كان نصرانياً، لأنه وصف بأنه «متدّين وقوي»؛ (٢) وأنه لم يكن من القادة لأن القادة ينتمون في العادة إلى أعيان العشيرة؛ وإلا كان ذُكر أصله الارستقراطي ووضعه الرفيع؛

(٣) أن هـــذا المقاتل كان ذا عــين واحدة غريبة، أي على ما يبــدو أعـــور . [329, p.45a, CXXXIV]

هذه السمات أشبة بأبرهة، ملك حمير فيها بعد. لهذا فإنه من الممكن الافتراض أن ذا نواس قتله أبرهة. والرواية العربية المتواترة تصوّر أبرهة على أنه مقاتل ممتاز، قتل أرياط قائد الاثيوبيين باليمن في مبارزة (أنظر مايلي). وإن الصفات الشخصية لأبرهة وما انكشف من ميزاته بالتالي، لتقف في مصلحة القول إن بإمكانه أن يكون قاتل ذي نواس. وفي العصور الوسيطة، بل وفي العهد الحديث، تركز القتال بأثيوبيا وبأقطار آسيا الجنوبية على «اقتناص القائد» أو «اصطياد الملك». ذلك أن قتل قائد العدو معناه الظفر. وتشير جميع القرائن إلى أن هذا الأسلوب قد وجد في القرن السادس. ولقد اعتبر قتل قائد العدو باثيوبيا في العهد الحديث شرفاً لا يدانيه شرف، ولا يستطيعه في الواقع إلاّ مقاتل ممتاز. فإن كان افتراضنا هذا في محله يصبح مفهوماً ما أحرزه أبرهة بالتالي في الجزيرة العربية من مستقبل مذهل. على أية حال فإن هذا يتسق مع «روح التاريخ الأثيوبي»[٣١].

وأياً كان الأمر فإن تلك المعركة حدّدت لنصف قرن من الزمان مصير حمير، التي جثت الآن عند أقدام المنتصر. وكان من نتيجة المعركة، حتى وإن جرى اشتباك او اشتباكان صغيران عقبها، أن انكسر ظهر المقاومة الحميرية. ولم تلبث القوات الاكسومية أن احتلت ظفار ونجران وغيرها من المدن بسهولة.

ووفقاً لعبارة « كتاب الحميريين » فقد « شرعوا في الزحف على المدن الأخرى والعاصمة (بالذات) وجميع المدن ببلاد الحميريين (مدمرّين) وناهبين كيفما أرادوا (بما في ذلك) مدينة نجران أيضاً » [329,p.CXXXVII] . أما سميفع أشوع والثوار من ماويت فلم يتمكنوا من أخذ طرف في العمليات العسكرية،

---

(٣١) على أنـه في حالـة تصحيح الموضع الشديد التشويه من «كتاب الحميريين»، إذا تبيّن أن المقاتل الاثيوبي لم يتعرف في واقع الأمر مباشرة على شخص القتيل، فإن هذا من شأنه أن يتناقض مع عادة «اقتناص القائد» في المعركة.

مما يقف دليلاً على أن الحرب كانت قصيرة للغاية. وبهذا وقعت بلاد العرب الجنوبية بأجمعها تحت سلطان اكسوم.

وتصف لنا المصادر المسيرة الظافرة لإلا أصبحه بالبلاد المفتوحة ، ودخوله ظفار وفي معيّته أحد أقارب ملك حمير. وهنا وضع ملك اكسوم يده على البلاد والحريم وخزانة ذي نواس [305, p.755] . وأطلق سراح النصرانيين النجرانيين من السجن ، وهما ضبة وعمرو [329, p.CIII] . وإلى العاصمة قدم سميفع أشوع سريعاً ومعه بقية المهاجرين فيما يبدو. وهدم الاثيوبيون المعابد الوثنية واليهودية في كل مكان وأعادوا بناء البيع(٣٢) وتعميرها؛ كما أرجعوا الخدمات الدينية [329, p.CXIII; 305, p.757; 9, p.33-36] . غير أن عدد القسس لم يكن كافياً ؛ وقد قدم بعضهم/ مع القوات الأثيوبية [329, p.CXIII] ، كما أن البعض الآخر مثل جريجنتي الموزي [أي من ولاية موزيا Moesia] أرسل إلى حمير بواسطة السلطات الكنسية البيزنطية [22, p.63-64] . وأظهر الا أصبحه أشد الاهتمام بتثبت النصرانية في تلك البلاد التي غلبت عليها اليهودية بالأمس.

وعرض على جميع النصارى السابقين العودة إلى حظيرة الكنيسة [329, p.55b, CXL] . فاعتنق النصرانية سميفع اشوع وكان أبوه بالتعميد كالب نفسه [329, p.54a-54b, CXL] ؛ مما دعم الرباط الشخصي بين ملك اكسوم وأكبر شخصية بين أعيان حمير الذي تم الاعتراف به في وطنه مستحقاً للعرش. أما النصارى من أهل البلاد الذين رجعوا من اثيوبيا ومن الدول العربية الشمالية، فقد شغلوا الآن المناصب التقليدية للسلطة والتي تطلّعوا إلى ملئها بحق الوراثة.

(٣٢) يورد «استشهاد الحارث» حكاية لا تخلو من مغزى وذلك بإشارته إلى مشاركة الاأصبحة في ترميم بيعة ظفار [305, p.759] . أما «سيرة جريجنتي» فتحكى أنه «بعد انزاله للجيش بمدينة اطرف (ظفار) وبالمدن القريبة المجاورة وقسره السكان المحليين على العمل، فإن (الااصبحة) أعاد بناء البيع في كل مكان ونصب أعيانه مشرفين على العمل» [22, p.63-64] . أما بصدد مشاركة الملك شخصياً في بناء المعبد فيلاحظ عرفان شهيد أن هذه الظاهرة كانت واسعة الانتشار في الشرق، ويضرب مثلا لأخذ الخليفة الوليد طرفاً في بناء المسجد الأموي بدمشق [383, p.226] (القرن الثامن). ومثل هذه العادة عرفت بالشرق الأدنى منذ أيام سومر القديمة على الأقل. أما باثيوبيا فقد بدأت منذ العهد الاكسومي [54, p.150-151] واستمرت هناك إلى بداية القرن العشرين.

فمثلاً ابن القديس الحارث (ويدعى الحارث) نصبه إلا أصبحه « اثنارخاً » على نجران ، أي زعيماً للقبائل هناك [22, p.64] . أما سميفع أشوع فقد تسلم لقب الملك وشغل عرش حمير، مع الاعتراف بالتبعية لالا أصبحه ودفعه الإتاوة له . (٣٣).

ولم يكن الا أصبحه ميّالاً إلى القمع والتثريب، فقد فهم جيداً أنه عقب السيطرة الـدامية لذي نواس فإن أهل حمير كانوا يتوقعون من حكامهم الجدد

---

(٣٣) إن الحجج الأساسية في مصلحة الرأي القائل بأن سميفع أشوع أصبح ملكاً منذ عام ٥٢٥ ـ ٥٢٦ هي الآتية : (١) التطابق بين سميفع أشوع الوارد ذكره بالرقيمCIH 621 وسميفع أشوع الوارد ذكره في الرقيمRES 39 04 ؛ (٢) تطابقه مع اسيمفى الوارد لدى بروقوبيوس القيساري [30, p.274, t.I, p.108]. ولا تعـرف الـرواية العـربية المتواترة شيئاً عن سميفع أشوع وتجعل مكانه أرياط كبير الاثيوبيين باليمن (أنظر مايلي) . أما يوحنـــا ملاله و« استشهاد الحارث » و« سيرة جريجنتي » وغيرها من المصادر البيزنطية فتذكر أن ألاإصبحة نفسه هو الذي نصبَ أبرهه ملكاً على حمير . ويدعو « كتاب الحميريين » ملك الحميريين الجديد أسور أو أشوع ، ويقول إنه ينتمي إلى عشيرة الحاكم الذي سبقه على العرش [329, p.54, CXLII] . وهذا أقرب إلى أن يكون سميفع أشوع لأنه ابن عم لوالد الملك يوسف . وقبل اكتشاف الرقيم Ja 1028 و « الرسالة » الثالثة لشمعون الأرشمي افترض أ . ج . لندين أن سميفع أشوع تصاهر مع يوسف عن طريق زواج أطفالهما [78, p.53] . وثمة رواية مخالفة لهذه الأحداث ؛ فسدني اسمث يرى أن الرقيم RES 3904 يورد ذكر شخصين مختلفين يحملان اسم سميفع أشوع . مضيفاً بأن القيلين اليزنيين سميفع أشوع الثاني ومرثد لن احسن كانـا حاكمـين بالاشتراك مـــع سميفع أشوع الأول [388, p.433] . وقــد قبل ج . ريكمانس هــذا الرأي ، ولكنه اعترض بدوره على الربط بين هـــذا الأخير واسيمفي الوارد ذكره لدى بروقوبيوس [367, p.240–243; 368, p.7–11] . وينضم الى رأي ج . ريكمانس هذا أ . جام [261, p.23,27] و ج . . بيرين التي تعد سميفع أشوع سلفاً لذي نواس [347, p.40] . وعدد من المؤرخين، بما في ذلك عرفان شهيد [383] و أ . ج . لندين [78; 303] ، لا يتفق مع المؤلفين الأربعة الأخيرين. فعرفان شهيد، ثم ج . بيرين التي غيّرت من وجهة نظرها الأولى، اجتذبا الانتباه إلى أن المصـادر العـربية، خاصـة «كتـاب التيجـان»، تميّز بين أبـرهه ملك الحميريين الذي نصبه الاثيوبيون وبين ابرهة الثائر الذي انتزع السلطة باليمن. فابن هشام (القرن الثامن) يدعــو أبرهه الأول « ابن الصباح » ، لأن الصبـــاح أو إلا أصبحة كان « أباه بالتعميد » فيمـــا يبـــدو. واعتماداً على هـــذا افترض عرفان شهيد أن سميفع أشوع اتخذ عنـــد تنصيره اسم اقرام، أي أبرهـــه [383, p. 228–230] . على أي فإن الرواية العربية المتواترة التي لم يجر تدوينها إلّا بعد قرنين من أحداث ٥١٨ ـ ٥٢٥ خلطت حتماً بين بعض الأحداث؛ فهل من الممكن أن خلطت أيضاً بين اثنين متعاصرين شغلا عرش حمير، خاصة إذا حملا اسماً واحداً.

درجـة معيّنة من التسامح الديني وبسط السلام وإعادة العلاقات التجارية . وتتحدث المصـــادر عن مصرع الحميريين اليهود على يد الاثيوبيين [329, p.499, CXXXVIII] ؛ غير أن أعمال القسوة هذه لم تحدث بأمر الا أصبحه لأن أعيان حمير اشتكـوا إلى ملك اكسـوم من أعمـال القتـل والعنف التي قام بها العسكـر. وليحمي النصارى المحليون أنفسهم من الخطر فقد وشموا علامة الصليب على أذرعتهم [329, p.CIII, 49a–49b, CXXXVIII – CXXXIX] . وعلى الرغـم من الاضطهادات فقد ظل اليهود والوثنيون مقيمين بالجنوب العربي (بل إن الوثنيين ظلوا مقيمين هناك إلى لحظة اسلام اليمن الذي حدث بعد نيّف ومائة عام من ذلك. أما اليهود فقد بقوا بأعداد غير كبيرة إلى أيامنا هذه عندما انتقلت أكثرية يهود اليمن إلى اسرائيل) . وكل هذا يشهد بالتسامح الديني الذي اشتهر به إلا أصبحه الذي كان ملكاً لبلاد لم تكن قد استكملت تنصرّها بعد. على أي ، فإننا نلتقي حتى في أزمنة متأخرة عن ذلك لدى شعوب الكوشيين القاطنة على أطراف مملكة اكسوم (البجا والكمنت) بالديانات المحلية التي تركت أثراً قوياً على النصرانية في إهابها الاثيوبي.

وأحد ألغاز التاريخ الوسيط لاثيوبيا يتعلق بمسألة الفلاشة. وهم مجموعة عرقية تدين باليهودية وتتحدث مثل الكمنت بلهجة كوشية هي الأجَوْ وتقطن كجيران لهم بين بحيرة تانه وجبال راس دشن. ويتلو الفلاشة الكتاب المقدس باللغة الجعزية، ولا يعرفون لغة إفريت. وفي الطقوس الدينية للفلاشة لا يوجد ما يميزّهم بصـورة جذرية عن السكـان النصارى المحيطين . غير أن الوعي الذاتي للفلاشة واضح تمام الوضوح من قولهم : «نحن يهود طردنا من اسرائيل». فكيف ظهروا باثيوبيا إذن؟ ولماذا لم ينزلوا على مقربة من ا لمدن القديمة الكبرى، وإنما نزلوا على الحدود الجنوبية القديمة لمملكة اكسوم ؟ .

ولعلهم سلالة الحميريين اليهود الذين نقلهم إلا أصبحه بعيداً إلى أعماق القارة الافريقية حتى يكونوا بمنأى من تأثير المستوطنات اليهودية بالجزيرة العربية وفلسطين والعراق. ويقول « كتاب الحميريين » إن الملك كالب عند مغادرته للجنوب العربي « أخذ معه عدداً كبيراً من الأسرى الحميريين الضالّين وخمسين

شخصاً من عشيرة الملك » [329, p.CXXXIX] . وعلى الرغم من أنه لم يوجد بينهم علماء في الدين وأنهم احتفظوا بقوميتهم وثقافتهم ، إلاّ أنهم تزاوجوا مع السكان الأصليين للبلاد فتحوّلوا إلى ذلك العنصر العرقي المعروف الآن باسم الفلاشة .

وبعد أن أقام ملك اكسوم بالجزيرة العربية حوالي السبعة أشهر[٣٤] ,288 p.CXLII ,56a عاد إلى أرض الوطن ، تاركاً نظاماً إدارياً لأملاكه بما وراء البحار. ولقد تحوّلت حمير إلى دولة تعترف بالتبعية لاكسوم ، ولكنها تتمتع بحكم ذاتي . وكان رأسها هو سميفع أشوع «ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهم في النجاد والتهام» . وفوقه كان إلا أصبحه ملك اكسوم وحمير وذوريدان وغيرها ؛ ومما يؤكد هذا أن سميفع اشوع يدعو إلا أصبحه في رقيمه «أسيادي نجاشيو اكسوم» (RES 3094, 3;45, 45–55) و «ملوك اكسوم» و «ملوك حبشات» (RES 3094,7) . واستعمال جمع التفخيم هاهنا ، كما هو الحال مع اللقب الرسمي لالا أصبحه (الذي يرد في الرقيم في صورة الأأ[صـ]بحه) «نجاشي اكسوم» ، بدلاً من لقبه المستعمل عادة في الرقوم الجنوبية العربية « ملك حبشات » ، انما يؤكد وضع التبعية الذي وجدت فيه حمير. وقد أُجلس سميفع أشوع على العرش قبل قليل من مغادرة ملك اكسوم للجنوب العربي ؛ ذلك أن اسمه يرد دون اللقب الملكي برقيم حصن الغراب الذي نقش في وقت تال لشتاء عام ٥٢٥/٥٢٦ .

وخضع لملك حمير الأقيال المحليون وجميع السكان الأصليين للبلاد . وفي رقيم سميفع أشوع يرد الكلام عن « ملوك حمير » ، الذين يقابل أ . ج . لندين بينهم وبين « الملوك المشاركين في العرش » الواردة « باستشهاد الحارث » [305, p.755–756] ومع « المثامنة الملوك » باليمن الواردة « بالقصيدة الحميرية » [78,p.55] . وإن نعتهم بالملوك ليوكّد ما تمتع به أقيال حمير من وضع رفيع وما بذله سميفع أشوع من جهد

---

(٣٤) يرد خطأ فيما يظهر في «سيرة القديس جريجنتي» الإشارة إلى ستة وثلاثين شهراً . ويفترض أ . ج . لندين أن ارتحال الأأصبحة من اليمن حدث في يناير - فبراير ٥٢٦ [78, p.52] .

واضح ليحببّ نفسه إليهم*. وترد في الرقيم قائمة طويلة بالأقيال الذين تُذكر جيوشهم إلى جانب جيش الملك[٣٥]. فليس اعتباطاً إذن أن تقول الرواية العربية المتواترة عن سلف أبرهة على عرش حمير إنه «أعطى الملوك واستذلّ الفقراء» 10, p.942-943 .

أما ما بلغه أقيال حمير من شأن على عهد حكم سميفع أشوع فيقف شاهداً عليه الواقعة التاريخية الآتية. حوالي عام ٥٣٠ تلقى الشاعر العربي المشهور امرؤ القيس عوناً عسكرياً من أحد الأقيال تعداده خمسمائة رجل، وذلك لمعاونته في قتاله مع قبيلة أسد. وكان اسم ذلك القيل هو مرثد الخير بن ذي جدن؛ وهذه فيما يبدو هي الصيغة العربية لاسم أحد إخوة سميفع أشوع المدعو مرثد إلن أحسن ذو جدن [78, p.56 note /155] . ولابد أن مثل هؤلاء الأقيال الأقوياء الذين كانت لهم قواتهم العسكرية الخاصة بهم قد أحسّوا في أنفسهم أنهم مستقلون تمام الاستقلال عن ملكهم الذي لم يكن متمتعاً بالسيادة الكاملة.

بل أكثر استقلالاً من هذا ما لزم أن يحس به في أنفسهم ببلاد اليمن الغزاة المنتصرون ـ أقصد قادة الوحدات العسكرية الاثيوبية. ويدعوهم الرقيم الملكي لسميفع أشوع «عمال نجاشيّ اكسوم» (ع ق ب ت/ل ن ج ش ت/ ء ك س م ن)، مستعملاً صيغة التضخيم (RES 3904,7) . وقد شكّلو في عهد سميفع أشوع مجلساً استشارياً كان من بين مهامّه الرسمية حماية الملك من أعدائه» 329, p.CXIII . وكان على ملك حمير أن يعمل حساباً لقرارات هذا المجلس الاستشاري. ومن الممكن أن رئيس المجلس الاستشاري للقادة الاثيوبيين كان ممثلاً خاصاً لملك اكسوم، ولعله ارياط (المصادر العربية). ومن المرجّح أن هؤلاء القادة كان تحت إمرتهم قوة عسكرية أكبر مما كان لملك حمير،

---

(٣٥) RES 3904, 4 . وقد اجتذب النظر إلى هذا أ.ج. لندين [78, p.56 et n.155] .

★ *ويقول نشوان الحميري بصددهم «ولا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حمير إلا بهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية وان اجتمعوا على عزله عزلوه» (راجع «ملوك حمير وأقيال اليمن»، ص ١٥٧). (المترجم)*

وبالتالي تمتعوا بسلطة حقيقية أكثر منه. وعلى العموم فغير معروف هل خضعوا له أم لملك اكسوم مباشرة. وقد بيّنتُ بصورة قاطعة في بحث سابق لي أن القواد الاثيوبيين بحمير كانوا مستقلين عن سميفع أشوع وأنه وُجد بتلك البلاد نظام نسيج وحده «لإدارة مزدوجة». فجنباً إلى جنب مع ملك حمير والأقيال وجدت شبكة من القرى الاثيوبية العسكرية الصغيرة أو المستوطنات كانت تأتمر بأمر قوادها 54, p.93 . غير أن هذا ليس أكثر من فرض يستند إلى دور القادة الاثيوبيين ووجود القرى العسكرية الاثيوبية بحمير عقب حملة عام ٥٢٥ فحسب.

ويرى أ.ج. لندين أن «الجند النظاميين للوحدات الاثيوبية التي تركت بأراضي دولة حمير، قد انتزعوا قسماً من أراضي الجنوب العربي. وعند زراعة هذه الأراضي تم الالتجاء فيما يبدو إلى السكان المحليين ـ فلعلهم اسُترقّوا أو لعلهم اصبحوا مستأجرين للأرض التي كانت قبل وقت ليس بالبعيد ملكاً لهم. وأغلب الظن أن وضع الجند الاثيوبيين كان شبيهاً بوضع «الأحرار» أو «النبلاء» بنجران و. . . «الأعيان» و. . . «القادة» في الرقوم العربية الجنوبية 78, p.61 . ويمكن بغير قليل من الأساس (بل وفي رأيي بدرجة كبيرة من الاحتمال) الافتراض بأن كل مقاتل اثيوبي قد نزل بهذه الناحية أو تلك بأمر مليكه، وذلك بأرض كان يمتلكها من قبل المستوطنون العسكريون الاثيوبيون الذين استأصلهم اليهود و الوثنيون. وبهذا فإن قطعة الارض التي تسلمها المقاتل من الملك كان بإمكانه أن يزرعها بمجهوده الشخصي كما حدث أن فعل بموطنه، أحياناً بمساعدة عبد أو عامل أجير، أو يؤجرّ جزءاً منها من وقت لآخر. ومن العسير القول إلى أي حد يمكن مقارنة العسكر النظاميين الاثيوبيين من حيث الثروة بالحميريين من طبقة «الأعيان» و «بالقادة» الذين كانوا يشكّلون «طبقة الأعيان الصغرى بدولة حمير»[78, p.61, 100–104] .

ولقد كان سلطان سميفع أشوع مهتزاً بدرجة ينبغي ألاّ يدهشنا معها سقوطه السريع؛ وإن كان مردّ ذلك ليس إلى هجوم خارجي بل إلى ضعفه الذاتي.



الامبراطور يوسطنيان
(فسيفساء بيعة القديس ڤيتالي بمدينة راڤنّا بايطاليا)

٧ ـ سفارات بيزنطة إلى أكسوم وحمير

يلاحظ نشاط دبلوماسي مكثّف لبيزنطة وغيرها من الدول بمنطقة البحر الأحمر في الفترة بين عامي ٥٢٧ و ٥٣١ . وإلى هذا النشاط الدبلوماسي قبل غيره ندين بالأوصاف القيّمة لمملكة أكسوم التي تركها لنا المبعوثون البيزنطيون . وفي نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن السادس قامت بيزنطة على جميع حدودها الأوروبية والأسيوية والافريقية بلعبة سياسية معقّدة . ففي الغرب تشكّل الوضع بصورة جليّة لصالح خطط يوسطنيان الرامية إلى إحياء الامبراطورية الرومانية ؛ فقد كانت مملكة الوندال والالان تمر بفترة أزمة داخلية ، كما أن سياستها الخارجية وصلت إلى طريق مسدود . ذلك أنه بعد مائة عام من السيطرة على افريقيا الرومانية القديمة فقد (البرابرة) الشماليون إلى حد كبير مقدرتهم القتالية وتحولت ارستقراطيتهم إلى طبقة إقطاعية في آخر الأمر، دخلت في عداء مع بعضها بعضاً . كذلك شددّت قبائل البربر المستقلة من ضغطها على حدود المملكة ، ونضجت قوى بالمدن كانت تسعى إلى استعادة الوحدة مع الامبراطورية . وضعف خلال ذلك اسطول الوندال ، ودخلت التجارة في فترة من التدهور العميق . أما مملكتا القوط ، وهما الغربية باسبانيا والشرقية بايطاليا فكانتا في حال من العداء مع الوندال ومع الفرنجه الذين اقتحموا حدودها الشمالية أيضاً . كذلك ساقت عزلة ممالك الجرمان على الحدود إلى أن تبتلعها بيزنطة الواحدة بعد الأخرى . ومما عاون على هذا أيضاً الانشقاقات الداخلية وسط الفئات الحاكمة . ففي الفترة من عام ٥٢٣ إلى عام ٥٣٠ وجد على رأس دولة الوندال ملك ضعيف الإرادة هو هلدريك Heldric الذي كان يسعى إلى التحالف مع الامبراطورية ومع العناصر الرومية الكاثوليكية الموالية لبيزنطة بمملكته . وفي عام ٥٣٠ جرت إطاحته عن العرش، مما أعطى المبرّر اللازم ليوسطنيان للتدخل المفتوح في شؤون شمالي افريقيا . وكان رد الفعل على هيئة غارات موالية للبيزنطيين من طرف الاقطاعيين المستقلين غير المنتمين لأعيان الوندال ؛ كذلك تحول حاكم سردينيا وهو القوطي جودا Goda إلى طاعة

البيزنـطيين. وبـطرابلس رفـع الـرومـاني يودنتسي لواء الثـورة وسلّم المـدينـة للبيزنطيين. أما بايطاليا القوط الشرقيين فتشكّل وضع ملائم للبيزنطيين في الفترة ٥٢٦ ـ ٥٣٢، وذلك عندما أدارت شؤون المملكة الوصيّة على العرش املسونتا Amalasuntha المشهـورة التي سعت إلى التقـارب مع الامـبراطـورية ومـع الارستقراطية الرومانية. غير أن الامبراطور لم يستطع تحقيق خططه الطموحة في الغرب إلّا بعد أن أطلق يده من منطقة الحدود مع ايران.

ذلك أنه عقب إخماد الحركة المزدكية في عام ٥٢٨ انتعش النشاط السياسي للأسرة الحاكمة الساسانية بمنطقة الشرق الأدنى. كما لم تخلد أيضاً إلى السكينة الـدبلومـاسية البيزنـطية الـلامعة. ولقد جاء انهيار المزدكية في مصلحة ملك اللخميين المنذر الثالث، الذي لم يستطع قبل ذلك أن يحصل على تثبيته على العرش من طـرف سيده الشاهنشاه. ففي عام ٥٢٨ طرد المنذر من العراق إلى الصحراء غريمه الحارث بن عمرو ملك الكنديين، الذي اختلف مع السلطات البيزنـطية بفلسـطين. وعلى الرغم من هذا فإن البيزنطيين وجدوا في انتصار اللخميين على الكنـديين تدعيماً للنفوذ الايراني، لذا أرسلوا ضد المنذر جيشاً شارك فيه العـرب الغساسنة. وكان من جرّاء الغارة البيزنطية ـ الغسّانية على العـراق أن تم الاستيلاء على بضعـة حصـون ايرانية وتخـريب معسكر المنذر واسترجاع الأسرى وغير ذلك. وفي مارس من العام التالي انتقم ملك اللخميين لنفسه من البيزنطيين لتخريبهم معسكره فقام بغارة شعواء خرّب فيها سورية حتى بلغ ضواحي انـطاكية، واضـطرت الكنيسـة إلى تقديم كنوزها لافتداء الأسرى من يد اللخميين [97, p. 82–85] .

وفي ربيع عام ٥٢٩ ذاك أدّت السياسة الدينية ليوسطنيان إلى اندلاع ثورة عارمة لأهل السامرة بفلسطين لم يخمد أوارها إلّا في نهاية عام ٥٣٠؛ ولم يتم هذا إلّا بعـون الغسـاسنـة. ويقول يوحنا ملاله إن الحارث زعيم الغساسنة سبى عشرين الفاً من فتيان وفتيات شباب السامريين باعهم بالتالي بأسواق ايران و «انـديكا»، أي الجنوب العربي واثيوبيا [210, p.447] . وكان أهل السامرة يحلمون بمساعدة ايران لهم في كفاحهم، لذا طلبوا العون من الشاه قباد، ولكنه

في انتظـــار ما تسفر عنه نتيجة الثورة قطع مفاوضات السلام مـــع بيزنطه [30, p.277-278] . وبعد إخماد هذه الثورة الأولى هرب آلاف من السامرة إلى أملاك الدولة الساسانية ، وجرى تعميد الآخرين قسراً . ولكن ظل بفلسطين عدد كاف منهم ليرفع لواء الثورة من جديد في عام ٥٥٥ وإن شارك معهم في هذه المرة اليهود .

ومما لا شك فيه أن يوسطنيان كان يسعى كل جهده في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن السادس لعقد صلح دائم مع ايران ؛ الأمر الذي كُلّل بالتوفيق عام ٥٣٢ (وهو ما أطلق عليه اسم «الصلح الدائم») . غير انه كان من الضروري لتحقيق هذا الهدف القيام بضغط على الساسانيين ؛ قبل كل شيء من ناحية بلاد العـرب[٣٦] . وهذا هو الهدف الرئيسي لنشاط البيزنطيين الدبلوماسي باكسوم وحمير.

ففي فترة ٥٢٦ - ٥٣١ كما يرى معظم الباحثين[٣٧] وُجّهت سفاره بيزنطية إلى إلا أصبحه باثيوبيا وإلى سميفع أشوع بحمير. وعن هذه السفارة يحكي لنا بروقـوبيوس القيسساري الذي كان على علم جيد بأمثال هذه الأمور. وعلى الرغم من ذلك فإنه يثير الدهشة وجود عدد بحاله من التناقضات الزمنية وغيرها في رواية هذا المؤرخ البيزنــطي بصـدد السفـارة. وكـان على رأس السفـارة ارستقـراطي بيزنطي هو يوليان أخو القائد سومس . ويضع بروقوبيوس أخبار سفارته في الفصل العشرين من الجزء الأول من مصنفه «الحروب الفارسية» ،

---

(٣٦) وفي ذات الوقت كما بيّن ب . روبين جرى «جسّ للنبض ببلاد الاوكراين» («ein Fühler nach der Ukraine ») [364, p.268] . (هل يقصد «الحدود» - المترجم؟)

(٣٧) يفترض تواريخ أسبق كل من ب . روبين (٥٢٦ - ٥٢٧م) [363, p. 56-59; 364, p.272 ff.] وعرفان شهيد (٥٣٠م) [264] . ويتفق مع ب . روبين أيضاً ن . ف . بيغوليفسكيا التي تقول في آخر كتبها : «إن سفارة يوليان تعود إلى وقت سابق على هذا بكثير، وهو عام ٥٢٦ - ٥٢٧ ؛ أو على أية حال الفترة ما بين عامي ٥٢٥ وهو عام انتصار الأصبحة و٥٣١ وهو عام موت الشاهنشاه قباد» [97, p.159 والترجمة العربية ، ص ١٩٠] . أما عن سومس فتحدثنا أيضاً «سيرة القديس سابا» . فقد رجا سابا من الامبراطور يوسطنيان أن يبني حصناً بفلسطين، فكلّف الامبراطور القائد سومس بتشييد الحصن [230, p.91-92; 97, p.227 الترجمة العربية، ص ٢٧٣] .

وذلك وسط وصفه للأحداث التي سبقت الحملة العسكرية لعام ٥٣١ ولكنها جرت بعد عام ٥٢٦ [30, p.175–181; 249, t.I, p.108–110] . غير أنه في الجزء الثاني من ذلك المصنف، وذلك عند روايته لأحداث الجزيرة العربية في عام ٥٤٠، نراه يقحم ملاحظته بصدد قائد قوات فلسطين سومس «أخي يوليان الذي كان قد أُرسل سفيراً إلى / الاثيوبين والحميريين قبل أمد ليس ببعيد» [31, p.8–9; 249, t.I, p.149] . فإن كان الأمر يتعلق بأحداث السنوات العشر الماضية فإنه من العسير وصفها بأنها ليست بعيدة الأمد. ومثل هذه التناقضات تتناثر حرفياً خلال حكاية بروقوبيوس الطويلة بصدد سفارة يوليان. فهو قبل كل شيء يشير الاعتقاد بأن بعثة يوليان كان مكتوباً لها الفشل منذ البداية. فقد كلّف الامبراطور (يوسطنيان المشهور) سفيره بمهمتين متشاكلتين؛ إحداهما أن يقنع الحميريين والتابعين لهم عرب معدّ، وأيضاً بطبيعة الحال الاثيوبيين أصحاب السيادة عليهم، ببدء العمليات العسكرية ضد دولة الفرس. أما المهمة الثانية فكانت ذات هدف اقتصادي بحت، هو اقناع الاثيوبيين بوضع يدهم على تجارة الحرير الصيني الذي كان يُجلب من مواني سري لانكا والهند بواسطة الفرس، ومن هناك إلى أراضي الدولة الرومانية. ويضيف بروقوبيوس أن الامبراطور لم يرد أن يغتني أعداؤه الفرس من ذلك [30, p.280; 299, t.I, p.109–110] . غير أن «الليسفي Ellisfey (الا أصبحه) واسيمفي (أو اسيميفايوس ، أي سميفع أشوع) اكتفيا بالوعد بأن يفعلا ذلك (أي تنفيذ طلب الامبراطور يوسطنيان) وصرفا السفير (البيزنطي) ؛ ولكن لم ينفّذ أي منهما وعده . فقد بدا عسيراً (للحميريين) قطع الصحراء واجتياز طريق طويل لمهاجمة شعب كان أكثر استعداداً منهما لخوض الحرب . كذلك فإن الاثيوبيين لم يكونوا في وضع يسمح لهم بشراء الحرير من الهنود ، لأن تجار الفرس كانوا يقطنون بلاداً ملاصقة لأرض الهند وبهذا كان بمقدورهم بلوغ الموانيء التي تقف بها السفن الهندية التي كانوا يبتاعون في العادة جميع حمولتها» [30, p.281; 249, t,I, p.109–110] . وكما بيّنت بحق ن . ق . بيغوليفسكيا فإن اسطول الاثيوبيين لذلك العهد كان طفيف العدد ولا يقف على درجة عالية من المقدرة حتى يستطيع التنافس جيداً مع تجارة

القوافل الفارسية (ولنضيف البحرية أيضاً) [94, p.311; 246, p.252] . وبخلاف هذا لم تكن الظروف السياسية لذلك العهد مناسبة على الاطلاق لمثل هذه الإجراءات في القسم الغربي من الهند . فهذا القسم الغربي من شبه جزيرة الهند كانت تتقاسمه في النصف الأول من القرن السادس بين عشرة ونصف العشرة من الإمارات الضعيفة التي اتجهت تجارتها رأساً نحو مواني ايران والجنوب العربي .

ويبدو أنه وُجدت مستوطنات تجارية في ذلك الوقت بمواني كجرات للفرس الزرادشتيين (البارسيين)[٣٨] ولليهود أيضاً. وأبعد من ذلك صوب الجنوب بمدن مليبار وجدت فئة من التجار النساطرة من أصل سرياني. وجميع هؤلاء وأولئك كان نشاطهم التجاري متجهاً صوب ايران. وكان على راجات الهند الغربية أن يعملوا أيضاً حساباً لمصالح رصفائهم في التجارة ولجارتهم القوية ايران الساسانية أكثر مما عليه الحال مع مصالح اكسوم. لهذا فإن أية محاولة «لتحويل تجارة» الحرير من ايران إلى اثيوبيا كان مقضيّاً عليها بالفشل. على أنه عقيب ذلك بقليل أفلح البيزنطيون في إدخال تربية دودة القز إلى أملاكهم وتزويد مصانع النسيج بسورية بحاجتها من خام الحرير.

أما فيما يتصل بالقيام بنشاط عسكري ضد الفرس، فإن الأمر لم يتعلق بطبيعة الحال بالاستعداد العسكري الضئيل للحميريين (أو عدم استعدادهم للقتال) بإزاء جيرانهم الأقوياء في الشمال الشرقي. وواقع الأمر أنه في الأعوام ٥٢٩ ـ ٥٣١ التي سبقت مباشرة سفارة يوليان إلى حمير تعرّضت الامبراطورية البيزنطية لسلسلة من الهزائم القاسية على يد القوات الفارسية والأرمنيه، بل إن العرب اللخميين الذين كانو يدينون بالطاعة للفرس ظهروا بضواحي انطاكية وعلى حدود مصر [30, p.151–188; 249, t.I, p.55–79] . وكان من رأي القيادة العسكرية البيزنطية أن بمقدور القوات العسكرية المتحدة لحمير وللقبائل البدوية بوسط الجزيرة العربية المعترفة بالطاعة لحمير (الكنديون

(٣٨) وفقاً للراوية المتواترة فإن القسم الأكبر من البارسيين استقر بكجرات بعد فتح العرب لايران.

ومعدّ) أن تبعد اللخميين من ساحة القتـــال في الشمـال بمهاجمتهـا لمؤخرتهم [388, p.425–486; 96, p.84;97] . لذا فقد كان من مهمة يوليان أن يحصل على موافقة ملك حمير على تعيين الشخص المقبول لدى البيزنطيين رأساً لحلف معدّ، وهو قيس «الذي ينتمي إلى عشيرة فيلارخات» (أي رؤوس القبيلة، وفي هذه الحـال بالـذات ملوكها) كندة ومعدّ الذي كان قد أجبر على الفرار «إلى صحراء ليس بها نافخ نار» لقتله أحد أقارب ملك حمير. وكان قيس هذا يتمتع بالمقـدرة على القتـال، كما كان متمرسّاً في الشؤون العسكرية وباستطاعته أن يضطّلع بالحملة على «بلاد الفرس» [30, p.278–281; 249, t.I, p.109] . ويرى معظم الباحثين بدءاً بكوسان دي برسيفال Caussin de Perseaval [172, p.317] في قيس هذا الشاعر المشهور امرأ القيس بن حجر بن الحارث؛ وهذا الرأي يسانده من بين آخرين ن. ڤ. بيغوليبڤسكيا 97, p.168 . وكقيس هذا فإن امرأ القيس كان حفيداً للحارث ملك الكنديين وقام برحلة إلى بلاد الدولة البيزنطية؛ الأمـر الـذي يحكي به عدد من المؤلفين العرب. غير أن اسم امرىء القيس المعهود بين الكنديين تعطيه المصادر اليونانية عادة في صورة اموركس Αμορκεσος . وقد استفاد [المستعرب السويدي] ج. اولندر من هذا ليثبت أن قيساً الوارد ذكره لدى بروقوبيوس القيساري ليس سوى قيس بن سلمة بن الحارث الذي يتحدث عنه ياقوت؛ وهو حفيد الحارث بن عمرو بن حجر أشهر ملوك كندة بنجد، والحفيد الأكبر لحجر آكل المرار مؤسس الأسرة الحاكمة لكندة [335, p.114–115] . وقد انضم إلى رأي اولندر أيضاً أ. ج. لندين [78, p.59] . وهذا الرأي فيما يبدو أكثر اقناعاً، وإن كان من المغري أن نبصر في القائد العربي الشجاع الذي أولته الحكومة البيزنطية وملك حمير ذلك القدر من الأهمية الشاعر الطريد المشهور. وعن قيس يحكي لنا أيضاً ننوس الذي يدعوه «حفيد آرثه»؛ يقصد الملك الحارث. وكان والد ننوس وهو ابرام براوبور قد أرسلت به الحكومة البيزنطية إلى قيس لعقد معاهدة مع الكنديين وليحضر ابناً لقيس يدعى معاوية بصفة رهينة.

وفيما بعد كُلّف ننوس بإحضار قيس نفسه إلى بلاد الدولة البيزنطية، وأن يزور ملك الاكسوميين السبوا (الا أصبحه). وتلا ذلك ارسال ابرام والد ننوس مرة أخرى إلى بلاد العرب ليقنع قيساً بأن يترك «فيلارخيته»، أي زعامته للحلف القبلي لكندة ومعد، إلى أخويه عمرو ويزيد ويأخذ على/ عاتقه إدارة «الفلسطينات» [210, p.179; 250, p.5;22, p.485] ؛ أي فيما يبدو الولايات البيزنطية: فلسطين الثانية وفلسطين الثالثة التي كانت تضم النقب وجزءاً من سيناء وساحل خليج العقبة مع ميناء أيلة وجزيرة يوتابه (التيران) والقسم الجنوبي من الأردن الحالية والقسم الشمالي من الحجاز ومعه أجمات عديدة من نخيل التمر (وهي ما تسمى بمنطقة فينيقون). ويلوح أنه حوالي ذلك الوقت كان قيس قد دخل في نزاع مع سميفع أشوع. وافق قيس بعد السفارة الرابعة مباشرة على مغادرة وطنه والانتقال إلى فلسطين «بأتباعه» - أي البدو من القبائل التي تحت سلطانه، وبالذات الكنديين، بأسرهم وقطعانهم [335, p.116; 364, p.268 ff; 97, p.171-172]. وقد قبل قيس السيادة (الهيجمونية) بشروط غير واضحة لنا على مناطق غنية وُجد بها سكان عرب كثيرو العدد من حضر وبدو، على أن يضطلع بمهمة الدفاع عن الحدود الجنوبية الغربية للامبراطورية. وعلى الجانب الآخر للحدود وذلك بمناطق تقع تحت سيادة حمير وبالتالي تحت سيادة اكسوم، كان يحكم اثنان من إخوة قيس هما عمرو ويزيد اللذان أصبح أحدهما على رأس الكنديين بنجد والآخر على رأس معد؛ أي الحلف القبلي لمعد. ويدعو بروقوبيوس القيساري معدّاً « المعدّين » Μααδδηνοι ؛ وكانوا من حيث الأصل والتقاليد يرتبطون بالجنوب العربي واحترفوا شأنهم شأن القرشيين بمكة مهنة الوسطاء التجاريين بين بيزنطة وحمير. وكانت الجماعات القبلية الكبرى التي دخلت في حلف مع معد هي مضر وربيعة.

وفي القرنين الخامس والسادس كان العديون كما يشهد بذلك بروقوبيوس ويوحنا ملاله وبعض المعطيات النزرة للرقوم، ينزلون بساحل البحر الأحمر بالحجاز الشمالية وذلك إلى الجنوب من الأملاك البيزنطية

بفينيقون مباشرة ، وأيضاً بالمناطق العريضة المترامية الأطراف بجـــوف الجزيرة العربيـة إلى حدود الكنديين بنجد . وكان ملوك كنـــدة قد أخضعـوا معـــدّاً في القرن الخامس فجمعـــوا إلى لقبهم ملوك كندة لقب « ملوك معـــد وربيعة » [335, p.216; 78, p.57, note 160; 97, p.174–179] . ويفترض عرفـــان شهيد أنـــه في الـــوقـت الـذي احتفـظ فيـه الكنـديـون بولائهـم لقيـس فـــإن المعديين ثاروا ضــــده ؛ وقد اعتمد عرفـــان شهيد في فرضه هذا على مجـــرد واقعـة أن يوليان رجا من سميفع أشوع أن يعيد قيساً إلى منصب « الفيلارخ » على معد [264, p.58–65,76] . لذا فقد كانت ن . ق . بيغوليفسكيا محقّة في نعتها لفرض شهيد هذا بأنه « تعسّفي » [97, p.164] .

وكـان هـــدف الـدبلومـاسية البيزنـطية هو توحيد قـــوى الكسوميين والحميـريين وبـــدو وسط الجـزيرة العـربية وشـمـاليها لخلق تهديـــد جانبي لقـــوات الفرس وحلفائهم اللخميين . وكـــان مما أحبط خططهم النزاع الذي شـــبّ بين قيس وسميفع أشـوع . لذا فقـــد أقنعوا قيساً في البدايـــة بأن يغـادر نجـداً والحجـــاز وينـزل بفلسطين ، مبعدين إيـــاه عن الخطر الذي يتهدّده ، وفي ذات الوقت محافظين على قـــوة الكنديين العسكرية وروابطهم التقليدية . بعـد هـــذا جهـد البيزنطيون في إعـــادة ذات البين بين قيس والملك الحميري الذي كان عليه وفقاً للعرف العربي أن يثأر من زعيم / الكنديين لقتله احد أقاربه (ولعله شخص غير مأبوه له البتة من عشيرة ذي يزن) . وبعد أن استعاد قيس سلطانه على معد خطّط البيزنطيون أيضاً ليوحدوا تحت سلطانه وبـالتـالي تحت نفـوذهم قوى القبـائل العربية بفلسطين وشمالي الحجاز ونجد وعُـمان . وقـد استطاع يوليان تحقيق هذا الهدف فتم تعيين قيس رسمياً زعيماً للمعديين بواسطة سميفع أشوع [30, p.281; 249, t.I, p.109] .

وواقـع الأمـر كان هذا هو النجـاح الوحيد لبعثة يوليان ، وإن لم يكن بالضئيل . غير أن عودة قيس كحاكم على معد وزعامته للقوى العربية المتحدة لم تكن لتتم إلاّ بعـد موافقـة سميفع أشوع ، أي أن الأمر احتاج إلى برهة من

الـزمن. كما أن قيسـاً أخـذ أيضاً بعض الوقت لإرجاع قسم من أنصاره من فلسطين إلى معد ومن أجل إعداد الحملة المزمعة ضد اللخميين والفرس. فإن حدث أن أخـذت القـوات الحميرية (وقوات المستوطنات العسكرية الاثيوبية بحمير) طرفاً في هذه الحملة أيضاً، فقد كان على الكنديين والحميريين أن يدخلوا في اتصـالات مسبقّـة لتنسيق العمـل بينهم، وهـذا من شأنه أن يتطلب وقتاً إضـافياً. غير أنه في تلك الأثناء، وذلك في ربيع ٥٣٢ عقب الموت الفجائي للشاهنشاه قباد، تم عقد الصلح بين بيزنطة وايران وبذا سقطت الحاجة إلى حملة عسكرية ضد الفرس وحلفائهم.

كل هذا يدفـع إلى الـوقـوف موقف النقد من رواية بروقوبيوس بصدد الأسباب التي حالت دون حدوث الحملة، وقد دلّل سدني اسمث S.Smith على أن رواية بروقـوبيوس تحوى اخـطاء أقحمت عن قصـد بهدف تبرير هزيمـة بليزاريوس عند قللينيقه عام ٥٣١. وهذا هو السبب في أن المؤرخ أرجع انتصار الا أصبحه وتتويج سميفع أشوع ملكاً على حمير لا إلى عام ٥٢٥ وبداية ٥٢٦، بل إلى فترة الحرب البيزنطية الفارسية للأعوام ٥٢٧ ـ ٥٣٢ [388, p.448] .

وبهـذه الصـورة فإن الأهـداف العسكرية الاستراتيجية المباشرة لسفارة يوليان لم تتحقق، وإن كان مجرد عوده قيس إلى معد قد دعّم من النفوذ البيزنطي ببـلاد العـرب. ومما هو جدير بالانتباه استعداد سميفع أشوع ليجتاز نصف الطريق لتحقيق رغبة بيزنطة، حتى أنه تناسى الثأر لدم قريبه من عامل بيزنطة قيس. ومن الجدير بالذكر أن ملك حمير حتى في فترة ضعفه الشديد وخضوعه لملك اكسوم ظل سيداً لحلف القبائل بالحجاز ونجد.

وتحمـل مذكرات ننوّس على الافتراض بأنه بين عامي ٥٢٦ و ٥٣١ لم يقتصر الأمر على سفارة واحدة بل أرسلت سفارتان بيزنطينيتان إلى حمير واكسوم. وينتمي ننوس إلى أسرة من الدبلوماسيين والمترجمين الوراثيين، كانوا من حيث القومية سرياناً ولكن من حيث العقيدة دانوا بالمونوفيزية (بل إن أباه كان قساً مونوفيزياً). وإلى جانب لغته الأصلية السريانية فإن ننوس كأبيه وجده قد أجاد تماماً اليونانية التي صاغ بها تقاريره الرسمية ودوّن بها مذكراته، وأيضاً العربية

التي أجرى بها المفاوضات مع ملوك بلاد/ العرب وأمرائها. ولم ينتم ننوس أو أبوه ابرام أو جده اوبور إلى طبقة الأعيان من عمّال الدولة البيزنطية. والأرجح أنهم صحبوا السفارات بصفة أعضاء أدنى مرتبة، وإن اضطلعوا من وقت لآخر إذا ما صدّقنا مذكرات ننوس بمهام دبلوماسية مستقلة. ويشير «كتاب الحميريين» إلى وجود ابرام براوبور بالحيرة عام ٥١٨ في مهمة من هذا الضرب بالذات.

وأصول مدوّنات ننوس امتدت إليها يد الضياع، ولكن وصلتنا فقرات منها في «مكتبة» فوتيوس. وبخلاف هذا فإن «حوليات» يوحنا ملاله و «حوليات» ثيوفان الداعي حفظت لنا وصف سفارة الامبراطور يوسطنيان إلى السبوا (إلاأصبحه) [210, p.457–458; 85, p.187–188; 148, p.244–245] . ويرد الوصف تارة بضمير الغائب وطوراً بضمير المتكلم، مما يشهد بنقلها من ألفاظ السفير نفسه. واسم السفير يعطيه ثيوفان وحده، الذي يدعوه يوليان [148,p.244–245;85,p.187–188] . ولكن هل من الممكن أن ثيوفان أخطأ؟ فهو مثلاً يدعو الملك الاثيوبي آرثه والامبراطور البيزنطي يوسطين ويرجع بزمن السفارة إلى عام ٥٦٤ أو إلى عام ٥٧١ ـ ٥٧٢ [85, p.187–188; 148, p.244–245] . وثمة دليل على أن مصدر ثيوفان والمصدر الأساسي ليوحنا ملاله ومصدرفوتيوس إنما هو مذكرات ننوس في الحالات الثلاث. فمثلاً يرد اسم الحميريين لدى ملاله في صيغة نادرة للغاية هي آميرتاي Αμεριται ، كما هو الحال أيضاً لدى فوتيوس في روايته لمدوّنات ننوس. هذا على حين أن الأسلوب المعتاد لكتابة اسم الحميريين باليونانية هو أُميرتاي Ομεριται وفي وصفهم لاستقبال «ملك الهنود» (أي الاكسوميين) للسفارة يذكر ملاله وثيوفان أنه حمل على رأسه عمامة تسمى «فاكيولين» φακιολιν ؛ ويرد في متن فوتيوس «وكان القدامى يدعون الصنادل بالاربولات أما الفاكيولين فباسم الفاصولياء» 331, p.479; 250, p.5;29, 29 [p.486; 328, p.702; 94, p.312, 313 et note 346, p.253; [97, p.158] . وترى ن. ڤ. بيغوليفسكيا أن ثيوفان دمج المعلومات عن سفارتي ننوس ويوليان في كل

واحد؛ وفوق ذلك فإن هذا الأخير جرى الخلط بينه وبين يوليان آخر - هو المبشر المونوفيزي الذي زار بلاد النوبة [97, p.159-160] .

فهل من الممكن أن كلا الدبلوسيين البيزنطيين، أي يوليان ونتوس شارك في سفارة واحدة ؟ هذا سؤال له تاريخه . فالعلّامة أ. ديلمان A.Dillmann يعتقد بوجود سفارتين منفصلتين إحداهما اتجهت إلى حمير والأخرى إلى اكسوم ؛ وهو يرجع بسفارة ننوس إلى عام ٥٣٦ [209, p.41-44] . أما إ. جلازر E.Glaser فينضم إلى هذا الرأي ، ولكنه يؤرخ سفارة ننوس بعام ٥٢٩ - ٥٣٠ [237, p.70-77-89,125] . وفي ذات الوقت دلّل ي. موردتمان J.H.Mordtmann على أن مصدر معلومات يوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي فيما يتعلق بالسفارة إلى اثيوبيا إنما هو ننوس [328, p.702] ، وبهذا دعّم الرأي القائل بسفارة مستقله لهذا الأخير . وعارضه في هذا ف. فيل W.Fell الذي يرى أن يوليان أيضاً بمقدوره أن يكون ترك مذكرات عن سفارته إلى اكسوم [229] . أما ج. اولندر G.Olinder فإنه يساند تماماً رأي أ. ديلمان بأجمعه الذي يرجع بسفارة يوليان إلى عام ٥٣١ وبسفارة ننوس إلى عام ٥٣٦ [335, p.114-115] . ويعاضد أ. جونز A.H.Jones رأي ف. فيل ، فيسلّم بأن مصدر ملاله وثيوفان إنما هو مدوّنات/ يوليان [262, p.32] . ولقد عرّض سدني اسمث S.Smith روايات بروقوبيوس القيساري ويوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي لنقد مدمر ؛ متجاهلاً ببساطة تامة الفقرات من مصنف ننوس الموجوده « بمكتبة فوتيوس » . ووفقاً لرأيه فإنه من غير الممكن الحديث بثقة تامة إلّا عن سفارة بيزنطية واحدة ؛ هي بعثة يوليان التي ذهبت إلى حمير فقط وليس إلى اكسوم [388, p.448-451] .

أما عرفان شهيد فيقدّم التفسير الآتي: إن يوليان وننوس شارك كلاهما في سفارة واحدة، ولكن يوليان وهو السفير الأكبر نشط باثيوبيا بينما نشط ننوس ببلاد العرب؛ في البداية بين الكنديين وبالتالي في حمير. وعقب هذا لحق بيوليان في اثيوبيا ليقدم له تقريره عن مفاوضاته ببلاد العرب [264, p.63] . ولقد رفضت ن. ف. بيغوليفسكيا فرض عرفان شهيد على أنه ينقصه الدليل ، [96 p.76, 82;97, p.164] ، ملاحظة أنه « أضاف من عنده الكثير من الزيادة و

الاستنباطات مما لا وجود له أصلاً بالمصادر » [97, p.164] . أما هي نفسها فتتمسك بوجهة نظر مفادها أن يوليان وننوس اضطلعا ببعثتين دبلوماسيتين مختلفتين ، ولكن كلاهما كانت له أهداف مماثلة وانتهيا بنتيجة واحدة ؛ غير أن سفارة يوليان سبقت سفارة ننوس لأنها وقعت في عام ٥٣١ [94, p.309 ff; 346, p.251; 96, p.75 ff; 97, p.161–165] . ورأي ن . ڤ بيغولييڤسكيا يشاطره أ . ج . لندين [78, p.56–59] وكاتب هذه السطور [54, p. 95–97] . أما ب . ربين B.Rubin فيقول في مصنفه إن الذي وصف لنا رحلته إلى اكسوم يوحنا ملاله كان يدعى يوليان [363, p. 56–59] .

ومن المؤسف أن المصادر تحفل بالتناقضات والأخطاء ، بحيث لا تمكّننا من الاجابة على سؤال محدّد تماماً ؛ وهو هل ذهب ننوس إلى اكسوم بوصفه سفيراً مستقلاً أم كان عضواً أدنى في سفارة يوليان فحسب؟ ويجب أن ننبّه إلى أنه كان نسبياً في سن الشباب (لأن أباه ابرام كان لا يزال يعمل بنشاط في الخدمة الدبلوماسية للدولة) . وننوس وإن لاح شخصاً مناسباً للتفاوض مع قيس الهارب إلى مفازة ليس بها نافخ نار (والذي عرفه أبوه جيداً!) ، بل وحتى من أجل التفاوض مع سميفع أشوع ؛ إلاّ أنه لم يكن في وضع يسمح له بتمثيل الامبراطور البيزنطي ببلاط «ملك ملوك» اكسوم . أضف إلى هذا أن مدّونات ننوس الأصلية لم تحفظ ، وأن الفقرات التي حفظها لنا فوتيوس منها في «مكتبته» لا تنبس ببنت شفة عن رفاقه في الرحلة إلى اثيوبيا .

ولمّا كانت المعلومات بصدد رحلة يوليان إلى اكسوم نزرة للغاية (وليس بالمستطاع الكلام بثقة إلاّ عن مجرد واقعة ذهابه بسفارته إلى إلاأصبحه) ، فمن الأفضل أن ننتقل فوراً إلى الحديث عن رحلة ننوس . ووفقاً لرواية يوحنا ملاله فإن هذا السفير البيزنطي توجّه من الاسكندرية مصعّداً في النيل ليأخذ الطريق على البحر «الهندي» (الأحمر) إلى «بلاد الهنود» . (ومن الجليّ أنه شرّق من النيل إلى إحدى مواني مصر على البحر الأحمر، أغلب الظن القلزم أو برنيقى) . وكما ذكرنا من قبل فإن « بلاد الهنود » إنما المقصود بها اكسوم والجنوب العربي معاً [210, p.457] . ويقدّم لنا ثيوفان الوصف نفسه لطريق السفير، أي من

الاسكندرية على النيل ثم بطريق البحر « الهندي » إلى اثيوبيا [148, p. 244]
هذا الطريق مناسب على السواء لسفارة يوليان وسفارة/ننوس. والأخير منهما على الأقل كان عليه أن يجتاز البحر الأحمر مرتين في طريقه من بلاد العرب إلى اثيوبيا. وفي معرض كلامه يقول بروقوبيوس القيساري إن المسافرين من الجنوب العربي إلى المرفأ الاثيوبي الذي يقع على مائة وعشرين استاديوناً من عدولي كانوا يخرجون في العادة من بوليكاس، مرفأ الحميريين. أما الطريق من عدولي إلى اكسوم فيأخذ اثني عشر يوماً. بعد هذا يرد وصفه للسفن المحلية الموصولة الواحها بالحبال [30, p.250–252; 249, t.I p.103] . ويجب الاعتقاد بأنه استفاد هنا من تقرير يوليان وأن هذا يتفق أيضاً مع الظروف التي اكتنفت رحلته: أي الابحار من بوليكاس على سفينة محلية، ثم قطع المسافة من عدولي إلى اكسوم في اثني عشر يوماً.

كذلك قدم ننوس بدوره إلى عدولي من بلاد العرب، كما يبصر من حكايته بصدد الرحلة من عدولي إلى اكسوم. وكانت نقطة إبحاره من بلاد العرب تدعى فرسان، أي جزيرة الفرسان الكبير [250, p.7; 29, p.487] . والأرجح أن ملاحي السفينة كانوا من أهل فرسان الذين كان فن الملاحة يجري في عروقهم؛ ومن الممكن أن تكون نقطة إبحاره من جزيرة العرب مرفأ بوليكاس الذي يقع في منطقة المهاجرين من فرسان. «وبعد الإبحار من فرسان» فإن ننوس «قطع البحر إلى أطراف جزيرة (يبدو أنها إحدى الجزر المائتين وعشرين التي يتكوّن منها أرخبيل دهلك) يقطنها «آكلو الأسماك» . وهو يصوّرهم على أنهم شعب بدائي للغاية «كائنات لها صور الآدميين ولكنهم ضئال الأجسام سود اللون يغطي الشعر كافة جسمهم. ووراء الرجال تسير النساء شبيهات بالرجال (في القامة والمظهر الخارجي) والأطفال أقل منهم (قامة)، وجميعهم عراة، إلّا كبار السن من الرجال والنساء الذين كانوا يسترون العورة بجلود صغيرة. ولم يوجد فيهم ما يشير إطلاقاً إلى أنهم متوحشون أو شرسون: فصوتهم بشري ولكن لغتهم غير معروفة لأي من الشعوب المحيطة، ومن باب أولى لأصحاب ننوس.

وكانوا يعيشون على المحّار والأسماك التي يقذف بها البحر إلى الجزر[٣٩] . وهم جبناء يتولاهم الذعر عند رؤية الغير، وذلك بالطريقة نفسها التي نخاف بها الوحوش الكاسرة» [29, p.487; 250, p.7] .

والإشارة إلى رفاق ننوس الوارد ذكرهم أيضاً عند وصف الرحلة من عدولي إلى اكسوم ، يفهم منها أنهم لم ينتموا إلى « الشعوب المحيطة » التي كانت تعيش على سواحل البحر الأحمر. ويرد الكلام عن اكسوم أنها « مدينة واسعة » (كما يقـــول فوتيوس ، نقلاً عن ننوس في أغلب الظن) . أما الطريق من عدولي إلى اكسوم ، إن لم يكن فوتيوس على خطأ ، فقد قطعه في خمسة عشر يوماً [29, p.486;250, p.6] - أي ابطأ من جميع الرحالة الآخيرين ، سواء من العصر القديم أو الوسيط أو الحديث . ولعل مردّ هذا إلى حذره الشديد ، إن لم يكن إلى ارتيابه الأشد . ويرد في عرض فوتيوس أن ننوس واجه العديد من المؤامرات للفتك به من طرف من التقى بهم ، كما تعرض لمخاطر كبرى بالطريق ؛ أراض ليس في الوسع اختراقها ووحوش مخيفة [250, p.4; 29, p.485] . وإحدى هذه اللقاءات جرت له في « موضع يعرف بالآوى » η' 'Αυη' ، أي آيا الواقعة على منتصف الطريق بين اكسوم وعدولي . فهناك أبصر قطيعاً هائلاً من الفيلة يبلغ حوالي الخمسة آلاف، كانت ترعى في سهل واسع . ولم يكن بمقدور أحد من الأهالي الاقتراب منها أو طردها من مرعاها » [250, p.6; 29, p.486] . ومن المحتمل أن موضع آيا كان بأراضي قبيلة/ آيا الوارد ذكرها برقيم عدولي من بين قبائل الجعز واجمه ؛ ومن ثم فقد كانت تتاخم أجمه .

ويقدّم ننـوس ملاحـظاتـه عن مناخ هذا القسم من اثيوبيا فيقـول: «والصيف والشتاء هناك بالمقلوب . فعندما تمرّ الشمس بأبراج السرطان والأسد والسنبلة (أي أشهر الصيف) فإنه إلى حدود آيا تغلب الحرارة والجفاف، كما هو الحال لدينا (بمنطقة البحر المتوسط)؛ ولكن من آيا إلى اكسوم وإلى بقية اثيوبيا تضطرب الأحوال الجوية وإن لم يكن لليوم كله ، فهي تبدأ بكل موضع في

(٣٩) راجع Strabo, XVII, 13 .

منتصف النهار فتتلبدّ السماء ساعتئذ بالغيوم وتهطل أمطار شديدة تغرق الأرض. وهذا هو الوقت الذي يحدث فيه فيضان النيل بمصر. وعندما تنتقل الشمس صوب أبراج الجدي والدلو والحوت (أي اشهر الشتاء) يحدث العكس بأرض العدوليين فتفيض بالأمطار إلى حدود آيا؛ ومن آيا إلى اكسوم وإلى بقية اثيوبيا يكون الصيف، وعندئذ تنتج الأرض ثماراً ناضجة» [250, p. 6–7; 29, p.487].

وقبل كل شيء ينبغي أن نوضّح نقطتين؛ ذلك أنه بالنسبة للسرياني ننوس كان الصيف هو فصل «الحرارة والجفاف». وعلى العكس من هذا فإن المناطق الجنوبية لشمال شرقي افريقيا تهطل بها أمطار غزيرة في تلك الأشهر بسبب الرياح الموسمية الجنوبية ـ الغربية، وحينئذ تهبط حرارة الجو. لذا فإنه بين خطى عرض ٤° و ١٢° شمالاً كان الجو في ديسمبر ـ يناير أبرد مما عليه الحال في يوليو ـ آغسطس. وفصل الأمطار الغزيرة نسبياً يتفق بالتقريب مع فيضان النيل، الذي يبدأ بمصر في آغسطس ويبلغ أقصى ارتفاعه في سبتمبر؛ وفي أكتوبر يبدأ انحسار الماء. وفي القطعة التي أوردناها قبل قليل كان ننوس في الواقع أول من تحدث في الأدب الجغرافي العالمي عن الأمطار الشتوية الدائمة (من نوفمبر إلى بداية ديسمبر) التي كانت تجلبها إلى الساحل الافريقي، وذلك بالقسم الجنوبي للبحر الأحمر، الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تهب من اكتوبر إلى يناير؛ أي أكثر الشهور جفافاً بالهضبة الحبشية. وفي نوفمبر، وإلى حد ما في ديسمبر ـ بداية ينـاير، يبدأ «البِلْج» بحقول الهضبة أي حصاد المحصول الذي أعطي للفصل بحاله اسم «البِلْج» أيضاً. فهل التقى ننوس وهو باثيوبيا ببداية هذا الفصـل الـذي فيه «تنتج الأرض ثماراً ناضجة»، أم أنه سمع بهذا فقط من صحبه؟ ولا بد أن عودة ننوس من اثيوبيا إلى مصر حدثت في ابريل ـ آغسطس، مستفيداً من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. أما الرحلة من الجنوب العربي إلى عدولي فإنه لم يكن بوسع ننوس القيام بهاإلاّ بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية وذلك بين اكتوبر ويناير، أي في الفصل الذي ورد وصفه أعلاه. لذا علينا أن نفترض أن اشارة فوتيوس إلى «فصل آخر» انما تتفق مع رحلة ننوس من عدولي إلى اكسوم، التي تمت على الأرجح في نوفمبر. أما الملاحظة الأولى بصدد مناخ

اثيوبيا فتتعلق بالانطباعات التي تكونت لديه في طريق العودة من أكسوم إلى عدولي. وفي يونيو ـ سبتمبر عندما كان يغلب على ساحل البحر الأحمر «الحرارة والجفاف» كانت تهطل أمطار صيفية على هضبة التيجرة تتخذ صورة عواصف المناطق الحارة. وهي تبدأ عادة، في شهري يونيو ـ يوليو، حوالي منتصف النهار؛ وفي شهر يوليو تهطل في كل يوم مما يتفق تماماً مع وصف ننوس. وقناعتي أنه في هذا الفصل بالذات من السنة، أغلب الظن في شهر يوليو، غادر ننوس عدولي عائداً إلى بيزنطة. وبهذا فإن زيارة ننوس لاثيوبيا استغرقت حوالي/ تسعة أشهر ، وذلك من نوفمبر إلى يوليو. غير أن عام سفارته إلى اثيوبيا سيظل موضع نزاع.

وبعد هذا الوصف لطبيعة اثيوبيا تنقطع اقتباسات فوتيوس التي أخذها من ننوس، ولكن تكملها النصوص المقتضبة في « حوليات » يوحنا ملالـه [210, p.457–458] وثيوفان [148, p.244–245; 85, p.187–188] (بصرف النظر عن اثبات شخص السفير الوارد فيها) . ولـمّا أُخذ السفير إلى البلاط أبصر ملك اكسوم جالساً على عجلة (أو عرش؟) عالية مزيّنة بالذهب، كأنما شد إليها أربعة فيلة.[٤٠] وكان الملك نصف عار باستثناء «تيل ذهبي» أي مصنوع من الكتان المعمول بالذهب على هيئة شبكة تغطي فخذيه. وعليه من الحليّ: عقود من الذهب حول العنق، وحلقات من الذهب على كتفيه خمسة لكل كتف، وأساور من الذهب بذراعيه ووصل من اللؤلؤ والأحجار الكريمة على بطنه. والسفير الذي يدعوه ثيوفان البيزنطي يوليان، أبصر على رأس الملك عمامة «منسوجة من الكتان المذهّب» λιν'οχρυσν φακιολιν تتدلى على جانبيها أربع قلائد . وكان الملك يقبض بيده درعاً مذهباً (أو مموّها بالذهب applique ورمحين مذهّبين (λαγκιδια) (ويتفق هذا الوصف على وجه العموم مع صورة الملك على العملة الاكسومية للقرن الرابع). وحول الملك وقف أعضاء مجلسه

---

(٤٠) οχημα تعني أيضاً « حيوان للركوب ؛ مطيّة » مما لا يتفق كثيراً مع هذه الحال . فهل المقصود أن العرش οχημα كان بأرجل على هيئة الفيلة ؟ .

الاستشاري مسلحين (من الواضح بالرماح والدروع أيضاً). ويلي هذا بضمير المتكلم حكاية السفير الذي أُخذ إلى الملك ثم جثا على إحدى ركبتيه فأمره الملك بالقيام وأخذ كتاب الامبراطور البيزنطي وقبّل ختمه؛ وبعد هذا تسلّم الملك هدايا الامبراطور. وقام المترجم بترجمة كتاب الامبراطور، الذي علم منه الملك أنه يقترح عليه إيقاف التجارة مع ملك الفرس قباد ويجعلها مع الاسكندرية عن طريق النيل؛ وأن يدخل أيضاً في الحرب ضد قباد. ومن الممكن أن يبصر في الاقتراح لقطع التجارة مع ايران وتوجيهها بطريق النيل تحريفٌ للمعلومات المتعلقة بمحاولة انتزاع تجارة الحرير الصيني من أيدي الفرس.

ولا يخلو من مغزى أن ملاله وثيوفان في كلامهما عن تغيير اتجاه التجارة لا يعنيان تجارة الاثيوبيين أو الاكسوميين، بل تجارة «الهنود الحميريين»، أي الحميريين الذين شغلوا أهم وضع في التبادل التجاري لأقطار المحيط الهندي مع الامبراطورية البيزنطية، كما كانوا أيضاً الوسيط التقليدي في التجارة بين الفرس والاكسوميين.

ويوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي يصفان على حد سواء بالتقريب مراسم استقبال السفارة، وكيف رفع الا أصبحه في نهاية الاستقبال رأس السفير البيزنطي و « أعطاه قبلة السلام » δεδωκω's ει'ρη'νηδs φιλη'μα وسمح له بالانصراف تحت الحماية (أو بوثيقة لحمايته في الطريق) . ووفقاً لثيوفان فإن يوليان حمل معه هدايا « ملك الهنود » إلى الامبراطور ؛ أما يوحنا ملاله فيقول إن الهدايا والرد على كتاب الامبراطور حملها إلى بيزنطة « سفير الهنود » [210, p.458; 10, p.245; 85, p.188] .

ورواية يوحنا ملاله الساذجة والحافلة بالأخطاء والتي لا تخلو من عمل الخيال فيما يبدو ، هي خير شاهد على/ دأب الدبلوماسية البيزنطية من ناحية وعلى إخفاق مجهوداتها من ناحية أخرى لجرّ مملكة اكسوم والخاضعين لها في الحرب ضد الفرس . وأغلب الظن أن الاثيوبيين لم يقطعوا حتى علاقاتهم التجارية مع ايران والتي كتب عنها حوالي ٥٤٨ ـ ٥٥٠ قزما الذي أبحر إلى الهند . ومن جانبها فإن الحكومة الساسانية لم تكشف عن عداء ما نحو

الاكسوميين . وكما ذكرنا في ما مر فإنه في النصف الثاني من السنوات الثلاثينات نلتقي في طيسفون بسفير لاكسوم يدين بالمونوفيزية تمكّن بتدخله من إطلاق سراح أخيه في الدين شمعون الأرشمي المشهور ؛ وهذا الحدث يوضحّ أن الساسانيين فرقوا بدقة بين علاقاتهم المعقدّة مع اكسوم وعلاقاتهم العدائية مع القسطنطينية . وكما لاحظنا في ما مر فقد رفضت ايران أن تعاون ذا نواس ضد اكسوم، ولم تدفع اللخميين التابعين لها إلى الحرب . وفي مقابل هذا فإن العلاقات البيزنطية ـ الاكسومية لم تزدهر بالصورة المرغوب فيها ، وعلى الرغم من مظاهر الصداقة بين هاتين المملكتين النصرانيتين . ومن الجلي أن الدبلوماسية البيزنطية لم تكن لتحجم عن الضغط على اكسوم ، وذلك بتقاربها مع أتباع ملك اكسوم الذين لا يمكن التعويل عليهم في طاعته. فأولاً دخل البيزنطيون في اتصال مع سميفع أشوع وحصلوا على موافقته بإعادة قيس إلى عرش معدّ والوعد بالدخول في حملة ضد الفرس. ويرى ب. روبين أن دسائس الدبلوماسية البيزنطية هي المسؤولة عما حدث من تغيرّ حاد بين عامي ٥٣٠ و ٥٣٣ في العلاقات بين اكسوم وحمير، وذلك عندما اعتمدت مملكة حمير على الحلف مع بيزنطة لتحصل على مزيد من الحكم الذاتي (الاستقلال في واقع الأمر) من اكسوم [364, p.315-318] . وفيما بعد تابع البيزنطيون السياسة نفسها مع خلف سميفع أشوع على عرش حمير. ومما لا شك فيه أن هذه التناقضات كان من شأنها أن تزداد حدّة في العشرات التالية من السنين، وذلك على ضوء الأحداث التي جدّت بالجنوب العربي. كل هذا كان لا بد وأن يؤدي إلى ردود فعل من طرف الاكسوميين، غير أن الاختفاء التام للمصادر الاثيوبية لذلك العهد لا يسمح لنا بأن نذهب إلى أبعد من مجرد الإفتراضات .

وفي ظروف كهذه لا بد أن شمعون الارشمي لعب كما حدث وأن بيّنا ، دوراً سياسياً ما بما عهد فيه من إخلاص وتفان من أجل استقلال الكنسية المونوفيزية وتوحيد كلمة المونوفيزيين؛ لا تحت زعامة يوسطنيان أو حتى زوجه تيودورا بل تحت زعامة كالب ملك اكسوم. وهو أمر يجب ألّا يدهشنا في شيء من طرف مواطن فارسي كان يدعو إلى تدعيم علاقات «الفرس مع الكوشيين» .

ويرى عرفان شهيد أن شمعون عقب إطلاق سراحه من سجن الشاهنشاه قام بزيارة إلى اكسوم وجرت له محادثات مع إلا أصبحه [383, p.163] . أما الأسقف اوبروبيوس صديقه القديم الذي تبادل معه الرسائل فإن شمعون لم يجده في عداد الأحياء [383, p.152] ؛ ويلوح أنه عقب موت اوبروبيوس شغل مباشرة الكرسي الأسقفي يوحنا المصري الذي كان تحت حماية بيزنطة. ولم يكن من شأن شمعون الارشمي ذلك المناضل الغيور والداعية الكبير للمونوفيزية أن يجد نعم النصير في شخص يوحنا المسالم. بيد أنه يجب علينا ألّا ننسى أن إلا أصبحه/ نفسه كان من الشخصيات الكبرى في التاريخ بحيث أن شمعون لم يكن في حاجة إلى أسقف اكسوم الجديد ليجد لغة مشتركة مع الحكومة الاثيوبية. لهذا لم يكن غريباً أن يمجّد «كتاب الحميريين» الذي دوّن في أغلب الظن عقب زيارة شمعون الأرشمي لاكسوم وحمير ـ الملك كالب على أنه ملك عظيم وأنه أمل النصرانية الذي يرجّى على يديه الكثير في المستقبل.

ووفقاً لرأي عرفان شهيد فقد زار شمعون الجنوب العربي على عهد حكم سميفع أشوع والتقى بذلك الملك أيضاً [383, p.137-138, 163] . وإذا ما أخذنا في حسابنا أنه التقى قبل ذلك بملوك الغساسنة وغيرهم من ملوك العرب، وربما بملك النوبه السفلى أيضاً، لاستبانت لنا بجلاء أبعاد نشاطه الذي كان سياسياً في جوهره في خدمة مصالح اكسوم والمونوفيزية وإلى حد ما مصالح ايران؛ الأمر الذي يعادل نشاط جميع السفارات التي وجّهت بها بيزنطة إلى اقطار البحر الأحمر.

٨ ـ اكسوم وبيزنطة؛ وتملّك أبرهة الحبشي بحمير

بين عامي ٥٣٢ و ٥٣٥ قُلب سميفع أشوع من العرش واعتقل بأحد الحصون على ما يرويه لنا بروقوبيوس القيساري [30, p.274-275] . أما الأخبار العربية المتواترة فتقدم لنا حكاية نصف اسطورية مفادها أن قائد الثورة أبرهة الأشرم قتل القائد أرياط في مبارزة مستعيناً في ذلك بعبده الذي يختلف اسمه باختلاف المصادر [10, p.932-933] . وأعقب هذا أن اعتلى ابرهة عرش حمير.

وغير واضح علاقة الثوار بالعاصمة الكبرى اكسوم. وتؤكد الأخبار العربية المتواترة أن أبرهة بذل جهده لمصالحة نجاشي الحبشة. وهذه الرواية التي ترتفع إلى هشام بن محمد الكلبي نصها كالآتي: «وأقام ابرهة ملكاً على صنعاء ومخاليفها ولم يبعث إلى النجاشي بشيء، فقيل للنجاشي إنه قد خلع طاعتك ورأى أنه قد استغنى بنفسه». وفيما بعد عندما أراد ابرهة المصالحة مع ملك الحبشة كتب إليه: «إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك، قدم عليّ يريد توهين ملكك وقتل جندك فسألته أن يكفّ عن قتالى إلى أن أوجّه إليك رسولاً فإن أمرته بالكف عني وإلّا سلّمت إليه جميع ما أنا فيه. فأبى إلّا محاربتي فحاربته فظهرت عليه، وإنما سلطاني لك. وقد بلغني أنك حلفت أن لا تنتهي حتى تهرق دمي وتطأ بلادي. وقد بعثت إليك بقارورة من دمي وجراب من تراب أرضي وفي ذلك خروجك من يمينك، فاستتمم أيها الملك يدك عندي فإنما أنا عبدك وعزّي عزك» [10, p.935-936] . وبصورة موجزة يكرّر ابن اسحق هذه الرواية، التي لم تلبث أن وجدت سبيلها عن طريق تاريخ الطبري الضخم إلى مصنفات المطهّر المقدسي [80, p.23,27] وغيره من المؤرخين العرب. ومن العسير القول إن ثورة ابرهة كانت ذات اتجاه معاد لاكسوم، باستثناء قطع الإتاوة الذي/ ربما حدث منذ الأيام الأخيرة لسميفع أشوع. غير أن الثورة كانت موجّهة بطريق غير مباشر ضد سميفع أشوع؛ ولعله أيضاً ضد طبقة الأعيان سواء من الحميريين أو الاثيوبيين. ومما يسترعي النظر حقاً أن الثورة في هذه المرة لم يرفع

لواءها على الاطلاق تلك الدوائر اليهودية ـ الوثنية من أهل البلاد المتعاطفة مع الساسانيين. أما الأخبار العربية المتواترة فتصوّر الحركة التي تزعّمها ابرهة كحركة اجتماعية في الغالب: «فالفقراء» لم يكونوا راضين عن استبداد الأقيال الذين «رفعهم» سلف ابرهة. ولقد كان ابرهة نفسه جندياً بسيطاً، يُصوّر لنا مظهره الخارجي على أنه ينتمي تماماً إلى طبقة «العوام» ـ فقد كان قصير القامة بديناً ومشوّه الخلقة ـ لعله أعور أو بدون أنف (ومن هنا كنيته «الأشرم») ودميماً للغاية. وعلى نقيض هذا صُوّر أرياط على أنه رجل طويل القامة وسيم، وذلك بما يتفق مع رجل من الأعيان [10, p.931–935; 2, p.43–44; 5, p.69–72] .
ويؤكـد بروقوبيوس القيساري أن «ابرام» (ابرهة) كان في الأصل عبداً لتاجر بيزنطي يعمل بالتجارة البحرية مع اثيوبيا[30, p.275; 249, t.I, p.107] . لذا فمن المُغري أن يُبصر في موقف حكومتي اكسوم وبيزنطة من الثوار لأوّل وهلة ظهور عواطف طبقية. غير أن المكانة الأولى شغلتها بطبيعة الحال الاعتبارات السياسية.

ولا يخلو من طرافة رنّة العداء في حديث بروقوبيوس بصدد ثورة ابرهة؛ فهـو يقول: «وكل أولئك الذين كان لهم ميل إلى فعل الشر لم يريدوا متابعة مليكهم... فبعد وقت قصير من هذا اتّحدت هذه الفئة مع أمثالها وثاروا ضد الملك اسيمفي (سميفـع) وحبسـوه بأحد الحصون هناك ثم نصبوا ملكاً على الحميريين اسمه ابرام» [30, p.274–275; 249, t.I, p.107] .

على أي .فقد أخذت الحكومة البيزنطية موقفاً عدائياً من ابرهة في بداية الأمر. ولم يكن مردّ ذلك إلى العواطف الطبقية بقدر ما تعلق بالأحوال السياسية التي غلبت بالأمس. فقد أطاح ابرهة بسميفع أشوع الذي دخلت معه بيزنطة في اتصال وثيق والذي جهد بدوره لإرضاء مطالب السياسة البيزنطية.

ولا بد أن دوراً ما قد لعبه الموقف السلبي لامبراطور بيزنطة من العصاة أجمعين. فقد شكّل العصاة خطراً على جميع مخطّطاته منذ بداية حكمه. وحدث أن أشرنا فيما مر إلى ثورة السامريين عام ٥٢٩ ـ ٥٣٠. وكذلك انفجرت ثورة نيقا Nika بالقسطنطينية. وفي عام ٥٣٤ بدأت الثورة بشمالي افريقيا حيث كانت

القوات البيزنطية قد أخضعت الوندال عام ٥٣٣ . بل إن القوات البيزنطية هناك تمردت في عام ٥٣٦ وعاضدها السكان المحليون ، ولم يتم إخماد الثورة نهائياً إلّا في عام ٥٤٨ .

وبخلاف هذا فإن البيزنطيين لم يثقوا في دوام وضع العصاة بالجنوب العربي والذين لم يكونوا في نظرهم سوى حفنة من المغامرين الأجانب ببلاد عرفت بميلها إلى العصيان ولم تغلب عليها النصرانية إلّا منذ وقت غير بعيد . (هذا الحكم نفسه يصدق على تيودور القبادوقي واستوذره وجونتاريس وغيرهم من قادة التمرّد بشمالي افريقيا) .

وأخيراً فإن بيزنطة كانت تخشى فيما يبدو منافسة اكسوم التي كانت تجهد بطبيعة الحال لاستعادة نفوذها المهتزّ بالجزيرة العربية . ويجب الاعتقاد أن الا أصبحه قد استغلّ فوراً تلك الثورة كذريعة للقيام بحملة جديدة على حمير؛ لذا أرسل ملك اكسوم بقواته مرتين ضد ابرهة ولكن كان نصيبها الفشل في المرتين . ووفقاً لألفاظ بروقوبيوس «فقد أرسل جيشاً من ثلاثة آلاف تحت قيادة أحد أقاربه ، غير أن هذا الجيش أبى العودة إلى أرض الوطن وفضّل البقاء بتلك البلاد الطيّبة ευ χωρα αΥαθη (أي بلاد العرب السعيدة) . لذا اتصلوا سراً بابرام (ابرهة) دون علم قائدهم ؛ فلما التحموا مع العدو قتلوا قائدهم وانضموا إلى جيش العدو وأقاموا بتلك البلاد . فاغتمّ إلسبو (إلا أصبحه) لذلك كثيراً وأرسل جيشاً آخر ضد ابرام كان نصيبه الهزيمة أيضاً وعاد فوراً إلى أرض الوطن . عند ذلك وجد الخوف سبيله إلى ملك الاثيوبيين فلم يرسل حملة أخرى ضد ابرام» [30, p.275; 249, t.l, p.108] .

كذلك حفظت لنا الرواية العربية المتواترة أخبار الصراع بين نجاشي الحبشة وابرهة ، حدث وأن سقنا بعض تفاصيله فيما مر. وهي أيضاً على علم بالمفاوضات التي أجراها ابرهة مع القوات التي أرسلت ضده ، وإن كان ذلك في الحقيقة مع قائدها ، وذلك بقوله له : «إنه يجمعني وإياك البلاد والدين ، والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا ممن معي ومعك» فأبى ارياط وقتل في المعركة [10, p.931; 80, p.23,27] .

بهذا فإن الجنود البسطاء للوحدة الاكسومية التي ارسلت ضد ابرهة تمرّدوا وانضموا إلى الثوار. وهذا يقف دليلاً على أن التناقضات بالمجتمع الاكسومي كانت بالقدر الذي ساق إلى ثورة مفتوحة ضد طبقة الأعيان - وإن حدث ذلك خارج حدود اثيوبيا. أما كيف وجدت هذه التناقضات التعبير باكسوم نفسها، فهو مجهول لنا. وغير واضح تمام الوضوح أيضاً موقف أهل البلاد الأصليين، أعني الحميريين، تجاه القوات الاثيوبية الثائرة. غير أن الخبر الوحيد عن قتال للحميريين ضد ابرهة لا يرتبط بفترة انتزاعه السلطة وكفاحه ضد الغزو الاكسومي، بل ببداية السنوات الأربعينات من القرن السادس. ومن الجلي أن غالبية الحميريين لزمت الحياد خلال الأحداث التي وصفناها، بل لعل بعضهم ساند ابرهة. هذه هي وجهة النظر التي أخذ بها أ. ج. لندين عند حديثه عن الحميريين الذين انضموا إلى الجنود الاثيوبيين [78, p.62] . وعلى الرغم من الندرة الشديدة للمعطيات التاريخية، فإن رأي أ. ج. لندين يبدو قريباً من الصحة. وتأكيداً لرأيه/ يمكن أن نشير إلى الحكاية المبهمة لدى بروقوبيوس القيساري بصدد رعايا اسيمفي (سميفع) الذين لم يتبعوا ملكهم بل رفعوا لواء الثورة (وإن كان الحديث يدور قبل كل شيء حول المستوطنات العسكرية)؛ وأيضاً إلى ذكر القوات الحميرية جنباً إلى جنب مع «الأحباش» في رقيم مارب لابرهة (وإن كان الحديث يدور هنا حول أحداث جرت في زمن تال).

وبعد أن قضى أبرهة على محاولتي ملك اكسوم لاخماد ثورة رعاياه السابقين وقوى صفوف جيشه بالمتمردين والعصاة، شرع في تدعيم وضعه بالبلاد بطريقة جدّية. أما الا أصبحه فقد أقلع كما يقول بروقوبيوس عن أي فكرة لقلب الحاكم الجديد لحمير، وإن لم يعترف به ملكاً إلى آخر أيام حكمه في ما يبدو. غير أن هذا تم على يد خلف إلا أصبحه [30, p.275; 249, t.I, p.108] ، وذلك في نهاية الثلاثينات من القرن السادس بالتقريب. واسم الملك الاكسومي الجديد والظروف التي أحاطت باعتلائه العرش تتناقض حولها أقوال المصادر، فبروقوبيوس لا يعطي اسمه ويربط اعتلاءه العرش بموت الا أصبحه. بل إنه لا يشير حتى إلى أن الملك الجديد كان ابناً لإلا أصبحه ويقتصر على الألفاظ

«خلفه في السلطة» . وهذا أمر جدير بالانتباه ، وإن كان لا يدفع بالضرورة إلى استقراءات جديـــدة .

أما في « استشهاد الحارث » فنلتقي بقصة من نسج الخيال ، يمكن لمن يشاء أن يفسرّها كشائعات عن تنازل الا أصبحه عن العرش . فيقال إنه عند عودته من الجنوب العربي أرسل بتاجه إلى البطريرك يوحنا باورشليم ليضعه هذا الأخـير على قبر المسيح [305, p.758; 383] . وكـون الأمـر يتعلق بأسطورة فحسب يقف شاهداً عليه مجرد واقعة أن بطريرك اورشليم يوحنا الثالث نصير العقيدة الارثوذكسية مات في الرابع والعشرين من ابريل عام ٥٢٤ ، أي قبل الحملة المشتركة للاكسوميين والبيزنطيين والعرب الجنوبيين ضد الحميريين اليهود [222, p.125] . والأرجح أن القصة تشهد فقط بوجود روابط بين الاثيوبيين النصارى وبطركية اورشليم ، وبزيارتهم قبر السيد المسيح . وكما لاحظ فان اسبروك فإن الروايات العديدة « لاستشهاد الحارث » ، سواء كانت ارثوذكسية (يونانية وكرجية) أو مونوفيزية (أرمنية و عربية واثيوبية) تلتزم الصمت إزاء دور البطريرك القبطي طيماثاوس في تشكيل الحلف البيزنطي الاكسومي ، وتنسب ذلك إلى البطريرك الارثوذكسي يوحنا [222, p.125] .

ووفقاً « لسيرة القديس جريجنتي » Vita Sancti Gregentii فإن إلا أصبحه تنازل طواعية عن العرش من أجل ابنه اترفوتم، وابتعد إلى مغارة «بجبل اوفرا» (صحـراء عفـار؟) [22,p.66] . واسم اتـرفوتم غير معروف لنا من مصادر أخرى، وليس معروفاً أيضاً المصدر الذي استقت منه «السيرة» مادتها هذه. و «قوائم الملوك» تعد خلفاً لالا أصبحه ابنه المدعو أصفح ؛ وهذا الملك أعقبه على العرش أخوه أرفد؛ وتلا هذا الأخير أخ ثالث يدعى أمسى ؛ وبهذا تعاقب على العرش ثلاثة إخوة [195, p.271,280] . ولمّا كان كالب أو إلا أصبحه تعده «قـوائم الملوك» شخصـين مختلفـين، فإن وارث كالب هو جبره مسقـل (عبد الصليب) أو كواستنتينوس/ (قسطنطين) [195, p.272, 281, 298] . هذان الاسمان نلتقي بهما في جميع روايات «قوائم الملوك» باستثناء الرواية «ج» [195, p.293,294] ؛ غير أن الاسم الثاني ينسب في معظم الأحوال إلى حاكم مستقل

هو ابن لجبره مسقـل. ولا يزال يشـار باكسوم إلى اليوم إلى مقبرة جبره مسقل وقصره. وهو يعد مؤسس طقوس التتويج وعدد من المراسم المرتبطة بها [54, p.219-221] .

ولا توكّد معطيات السكة أياً من هذه الأسماء. فخلفاء كالب يمكن أن يُعدّ أولئك الملوك الذين تنتمي سكتهم إلى نوع سكة هذا الأخير. مثل سكة تيزنه، وأيضاً السكة الأكثر عدداً منها لاوصنه الثاني (Ουσ'ανος)، وكذلك سكة من اوصه(Ουσας ـ ولعله مختصر اوصنه؟).

أما برقيم مارب فإن ملك اكسوم الذي اعترف بأبرهه يرد اسمه في صورة إلا اوزنه (ء ل/ ء ز ي ن) (CIH 541, 5-6) ، الذي يقرّب ج. ريكمانس بينه وبين اوصنه أو اوزنه المنقوش اسمه على السكة. ولعل هذا الاسم من الممكن قراءته أيضاً « إلا أوزنه » . على أي ، فإنه لا يتفق مع اسم صاحب الرقيم الملكي الـذي تم الكشف عنـه منذ وقت ليس بالبعيد باكسوم؛ وهو ابن الا أصبحه الذي يدعو نفسه وأذب (و ء ذ ب). ولم يبق سوى أن نفترض أن خلف كالب وابنه قد حمل بضعة أسماء كان الأول من بينها هو وأذب إلا أوزنه.

ولا يختلف لقب وأذب كثيراً عن لقب كالب. فالاختلاف الأساسي بينهما يتركـز في أنـه بدلاً من التعـداد الدقيق للأملاك الجنوبية العربية ـ «والأطواد ويمنـات وتهـامـات (أي السهـول الجافة المطلّة على البحر) وحضرموت وكل أعرابها» المستعارة من «اللقب المطوّل» لملوك حمير، وأيضاً الأقطار الافريقية د ر ب ت و ء س ف ي؛ أقول بدلاً من كل هذه ترد في اللقب الملكي بلاد وي ت ج أو وي ت ل التي تحكي لنا معطيات الرقيم المار ذكره عن إخضاعها. أما «اللقب القومي» لوأذب فهو كما يجب أن يُتوقع مختلف عما هو الحال مع أبيه. فهو ليس «أهل لزن»، بل «أهل هدفن»؛ وهذا دليل إضافي في مصلحة افتراضنا أن « الألقاب القومية » ليست ألقاب الأسرة الحاكمة بأية حال من الأحـوال، كمـا اعتقـد المتخصصـون في الدراسـات الاكسوميـة إلى الآن [48,p.101;54,p.231ff.] . فكل ملك معروف لنا من ملوك اكسوم حمل «لقباً قومياً» خاصاً، لم يشاركه فيه أحد بقدر علمنا. ويتفق «اللقب القومي» مع اسماء

«الجيوش» و «الشعوب» بأكسوم نفسها [48] ؛ فيرد القول مثلاً عن «جيش هلن» على عهد عيزنه، إلخ.

وإذا ما تركنا جانباً مسألة «اللقب القومي» الجديد، فإن وأذب في واقع الأمر أعاد ببساطة اللقب التقليدي لملوك اكسوم المعروف من رقوم عيزنه، بعد ان اطّرح الزيادات التي أدخلها أبوه الذي أراد أن يحكم مملكة حمير حكماً مباشراً. ومن الممكن أن هذه الخطوة التي اتخذها وأذب انما ترمز إلى رفضه لسياسة كالب بالجنوب العربي والعودة إلى الأسلوب التقليدي الذي ألزم حمير بالاعتراف فقط بسيادة اكسوم ودفع الإتاوة.

وبـروقـوبيوس القيساري كان على علم بأنه « عقب موت اليسبوا (الا أصبحه) التزم ابرام (ابرهة) بدفع الإتاوة لمن يخلفه في السلطة الملوكية باثيوبيا، وبهذا/ثبتّ سلطانه » [30, p. 275; 249, t.I, p.108] . وهو ما يرويه لنا بالتقريب المؤلفون العرب كذلك [10, p.931] . وفي رقيمه يدعو ابرهه نفسه «دافع الإتاوة (ع ز ل ى) لملك اكسوم» ويفرد لسفارته موضع الصدارة (CIH 541,88) عند سرده للسفارات التي قدمت إلى ابرهة، بل إن سفارتي الدولتين الكبريين وهما بيزنطة وايران يرد ذكرهما عقب السفارة الاثيوبية. غير أن مجرد اجراء مقارنة بين ألقاب ملك اكسوم في هذا الرقيم وفي رقوم سميفع اشوع (أنظر ما مر) من شأنه أن يبينّ أن تبعية حمير لاثيوبيا كانت أكثر وضوحاً حتى وإن اقتصر ذلك على بداية حكمه فحسب. ولا يخلو من مغزى أن رقوم ابرهة الأخرى لا تتكلم البتة عن تبعيته لاكسوم.

وغير مستبعد أن مصالحة ابرهه مع إلاوزنه قد عاونت فيها الدبلوماسية البيزنطية ، كما حدث من قبل عند مصالحة قيس مع سميفع أشوع . وإن حدث وأن اتخذت بيزنطة موقفاً عدائياً من ثورة الجند الاثيوبيين وعلى رأسهم ابرهه ، الاّ أنه بدعم سلطان ملك حمير الجديد فإن الموقف تغيّر. ولقد سعت بيزنطة للتقـــــارب معه منذ زمن نزاعـــه مع الا أصبحه كما يرى أ. ج. لندين . [78, p.64] ، وشكّلت في الـواقـع علاقات وثيقة مع مملكة ابرهه ، سياسية وعقائدية . ذلك أن النصرانية ظلت عقيدة حمير الرسمية ، كما أن الجماعة بحمير

حافظت على الصلة الدينية والروحية مع الامبراطورية البيزنطية . ووفقاً لألفاظ بروقوبيوس الذي كان على معرفة جيدة بالوضع في الشرق الأوسط فإن الأرمن حذّروا الشاهنشاه عام ٥٣٩ من تحالف بيزنطة « مع ممالك اثيوبيا » التي كان على رأسهـا اكسوم . فقد قال السفراء الأرمن لخسرو بصدد يوسطنيان : « أو لم يرسل بقواده إلى أهل البوسفور الذين تحت طاعة الهون ؟ أو لم يخضع لنفسه تلك المدينة (البوسفور - كرش) التي لم يكن له حقوق فيها؟ أو لم يعقد حلفاً مع ممالـك اثيوبيا؟ . . . وفوق ذلك وضع يده على أملاك الحميريين وبحر القلزم (الأحمر)، وضم فينيقون إلى الأملاك الرومية . . » [31, p.24; 249, t.I, p.160] . ويرى بروقـوبيوس وهـو العليم بالـظروف السياسيه لذلك العهد أن ما نالته السياسة البيزنطية من توفيق ببلاد العرب الجنوبية كان من أسباب تجدد الحروب بين بيزنطه والفرس ؛ وعلى وجه العموم فإنه يتفق معه تماماً في هذا كل من يوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي. ذلك أنه من الممكن تفسير مجيء السفارات إلى أبرهه من طرف بيزنـطة وايران وأيضـاً من دويلات العـرب الشـمالية التابعة لهاتين الدولتين الكبريين على ضوء الوضع السياسي الذي تشكّل في تلك الآونة بالذات .

وحتى الأعوام الأخيرة فإننا لا نكاد نعلم شيئاً عن الوضع الداخلي باثيوبيا نفسها في ذلك العهد. ولكن في عام ١٩٧٤ تم نشر رقيم واذب ابن الا أصبحه ملك اكسوم ، وهو ذلك الرقيم الذي تم الكشف عنه عام ١٩٦٩ . ولغة هذا الرقيم هي الجعزية ولكنه مدوّن بالكتابة الحميرية التي تستعمل التهجية المعهودة لديهـا وتتجـه من اليمـين إلى اليسار. / ونقدّم فيما يلي ترجمة لهذا الرقيم وفقاً لقراءته ، وإلى حد ما تفسيره أيضاً، بواسطة روجيه اشنيدر R.Schneider :(٤١) [376, 777-786] .

---

(٤١) ترد اختلافاتنا مع قراءة اشنيدر وترجمته في الحواشي التالية لهذه.

١ - الشكر للأب والابن والروح القدس،

٢ - خالق كل شيء وفاطر كل شيء، ما يُرى وما لا يُرى[٤٢]،

٣ - قاسم الرزق، الذي منحنا[٤٣] كما جاء في الكتاب المقدس. . . «المسيح الذي قاسى من أجلنا

٤ - المسيح لينهي المعاناة»، في هذا اعتقادي [. . .] ليساند

٥ - نا. وقاتلت و ى ت ل (أو و ى ت ج، ويتو - جه؟)، أنا وأذب نجاشي اكسوم و

٦ - ريدان وسبأ وسلحين والبجا وكاسو وسيامو وويتو

٧ - جه (أو و ى ت ل)، أهل هدفن، ابن الا أصبحه عبد المسيح، الذي لم

٨ - ينتصر عليه عدو؛ بجاه الرحمن قاتلت فهزمت [العدو؟] وقاتل

٩ - كل شعوبي، فمنحنا - ضاءت العقيدة - النصر وهرب[٤٤]

١٠ - [العدو]. كما أشار إلى ذلك مراراً لأنه ورد: «إن الذي ليس،

١١ - بإله سواء لديه، ومن ليس. . . والذي. . .» [وقا]

١٢ - تلت بعون الرب و. . . علمت

١٣ - أن أمراءه الأربعة الذين أرسلت بهم لمعاونة [جيش] سبله (؟)

١٤ - قد تسببوا في خسائر لي، فزحف ضد [العدو] [بجيش] الخاره والقوات النظامية؛

١٥ - وأسرع إليهم بالعون لاغاثتهم بقوة الرب، وتقاتل معهم.

١٦ - وتقدمت حتى بلغت بلاد [. . .] مو (؟) -

---

(٤٢) [يسجلها اشنيدر هكذا]:

lmftr/kl/gbr/kl/dt/ystr'/wdth/'ystr'/ [d].

أما أنا فأقرأها :

la–muqyr, (wa--) gabbare Kwellu zat yastar'i wa zat i–yastar'i, [za]–....

(٤٣) حرفياً «الذين يُغذّى» (ي ء ك ل)؛ أما الألفاظ التالية فإنني أقرأها على أنها Saga–hu .

(٤٤) [يسجلها اشنيدر هكذا] :

'hzby/wl/wwhss/whmnt/ybrh/gzm/wsky. أما أنا فأقرأها :

'ahzabya kwellu wa–wahasa–sa wa–'amnat yebreha gazim wa–satcay.

١٧ ـ سلاله التي [بها] [. . .] بس؛ وعلمت كيف عاقبه الرب بالطر
١٨ ـ د[٤٥]. ومات ذا ـ أبل. . . أنا كما ورد في [سفر] النبي حزقيال
١٩ ـ «سأقاتل غرماء ك وأقتل أعداءك بصلاتك و. . .»
٢٠ ـ يا ربي. . . الشعوب التي تحت أوامري و
٢١ ـ قال في الكتاب: «الرب يقاتل من أجلك فليطمئن قلبك». . .
٢٢ ـ وجئت إلى أرضهم بقوة الرب وطردتهم ووجدتهم
٢٣ ـ هاربين إلى حصنهم المسمى دجمه (؟) حيث حاصر. . .
٢٤ ـ واضطروه إلى أن يدفن نفسه. . . ومكثت بداخل الحصن؛ أما هم فاحتلوا المعسكر
٢٥ ـ بأجمعه والحصن. . . كما جاء في المزامير «كل
٢٦ ـ الشعوب المجاورة، باسم الرب قهرتهم. . .»
٢٧ ـ بعد أن استحرّ فيهم القتل أرسلت في ذات الوقت. . . جيش هـ د ف ن و س [ب]
٢٨ ـ رات وصبحه ودموه واجو؛ و [عمل] الله كما كتب في
٢٩ ـ المزمور: «خاصم يا رب مخاصمي، قاتل مقاتلي. امسك مجنًا وتُرساً وانهض إلى معونتي وصُدّ تلقاء مطاردي
٣٠ ـ ليخز وليخجل الذين يطلبون نفسي، ليرتد إلى الوراء ويخجل المفكرون في إساءتي
٣١ ـ ليكونوا مثل العصافة قدام الريح وملاك الرب داحرهم»،
٣٢ ـ وكما يقول في المزمور: «اتبع اعدائي فأدركهم ولا أرجع
٣٣ ـ حتى افنيهم، اسحقهم فلا يستطيعون القيام. يسقطون تحت رجلي تمنطقني بقوة للقتال تصرع تحتي القائمين عليّ.
٣٤ ـ وتعطيني أقفية أعدائي». ويقول أيضاً: «يمين الرب صنعت القوة
٣٥ ـ ورفعتنا». ويقول أيضاً «السلام على حامينا المخلص. . .»

---

(٤٥) أقرأها: wa-'adi tezlefat-hu 'egbara tataqasa (وذلك بدلا من قراءة اشنيدر hlbr ttks.

٣٦ ـ وأن يمجّد اسمك المقدّس. . . والمقاتل اثنى عليه!
٣٧ ـ الجيوش التي أرسلتها أخضعت وقتلت وأسرت وأخذت الغنائم، و
٣٨ ـ رجعت سالمة معافاة بقوة الرب. ونصبت نُصباً (م/ن/ب ر) ملت ـ همُو الذي. . .
٣٩ ـ ويتو ـ جه. وعدت سليماً معافى مع شعوبي، بقوة الرب.
٤٠ ـ ونزلت في ذا ـ وجش (؟) وهناك هربوا إلى الصحراء (ب د) أولئك الذين قاتلوا. . .
٤١ ـ بلادنا، ومعركة في الطريق، ولهذا أرسلت جيش
٤٢ ـ الخارة ليقوم بالغارة[٤٦]. وأخذوا الإتاوة وقتلوا وسبوا وغنموا بقـ
٤٣ ـ ـوة الرب وعادوا سالمين دون خسائر. . . وهذا ما منحني الرب في أول حـ
٤٤ ـ ـملة وفي آخر حملة: الأسرى من الرجال [. . .] والنساء والأطفال [. . .] وجميع الأسرى
٤٥ ـ [. . .]؛ والقتلى من الرجال [. . .] والنساء والأطفال [. . .]، وجمـ
٤٦ ـ بيع القتلى [. . .]؛ ومجموع [القتلى و] الاسرى معاً
٤٧ ـ [. . .] . . . وحمل الهدايا كل قبائل ويتو ـ جه وزعماؤها. [٤٧]. وأعطيتهم القانون
٤٨ ـ وأعطيتهم القانون في أوديتهم». [٤٨]

---

(٤٦) wlwkn/..grt . والحرفان الأولان من اللفظ الأول اقرأهما: Wa–la ، أما الأخرى فيلوح أنها لهجات محلية للمصدر الفعلي لـ ك و ن «الصيرورة». وفي بداية اللفظ الثاني حدث تشويه في حرف أو اثنين. واقترح استعادتها في صورة mgrt الواردة في الرقيم «أ» من صفره [217, p.34] والذي يترجمه أ. ي. دريفس Drewes «الحشم» أو «موضع المعسكر (؟)»، بينما اترجمه أنا «الطواف» [54, p.174; 59a, p.73; 267a, p.541]. وقلب ق إلى ج مألوف في لغة التيجرة، المنحدرة رأساً من اللغة الجعزية (كما أفادني شخصياً كاسّا جبره حيوته).

(٤٧) kl/'gd/wytg/w'gŝ وأنا اقرأها kwella 'angada Wayto–ge wa 'angaŝ[tu] . ووجود حرف ن قبل الصوت المجهور معهود في هذا الرقيم. أماعبارة. . . ....Kwellu 'angada مقرونة باسم القبيلة فيمكن الالتقاء بها في الرقوم الاكسومية (مثلا ngdm/mtnm/klm' الموجودة في DAE 8,13–14 ؛ وأما الشكل angaŝ «النجاشيون» فغير معهود.

(٤٨) ....Wsr'khm.... Wsr'n . وفي رقيم عيزنه عن «الطواف» (DAE 8,5,8–9, 11–12,14,21,24,25,28) فنلتقي بنفس الصيغ ...Wysr m/bhr.... Wsr 'Wm/wtsr'n/sr'nm /'ntm

وفي الأسطر الختامية من الرقيم الموجودة في حالة سيئة يرد من جديد ذكر «جيش» دموه. أما بظهر النصُب فنلتقي بالمصطلح المسيحي المعروف لنا جيداً من رقوم ملكية أخرى من اكسوم، يهُدد فيه من يهدمه بعقاب صارم ويتمنى الخير والبركة لمن يقدّم له فروض الاحترام والتوقير.

والرقيم وإن كان ما يزال محتاجاً إلى مجهود كبير لاستعادة متنه الكامل وترجمته ، إلا أن معناه العام واضح منذ الوهلة الأولى . فالأمر يتعلق بحملات وأذب (« الأولى » و « الأخيره ») ضد شعب و ي ت ل أو و ي ت ج ، الذي اقترح قراءته/ ويتوـ جه (« أهل ويتو ») . وليس ثمة ما يدعو إلى القول بأنهم ويتو أو وُيتو الحاليون الذين يقطنون بجزر بحيرة تانه، وإن اتفقوا معهم في التسمية القبلية.

والحملة الأولى على ويتوـ جه تتحدث عنها فيما يظهر الأسطر ٨ ـ ٢١ من الرقيم. وفي بداية الحملة لم يستطع الاكسوميون صدّ غارة ويتوـ جه إلّا بعد أن جمعوا كل قواتهم (« وقاتل كل شعوبي » ـ كما يقول الملك وأذب) . وقد رُدّ العدو على أعقابهُ ولكن لم يتم القضاء عليه . وفي تعقّبه لقوم ويتوـ جه قسّم وأذب جيشه إلى قسمين ، أحدهما المكّون من ثماني وحدات على الأقل (من بينها سبله والخاره ـ أي وحدات الاكسوميين أنفسهم) ، أرسل في غارة منفردة . أما الملك نفسه فقد التحم على رأس القسم الآخر من جيشه في معركة مع ويتوـ جه خرج منها ظافراً فيما يبدو . وفي تلك الأثناء وجد جيش سبله في وضع عسير، كما أن أربعة من الأمراء (م س ف ن ت ه ء ر ب ع ت) الذين سارعوا على رأس وحداتهم لإغاثته ارتكبوا خطأ ما . وفي المتون الاثيوبية المتأخرة والقريبة الشبه في صياغتها وأسلوبها من رقيم وأذب يرد وصف لحادث مفجع مشابه ، فقد بلغ الملك أن جيشه الذي أرسل في غارة منفردة وقع في كمين أو تعرّض لهجوم ليلي فهزم . ومما لا شك فيه أن هذا النهج الأدبي إنما يعكس في هذه الحالة على أقل تقدير حدثاً حقيقياً في أغلب الظن [49, p.123] . آنذاك سارع ملك اكسوم أو قائد قواته لمعاونتهم وهزُم العدو الذي كان قد انتصر قبل ذلك بقليل . وهذا التفصيل الأخير أمر معهود في الملحمة الحربية لاثيوبيا الوسيطة .

وبعد أن تم تجميع القوات المقاتلة لاكسوم من جديد وعلى رأسها الملك «تقدمت حتى بلغت بلاد. . .»، التي لم يحفظ لنا الرقيم اسمها في حالة جيدة، مما يجعل تحديدها أمراً عسيراً (وتوجد اسماء مشابهة بين أنهار اثيوبيا). وهنا كان يقيم زعيم ويتو ـ جه الذي ليس بالمستطاع قراءة اسمه ولقبه بالكامل (وينتهي بالحرفين ب س)؛ وكذلك أحد نبلائه الذي حمل لقب د ء ب ل (ذا أبل؟). وقد هرب الأول منهما، أما الثاني فقتل.

والحملة الثانية، التي من الممكن أنها جرت في فصل الجفاف التالي لهذا، بدأت بزحف سريع للاكسوميين تحت قيادة ملكهم على بلاد ويتو ـ جه. «وجئت إلى ارضهم بقوة الرب وطردتهم ووجدتهم هاربين إلى حصنهم المسمّى دجمه (؟)، حيث حاصر. . .»، كما يقول في رقيمه وأذب. وبعد أن استولى على الحصن عقب محاصرته له، مكث وأذب بداخله ليستجم وأرسل خمساً من وحداته (من بينها أربع أكسومية هي هدفن وسبرات وصبحه ودموه، ووحدة أجَو) في غارة استولت فيها على الغنائم والأسرى وعادت كلها مظفرة إلى معسكر الملك. بعد هذا قفل جيش اكسوم بأجمعه راجعاً إلى أوطانه.

وفي طريق العودة عندما نزل الملك بناحية ذاوجش (؟) جرى صدام مسلحّ مع السكان المحليين؛ ويبدو أن الأمر لم يتجاوز مجرد غارة من جانب الاكسوميين/ للحصول على الأغذية والغنائم. وأنقذ أولئك القوم أنفسهم بالهرب إلى الصحراء (؟). وكان «جيش» الخارة قد أرسل آنذاك ليقوم بغارة على القبائل التي لم تخضع بعد. وفي النهاية أعلنت جميع قبائل ويتو ـ جه خضوعها وحملوا الإتاوة واعترفوا بسيادة ملك اكسوم عليهم.

إن هذا الرقيم يبينّ بوضوح تام أن ابن كالب كان لديه الكفاية بما يشغله بالقارة الافريقية. وعلى الرغم من ذلك فإنه كان قادراً تمام المقدرة ليضطلع بحملة جديدة ببلاد العرب، بل أهم من ذلك أنه كان بمقدوره قطع اتصال المتمردين «الحبش» في حمير مع وطنهم الأم مما كان سيؤدي إلى إضعاف وضعهم بالجزيرة العربية. بيد أن كلا الملكين، أي وأذب الاوزنه وابرهه، آثر الوفاق وذلك على أساس أن يتسلم الأول إتاوة سنوية ويتم الاعتراف بسيادته على حمير؛

وفي مقابل ذلك يتمتع الثاني بضمان سلامته وبالحكم الذاتي والعون من طرف الأول.

هل أخذت الدوائر الكنسية طرفاً في هذه المصالحة؟ في الواقع لا يوجد بين أيدينا معطيات مباشرة في هذا الصدد؛ وما وجد يقدم لوحة تحفل بالتناقض.

فعقب سقوط ذي نواس أصبحت نجران، التي تم اعتراف الجميع بها مدينة الشهداء النصارى من العرب دون منازع، موضع الزيارة الأثير لديهم. كذلك تم اعلان الملك كالب عقب وفاته قديساً بواسطة الكنيسة العالمية (الارثوذكسية ـ الكاثوليكية، والمونوفيزية، والدوناتية)، مما أصلح ذات البين بين رجال الدين النصارى بالأقطار الافريقية ورفع من مكانة اكسوم بالعالم النصراني. ولعلنا لن نتنكب الصواب لو أبصرنا في هذا الاعتراف بالوضع المتميّز لملك اكسوم داخل النصرانية لا مجرد وفاق للدوائر الحاكمة البيزنطية مع مونوفيزيي المشرق وزعماء اكسوم فحسب، بل أيضاً انتصاراً لنوع من القومية الافريقية في وجه الخلاف المذهبي الذي غلب آنذاك على النصرانية. ولقد عاضد العرب النصارى، على الأقل المونوفيزيون منهم والارثوذكس، بحماس كبير تقديس ملك اثيوبيا. ولا بد أن تقديس كالب الا أصبحه تمّتع أيضاً بالرواج في حمير، وكان بامكانه أن يستخدم كقاعدة مناسبة للمصالحة العقائدية بين اكسوم وملك حمير. غير أن هذه المصالحة العقائدية لا بد أن سبقها فيما يبدو بعض الخلاف بل حتى المواجهات.

وقد ظهر فرض مؤداه أن أبرهه في نزاعه مع الاثيوبيين المونوفيزيين عاضد الارثوذكسية، أي العقيدة الرسمية للامبراطورية البيزنطية. فالمصادر الارثوذكسية ـ أي «استشهاد الحارث» و «سيرة القديس جريجنتي» وغيرها ـ تتحدث عن « الملك افزام» بالكثير من التقدير [305 p.758;22, p.35,36,66] . على أن أسقف حمير على عهد ابرهه وهو جريجنتي الذي يرجع أصله إلى شطوط الدانوب، كان الذي نصبه على الكرسي المونوفيزي الملك كالب نفسه.

والرواية الصقلبية «لسيرة القديس جريجنتي»، وأيضاً رواية أخرى موجزة للسنكسار★، تجعل من جريجنتي ارثوذكسياً بل صقلبياً [22, p.37-38] . وتحوى « سيرة القديس جريجنتي » باليونانية تفاصيل طريفة للغاية/ تبعث على التشكك في اخلاص هذا الرجل ـ الذي أصبح بالتالي أسقفاً لحمير ـ للامبراطورية البيزنطية وللعقيدة اليونانية . ولد جريجنتي بمقاطعة مويزيا Moesia في قرية قريبة من نهر الدانوب وذلك بناحية متاخمة للأفار ، لذا فقد اعتبر بافريقيا قادماً « من بلاد الافار القصيّة » [22, p.32,50] . وساح كثيراً، ولكنه تحاشى الولايات اليونانية للامبراطورية وكان أكثر تجواله بايطاليا وصقلية وشمال افريقيا . فزار قرطاجه والاسكندرية ، وبهذه الأخيره جرى تكريسه قساً على يد البطريرك بروتيريوس [22, p.32-36, 50-53, 57-59] . ويعدّ أ. أ. فاسيلييف A.A. Vasiliev بروتيريوس هذا بطريركا قبطياً مونوفيزياً [22, p.38] . وكان ذا أهمية كبيرة لجريجنتي التقاؤه في ايطاليا مع أرمني كان يدعو إلى كلمة الله باللغة الأرمنية. وكان هذا الرجل في الأصل من ارمينيا الكبرى من معبد القديس غريغور في ارتدزات Artadzat ، أي أنه كان بالتالي مونوفيزياً [22, p.56-57] . وأخيراً فقد تسلم جريجنتي ابرشيته من يد الملك المونوفيزي كالب .

ويُنسب إلى جريجنتى أثران أدبيان باللغة اليونانية، ليس فيهما ما يكشف عن علاقة خاصة بالارثوذكسية. غير أنه يرد بهذين الأثرين ذكر اسمي أبرهه («الملك افرام») وكالب الا أصبحه.. وعنوان أحدهما هو « قوانين الاوميريين » (أي الحميريين) [221, p.54-57; 94, p.246-249; 346, p.197-210] ، بينما يحمل الثاني عنوان « جدل القديس جريجنتي مع اليهودي اربن » [94, p.246-249; 346, p.200-210] . ويمكن أن يطلق على الأول منهما « مشروع قوانين من أجل الحميريين » لأنه لم يجر تطبيقها على الإطلاق ،

★ *السنكسار أو السنكسارى من اليونانية Seneksar ، ويقصد به «سير القديسين» . (المترجم)*

وإن ورد في بداية «القوانين» أن « الملك افرام » قد طبقّها بنجران فيما يقال . وهذه « القوانين » منقوله عن النظم البيزنطية ولكنها تأخذ في الاعتبار الظروف المحلية ، أي العربية الجنوبية . وبعض فقراتها ذات طابع اكليروسي مؤكد [221, p.54-57; 93, p.51-61; 94, p.256 ff.; 346, p.200ff.] . أما فيما يتعلق «بالجدل» مع اليهودي الذي كان حصيلته اقناعه له بصحة العقيدة النصرانية وتعميده، فمن العسير القول بأنه حدث على الإطلاق، وإن أمكن الاستدلال منه على وجود جالية يهودية بالجنوب العربي في منتصف القرن السادس. وكلا الأثرين يعكس حسن النيّة نحو ابرهه . و« سيرة القديس جريجنتي» و «استشهاد الحارث» ينتمي كلاهما إلى التقاليد الأدبية الارثوذكسية، وإن أمكن التدليل حالياً على أنهما يستندان على التقاليد المونوفيزية .

وكنا أشرنا فيما مر إلى أن الا أصبحه عندما كان بالجنوب العربي عمل على تجديد البيع وترميمها بكل موضع . وتضيف «سيرة القديس جريجنتي» إلى هذا البيعة الجامعة الكبيرة بظفار عاصمة الحميريين التي كان أسقفها جريجنتي نفسه [22,p.36] . وفي رقيم مارب لابرهة (CIH 541, 66-67) يرد الحديث عن بناء بيعة بمارب السبئية القديمة وتكريسها في حضرة ابرهه و تنصيب القسس (ق س س) بها [74] . ويحكي المؤرخون العرب عن بناء بيعة أخرى فخمة للغاية وكبيرة بصنعاء عاصمة سبأ. وعن تشييدها على يد ملك حمير/ ومعاونة الامبراطور يوسطنيان في هذا ، يحكي لنا بتفصيل وحماس المؤرخ الطبري [10, p.934] . وعلى الرغم مما بلغه البناؤون بالجنوب العربي من درجة رفيعة في فن البناء، يقال إن الامبراطور البيزنطي هو الذي أرسل بالصنّاع ومواد البناء (الفسيفساء والرخام). ولا تبصر ن. ف. بيغوليبيڤسكيا أو أ. ج. لنذين ما يثير الشك في صدق هذه الواقعة [94, p.317;346, p.257; 78, p.63] . أما مواد البناء الأخرى فكانت من أصل افريقي، مثل الابنوس والعاج والذهب الذي طليت به الأبواب والمذبح؛ دونما حاجة إلى ذكر الآنية الذهبية المقدسة. ووفقاً لابن هشام فإن بناءها يعود إلى العهد الذي كان قد تصالح فيه ابرهه مع ملك اكسوم، لأنه أفاده من مكتوب بعث به إليه عن نيته في أن يقسر العرب على أداء

الحج إلى هذه البيعة وليس إلى البيت الذي تحج إليه بمكة [10, p.934] . وهذه الألفاظ الأخيرة ترتبط بحملة ابرهه على مكة في «عام الفيل» (انظر مايلي) .

ووفقاً لرأي ن . ف . بيغوليبيڤسكيا فإن الطبري استفاد في وصفه للبيعة من مصدر نصراني كان استعمله أيضاً في حكايته بصدد اعتناق سكان نجران للنصرانية [94, p.316–317; 346, p.256–257] . وعن هذه البيعة يفيدنا بخلاف الطبري أيضاً الهمداني والأزرقي [340, p.89–91] ، اللذان يشهدان بأنها ظلت قائمة إلى العهد العباسي وذلك بعد مائتي عام من موت ابرهه★ .

★ *يصف الفرد بتلر كنيسة صنعاء التي شيّدها أبرهة بالطريقة الآتية : «ويروي أن [أبرهة] كان شديد العناية بأمر بنائها وزخرفتها فكان يقضي الوقت كله نهاراً وليلاً فيها ، وكانت تشبه كنائس الروم في رسمها ، فكانت الأعمدة العالية من المرمر الثمين تفصل ما بين وسطها وجناحيها وكان ما فوق الأعمدة من القباب وأعالي الجدران يزينه زخرف بديع من فسيفساء الذهب والألوان ، وتحلّيها الصور. وأما أسفل الجدران فقد كان يغطيها إفريز من المرمر، وكذلك كانت الأرض، وكان المرمر من ألوان مختلفة منسّقة تنسيقاً جميلا ، وكان المحراب يفصله حاجز من ابنوس مطعّم بالعاج بديع النقش، وكانت نقوش الذهب والفضة تغطي البناء من داخله . وكانت الأبواب تغطيها صفائح من الذهب مساميرها من الفضة ، أو صفائح من الفضة عليها مسامير كبيرة من الذهب . وأما الأبواب التي كانت تفضي الى المحاريب الثلاثة فقد كانت تغطيها صفائح كبيرة من الذهب عليها حلية من الجواهر، وكان على كل صفيحة من تلك صليب بارز من الذهب والجوهر في وسطه شكل خزامي من حجر أحمر وتحيط به زهور زخرفية من الذهب والجواهر، أو من الميناء المختلفة الألوان . تلك كانت الكنيسة العظمى التي ساعد جستنيان أبرهة في بنائها ، ولم تكن كنيسة أيا صوفيا ذاتها بأغلى زينة وأبدع في الصناعة منها» (انظر بتلر، فتح العرب مصر، الترجمة العربية ص ١٣٢).ويقول الطبري إن سبب بنائها هو أن أبرهة كان ينوي اجتذاب حجاج العرب إليها بدلا من البيت الحرام بمكة، «ثم أن أبرهة بنى القليس بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها . . . ثم كتب إلى النجاشي ملك الحبشة إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاج العرب . . . . وحلف ليسيرنّ إلى البيت [الحرام بمكة] فيهدمه» (ص ٩٣٤). وتشير قرائن الأحوال إلى أن الكنيسة ظلت لبعض الوقت، حتى أمر الخلفاء بنقل موادها لبناء قصورهم بالشام والعراق فلم يتبق بالتالي أثر منها (المترجم) . .*

وغير واضح لنا كيف انعكست الارثوذكسية الحكومية المزعومة لابرهه في الـرقوم الحميرية. وقد انتبه أ. بيستون A.F.L.Beeston للأختلاف بين الصيغ الدينية برقوم ابرهه والصيغ المقابلة لها برقيم سميفع أشوع الموجود بمتحف استنبول[144, p.102–103] فرقوم ابرهه يبدأ تكريسها بالألفاظ «بقوة ورحمانية ورحمة الرحمن ورسالته و الروح القدس»3–1 ,6(CIH 541 ، أو مجرد «الرحمن ورسالته» (Ry 501,1) . هذا على حين يبدأ تكريس رقيم سميفع أشوع بالألفاظ (RES 3904) «باسم الرحمن وابنه يسوع الظافر والروح القدس» ([و م ن] ف س ق د س). وجدير بالملاحظة أن اسم الرب ـ الأب يرد بالتسمية المعهودة لدى العـرب وهي الرحمن، على حين استُعْمل للتعبير عن الروح القدس مصطلح مأخوذ من اللغة الجعْزية وهو منفس قدّوس. أما في رقيم ملك اكسوم وأذب باللغة الجعزية والمدوّن بالأبجدية الحميرية غير المعجمة فنلتقي بأسماء الثالوث المعروفة ـ وهي الرحمن (ر ح م ن ن)، والمسيح الذي لم ينتصر عليه عدو (ك ر س ت س ض د ء ي / م و ء/ ب ذ ر)، والروح القدس (م ن ف س ق د س) 376, p.777–780 ؛ وإن اختلفت صيغها على وجه العموم: «الشكر للأب والابن والروح القدس»، «الحمد للرحمن» (ب م ح م د ر ح م ن ن)، «عبد المسيح الذي لم ينتصر عليه عدو»، «الرب بقوته»، «بقوة الرب»، وما شابه ذلك 376, p.777–786 . ولنا الحق كل الحق في أن نبحث برقوم كالب الذي قام بدور الأب التعميدي لسميفــع أشـوع، عن الصيغ التقليدية للمـونـوفيزية الاثيوبية لذلك العهد. غير أن الصيغة الدينية بالرقيم الاثيوبي لكالب من مارب اليمنية لم تحفظ لنا للأسف. وفي مقابل هذا يقدّم لنا الرقيم الاكسومي لهذا الملك مجموعة كبيرة من هذه الصيغ: «الرب القدير الجبار، الرب الجبار في القتال» (المـزمور/ ٢٤، ٨) «بقوة الرب ورحمة يسوع المسيح ابن الرب والمنتصر الذي أعتقد فيه» ، «أضع ثقتي في المسيح»، «بعون الرب»، وما شابه ذلك 376, p.771–777 .

ونلتقـي بصيغ مشابهة مـن حيـث المعنى في سكة ملـوك اكسوم خلفاء كالب، مثل إيو إيل (ك ر س ت س م س ل ن ـ «المسيح معنا!») وجرسما الأول (ك ر س ت س ى م ء ـ «المسيح الذي لم ينتصر عليه أحد») وأيضاً

في رقيم باليونانية لعيزنه تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد [135, p.265–267] . وجدير بالانتباه أيضاً أنه حتى الرقيم من مريغان الذي يرجع إلى الزمن الذي تمتع فيه ابرهه بأكبر درجة من الاستقلال، مزيّن بصورة الصليب بالأسلوب الذي يقابلنا في النُصُب الاثيوبية وسكة العهد الاكسومي .

والشبه بين مصطلحات المونوفيزية الاكسومية المبكّرة ومصطلحات الرقيم الملكي لسميفع أشوع لا يحوم حوله الشك، بل تؤكد من جهة أخرى صيغة العقيدة المونوفيزية الموجودة بهذا الأخير. ولعل الاختلاف في تسمية المسيح بواسطة ملك الحميريين هذا من ناحية وبين ابرهة ، قد يقف شاهداً على اختلاف عقيدتيهما . لذا يقترح بيستون أن نبصر في ابرهه نسطورياً [144, p.103] ؛ هذا بينما يرى فيه أ. ج. لندين ارثوذكسياً، مدلّلاً على ذلك بأن الصيغ التي سقناها قبل قليل من رقوم ابرهه لا ليس منها شيء يتعلق بالنسطورية [78, p.122] .

وفي رأينا أنه لا يوجد فيها أيضاً ما يشير إلى ارثوذكسية. ففي مصطلح الصيغ الدينية للملوك النصارى بالجنوب العربي نلتقي بلفظين معهودين كذلك في الرقوم السبئية الحميرية ذات الطابع اليهودي والوحداني المبهم ، وأيضاً في الشعر النصراني المبكّر لعرب الشمال ، وفي الحنيفية للقرن السابع ، وفي القرآن ، وفي الأدب الإسلامي المبكّر إلخ. . . هذان اللفظان هما «الرحمن» و «المسيح». واللفظ الأخير يوجد برقوم ابرهه، ولكن نفتقده لدى سميفع أشوع؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه من العسير القول إنه لم يجر استعماله على الإطلاق في المصطلح الديني لأولئك النصارى الحميريين الذين عدّوا أنفسهم مونوفيزيين. ولنا الحق كل الحق في اعتبار «الرحمن» و «المسيح» الواردين برقوم ابرهه على أنهما ليسا من خصائص الارثوذكسية أو النسطورية وحدهما، بل بالأحرى كتقليد عام أخذت به النصرانية العربية التي لم يُعهد فيها التدقيق في متابعة المذهب وكانت أميَل إلى حرية الاختيار في تفاعلها مع العبادات المحلية أو المجلوبة من الخارج(٤٩) .

---

(٤٩) لفظا «الرحمن» و «المسيح» استعارتهما لغات الجزيرة العربية من العبرية القديمة «مشيح» («المسيح»)؛ «الملك»)

وفي هذا اختلفت بلاد العرب التي لم يعتنق النصرانية سوى قسم من سكانها، عن جارتها سورية (ومعها فلسطين وأرض الجزيرة وقبادوقيا ولبنان) التي اتخذت فيها الخلافات المذهبية طابعاً اجتماعياً. وينبغي عدم المبالغة في الضغط على حدة التناقضات بين المونوفيزيين والأرثوذكس بمملكة حمير. وكما حدث أن بيّنا فإن المونوفيزية غلبت بين نصارى الجنوب العربي منذ عهد طويل؛ كذلك وجد بينهم أيضاً النساطرة؛ أما أتباع الارثوذكسية في القرن السادس فقد اقتصروا على ابرشيات عدولي وفلسطين. / وغير معلوم البتة أن ابرهه اضطهد مذهباً ما من المذاهب النصرانية. والخلافات إن حدثت فعلاً، فإنها لم تمس أحداً من الناس مسّاً عميقاً باستثناء طبقة رجال الدين البيزنطية التي كانت تناضل من أجل السيطرة على عقول الناس، المعمّدين منهم والذين لم يعمّدوا بعد. ومثل هذه اللوحة من التسامح الديني لدى السكان المحليين بإزاء الغيرة المذهبية لرجال الدين الذين كان قسم منهم أجنبياً في الأصل نلتقي بها أيضاً بأقطار افريقيا الشمالية الشرقية في القرون من الرابع إلى السادس.

غير أن هذا لا يعني أن المونوفيزيين باثيوبيا والجنوب العربي تحتّم عليهم ألّا يحرّكوا ساكناً إزاء ما حلّ بإخوتهم من اضطهاد بالامبراطورية البيزنطية منذ الأربعينات من القرن السادس. فقانون عام ٥٤١ عدّ المونوفيزيين والنساطرة من الهراطقة، أسوة بالاريوسيين والمونتانيين★ (Montanists) ومن لف لفهم. وما لبث المونوفيزيون والنساطرة أن حُظِر عليهم القيام بالخدمة الدينية وأغلقت بيعهم، كما انتقضت حقوقهم المدنية (كامتلاك الأرض والميراث وغير ذلك). وفي عام ٥٤٢ أصدر يوسطنيان أمره بإدخال كل هراطقة آسيا الصغرى عُنوة في الارثوذكسية، وكان من بينهم المونوفيزيون والنساطرة وأيضاً المونتانيون والمانوية.

★ *المونتانيون Montanists هم أتباع مونتانوس Montanus (القرن الثاني الميلادي) وهم طائفة نصرانية انتعشت بآسيا الصغرى وافريقيا الشمالية من القرن الثاني إلى القرن التاسع واعتبرت هرطوقية. وقد هلكت كتبهم وتعاليمهم. كانوا ينادون بنهاية العالم ويلجأون إلى الرقص والشعوذة، ويتشدّدون في أمور العبادة والسلوك. راجع عنهم The Catholic Encyclopaedia. (المترجم).*

وكان من الطبيعي أن تثير هذه الأخبار السخط باكسوم وفي الأوساط المونوفيزية والنسطورية ببلاد العرب. غير أن الاضطرابات ما كانت لترفع رأسها ضد ابرهه إلّا إذا جرى اضهاد «المتهرطقين» داخل الجزيرة العربية نفسها؛ وهو أمر يحيط به شك كبير فيما يبدو.

ويلوح أن الثورة التي شب أوارها ضد ابرهه لم يكن مردّها بأية حال من الأحوال إلى حدوث اضطهاد للعقائد الأخرى التي اتبعها السكان الأصليون للبلاد؛ وهي تلك الثورة التي يحكي عنها رقيم مارب. ووفقاً لرأي أ. ج. لندين فإن الذريعة للثورة كانت التزام الملك الجديد بدفع الإتاوة لأكسوم، مما وضع عبئاً متزايداً على عاتق الشعب. وانضاف إلى هذا تزايد «السخط من سياسة الملك الموالية لبيزنطة؛ وهو ذلك السخط الذي نضج لوقت طويل بين دوائر معيّنة من سكان اليمن» [78, p.66,72]. والمقصود بالذات هي تلك الدوائر التي عاضدت من قبل ذا نواس. وقد أخضع أ. ج. لندين رواية رقيم مارب بصدد الثورة لتحليل مفصّل، لذا نحيل القارىء إلى بحوثه [74; 78, p.66–72] في هذا المجال. أما هنا فنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة الأكثر أهمية في سياسة ابرهه.

وأحداث ٥٤١ ـ ٥٤٢ ببيزنطة كان من شأنها أن تزيد بصورة خاصة في حال السخط التي انبعثت ضد السياسة الموالية لبيزنطة التي سار عليها ملك حمير. ويرجع أ. ج. لندين بداية اندلاع الثورة إلى بداية عام ٥٤١ أو بداية عام ٥٤٢، لأنه في شهر ذو يقظن من عام ٦٥٧ من التقويم الحميري (يونيو أو يوليو ٥٤٢ من التقويم الميلادي) كانت الثورة في حمية اشتعالها. وقد أخذ طرفاً في العصيان أهم الأمراء بالجنوب العربي، بما في ذلك أولاد سميفع أشوع وغيرهم من ممثلي عشيرة يزن، وأقيال عشيرة صخر وقبيلة همدان، وكبير (ملك) حضرموت وغيرهم. ومن الممكن أنه وجد بينهم أيضاً أحد أولاد ذي نواس [248, p.507–509]. وتزعّم الثوار ملك كندة يزيد بن كبشت الذي كان نصبه ابرهه عامله على كندة والذي يربط أ. ج. لندين بطريقة مقنعة / بينه وبين يزيد بن معاوية بن حجر الوارد ذكره في المصادر العربية كحاكم لفرع كندة الجنوبي [78, p.66, note 22]؛ أما حضرموت فكانت تحت حكم الكنديين

الشماليين. ولقد نجحت القوات المتحدة لأقيال سبأ وحمير ومعهم البدو من كندة في السيطرة على جميع المناطق الجنوبية لحمير، ثم اقتحمت أواسط البلاد حيث توجد العاصمتان ظفار وصنعاء؛ وأفلحوا في إلحاق الهزيمة بوحدات المستوطنات العسكرية الاثيوبية التي أُرسلت ضدهم. عند ذلك جمع ابرهة «جنده من الأحباش والحميريين الذين كانوا يعدون بالألوف». وفي هذا دليل على أن قسماً من الحميريين، من سكان المناطق الشمالية على ما يبدو، قد ساندوا ابرهه. غير أن اسم «الحبش» (ح ب ش) يرد في المكان الأول؛ فضلاً عن اسماء قوّاد أبرهه من الحبش [78, p.70]. والتقى الجيشان عند بلدة نبت إلى الشمال الغربي من مارب. ولكن المعركة لم تحدث، لأن يزيداً وعدداً كبيراً من الأقيال «بسطوا يدهم» إلى ابرهه معترفين له بالطاعة. وفي مقابل هذا يبدو أن ابرهه اعترف لهم بامتيازاتهم، وعرض على يزيد منصب «رأس الجند». ومن المحتمل أنه في هذه اللحظة بالذات حدث الخرق بسد مارب، الذي كان يروي أراضي واسعة وخصبه. ويرى إ. جلازر [237, p.40]، وتساندُه في هذا ن. ف. بيغوليفسكيا [94, p.320]، أن السد خُرّب بأمر ابرهه. غير أنه يبدو أكثر قرباً من الصحة رأى أ. ج. لندين أن الذي خرب السد هم الثوار الذين استمروا في المقاومة وتقهقروا عقب ذلك إلى حصنهم [78, p.71–72]. وقد وجّه ابرهه ضدهم بجيشه من «الحبش والحميريين»؛ وبعد إخماد الثورة، أرسل بالثوار بما في ذلك الهمدانيين، لإصلاح السد. «فلما شرعوا في وضع أسس جدران السد بدأ يظهر الطاعون والوباء بين الجماعات وبالمدينة» (CIH 541, 70–73). عند ذلك انتشر السخط بين بناة السد الذي جلبه في أغلب الظن التعب وتفشي الوباء في وسطهم. ووفقاً لرأي ف. بريتوريوس F.Praetorius فقد تفشى الطاعون بصورة رهيبة [350, p.22;94, p.321;346, p.260]، فأوقف ابرهه العمل وأرسل جميع بناة السد أو قسماً منهم إلى ذويهم («فلما رأوا ما سبّبه الطاعون من فتك بالجماعات حلّوا عنهم أحباشهم وحميرييهم..» (CIH 541, 73–75). وبهذا «تمكّن الثوار من الحصول على سلام مشرّف» [78, p.72].

ومن الطريف ملاحظة أن أبرهه لجأ أولاً إلى حل وسط، بل وإلى القيام بتنازلات للأقيال والجماعات. وشاب تصرفه الكثير من التفهّم والمسالمة، إذ وجّه اهتمامه قبل كل شيء إلى اعادة منشآت الري بدلاً من سحق المتمردين. وثانية تجاهله لما حدث على يد المتمردين من إسراف في سفك الدماء ومن اضطهاد ديني وتخريب للبيع. ويبدو أن الطرفين فضّلا ايقاف النزاع قبل أن يستفحل، خشية تدخل أجنبي لا سيما من طرف اكسوم. أضف إلى هذا أن قسماً من الأمراء الثوار كان يدين بالنصرانية كما هو الحال مع أنصار ابرهه؛ فإن جهدوا في أن يرفعوا إلى العرش ممثل الأسرة الشرعية المحلية بدلاً من الملك الاثيوبي الأجنبي الأصل، فإنه من العسير أن نبصر فيهم كما فعل أ. ج. لندين معارضين للاتجاه العقائدي والسياسي النصراني ـ البيزنطي. وفيما بعد تأرجحت المعارضة ضد أسرة ابرهه/ بالجنوب العربي أيضاً بين بيزنطة وايران، ولربما أكسوم أيضاً.

وقد ساق الاتفاق مع طبقة أعيان الجنوب العربي في آخر الأمر إلى تدعيم وضع ابرهه على عرش حمير، ورفع هذا من مكانته بالخارج. ففي عام ٥٤٣ وفقاً لرواية رقيم مارب وصلت إلى بلاط الملك سفارات خمس دول، حملت تسميات مختلفة: السفارات الصديقة (م ح ش ك ت) وهي اكسوم وبيزنطة، وبعثة (ت ن ب ل ت) من ايران، ورسل (ر س ل) ملوك العرب الشماليين وهم اللخمى المنذر الثالث والأخوان الغسّانيان الحارث بن جبله وأبو كرب بن جبلة (CIH 541, 8–891)؛ ومن الواضح أن سرد اسماء السفارات قد تناسب مع مكانة الحكومات التي تمثلها. وكما بيّنا فيما مر فإن المكانة الأولى شغلتها اكسوم، تليها بيزنطة، ثم ايران، فدولة اللخميين، وأخيراً دولة الغساسنة. وجدير بالملاحظة أن رسول مملكة اللخميين التابعة للفرس يرد ذكره قبل رسول الغساسنة الخاضعين لبيزنطة. وهذا يشير إلى الأهمية المتزايدة للخميين والتي تدعّمت على حساب مملكة الكنديين التى تهاوت أركانها.

ورقوم أبرهه أشبه ما تكون باضافات جديدة لروايات بروقوبيوس القيساري بصدد تزايد نفوذ المنذر الثالث ونمو دور العرب العسكري في القرن السادس. ويقول بروقوبيوس: «كان الاموندروس (أي المنذر) شخصاً فطناً

للغاية ومتمرساً في شؤون القتال . . . وذا طاقة غير معهودة . ففي خلال خمسين عاماً أنهك قوى الدولة الرومانية وداس أنفها في الرغام . فقد نهب بلادها من حدود مصر إلى حدود أرض الجزيرة(٥٠)، حرق فيها ما حرق في طريقه، وسبى الناس بعشرات الألوف، ولم يستطع أحد أن يقف في وجهه . ذلك أن غاراته كانت تحدث دون توقع، فقد كان يتحرك بسرعة فجائية مغتنماً الفرصة السانحة . ويبتعد بغنائمه قبل أن يصل علم غارته إلى القادة وجندهم فيجمعون قواتهم لصده . ولكنهم لو استطاعوا بمحض الصدفة اللحاق به فقد كان ذلك المتبربر ينقضّ فجأة على متعقبيه قبل أن يجمعوا صفوفهم فيهزمهم ويقضي عليهم دون صعوبة تذكر . وباختصار فإن ذلك الرجل دلّل على أنه أخطر عدو عرفه الرومان قاطبة . والعلة في هذا أن الاموندروس الذي تمتع بمركز الملك قد بسط حكمه على السراقونيين [أي العرب] ببلاد الفرس . . . ولهذا وضع الامبراطور يوسطنيان على رأس عدد كبير من القبائل آرثه بن جبله (الحارث بن جبلة) الذي كان حاكماً على سراقونيي بلاد العرب ومنحه لقب الملك، وهو شيء لم يفعله أحد قبله فيما قيل . وظل الاموندروس يتابع أفعاله السابقة في تخريب بلاد الدولة الرومانية . . . » [30, p.226–228; 249, t.I, p.89–90] .

ولقد شرع العرب في تجميع كلمتهم مستغلّين حدة النزاع بين الدولتين الكبريين، وكان العداء الدموي الذي نشب بين اللخميين والغساسنة صفحة من صفحات ذلك النزاع . فالغساسنة الذين هُزموا في سلسلة لا تنقطع من المعارك على يد اللخميين وفقدوا منطقة تلو الأخرى من أراضيهم لم يلبثوا أن نجحوا في توحيد العرب الخاضعين لبيزنطة تحت لوائهم، مثل قبائل جبال لبنان، / فصدوا غارات اللخميين . أما اللخميون أنفسهم فقد بسطوا سلطانهم وسيطرتهم على كل القبائل العربية بشمال شرقي الجزيرة العربية وبأرض الجزيرة، بل وبالحجاز وأيضاً ببعض المواضع التي ينزلها السريان الشرقيون .

---

(٥٠) يقول برقوبيوس في موضع آخر إن المنذر خرّب قرى سورية وفلسطين ولبنان وفينيقيا [31. p.117, 136–137; 249, t.I, p.223–224, 233] .

وكان أيضاً مما انتقل إلى سلطانهم زعامة الحلف القبلي لمعدّ الذي كان على رأسه عمرو بن المنذر الثالث.

وكان ضد حلف معدّ هذا أن وجّه ابرهه بحملته الوارد وصفها في الرقيم Ry 506 الذي يحمل تاريخ ٦٦٢ من التقويم الحميري وهو الموافق ٥٤٧ للميلاد، والذي تم العثور عليه قرب بئر مريغان بجنوبي الحجاز(٥١). هذا الرقيم يذكر أن قبيلة عامر (من المحتمل أنهم عامر بن صعصعة الذين قطنوا تهامة الحجاز على ساحل البحر الأحمر) تمرّدت في زمن تلك الحملة. فأرسل ابرهه ضدهم وحدات من البدو على رأسها الكندي ابو جبر وبشر بن حصن من قبيلة مذحج، فاصطلما عامراً. وفي خلال ذلك كان ابرهه قد اشتبك بقواته الرئيسية ـ الأرجح أن المقصود بذلك الوحدات الحميرية والاثيوبية ـ في معركة مع معدّ عند حلَبّان الواقعة على حوالي ٤٢٠ كيلومتراً إلى الشمال من بئر مريغان وهزمهم، فاعترفت معدّ بسيادة ابرهه وقدمّت له الرهائن؛ على أن عمر بن المنذر ظلّ عاملاً على معد. وهكذا كشف ابرهه مرة أخرى عن ميله إلى الحل الوسط؛ ولكن في هذه المرة مع اللخميين الخاضعين للدولة الساسانية.

ومعلوماتنا عن هذه الحملة ترتفع إلى الرواية العربية الشفوية للقرن السادس التي حفظها محمد بن الكلبي، وإن أخطأ بأن جعل هذه العملية العسكرية لابرهه على أنها « حملة الفيل » المشهورة. ووفقاً لمحمد بن الكلبي فإن « حملة الفيل » حدثت قبل ميلاد النبي محمد بثلاثة وعشرين عاماً، أي في عام ٥٤٧/٥٤٨ ؛ الأمر الذي يتفق مع حملة ربيع عام ٥٤٧ [131, p. 145–147, 353–355]. ومن الممكن أن حملة ابرهه هذه هي التي يتحدث عنها بروقوبيوس القيساري بقوله: «وفيما بعد تمكّن ابرام من تثبيت سلطانه بصورة مدعّمة ووعد الامبراطور يوسطنيان مراراً بأن يغزو بلاد الفرس، ولكنه لم يزحف إلّا مرة واحدة قفل منها راجعاً إلى بلاده ولم يعد الكرّة بعد ذلك»

(٥١) يرد تحليل مفصّل للرقيم في المراجع الآتية : ,144a; 388, p.435 ff.; 78, p.73–81; 66, p.91–92; 97 .[p.178–179; 383, 367,p.339–342;]

[30, p.281] . ومن الممكن أن نستشف من رواية بروقـوبيوس، اولاً مهمة السفارة البيزنطية إلى ملك حمير في عام ٥٤٣ وما بحثته معه بالذات، وثانياً أنها لم تكن السفارة الوحيدة ، وثالثاً الاتجاه المعادي للفرس في الحملة على معد . ومن العسـير الافـتراض أن ابـرهـه كان ينـوي غزو بلاد الفـرس نفسهـا ؛ وبروقوبيوس في إشارته إلى « بلاد الفرس » إنما يعني مملكة اللخميين الخاضعة لهم . ولعل ابرهه وعد السفراء البيزنطيين بأنه سيغزو أراضي اللخميين بالذات ويحتل عاصمتهم الحيرة . وهذا ما يعنيه مؤرخنا بألفاظه التي تنطوي على خيبة امل من رجوع ملك حمير القهقرى سريعاً ، واقتصاره على استعادة سلطان حمير على تلك المناطق من الحجاز ونجد التي كانت تعد من الأملاك المعترفة بالتبعية لها قبـل انهيار دولة الكنديين . وهذه المناطق التي كانت تقع على طول طرق القوافل المهمة/ التي ربطت الجنوب العربي ببيزنطة وايران ، تحوّلت الآن إلى مِلْكية نسيج وحدها شارك فيها الحميريون واللخميون معاً. وبهذا فإن الآمال العريضة التي عقدتها بيزنطة على توجيه ضربة قاضية إلى أعدائها لم تتحقّق. غير أن الفـرس بدورهم لم يتمكنوا من احتكار التجارة العربية في أيديهم. وبهذا خابت خطط القـوى العـالمية الكبرى نتيجة لاتفاقية الصلح بين أكبر دولتين عربيتين ـ وهي الاتفاقية التي تمت بين ابرهه وعمرو بن المنذر الذي أصبح ملكاً على اللخميين في عام ٥٥٤(٥٢).

وكان مما زاد أيضاً في خيبة أمل بروقوبيوس أن حملة ابرهه الوحيدة جاءت متأخرة للغاية. فقد أمّل البيزنطيون في ذلك الوقت الذي حمى فيه وطيس القتال بين البيزنـطيين والفـرس خلال الأعوام ٥٤٠ ـ ٥٤٥ أن يضطلع الحميريون بهجوم على اللخميين. غير أن ابرهه لم يكن في وضع يسمح له بالقيام بذلك، نظراً لانشغاله أولاً بالقتال مع اكسوم، وبعد ذلك بالمصالحة مع ملك اكسوم الجـديد، وأخـيراً بالضغط الـذي أحدثته ثورة الامراء الحميريين والكنديين.

---

(٥٢) تقول بيغوليفسكيا بصدد أهداف حملة ٥٤٧ «ولقد كان من مصلحة بيزنطة ومن مصلحة حمير على السواء أن تسيطرا على جميع التجارة المارة بالبحر الأحمر وبساحله وأن تمنعا الفرس» [97, p.179 الترجمة العربية، ص ٢١٢] .

وواقع الأمر أن رقيم Ry 506 يدعو حملة ٥٤٧ «الرابعة» (ر ب ع ت ن)(٥٣)، ولكن يبدو بوجه عام أن الحملات الثَلاث الأولى على معد قد اضطلعت بها قوات غير كبيرة من الحميريين والكنديين، وذلك قبل حملة ابرهه نفسه لعام ٥٤٧ مباشرة. ومن المستحيل القول أي الحملات الثلاث الأولى هي التي اختصّها بروقوبيوس بالذكر. وفي ذات الوقت ينبغي أن نبصر فيها جزءاً من السياسة العامـة لابرهه بإزاء اللخميين وسادتهم الساسانيين؛ لذا لم يكن اعتباطاً أن وضعها الرقيم جنباً إلى جنب مع حملة ٥٤٧. ذلك أن «ذكر بعض الحملات [السابقة] إنما يقف شاهداً على أن حملة عام ٥٤٧ جرى تخطيطها بدقة، كما يؤكّد الاهتمام الخاص الذي أولته الحكومة الحميرية لتلك العملية» [78, p.80, note 78].

وعلى الرغم من أن بيزنطة وايران عقدتا صلحاً بينهما في عام ٥٤٥ لمدة خمسة أعوام إلاّ أن نار الحرب لم تلبث أن استعرت من جديد بين المملكتين الدائرتين في فلكهما، أي الغساسنة واللخميين، منذ العام التالي لذاك واستمرت إلى عام ٥٥٤. وكان السبب في اشتعالها غارة غادرة للمنذر الثالث على ممتلكات الغساسنة؛ فقد انقضّ المنذر على أحد أولاد الملك الغساني الحارث عندما كان يرعى الخيل بالبادية وقدمّه قرباناً «للزُهَرة» (إلهه العرب العزّى). وفي عام ٥٤٦ ذاك هزم الغساسنة المنذر [31, p.206–207; 249, t.I, p.284]. وهذه المعركة سبقت بعام ونصف فقط هزيمة جيش ابنه عمرو على يد أبرهه.

ومن الممكن أن أبرهه في حملته لعام ٥٤٧ إنما كان يعمل في حلف مع الغساسنة [78, p.80–81]؛ على أي فقد كان عدوهما واحداً. غير أن هذه الحرب التي من الممكن أن ندعوها بالحرب من أجل اقتسام إرث كندة بين الدول العربية الكبرى بلغ فيها الصراع بين الغساسنة واللخميين درجة من الحدّة لم

(٥٣) Ry 506, 3. هكذا يفسّر اللفظ كل من إ. بيستون [144, p.390] وج. ريكمانس [368, p.94] وأ.ج. لندين [78, p.73 n.48, p.80 n.78]

يعرفها النزاع بين اللخميين وابرهه؛ إذ اتصفت بقسوتها الشديدة. وعلى وجه العموم فقد اتبع ملك حمير الإثيوبي سياسة مستقلة تماماً، ترمي إلى المناورة بين اكسوم وبيزنطة وبين الغساسنة واللخميين وبين بيزنطة وايران وبين المصالح القديمة لأعيان حمير والزعماء البدو والمهاجرين الاثيوبيين.

وبدورها جهدت كل من اكسوم وطيسفون بألّا تصل حدّة الخلاف بينهما وبين حمير إلى درجة التفاقم. ولقد كانت اكسوم مضطرة إلى قبول تلك الحدود التي وُضعت لنفوذها بالجزيرة العربية، وذلك على ضوء الظروف التي تشكّلت فيها علاقات القوى آنذاك. أما ايران فقد غبطت نفسها على فترة الهدنة التي حصلت عليها في حربها مع بيزنطة وجهدت في مدّها وتدعيمها بالاتفاقيات؛ وهو الأمر الذي من أجله أرسلت بسفارات إلى بيزنطة في الأعوام ٥٥٠ و٥٥٦ و٥٥٧ [97, p.109-110] . غير أن المصادر النزرة تقتصر مع الأسف على خبر استقبال ابرهه للمبعوثين الاثيوبيين والفرس عام ٥٣٤، وإن كان لا يحوم الشك حول مجيء سفارات أخرى خاصة في فترات السلم قبل عام ٥٤٠ وبعد عام ٥٤٧. وحوالي عام ٥٣٥ نبصر بطيسفون سفيراً لأكسوم [124, p.140] . ومن المعلوم أن الشاهنشاه وجّه في عام ٥٥٥ ببعثات دبلوماسية إلى الصين وإلى خاقان الترك [26, p.40] . ومن الطبيعي أن نفترض أن بعثات مماثلة وجدت طريقها أيضاً إلى الجنوب العربي واثيوبيا. وعلى ما يبدو فإن الدبلوماسيين الفرس زاروا اكسوم عام ٥٤٣. ذلك أنه من المستبعد أن يكتفي الشاهنشاه بارسال ممثليه إلى ابرهه وحده، متناسياً سيده النجاشي. ومن البيّن أن منافسة ايران وهي بيزنطة قد وجّهت دائماً كما حدث وأبصرنا بسفارة إلى بلاط الاكسوميين والحميريين.

ولقد شهد ذلك العصر نشاطاً مكثّفا لمبعوثي الدول الأربعة الكبار لذلك العهد بجميع العالم المعروف في القرن السادس. وإلى جانب السفراء الرسميين اشتغل بالدبلوماسية أيضاً كبار التجار والمشرفون على المحطات التجارية. فمثلا يصف لنا قزما الذي أبحر إلى الهند ما جرى من جدل دبلوماسي ببلاط أحد حكام سري لانكا بين السفير الفارسي والتاجر البيزنطي صوپاطر [310, p.368-369; 413, p.323] . وفي سهوب جوف آسيا كان من

الممكن الالتقـاء بسفـراء البيزنطيين والايرانيين والصينيين، أما الفرس والترك والصغد فقد بلغوا القسطنطينية وعاصَمة الصين. وبيزنطة وايران اللتان وجدتا في عداء مستمر بالتقريب كانتا بمثابة قطبي المغناطيس، تجتذب كل واحدة منهما أعـداء أعدائها، ولم تألوا جهداً في سبيل خلق الأحلاف السياسية. ولم يكن اعتباطاً أن اجتهد وتيجيس Witigis ملك القوط الشرقيين بايطاليا في الدخول في علاقـة مع خسرو الاول شاهنشاه الفرس في زمن حربـــه مع بيزنطة ؛ فقد أرسل إليه عبر الممتلكات البيزنطية بقسيسين مـن ليغوريا بصفة عميلين سريينّ [31, p.11–15; 249, t.l, p.151] . ولقد كان القرنان السادس والسابع عهد أحلاف سياسية واسعة ونشاط دبلوماسي غير معهود بالنسبة للعالم القديم وعالم العصـور الوسيطة المبكّرة. ويلوح أن اكسوم أيضاً تعاورها الواحد تلو الآخر سفراء الدولتين الكبريين بيزنطة وايران، وأيضاً سفراء دول من الدرجة الثانية والثالثة وذلك من شمال شرقي افريقيا وبلاد العرب ولعله من الهند أيضاً .

وخير دليل على نمو الاتصال بين أقطار افريقيا وآسيا واوروبا ، وإن كان دليلاً محزناً ، هو انتشار وباء الطاعون الأول الذي سجّله لنا المؤرخون اليونان والبيزنطيون واللاتين والحميريون ووفقاً لأفاغريوس، وهو مؤرخ بيزنطى كنسى من آخر القرن السادس . فوباء الطاعون « كما قيل » ظهر أول ما ظهر باثيوبيا ، وذلك بعد عامين / من استيلاء الفـــــرس على انطاكية ، أي في عـــام ٥٤٢ [31, p.257] . وبروقوبيوس القيسارى معاصر هذه الأحداث، كان على علم بأن الطاعون «بدأ بين المصريين من أهل بيلوزيوم [الفرما]، ومن هناك اتخذ اتجاهين أحدهما إلى الاسكندرية وبقية مصر، والآخر إلى فلسطين المتاخمة لمصر ومنهـا إلى بقية العـالم» [31, p.159; 249, t.l, part 250] . وفي عام ٥٤٣ ظهـر الطاعون بالقسطنطينية وقرطاجه وحمير (أنظر أسفله)، ومن هناك وجد طريقه إلى ايطاليا (٥٤٥) ثم شمل أوروبا الغربية بوجه عام [31, p.165, 482ff.; 249, t.l, p.256 ff.] .

ولم ينج من الطاعون اثيوبيا ولا السودان، وإن كانت رواية افاغريوس من أن الـطاعـون بدأ هنـاك بالـذات لا يقف دليل ما على صحتهـا. وقد كتب افاغريوس يقول في وصف الطاعون «وبعض المدن اختفى أهلوها تماماً [نتيجة

للطاعون]» [31, p.258] . وكان من جراء فتكه بالناس ان اضطرت بيزنطة وايران إلى الاسراع بعقد الصلح بينهما، كما اضطر ابرهه ملك الحميريين أن يقوم بالتنازلات لملك اثيوبيا. وإلى جانب هذا أثار الوباء اهتمام البيزنطيين بالاقطار الافريقية التي اعتبرت بؤرة «العدوى بالأوبئة» وموطن كل ما هو غريب. وبالتالي في العصور الوسيطة المبكّرة والمتأخرة اعتبرت افريقيا بؤرة الطاعون المحلي والعالمي أيضاً.

وفي زمن الحرب البيزنطية الايرانية التي امتدت من عام ٥٤٠ إلى عام ٥٤٥، وفي أعقابها مباشرة «انفجر» الاهتمام باثيوبيا في الأدب البيزنطي؛ الشيء الذي لم يكن قد حظى إلى تلك اللحظة بالاهتمام اللازم. ففي ذلك الوقت ظهرت بالتقريب جميع المصنفات اليونانية للقرن السادس المتعلقة باكسوم، مثل تقارير سفارات ننوس ويوليان و«تاريخ الحروب بين الروم والفرس» لبروقوبيوس القيسارى، بل و«استشهاد الحارث» و«سيرة القديس جريجنتي» و«جدل القديس جريجنتي مع اليهودي ربّن» و «قوانين الحميريين» و «تاريخ» يوحنا الانطاكي و «استشهاد القديس اثناسيوس بالقلزم»؛ ثم فيما بعد بصورة خاصة «تاريخ» أو «حوليات» يوحنا ملاله وغيره. ويمكن أن نتتبع في جميع هذه المؤلفات فكرة تميّزت بالكثير من الحيوية في تلك الأعوام، هي فكرة الحلف المقدس للامبراطوريتين اللتين اشتركتا في عقيدة واحدة، أي البيزنطية والاكسومية - وذلك تحت هيمنة الأولى؛ هذا بالإضافة إلى مملكة حمير النصرانية. وقد عرضنا فيما مر أقوال بروقوبيوس ويوحنا ملاله وثيوفان البيزنطي في هذا الصدد. ويمكن متابعة الموضوع ذاته في «استشهاد الحارث» وفي «استشهاد القديس اثناسيوس بالقلزم» الذي ظهر في وسط يعقوبي [22, p.117, 139] . ومن الطريف ملاحظة التوافق الغريب بين المؤلفين الارثوذكس والمونوفيزيين حول هذا، حتى لدى مؤلف «استشهاد اثناسيوس» الذي نفى إلى القلزم بأمر يوسطنيان «لخلافه» المونوفيزي. ومن الجلي أن الأدب المدوّن باللغة اليونانية والأكثر قرباً إلى الدوائر الرسمية ببيزنطة كان يعبّر في ذات الوقت ويروّج لوجهة النظر الرسمية عن الحلف المقدّس، الذي كانت تتطلّع إليه بيزنطة بقدر ما كانت تتطلع إليه أيضاً

دوائر المونوفيزيين والارثوذكس بمشرق الامبراطورية ووراء حدودها. غير أنه لم يكن بمقدور أي ضرب من الدعاية أن يخفي ما وجد من احتكاكات بين حكّام القسطنطينية واكسوم الذين/ تعاونوا وفي الوقت ذاته تنافسوا بالجزيرة العربية وبشمال شرقي افريقيا.

ولعل هذه العلاقات المعقدّة بين الحكومتين النصرانيتين قد انعكست في الكتاب الذي يحمل عنوان «كبره نجاست» ـ وهو سفر معروف جيداً باثيوبيا، أشبه ما يكون «بخارطة ميثولوجية» (وفقاً لعبارة ب. مالينوفسكي B.Malinovsky) للامبراطورية الاثيوبية في الفترة التاريخية الممتدة من القرن الرابع عشر إلى القرن العشرين. وقبل وقت غير بعيد ظهر فرض مدعّم بالحجج مفاده أن «كبره نجاست» يستند على أثر أدبي لم يصل إلينا وتم تدوينه عام ٥٤٠ بمصر باللغة القبطية.

وخاتمة الناسخ (colophon) لكتاب «كبره نجاست» تحدّد أن الكتاب دُوّن بمصر باللغة القبطية «على أيام النجاشي لليبله» (في بداية القرن الثالث عشر؟)، ومنها نقل إلى العربية، وفي القرن الرابع عشر إلى اللغة الجعزية. وبهذا فإن الكتاب يبدو وكأنه من آثار القرن الثالث عشر ـ الرابع عشر. هذا ما اتفق عليه الكثيرون من مؤرخي الأدب الاثيوبي بمن فيهم أكبر عالم في مجال الدراسات الاثيوبية وهو انريكو تشيروللي E.Cerulli [174, p.37]، وأيضاً س. استرلتسين S.Strelcyn [393, p.13-14]. غير أن الدراسة المفصّلة لسفر «كبره نجاست» تسمح بالافتراض بأنه يحتوي على عناصر أقدم من ذلك. ومنذ أكثر من قرن أرجع عالم الساميّات الألماني المبرّز ف. بريتوريوس تاريخ هذا الأثر الأدبي إلى القرنين السابع والثامن [349, p.VIII-IX]. ولا ينازع عالم القبطيات والاثيوبيات الفرنسي المعروف ج. دوريس J.Doresse في الأصل المصري «لكبره نجاست» والتاريخ التقليدي لتأليفه، ولكنه يصرّ على وجود عناصر ضاربة في القدم بهذا الكتاب نمت وترعرعت بتربة الجنوب العربي واكسوم في الأزمنة السابقة للاسلام [215, p.251-273].

وثمة خطوة جديـــدة في دراسة « كبره نجاست » يمثلها منذ أمـــد غير بعيد دراسة عرفـــان شهيد . فقد كشف هذا العالم العربي بذلك الكتـــاب عن نقاط شَبَهٍ مع « كتاب الحميريين » وبعـــض آثار أدبية أخرى من القرن السادس [384, p.134 ff.] .

ويمكن إيجاز محتويات « كبره نجاست » في الآتي . فهو يؤكّد في البداية أن المعمورة إنما تخص حاكمين هما ملك الروم (بيزنطة) الذي يوجد بعاصمته كنيسة القديسة صوفيا، وملك اثيوبيا (الفصل الأول). وكدليل على هذا يسوق اسطورتين، تحكي الأولى عن لقاء مزعوم باوريشلم بين «ملك الروم» و «ملك الحبشـة» لم يحدث في واقـع الأمـر؛ يقـال إنما تقاسما فيه المعمورة بينهما فوقع للنجـاشي فيها يقـال وادي النيل وأقطار افريقية أخرى وبلاد العرب الجنوبية وأقطار البحار الجنوبية إلى الهند (الفصل الثاني). ويحتوي «كتاب الحميريين» على موضع مماثل لهذا، يرد الكلام فيه عن لقاء تم باوريشلم بين ملك اكسوم كالب والامبراطور البيزنطي يوسطين؛ وهو لقاء أولته الدوائر المونوفيزية مغزى ضخماً وإن غلبت عليه الأسطورة بنفس القدر الذي غلبت فيه على الأول. ومن العسـير القـول بأن هذه الأسـطورة قد تفتّق عنهـا خيال شمعون الأرشمي؛ والأرجـح أن كلا الكتـابـين، أي «كتاب الحميريين» و «كبره نجاست»، قد وجدت طريقها إليهما الاشاعة التي راجت في أوساط المونوفيزيين بسورية ومصر بعد عام ٥٢٥ بقليل. وجوهر هذه الاشاعة/ هو أن امبراطور بيزنطة اضطر إلى الاعتراف بالجزيرة العربية والسودان مجالاً لسيطرة اكسوم؛ وإن استحال القول بأن الكلام دار أيضاً حول تنازل بيزنطة عن حقوقها بمصر وبأملاكها الأخرى. ووفقاً لرأي عرفان شهيد والذي ينضم إليه كاتب هذه السطور، فإن مؤلف «كبره نجاست» عند كلامه عن «حصة اثيوبيا» في المعمورة إنما كان يعني حدود العالم المونوفيزي المبكّر [384, p.136 ff.] . وفي الفصول التالية من «كبره نجاست» التي يرد فيهـا الحـديث عن حملات الاثيوبيين بالنـوبـه («بلاد سوبه ونوبه») وباثيوبيا الوسطى الجنوبية (هَدْيه) وبالجنوب العربي (الفصلان ٢٥ و ١١٧)، فإن جميع هذه البلاد عدّت من «حصة ملك اثيوبيا». وفي ذات الوقت لا ترد

الإشارة في أي قسم من أقسام الكتاب إلى أن حاكماً من حكّام الاثيوبيين امتلك مصر والهند، بل على العكس من ذلك يقتصر الأمر على ذكر أن وكلاءهم التجاريين تاجروا من أجل مليكهم «باسوان والهند» (الفصل الثالث)، وأيضاً ببلاد العرب (الفصل الرابع). من هذا يتضحّ أن مؤلف أو مؤلفي الكتاب ميّزوا بين المَطالب أو «الحق» في السيادة، وبين الممتلكات الفعلية.

أما الأسطورة التي يسوقها مؤلف «كبره نجاست» دليلاً على «حق ملك اثيوبيا» في الأقطار الجنوبية، فتتعلق بالأنساب. وقد جرى التأكيد من قبل في الفصل الثاني من «كبره نجاست» على أن ملك اثيوبيا وملك رومه ينحدران من صلب سليمان. ولكن «كبره نجاست» يستمر في اعتماده على نص الكتاب المقدّس ليؤكّد مرة أخرى أن سبأ وكوش التوراة إنما هما اثيوبيا، وأن ملكة سبأ وكنداكه العهد الجديد (والمقصود بذلك الملكة الأم بمروه) إنما المقصود بهما ملكة اثيوبيا القديمة. غير أن هذا الخلط في المعطيات التاريخية والجغرافية لا يزعج في شيء مؤلف «كبره نجاست». أما فيما يتعلق بالحكاية المعروفة من الكتاب المقدس والمتعلقة بزيارة ملكة سبأ لسليمان باوريشلم، فإن «كبره نجاست» يعرض لنا بالتفصيل أسطورة مكده ملكة اثيوبيا؛ أي ملكة سبأ. هذا الشطر من «كبره نجاست» أشبه ما يكون برواية رومانسية بمعنى الكلمة، فهو يصف لنا شوق مكده للقاء سليمان ورحلتها إلى اوريشلم لمقابلته والحديث الذي جرى بينهما وكيف أمضيا الليلة معاً فحملت منه بابنها منليك الذي وضعته بعد عودتها إلى أرض الوطن. ولقد أصبح منليك أول ملك على اثيوبيا، لأنه لم تحكم البلاد قبله سوى النساء؛ وبهذا كان المؤسس الحقيقي للملكة اكسوم. فلما شبّ واشتد ساعده قام كما كان الشأن مع أمه بزيارة إلى الملك سليمان باوريشلم، فغمره والده بالهدايا ووجّه به إلى اثيوبيا ومعه الأسباط من بني اسرائيل الذين كونّوا طبقة الأعيان الجديدة بها (الفصول ٤ ـ ٢٧).

ويلي هذا في الكتاب حكايات تعكس بعض العادات التوراتية والاكسومية، كما ترد القصة بصدد الملك الصالح كالب الذي كُرست له في الواقع الفصول الأخيرة من «كبره نجاست». وبخلاف منليك الاسطوري فإن

كالب إلا أصبحه هو الملك الأثيوبي الوحيد الذي يذكره «كبره نجاست» . ومن الممكن، اتفاقاً مع رأي عرفان شهيد، أن «كبره نجاست» إنما كرّس لكالب نفسه [384, p.135 ff.] .

ويلاحظ عرفان شهيد الاتجاه المعادي لليهود لهذا الأثر الأدبي، مما يتناقص مع/ القصة الواردة فيه بصدد الأصل الاسرائيلي للأسرة المالكة باكسوم وللأعيان الاكسوميين [384, p.139ff.] . وإلى جانب هذا يمكن أن نلاحظ فيه جوانب نزاع خفي مع التقاليد الأدبية والعقائدية البيزنطية. فسفر «كبره نجاست» يؤكّد أن «اسرائيل الحقّة» - أي المنحدرين من أسباط بني اسرائيل - إنما هم الاكسوميون، هذا على حين اعتبر البيزنطيون دولتهم هي «اسرائيل»، بينما اعتبرها اليهود جماعتهم الدينية. وكان مفهوماً لدى الجميع في عالم ذلك العهد أن مبدأ النسب النسبطى وسيلة من وسائل الدعاية السياسية. لذا فإن «كبرة نجاست» يستمر في جدله فيعلن الامبراطور الروماني البيزنطي من المنحدرين من صلب سليمان ولكن يجعله في وضع أدنى من النجاشي كالب، لأن هذا الأخير ينحدر مباشرة بزعمه من صلب منليك أول ولد لسليمان وملكة سبأ(٥٤). ونتيجة لهذا فإن ملك اكسوم يمتلك أقدم الآثار الدينية للنصرانية؛ فإن كان صليب الرب في يد الامبراطور فلدى النجاشي تابوت العهد والعجلة

(٥٤) ثمة رواية أخرى لهذا النسب الملفّق الذي يرفع من شأن ملك اكسوم على حساب امبراطور بيزنطة نلتقي بها في «رؤيا» مثوديوس المنحول Pseudo-Methodius الذي تم تأليفه في النصف الثاني من القرن السابع - القرن الثامن والذي يتنبأ بانقاذ النصرانية من العرب المسلمين بقوة السلاح الاثيوبي. ووفقاً لهذه الأسطورة فإن والد الاسكندر المقدوني تزوج من هوسيفي ابنة ملك اثيوبيا فول؛ لذا فإن الاسكندر انما هو حفيد ملك اثيوبيا. وبعد موت ولدها يقال إن الاسكندرة هوسيفى تزوجت من «ارملي ملك الروم» وأصبح أولادهما الثلاثة ملوكاً لرومة وبيزنطة والاسكندرية [69, p.20]. ونتيجة لهذا فإن ملك اكسوم أكبر من ناحية النسب من امبراطور بيزنطة.

(Tabernacle of the Law and the Chariot) ★. ولقد اشتهرت اثيوبيا بأنها الحصن الحصين للإيمان الصحيح الذي يهدّده أعداء المسيح. وفي الفصل الثالث عشر بعد المائة من «كبره نجاست»، وأيضاً في الفصل الأخير وهو السابع عشر بعد المائة، يرد الحديث عن ثورات اليهود بارمينيا وببلاد العرب الجنوبية الموجّهة ضد النصارى (المونوفيزيين)، وعن الهزيمة التي ألحقها ملك الفرس «خارينيفوس» «بملك الرومان المدعو مرقيان». ويرى عرفان شهيد أن المقصود بهذا استيلاء جيوش خسرو انوشروان على انطاكية في عام ٥٤٠ [364, p.177]

فإن كان افتراض العلامة العربي بوجود مصنف قبطي مبكّر من القرن السادس استند عليه «كبره نجاست» قد وجد التأييد، فإن هذا الكتاب يدخل مع ما وصلنا من آثار يونانية وسريانية في محيط الأدب الجدلي الحاد الذي دار حول «الحلف المقدّس» لبيزنطة مع اكسوم؛ وهو ذلك الأدب الذي حظى بالرواج وسط الدوائر المونوفيزية في النصف الأول من القرن السادس.

ومهما يكن من شيء فإن الوضع في الشرق الأدنى كان معقداً للغاية آنذاك، بحيث حدّد الأطر التي سار فيها النجاح العام لسياسة الملك ابرهه.

★ *يقول أبو صالح الأرمني في تاريخه (طبعة اكسفورد ١٩٨٤، ص ١٣٣) : «وعندهم (أي ملوك الحبشة) تابوت العهد الذي فيه اللوحي الحجارة المكتوبة باصبع الله بالوصايا التي أمر الله بها بني اسرائيل. وتابوت العهد وهو في علو المذبح في ارتفاعه وعرضه دون عرضه وينتهي في علوه إلى رقبة الرجل وهو مصفّح بالذهب وعلى غطاه الفوقاني صلبان ذهب وعليه خمس جواهر أربعة في أربع زوايا وفي وسطه جوهرة واحدة ويقدّس عليه في كل سنة أربع قداسات في قصر الملك وينشر عليه سرادق عند اخراجه من الكنيسة إلى الكنيسة التي بقصر الملك وذلك في عيد الميلاد العظيم وعيد الغطاس المجيد وعيد القيامة المقدّسة وعيد الصليب الأنور. وترسم خدمته وحمله بجماعة كبيرة من بني اسرائيل منسوبين إلى نسل داوود النبي وهم بيض حمر شقر. وفي كل بلد من بلاد حبشة كنيسة واحدة في اكبر ما يكون من الاتساع. وذكر أن النجاشي كان أبيض أحمر أشقر وجميع نسله إلى اليوم ويذكر أنه من نسل هارون موسى عند وصوله إلى بلاد الحبشة». (المترجم)*

وقد دوّن بروقوبيوس مصنفه «تاريخ الحروب الرومية والفارسية» بين عامي ٥٤٥ و ٥٥٠؛ لذا فقد عدّ حملة ابرهه لعام ٥٤٧ على أنها الوحيدة. هذا على حين حفظت لنا الرواية العربية المتواترة على الأقل أخبار حملة عسكرية أخرى مهمة لملك حمير ـ تلك هي «حملة الفيل» المشهورة. ولا يزال الطريق بين صنعاء ومكة الذي سلكه جيش ابرهه يحمل إلى اليوم اسم «درب الفيل»، أما عام الحملة فقد ثبت عليه في الأخبار المتواترة عن العرب اسم «عام الفيل»(٥٥). وغير مفهوم تماماً ما هي أسباب الحرب بين الحكومة الاثيوبية ـ الحميرية لليمن ومكة التي كان لأهلها تجارة نشيطة مع اليمن (لأن القرشيين كانوا يرسلون إلى بلاد العرب الجنوبية في كل شتاء قافلة كبرى من الإبل) ومع فلسطين وسورية بل وحتى مع اكسوم ـ وإن كان ذلك بدرجة أقل بكثير ـ، ومع / العراق وايران. ولعل المواجهة بين مكة وحمير قد أوحت بها إلى حد ما الدبلوماسية الفارسية واللخمية، وأيضاً الجماعات اليهودية القاطنة ببلاد العرب والتي كانت لها معاملات مالية مع التجار الأغنياء من قريش.

كذلك من الممكن أن ملك حمير أراد أن يخضع لسلطانه المستوطنات التجارية اليهودية بالحجاز، والتي وجدت أكبرها بيثرب (المدينة). ويبدو أن الأهداف العامة «لحملة الفيل» كانت نفس أهداف حملة ٥٤٧، أي تنفيذاً للمخطّط السياسي الذي سار عليه ابرهه في الأعوام العشرة السابقة. وكانت نواة المجموعة التي اضطلعت بالحملة تتكون من الجند الاثيوبيين، الذين تشير إليهم كافة المصادر العربية. وأغلب الظن أن الاثيوبيين كانوا أيضاً قادة الأفيال المقاتلة.

ويشير الشاعر أمية بن أبي الصلت، معاصر محمد الذي حسده على

(٥٥) يفترض أ. ج لندين أن «حملة الفيل حدثت على عهد حكم ابن ابرهة المدعو يكسوم»، لأن ابرهة وفقاً لرأيه مات عام ٥٥٨ [78, p.84, n.100, p.85-86, n.116]

الرسالة* إلى مشاركة ملوك كندة في الحملة** [274, p.112; 200, p.206] .

★ أمية بن أبي الصلت الثقفي من العرب القلائل معاصري النبي الذين تكوّنت لديهم فكرة عن التوحيد، أو على الأقل عن جمع كلمة العرب حول عقيدة واحدة؛ وهم من أطلق عليهم اسم المتحنفين. ولقد حفظت لنا الرواية المتواترة عدداً من أشعاره وأخباره. وتحفل أشعاره بالأفكار الدينية، مما يشير إلى معرفته بالتوارة وبحضارات الأمم المجاورة للجزيرة العربية. ولكن عدداً من العلماء يرى أن معظم الشعر المنسوب إليه مختلق. ويحكى كتاب الأغاني أشياء غريبة عن أمية وأنه كان يطمع في النبوة وأن الجن كانت تطيعه وغير ذلك من الخوارق. وسواء طمع في النبوة أو لم يطمع فقد ثبت تاريخياً أنه لم يعتنق الإسلام بل وقف موقف المعارضة من النبي، كما يتضح من أشعاره التي يرثي فيها من قتل من المشركين في واقعة بدر ويحرّض قريشاً على المسلمين. ويرجع المؤرخون المسلمون موقفه هذا إلى أنه قرأ في الكتب أن نبياً سيبعث من العرب فكان يأمل أن يكون هو نفسه ذلك النبي، فلما بعث محمد خاب رجاؤه فحسده وعاداه. ويرى البعض أنه كان نصرانياً وذلك لاختلافه إلى الأديرة والبيع ومجالسته الرهبان والقسس. على أي فقد سافر كثيراً وكان على اطلاع بالوضع السياسي والنزاع الديني بالشرق الأدنى، وكان من القلائل الذين استشعروا آنذاك أن اللحظة مواتية لتوحيد كلمة العرب؛ وهو الأمر الذي تم على يد محمد وخلفائه القرشيين تحت راية الاسلام. وينسب للنبي حديث مفاده: «كاد أمية أن يسلم»، وفي رواية أخرى «آمن شعره وكفر قلبه». ولنضيف أن أشعاره جمعت على هيئة ديوان طبع منذ أمد غير بعيد بإحدى البلدان العربية. (المترجم)

★★ورد هذا في شعر لأمية بن أبي الصلت يذكر فيه حادث الفيل وارتداد الأحباش من مكة ويشير فيه إلى دين الحنيفية:

إن آيات ربنا ثاقبات ... لا يماري فيهنّ إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكلّ ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قـ ... ـطّر من صخر كوكب محدور
حوله من ملوك كنده أبطـ ... ـل ملاويث في الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله ... الا دين الحنيفة بور

(المترجم)

وعلى ما يبدو فقد وجدت أيضاً وحدات من الحميريين أنفسهم . وعلى الرغم من ذلك فقد أخفق ابرهه في الاستيلاء على مكة . ففي أتون الحملة تفشى الطاعون بين جنده ، وأنقذ عدد كبير أنفسهم من الهلاك بالفرار بها في ذلك الاثيوبيون فأسرهم البدو. واضطر ملك حمير إلى التقهقر، وفي الطريق تعرضّت الوحدات المتفرقة أو التي انقطعت عن بقية الجيش لهجمات البدو. ولايقاف هجماتهم أخذ ابرهه الرهائن من القبائل التي اخترق أراضيها في طريق العودة إلى حمير [78, p.84]. وكان ابرهه نفسه في عداد الأحياء ، بل ظل حاكماً ببلاد العرب الجنوبية لبضعة أعوام بعد ذلك ؛ غير أن القسم الأكبر من جيشه لم يرجع من تلك الحملة . ويروى الأزرقي أنه بعد «حملة الفيل» بالذات ظهرت بمكة مستوطنات «الأحباش» (حَبشَة ، حُبش ، أحابيش) . وكانوا يكوّنون قسماً من الجماعة المدنية التي لم تتمتع بالحقوق السياسية ، وإن لعبت دوراً ذا أهمية كبرى في الأوضاع الاقتصادية والعسكرية و الثقافية . وبإزائها وجدت الطبقة ذات الحقوق من القرشيين التي كانت قليلة العدد (الارستقراطية) ؛ أما المجموعات المستغَلّة والتي لم تتمتع بكامل حقوقها فقد كانت تتكون من «الأحلاف» وغير الأحرار (العبيد ، أو الرقيق) وأيضاً الفقراء من قريش . وقد عمل غير الأحرار خدماً بالمنازل أو تجاراً صغاراً أو عمّالاً بالمياومة يؤدّون خراجاً لأسيادهم ، أو يعملون كرعاة . أما الأحلاف فهم موالي قريش .

وكانت غالبية العبيد وقسم كبير من الأحلاف يتكوّن من «السودان» أي الأفارقة ، وقبل كل شيء أولئك الذين اعتنقوا النصرانية أو ضرباً من الوحدانية المبهمة . ومن بين هؤلاء كان أصحاب الحرف الذين حذقوا الصناعات ، وأيضاً أهل الموسيقى والغناء والرقص . ولقد وجد الموسيقيون السود على الدوام بمنازل الأغنياء من قريش ؛ وكانت مداخل تلك المنازل يحرسها رجال من «الأحباش» [282, p.432, 442, 444, 457, 464, 467, 473] . أما العربي فمهما كان معدماً فإنه لم يقبل إطلاقاً القيام بهذا الضرب من الخدمة . لذا أنشد الشاعر البدوي الصعلوك أبو الطمحان عند التجائه إلى مكة (حيث كان حليفاً للزبير بن عبد المطلب عم النبي) [282, p.442] :

ولــو كنت في ريهان يحرس بابـه أراجيلُ أُحبــوش وأغضفُ آلفُ
إِذاً لأتـتـنـى حيث كنـت منيتى يخبّ بها هادٍ بأمــرى قائــفُ

والحرس من الأحابيش الذين يقومون بحراسة الأشراف من قريش كانوا إما عبيداً اشتروهم أو معتقين أو مرتزقة أقاموا بمكة في وضع أحلاف. ولم يقتصر ذلـك على الأفـراد، بل إن الادارة المـدنية بمكـة [المـلأ] كانت لها وحـدات من«الأحابيش» أوكلت إليها في وقت السلم أعمال الشرطة. وكان «الأحابيش» يقومون بحماية الكعبة وحفظ النظام بالمدينة ويصحبون القوافل المكية الكبيرة التي يصل عددها إلى الفي بعير، الموجّهة صيفاً إلى فلسطين وشتاء إلى اليمن. وفي وقت الحـرب كانت مكة تقوم بتعبئة جميع من بأرضها من «الأحابيش»، الأحرار منهم وغير الأحرار. ومن الجلي أن حرّاس منازل الأعيان من القرشيين كانوا أفراداً في وحدات الأحابيش هذه. وبخلاف هذا استخدم المجتمع الملكي في هذه الـوحـدات جميع «السودان أحلاف مكة» [10, p.1620] ، وفي بعض الحالات صيادي السمك بساحل البحر والبدو من قبائل تهامة الذين يميل لونهم إلى السـواد. ومن المعلوم أن صعـاليك العرب من قبيلة بني غفار شاركوا في الوحدات «الحبشية» لمكة [282, p.430 ff.] . وفي وقت الحرب حمل قادة المرتزقة الأفـارقـة لقب «سيد الأحابيش» و «الرؤساء» و «العرفاء» (قادة العشرات). هؤلاء الضباط، وعلى ما يبدو معاونوهم أيضاً، كانوا يختارون على الدوام من بين المرموقين من «الأحلاف» الذين من أصل عربي. وكان «سيد الأحابيش» في العادة أحد زعماء قبيلة كنانه، وكان على نقيض المقاتلين من السود المشاة يمتطي جواداً في القتال. ويلوح أن الضباط العرب الآخرين لجيش «الأحابيش» كانوا يقاتلون كالفرسان في زرد الحديد [282, p.464–465, 468] .

ومن الممكن أنـه كان «للأحابيش» النازلين مكة ضرب من التنظيم في وقت السلم، أشبه ما يكون بجالية نصرانية مثلاً. ووفقاً لقول اليعقوبي فإن حلف « الأحـابيش » هذا كان يجتمـع بمكة في فناء الكعبة . وتزعم الرواية التـاريخية المحلية أن « الأحـابيش » بمكـة تحالفوا تحت جبل يقال له « جبل الأحـابيش » . وكـان بنـواحي مكـة أكثر من موضع يشمل لفظ «حُبشي» و

«حُبَيْش» [232, p.454-456] . والأرجح أن «أحابيش» مكة كان يصلهم مدد متجدد من جنوبي الجزيرة العربية ومن ما وراء البحار، وبهذا حفظوا ضرباً من الاتصال مع بني جلدتهم باليمن وباثيوبيا. ومن المحتمل أن حكام اكسوم كانت لديهم وسائل للحفاظ بنفوذهم عليهم عن طريق عملائهم ومبعوثيهم. وهكذا فإن مكة دخلت في اتصال مع اكسوم على مستويين: فالجماعة الحاكمة من التجار المرابين كانت تتاجر مع دولة النجاشي؛ هذا على حين ارتبط قسم من الطبقات الدنيا من السكان باثيوبيا من حيث الأصل والدين وكانت تتلقى منها أمداداً من الرجال من وقت لآخر.

ولم تقتصر وحدات المقاتلين الاثيوبيين على مكة وحدها قبل الاسلام، بل وجدت أيضاً لدى زعماء قبيلتي كنانة وخزاعة ولدى عدد كبير من امراء/ الحجاز مثل سادة هذيل [232, p.432, note 3] . وبطبيعة الحال فلم يكونوا في جوهرهم من الأحرار(٥٦).

وبدأت تحاك الأساطير حول شخص ابرهه الفذّ عقب موته بقليل، وغذيت هذه الأساطير من تقاليد أدبية تاريخية ثلاثة: عربية و بيزنطية واثيوبية. فلا يوجد مصنف عربي يمس أحداث القرن السادس أو تاريخ حمير إلّا وله علم بابرهه ابي يكسوم. أما في الأدب البيزنطي، وبالذات في المدوّنات المرتبطة باسم الاسقف جريجنتي فان ابرهه يتخذ صورة ملك ورع متديّن. وفي «سيرة القديس جريجنتي» يرد لأول مرة القول بأن الا أصبحه هو الذي عيّن ابرهه ملكاً لحمير عقيب القضاء على ذي نواس [22, p.66] . وبهذا يبدو الملكان وكأنما ربطت بينهما أحسن العلاقات. بل إن الرواية الاثيوبية المتواترة ذهبت إلى أبعد من ذلك

(٥٦) من الطريف ملاحظة أنه بالقسطنطينية في النصف الثاني من القرن السادس وجدت مجموعة ذات نفوذ ومتماسكة من العبيد الاثيوبيين الذين حملوا هناك اسم «الهنود». وقد وجدوا بقصر الامبراطور يوسطنيان، ويلوح أنه جرى استعمالهم في صفة خدم وحرس. وكانت لهم صلات مع الصيارفة وتجار المجوهرات وشاركوا معهم عام ٥٦٣ في مؤامرة «المرابين» καπυθπονσαραις (argentarii) التي كانت تهدف اغتيال يوسطنيان [82, p.150-151] . أما عن « المرابين » البيزنطيين في ذلك العهد فراجع [119] .

فجعلت من ابرهه والا أصبحه أخوين شقيقين. من هذا يبدو محتملاً أن ابرهه حظي بوضع خاص نتيجة لتأثير العرب والبيزنطيين. ووفقاً «لقوائم الملوك» فإن أبرهة هو أكبر الأخوين ومات قبل الاأصبحه؛ وفي حياة ابرهه حكم إلا أصبحه إلى جانبه، ولكن بعد موت ابرهه حكم بمفرده. هذه المَلَكية المشتركة امتدت لسبع وعشرين سنة وثلاثة أشهر فيما يزعم. وبعد موت «أخيه» حكم إلا أصبحه اثني عشر عاماً أخرى[٥٧]. ووفقاً « للقوائم » فإن الملكين حملا معاً لقباً محترماً هو اجَوله عنبسه (أي أشبال الأسد) ؛ ولعل اشتقاق اللقب يمكن أن تلقى عليه الأضواء الأسطورة المتعلقة بصلة الرحم التي ربطت بينهما فيما يزعم. وكان ابرهه نفسه يتكنى بلقب رمحس زبيمن ، الذي يقابلنا في رقيم مارب (CIH 541, 5–6)[٥٨] وفي الرقيمين Ry 506 و Ja 544–547, اللذين تم نشرهما منذ عهد غير بعيد .

وخلف ابرهه على العرش ولداه يكسوم ومسروق، اللذان التزما بسياسة أبيهما بوجه عام. أما فترة «السيطرة الاثيوبية» التي استمرت أربعاً وسبعين سنة بالجنوب العربي في القرن السادس فقد كانت أطول فترة لما نالته اكسوم من نفوذ بالجزيرة العربية، ولكنها في ذات الوقت كانت آخر فترات ذلك النفوذ. وعلى الرغم من احتفاظ اكسوم بمكانتها في الدول المجاورة لبعض الوقت، إلا أن سيطرتها على الشمال الشرقي الافريقي وعلى الجنوب العربي ذهبت في زوايا الماضي. ومما يقف دليلاً على هذا أحداث بلاد النوبة في القرن السادس.

(٥٧) كما تبيّن مما مر فإن الرواية العربية المتواترة لا تعطى أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً لحكم أبرهة.

(٥٨) في هذا الرقيم تقع الألفاظ ر م ح ش/ ز ب ي م ن بعد الألفاظ ء ز ل ي/ م ل ك/ ل ع ز ي ن («دافع الإتاوة للملك إلا وزنه») ؛ لذا فقد ظُن في البداية أنها تتعلق بملك اكسوم. وفي Ry 506 يرد فقط اللفظ ز ب ي م ن؛ أما في Ja 546 فيرد اللفظ ر م ح ش وحده. ومعنى هذا اللقب غير واضح. ويبصر سدني اسمث في ر م ح ش تشويهاً لليونانية رومايوس Ρωμαιος (الرومي) [388, p.437, n.3] ، مما يمكن مقارنته مع قول بروقوبيوس إن سيد ابرهة الأول كان «رومياً». أما بصدد اللفظ ز ب ي م ن فقد بينّ إ. بيستون [114, p.390] أن تعاقب الحرفين ز و ب لا تعرفه اللغات السامية. غير أن أ. ي. دريفس يفك اللفظ إلى ز-ب-ي م ن، بحيث تصبح ي م ن وحدها هي الأساس. وهو يرى في ر محس زبيمن لقباً اثيوبياً سامياً ويترجمه «رمح اليد اليمنى» [217,p.108–111] ولتدعيم هذا التفسير للقب ابرهة يمكن أن نسوق عدداً بحاله من المعطيات الاثنوغرافية تتعلق بالرماح المقدسّة لدى ملوك اكسوم وكفا وزعماء الدينكا وغيرهم.

٩ ـ توحيد بلاد النوبة السفلى واعتناقها النصرانية تعميد بــــلاد علوه

في بداية القرن السادس تجدّدت غارات البلميين والنوبيين على مصر، بعد أن توقفت خمسين عاماً. غير أنه حوالي عام ٥٢٤ تمكّن الامبراطور يوسطنيان من قسر هؤلاء الأقوام على احترام معاهدة الصلح المعقودة مع بيزنطة. ويورد «استشهاد الحارث» مكتوب يوسطنيان إلى الا أصبحه الذي يقترح فيه الامبراطور/ ارسال قوات بيزنطية إلى اثيوبيا للمشاركة في القتال ضد الحميريين «عبر [أرض] القبط وبرنيقي و [بلاد] البلميين والنوباديين» [305, p.743] . في هذا المكتوب اختلط طريقان من مصر إلى شمال اثيوبيا، أحدهما يعبر صحراء العرب [الشرقية بمصر] فيبلغ ميناء برنيقي على البحر الأحمر ثم يأخذ طريق البحر، أما الثاني فكله عن طريق البر «عبر أرض النوباديين والبلميين». وأغلب الظن أن الأمر يتعلق إما بالطريق الثانية أو بإحدى الطريقين حسب الاختيار. وعلى أيه حال فقد افترض أن البلميين والنوبيين وافقوا على فكرة مرور القوات البيزنطية بأراضيهم، وعلى تزويدها بالماء والغذاء بل ربما بالجمال أيضاً. ويقدم لنا معلومات مماثلة لهذه بروقوبيوس القيسارى، الذي يذكر أيضاً طريق القوافل من مصر الذي يعبر أرض النوباديين [«النوباتيين»] والبلميين في ثلاثين يوماً.

ففي كلامه عن شعوب السودان الحالي يقول بروقوبيوس ما نصه: «من مدينة افقسوميس [اكسوم] إلى الحدود المصرية لأملاك الامبراطورية الرومانية، حيث توجد مدينة تدعى الفانتين رحلة ثلاثين يوماً للمسافرالخفيف. وفي هذه الأراضي الفاصلة يقطن عدد من الشعوب، من بينهم البلميون والنوباتيون. وهي شعوب كثيرة العدد. ولكن البلميين ينزلون بالقسم الأوسط من البلاد، على حين يمتلك النوباتيون الأراضي المحيطة بالنيل» [30, p.266 ff.] .

من هذا يمكن الافتراض أن البلميين لم يكونوا قد تملكوا بعد ضفاف النيل جنوبي الفانيتن؛ غير أنه من المرجّح أن المؤرخ البيزنطي إنما يقدم لنا لوحة مبسّطة لسكان المجموعتين العرقيتين الأساسيتين بالسودان الشمالي الشرقي. ومن الواضح في تصوّر بروقوبيوس أن السكان الأساسيين لمنطقة دوديكا سخوينه★ Dodekaschoine (النوبة السفلى على الضفة اليمنى للنيل) التي تتبع مملكة البلميين، كانوا في ذلك العهد من النوبيين المشتغلين بالزراعة والذين نزلوا بتلك المنطقة منذ الأزل.

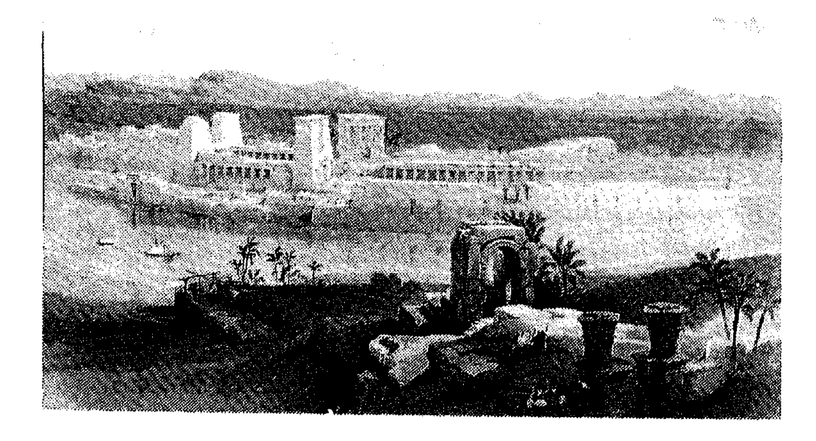
ويضيف بروقوبيوس أن البلميين والنوباديين وإن ظلوا يتلقون إعانة سنوية من السلطات البيزنطية «إلّا أنهم ظلوا يغيرون إلى اليوم على هذه المنطقة المجاورة لهم» من مصر العليا؛ «ذلك أنه كان من العسير قسر هؤلاء البرابرة على احترام كلمتهم التي قطعوها للرومان إلّا عن طريق إرهابهم بالجند الذين كان باستطاعتهم ايقافهم عند حدهم... وكلا شعبي البلميين والنوباديين كان يحترم جميع الآلهة التي يعتقد بها اليونان، كما كانوا يحترمون أيضاً ايزيس واوزوريس، ولا أقل من ذلك بريابوس. غير أن البلميين كانوا إلى جانب ذلك يقدمون القرابين البشرية للشمس. وكان لهؤلاء المتبربرين مَقْدس بجزيرة فيله [بيلاك] إلى أيامنا هذه، ولكن الامبراطور يوسطنيان قررّ هدمه. لذا هدمه القائد نرسيس وهو ارمني فارسي من حيث الميلاد وكان قائداً للقوات هناك، ووضع كهنته تحت الحراسة وأرسل بالتماثيل إلى بيزنطة» [30, p.266-269; 249, t.I, p.106].

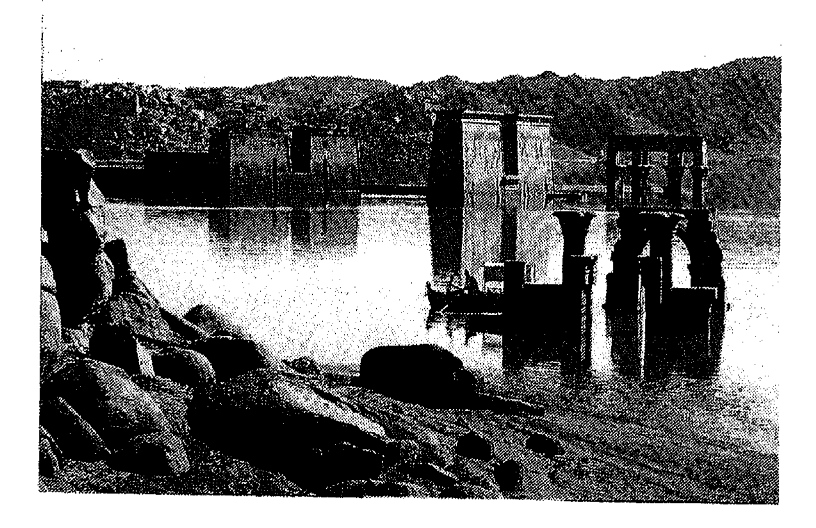
هذه الأحداث ترد مباشرة قبيل حكايته لحرب الاكسوميين مع بلاد العرب الجنوبية، ولأخبار السفارات البيزنطية التي وُجّهت إلى اثيوبيا وحمير قبل قليل من موت الشاهنشاه قباد عام ٥٣١. في تلك الأثناء كان القائد نرسيس [نرسى]

★ *دوديكا سخوينه Dodekaschoine هي المنطقة التي تقع جنوبي اسوان (سيينه) مباشرة على النيل وتمتد لمسافة اثني عشر اسخونيه (أي ميلا)؛ وكانت تحفل بمعابد آلهة مصر القديمة مثل خنوم وايزيس إلخ، وبها عدد من الجزر من بينها جزيرتا الفانتين وفيله (المترجم).*

الذي ينتمي إلى أسرة أرمنية عريقة ذات قدر، قد انتقل مع / أخيه اراتوس وأمه من جانب الساسانيين إلى جانب بيزنطة في عام ٥٣٠. واستقبل هؤلاء الهاربين

(اللوحة من رسم ديڤيد روبرتس من منتصف القرن التاسع عشر)





(بعد رفع الخزان)

جزيرة فيله ومعبدها

نرسيس صاحب الخزانة الامبراطورية الذي تمتع آنذاك بنفوذ كبير، وهو خصي يرجع في أصله أيضاً إلى ارمينيا الشرقية. وفيما بعد نلتقي بالقائد نرسيس في ايطاليا، ثم أصيب عام ٥٤٣ بجرح مميت على يد الفرس في الواقعة التي جرت قرب انـجلون [30, t.I, p.200, t.II, p.186; 249, t.I, p.79, 264–266] . ومن المحتمل أنه في عام ٥٣٠ وهو عام انحيازه إلى جانب البيزنطيين تم تعيينه قائداً للقـوات بمصر العليا، وأنـه حوالى عام ٥٤٠ نفّذ أمر الامبراطور بوضع حدّ للخدمات الدينية الوثنية بجزيرة فيله.

ولا ينبس بروقوبيوس ببنت شفه بصدد انتشار النصرانية بين شطر من سكان النوبة. ومن العسير تفسير هذا بعدم معرفته الكافية بالوضع. والأرجح أن المؤرخ البيزنطي إنما يرائى هنا. فهو بتصويره لجميع البلميين والنوبيين على أنهم من الوثنيين انما يريد بهذا أن يتملق الامبراطور. ذلك أنه إن كان شطر من النوبيين قد اعتنق النصرانية حقاً، فمن الطبيعي أن يُضعف هذا من مساندتهم للكهنة الوثنيين بفيله؛ وبهذا فإن التصرف الجرىء لنرسيس بأمر الامبراطور لن يبدو بذلك القدر من الجرأة. وعلاوة على ذلك فإن مسألة تعميد بلاد النوبة كانت إحدى المسائل المحرجة ببلاط يوسطنيان ومسّت الامبراطور في كبريائه.

ففي الأعـوام بالـذات التي سبقت مباشرة تدوين «الحروب الفارسية» جرت ببلاد النوبة السفلى أحداث سياسية مهمة يحكى لنا عنها الرقيم باليونانية للملك النوبي سِلْكو Silko الذي عثر عليه بكلابشه. فهذا الرقيم يتحدث عن انتصارات سلكو على البلميين والنوبيين الجنوبيين وغيرهم من الأقوام ، أغلب الظن قبائل بلاد النوبة الوسطى. ويعاوننا الرقيم على متابعة ارتفاع شأن سلكو في مسيرة الفتح هذه، على حين كان قبل ذلك أميراً لا أهمية له ـ أغلب الظن حاكماً على فَرَس.

وقد برز سلكو قبل كل شيء كمحرر لمنطقة دوديكا سخوينه الشمالية من سيطرة البجـا التي امتـدت لمائتي عام بالتقـريب. وتحكي لنا الأسطر ٢ـ٩ و ١٦ـ١٧ من الرقيم [236, p.204–205; 153, p.114–115; 68, p.471–472] :

«وجئت إلى طلمي وتافه مرة ومرتين تقاتلت مع البلميين ومنحنى الرب النصر. وفي المرة الثالثة نلت عليهم نصراً حاسماً ففتحت مدنهم واحتللتها بقواتي. وأخضعتهم فأدّوا لي مظاهر الاحترام وعقدت الصلح معهم وأقسموا بصور آلهتهم (أي «أوثانهم») فقبلت ذلك منهم على أنهم أناس شرفاء. . . وقد تقاتلت مع البلميين من بريم إلى تثل». وبمعنى آخر فقد قام سلكو بثلاث حملات ضد البلميين، فتقاتل معهم على طول منطقة دوديكا سخوينه الشرقية - من طلمي في الجنوب إلى بريم (ابريم) والشلال الأول في الشمال، وأخضع لنفسه جميع المنطقة إلى الفانتين. ويلوح أن نقطة البداية لتلك الحملات العسكرية كانت فَرسَ.

ويحكي الرقيم بعد هذا كيف تغيّر وضع سلكو بين حكام النوبة الآخرين (الأسطر ٩-١٥): «. . . آنذاك عدت إلى القسم الأعلى من بلادي. ولمّا/ أصبحت مكّاً Βασιλισκος، لم أسر خلف المكوك الآخرين بل جاء وضعى قبلهم. أما من ناوأنى فقد قررت ألا أتركه يعيش ببلاده ما لم يعترف بمكانتي ويطلب العفو مني».

وهكذا بعد انتصاره على البجا وضمّه الضفة اليمنى للنوبة السفلى إلى أملاكه، فقد أضحى سلكو أقوى الحكام المحليين والزعيم الأول وخضع له بقية الزعماء. وكان موضع إقامته (فرس أو كلابشه؟) «بالقسم الأسفل» من أملاكه، التي امتدت في الغالب جنوباً إلى الشلال الثالث حيث كان يبدأ محيط نفوذ اكسوم.

وبهذا تشكّلت دولة ذات أهمية من حيث رقعتها وعدد سكانها، شملت جميع النوبة السفلى على كلا ضفتي النيل وامتدت من الشلال الأول في الشمال إلى ناحية ساى والشلال الثالث في الجنوب. وقد حفظت الاسم القديم نوباته

الذي نلتقي به في المتون اليونانية والسريانية. أما القبط والعرب فيدعون هذه المنطقة «مريس» [أو مريسه]★، أي مروه.

ويلي هذا حكاية سلكو عن حملته (أو حملاته) مصعّداً فوق النيل (الأسطر ١٧-١٨): «ثم خربت بلاد النوباديين الأخر الذين يقطنون أعلى [النيل] لأنهم تنازعوا معي». ويلوح أن الأمر يتعلق بحملاته ضد أهل المُقرّة، الجيران الجنوبيين للنوبة السفلى (أومريس) وفي الخاتمة يتحدث سلكو عن المصير الذي حاق بأعدائه (الأسطر ١٩ - ٢٢). أما الزعماء الآخرون الذين نازعوني السلطة فقد حلت بينهم وبين الجلوس في الظل بل [تركتهم] تحت الشمس وألّا يشربوا الماء بمنازلهم. أما من قاوموني فقد سبيت نساءهم وأطفالهم». والعبارة المصوّرة «حلت بينهم وبين الجلوس في الظل بل [تركتهم] تحت الشمس وألّا يشربوا الماء بمنازلهم»، إنما تعني كما هو واضح أنه أجبرهم على البقاء بالصحراء بعيدين عن منازلهم.

وإذا ما تذكّرنا الاجراءات التي اتخذها سلكو ضد حكّام البجا، فإنه من الممكن تلخيص الطريقة التي وحّد بها النوبة السفلى تحت سلطانه في الآتي: الغارات العسكرية؛ تخريب أرض العدو؛ طرد من لم يرغب في الخضوع؛ سبي نساء زعماء العدو وأطفالهم؛ تبييت الجند قسراً بمنازلهم.

(★) «مريس» و«مريسه» هو الأسم الذي أطلقه العرب على المنطقة حول النيل جنوبي إسوان. ويقول المسعودي إن «الريح التي تسمى ببلاد مصر المريسية فمضافة إلى بلاد مريس من أوائل أرض النوبة في أعالي النيل» (التنبيه والاشراف، ص ١٨ من الطبعة الاوروبية). أما ياقوت فيقول تحت لفظ «المريسة» إنها «جزيرة في بلاد النوبة يجلب منها الرقيق»، ويقول في موضع آخر «قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد إليها تنسب الحمر المريسية وهي من أجود الحمير وأمشاها».

وينسب إلى مريس فقيه من الحنفية يدعى بشر بن غياث المريسي، بل وطائفة تدعى المريسية. وفي بعض المصادر أن المريس خبز من الرقاق يُمرس بالسمن والتمر وأن أهل مصر يمرسونه بالعسل. ولا يزال لأهل السودان إلى اليوم أدام يعرف باسم «مُلاح المِرس».

ولم يبق من الأسم الآن سوى لفظ «مريسة» الذي يطلقه أهل السودان على مشروب مخمّر يصنعونه من الذرة البيضاء (السورغم)، وهو المعروف في مصر «البوظة» (الفقاع). (المترجم).

وكـما يتضح من متن الرقيم فقد اعترف البجا وجميع حكام بلاد النوبة السفلى في نهاية الأمر بسلطان سلكو الذي أعلن نفسه ملكاً للنوباديين وجميع الاثيوبيين (الأسطر ١-٢). وهو يصرّح بزهو وكبرياء (السطر ١٥) «ففي البلاد السفلى أنا الأسد، وفي البلاد العليا أنا الدب αρξ[٥٩]» . وفي اتفاق تام مع هذه الألفاظ التي تفيض بالفخر والخيلاء، أمر سلكو بنحت صورته في اسفل الرقيم حيث نبصر ملك نوباته مرتدياً عباءة وسترة قصيرة مشابهة لأباطرة الرومان وعلى رأسه تاج مزيّن بقرون الإلـه خنوم وريش الإلهة معات والأوريات Uraeus (الأفاعي) الملكية / كفراعنة مصر ونبته ومروة. هذا الضرب من التيجان الذي حمله في العادة حكام النوبة السفلى في الفترة من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر تشهد به المصادر الايقونوغرافية (المصوّرة) لذلك العهد.

وعلى وجه العموم فإن صورة سلكو لها مغزى رمزي عميق. فزيّ الأباطرة يرمز إلى دعوى ملك النوبة أنه إنما يقف على قدم المساواة مع جاره الشمالي حاكم بيزنطة، حتى وإن كان لقب المك* (باسيليسقوس Βασιλισκος) يشير إلى منزلة دون منزلة الامبراطور البيزنطي أو «الملك» (باسيليوس Βασιλευς). أما التاج فيرمز إلى وحدة النوبة السفلى بينما يرمز وضع رقيم النصر جنباً إلى جنب مع رقوم ملوك البلميين وكهنتهم إلى ارتبـاط الملكية الجديدة بالقوة السياسية الثالثة في المنـطقـة؛ لأنه كما يقول المثل السوداني «البُرمة القاعدة على ثلاث حجارة لا تنكفي في النار».

---

(٥٩) لا يوجـد الـدب ببلاد النوبة؛ لذا جرت محاولات لقراءة اللفظ αρξ على أنه Oryx [بقر الوحش الافـريقي] أو αιξ (الجدي). غير أن جميع هذه القراءات غير موفّقة. وفي الكتاب المقدّس وفي رسائل القديس شنوتي كثيراً ما يرد ذكر الاسد والدب απξ جنباً الى جنب، كما هو الحال مع رقيم سلكو.

★ *لفظ «مك» يستعمل بشمال السودان تصغيراً للفظ «ملك». وقد رأينا أنه أصلح في هذا المقام لنقل لفظ باسيليسقوس وهو تصغير باسيليوس، أي الملك باليونانية. (المترجم)*



هيپارخ النوبة السفلى

أما فيما يتعلق باللقب المحلي الذي يعكس اليوناني باسيليسقوس، فليس بامكاننا سوى الالتجاء إلى الحدس. وكان حاكم النوبة السفلى في الفترة من القرن الثامن إلى القرن الثالث يحمل لقب «هيبارخ»، ودعاه العرب «صاحب الجبل»؛ أما في نهاية العهد المروي فكان والى هذا القسم من بلاد النوبة، وهو في العادة أمير من البيت المالك أو حتى وارث للعرش يدعى باللفظ «بيشاته» أو «بشته». وعلى ما يبدو فقد كان هذا أيضاً لقب ملك فَرسَ في القرنين الرابع والخامس. وإلـى جانب هذا فإن لقباً آخر من ألقاب بلاد النوبة في العصور الوسيطة المبكّرة من الممكن اعتباره مساوياً للقب اليوناني باسيليسقوس، وهو «اورو» (ουρου) الذي تسمى به في بداية القرن الثامن ملك المقرّة. واللقب «اورو» مشتق كما هو واضح من المصرية القديمة ور بمعنى «أمير بلاد أجنبية» أو «كبير». فمثلاً لم يحدث أن دعي بذلك فراعنة مصر أو نباته أو ملوك مروه، ولـكن من وقت لآخـر دعي به الملوك الأجـانب ـ من الحيثيين والميتـانيين والاشوريين. أما ببلاد النوبه فقد حمل لقب ور الزعماء المحليون، فأطلق لقب «ور اثيوبيا» على حاكم النوبة في المتن المصري القديم برقيم كورنيليوس جالاّ Cornelius Galla المدوّن بلغات ثلاث [312, p.5; 316, p.21] . ومن المحتمل أن اورو دنقله★ كان من بين أولئـك «الملوك الآخرين» الذين يتحدث عنهم سيلكـو في رقيمه. أما من الذي يعينه إلى جانب ذلك من بين أعدائه سيّئي الحظ، فلا علم لنا بهذا.

ونتيجـة لما حصل عليه البلميون من أرض بوادي النيل، كان يسكنها المشتغلون بالـزراعة من النوبيين وأشباه الرحّل من البجا، فقد تم ربط هذه الأراضي بأراضي النوبة الواقعة إلى الجنوب والغرب منها. غير أنه يجب ألاّ يظن من هذا أن وضع الفلاحين المحليين قد تعرّض لتغيير جوهري. ولعل النوبيين المحليين كان بمقدورهم توسيع الأرض المزروعة على حساب الحقول والمساقي

★ *من الطريف ان اسم اورو لا تزال تحمله أسرة دنقلاوية مرموقة بالسودان، بل إن أحد أحياء مدينة ام درمان يحمل اسم «ود [ولد] اورو». (المترجم)*

التي كانت للبجا المطرودين. ولعل أيضاً شطراً من زعماء البجا ظل مقيماً بمدن وادي النيل وقراه، وأن قسماً من أشباه الرحّل قد حرموا من حقولهم ومساقيهم فرجعوا إلى حياة البداوة الدائمة. أما فيما يتعلق بالقبائل الرحّل نفسها فإنها وإن كانت قد اعترفت بسلطان سلكو فإن ذلك لم يتم إلاّ لأنه كان في مصلحة زعماء البلميين الذين انتقلوا إلى أسلوب حياة الحضر وشبه الحضر بالمدن. وبعد أعوام من ذلك، كما يستبين من متن يوحنا الافسوسي والوثائق التي جمعها، كان ملك البلميين أيضاً في درجة من التبعية لملك النوباديين.

ولا يخلو من مغزى أن سلكو لم يكشف عن تقديسه إلاّ لرب النصرانية وحده («الرب منحني النصر»، - كما يصرّح هو نفسه في الأسطر ٣-٤)؛ هذا بينما أقسم له البلميون يمين الولاء «بأوثانهم»، أي صور «أربابهم» (الأسطر ٨ - ٩). وتعكس لغة الرقيم أثر الكتاب المقدّس اليوناني. لذا فإن ذلك الرجل الذي نجح في توحيد بلاد النوبة السفلى كان من المعتقدين بالنصرانية، حتى وإن كانت العقيدة النصرانية والأدب النصراني لا ينعكسان بصورة قوية في رقيمه على وجه العموم.

والخطوة الختامية في تنصير النوبة تحكي لنا عنها المصادر السريانية، وقبل كل شيء «تاريخ» يوحنا الافسوسي[٦٠] [150, p.182–188] (القرن السادس) والمصادر التي تعتمد عليه. وهي لا تعرض لنا سوى الرواية اليعقوبية الرسمية التي تتصف بالتحيّز التام وتغلب الأسطورة على جانب منها، وإن استندت على الرغم من ذلك على معلومات من مصادر متنوّعة وموثوق بها للغاية. ولكن ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن يوحنا الافسوسي والمؤلفين السريان الآخرين لا يروون جميع الوقائع المتعلقة بالمسألة، وأنهم يلقون عليها الضوء من جانب واحد. وتعميد النوبة وفقاً للمؤلفين السريان حدث في حكم الامبراطور يوسطنيان

---

(٦٠) [توجد ترجمات بعدد من اللغات «لتاريخ» يوحنا الافسوسي - المترجم].

(٥٢٧ ـ ٥٦٥)، والامبراطورة تيودورا على قيد الحياة (ماتت عام ٥٤٨)؛ أي قبل هذا التاريخ الأخير وبعد إبعاد البطريرك المونوفيزي ثيودوسيوس من الاسكندرية (عام ٥٣٧)(٦١).

ففي الثلث الثاني من القرن السادس حصل الانشقاق داخل النصرانية بين المونوفيزيين والملكانيين (الارثوذكس والكاثوليك معاً). وكما حدث في الماضي بعد انشقاق الاريوسيين والنساطرة فقد جهدت كل من الطائفتين في تدعيم وضعها لا في الابرشيات الرومية والبيزنطية وحدها، بل خارج حدود الامبراطورية كذلك. وقد أخذ جانب الارثوذكس الامبراطور يوسطنيان، بينما وقف إلى جانب المونوفيزية الامبراطورة تيودورا والبطريرك ثيودوسيوس الذي هرب في ديسمبر ٥٣٦ من الاسكندرية إلى القسطنطينية. ووجد كلا الاتجاهين في مصر وبمملكة اكسوم، ولكن المونوفيزيين كانوا أكثر عدداً.

ويحكي يوحنا الافسوسي أن الامبراطور والأمبراطورة تنافسا في اجتذاب النوبيين كل إلى عقيدته، ولكن الامبراطورة لجأت إلى الحيلة لتنتصر على الامبراطور. فوجّهت إلى منطقة طيبة بأحد أعضاء سينود (مجمع) البطريرك ثيودوسيوس، وهو قس يدعى يوليان. وفي البداية أحاطت الامبراطورة يوسطنيان علماً بذلك. وكان يوليان قد وُسم قساً على يد البطريرك طيمثاوس الثالث (٥١٨ ـ ٥٣٥). ولم يرق للامبراطور مشروع زوجه الذي سيؤدي إلى تدعيم المونوفيزيين بحدود مصر، فرأى أن يكتب إلى الأسقف الارثوذكسي لمنطقة طيبه عن ضرورة نشر النصرانية ببلاد النوبه وبالذات في إهابها الارثوذكسي. وسارع يوسطنيان بإصدار أمره بتوجيه سفير إلى ملك النوبة بهدايا قيّمه بعضها مزوّق بالذهب، وبملابس التعميد. وحمل السفراء إلى دوكس (حاكم) مقاطعة طيبة مكتوب الامبراطور/ الذي يأمره فيه بتقديم العون اللازم. وكانت مهمة

---

(٦١) دلّل أ. روزوف بدرجة كبيرة من الوجاهة أن ثيودوسيوس أُرسل حوالي منتصف عام ٥٣٧ [101, p.508-517].

السفـارة العمل كبعثة دينية . «فلما علمت الامبراطورة [تيودورا] بذلك دفعها مكْرُها أن تسارع بتدوين مكتوب إلى دوكس مقاطعة طيبه، وأرسلت إلى هناك ماجستريان (أحـد عمال الـدولـة)» [295–97, p.294] ؛ وفي كتابها طلبت الامـبراطـورة من الدوكس احتجاز سفراء الامبراطور وأن يتعاون مع يوليان . ولخوف الدوكس على حياته فقد قام بتنفيذ ما طلبته منه الامبراطورة . «ولما بلغ يوليان السعيد ورفـاقه(٦٢) البلاد [نوباته]، أرسلوا إلى الملك وأعيانه يخبرونهم [بوصولهم]، فأرسل عسكراً للقائهم استقبلوهم بالابتهاج وأخذوهم إلى بلادهم وملكهم الـذي استقبلهم خير استقبـال . عنـد ذلـك سلّمـه [يوليان] رسالة الامبراطورة ووضّح له محتوياتها؛ كذلك أحضروا معهم الهدايا القيّمة وملابس التعميد العديدة التي كانت عملت خصيصاً من أجلهم» . وقد دعا يوليان ورفاقه إلى تعـاليم مذهبهم وأهـابـوا بالنـوبيين ليرفضوا الارثوذكسية . فاعتنق أعيان النوبيين وعلى رأسهم ملكهم النصرانيه المونوفيزية . فلما وصل سفراء امبراطور الروم عقب ذلك «ردّ عليهم ملك النوبادوس [نوباته] هو وأعيانه . . . : سنقبل هدايا ملك الروم، وسنرسل بهدايانا إليه، ولكننا لن نعتنق مذهبه . . . ونحن لم نهجـر الـوثنية والضـلال لكي نتردى من جديد في معتقدات فاسدة، بل لن نقبلها» . ثم خلّوا سبيل السفراء الذين دوّنوا كل هذا» [296–97, p.295] .

وعـلى الرغم من الطابع الاسطوري والتحامل الواضح في قصة يوحنا الافسـوسي إلاّ أنـه يتبيّن منها أن بلاد النوبة استقبلت حوالي منتصف القرن السادس سفارتين من بيزنطة، إحداهما مونوفيزية أرسلت بها تيودورا والأخرى ارثوذكسية أرسل بها يوسطنيان . فمتى حدث هذا على وجه الدقة؟ يقول يوحنا إن يوليان وصل إلى بلاد النوبة في العام السادس عشر من حكم يوسطنيان وظل هناك عامين عاد بعدهما إلى القسطنطينية وأبلغ الامبراطورة بنجاح بعثته؛ وكان يوحنا نفسه آنذاك بالعاصمة وحضر ذلك [97, p.296; 102, p.4,8] .(٦٣) والعام

(٦٢) وفقاً للتاريخ السرياني لابن العبري فقد صحب يوليان رفيقان[124, p.220 ff.; 153, p.116] .

(٦٣) يضيف يوحنا الافسوسى أن يوليان عند بلوغه القسطنطينية « استقبل بحفاوة عظمى في وجودنا بواسطة الامبراطورة، وحكى الكثير من الغرائب عن ذلك الشعب الكبير. ونظراً لكثرة عددها فقد اكتفينا بسرد بعضها فقط » [97, p.296] .

السادس عشر من حكم يوسطنيان يوافق عام ٥٤٣/٥٤٢ للميلاد. لذا فإن عودة يوليان يجب تأريخها بمنتصف عام ٥٤٦ أو نهايته؛ ووصوله إلى بلاد النوبة بعام ٥٤٣.

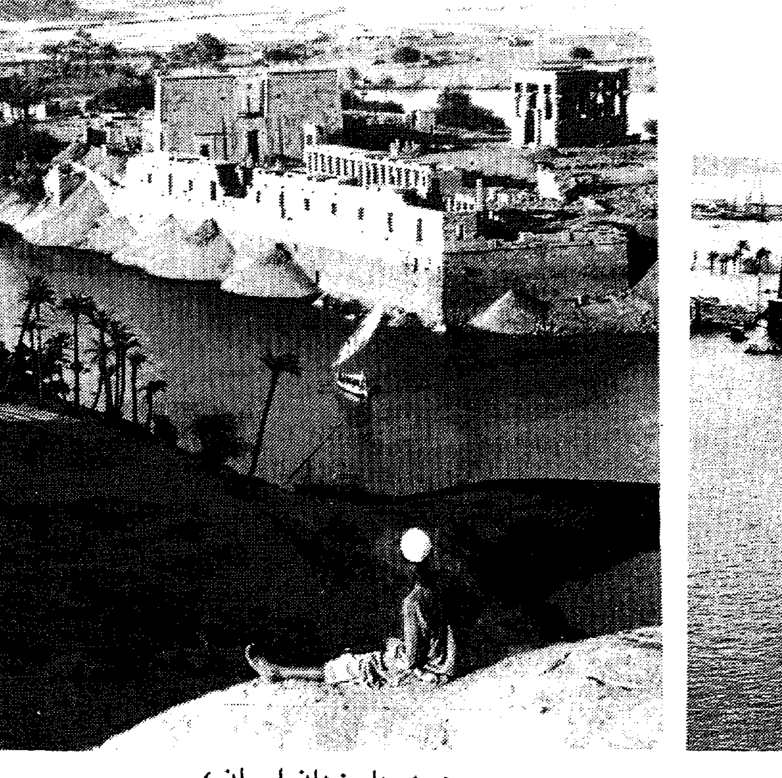
في ذلك الوقت جرت تصفية معبد ايزيس بجزيرة فيله كما بيّنا فيما مر؛ ولم يستطع البلميون الذين هزمهم سلكو أو النوباديون الذين اعتنقوا النصرانية ابداء مقاومة ما للبيزنطيين. وهذا الفعل كان في جزء منه تحقيقاً للسياسة الدينية البيزنطية التي جهدت في تثبيت جذور النصرانية بالمناطق المتاخمة لحدودها؛ ونتيجة لهذا برزت إلى الوجود أسقفية فيله. فلماذا قامت الحكومة البيزنطية في تلك اللحظة بالذات بمثل هذا العمل الذي كان له دون شك مغزى عالمي؟ أغلب الظن أنها لم تخش تصرفاً حاسماً من طرف البجا والنوبيين. وعلينا أن نتذكر هنا تلك الأسطر من رقيم سلكو التي تحكي/ عن حملاته ضد البلميين الذين لم يخضعوا إلا بعد الغزوة الثالثة للنوبيين؛ وأيضاً أن الامبراطورة تيودورا والامبراطور يوسطنيان كان لهما ما جعلهما يعتقدان أن ملك النوبة كان متهيئاً لاعتناق النصرانية.

ومن الممكن الافتراض بأن سلكو لم يكن قد أخضع بعد البلميين في ذلك الأوان، ولكنه هو أو سلفه كان في حالة حرب معهم، لذا فإن البيزنطيين لم يخشوا عملاً مشتركاً لكلتا الدولتين ضد جزيرة فيله. وفي ذات الوقت فإن إقفال المعابد الوثنية مهدّ السبيل لتنصير النوبة. وأخيراً فإن رد الفعل المختلف من جانب ملكي النوبة والبلميين على ما قام به نرسيس قد ساق إلى تعميق التناقض بينهما كما كان متوقعاً.

ولا يخلو من مغزى أن يوليان ورفاقه وصلوا إلى «بلاد النوبادوس» لا على مراكب نيلية من الفانتين بل بطريق البر مخترقين الصحراء؛ أي على ظهور دواب القوافل. وكان مبدأ رحلتهم مدينه بطولمياد مقر دوكس (حاكم) مقاطعة طيبة. وقد أرسلوا أمامهم بسعاة يخطرون ملك النوبة بمقدمهم. فقابلهم الملك بدوره بجيش على حدود مملكته. ومن المؤكد أن المبعوثين البيزنطيين كانوا يخشون السفر

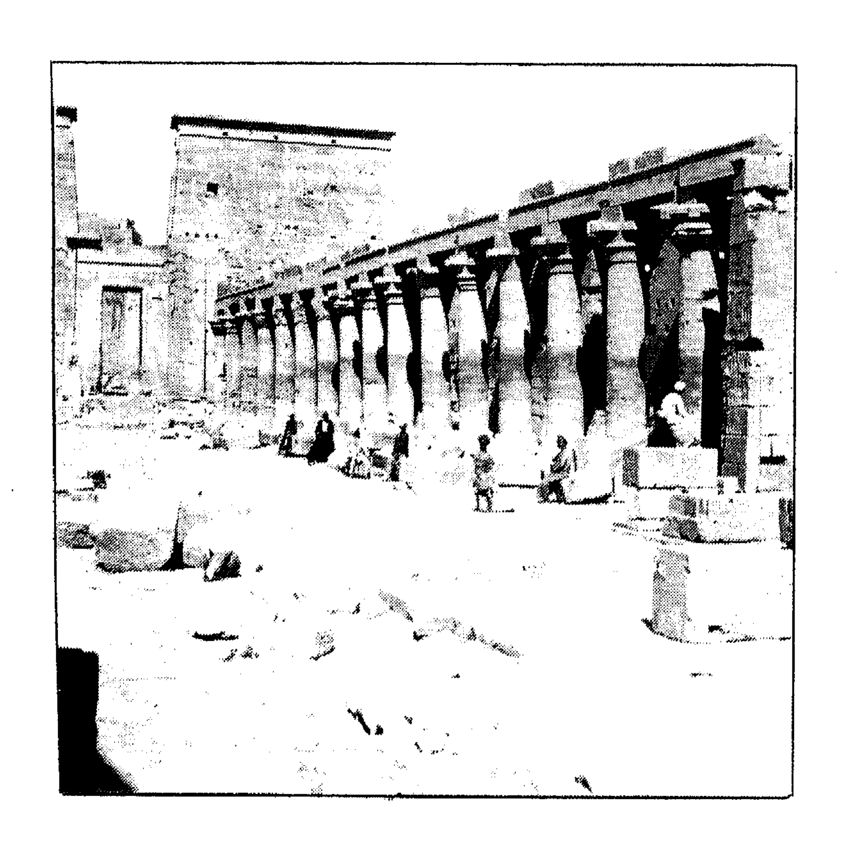


(قبل بناء خزان اسوان)



(بعد بناء خزان اسوان)

جزيرة فيله (قصر أنس الوجود)



معبد ايزيس بجزيرة فيله

إلى ممتلكـات سلكو على النيل أو شطوطه، لأن البلميين كانوا يسيطرون على المنطقة الواقعة بين فيله وحدود دولة النوبة الشمالية في ذلك العهد. ومن ثم فإن سلكو لم يكن قد اضطلع بعد، بغزوته الثالثة على الشمال أو أخضع البلميين بصورة نهائية.

وفيما بعـد سافر أسقف فيله تيودور مرات إلى النصارى النوبيين الذين جرى إدخالهم حديثاً في النصرانية؛ ومن ثم يجب القول بأن البلميين كان قد تم إخضاعهم آنذاك. من هذا يمكن الخروج باستقراء مفاده أن التوحيد النهائي للنوبه الشمالية تحت سلطان سلكو حدث في وقت الإقامة القصيرة ليوليان ببلاط ذلك الملك. وفي تلك الآونة بالذات اتخذ سلكو اللقب اليوناني «باسيليسقوس» [الملك] بدلاً من لقبه المحلي السابق. وهو بفعله هذا مضافاً إليه في ذات الوقت محاولاته لاستغلال التقاليد السياسية القديمه، أكّد أيضاً الطابع الجديد وغير التقليدي لسلطته الملكية وتميّزها عن سلطة الزعماء العاديين للنوبيين والبجا.

ويقول يوحنا الافسوسي إن يوليان عمّد الملك والمقربين منه وجنده أثناء العامين اللذين قضاهما ببلاد النوبة؛ وكان ذلك حوالي ٥٤٥ـ٥٤٧. ولم يكن بروقوبيوس خلال عمله في تدوين الجزء الأول من «الحروب الفارسية» قد بلغه بعد خبر تعميد النوبيين. بعد هذا غادر يوليان هذه البلاد وعاد إلى القسطنطينية مستخلفاً وراءه كمعلّم للرعية الجديدة أحد رفاقه وهو «أسقف من مقاطعة طيبة يدعى تيودور» [97, p.296; 102, p.4,6] .

وكما يبصر من القصة التاليـــة ليوحنا الافسوسي فـإن تيودور كان لا يـزال في الثلث الأول من القـــرن السادس يشغل منصب الأسقف لفيله، ومن ثم فإن الابرشية النصرانية بجزيرة فيلــه لا بد وقد أعيد تأسيسها في وقت واحــد مع إقفال معابــــد ايزيس واوزوريس حوالي عـــام . ولما زار المبشر البيزنطي لونجين خِلف يوليان فيله عام ٥٧٥م أو ٥٧٦/ (قادماً من مريوط) كان تيودور قد بلغ سناً متقدماً ، لأنه وسم اسقفاً قبل خمسين عاماً من ذاك على وجه التقريب [102, p.7] . وبعد رحيل يوليان إلى القسطنطينية لم يبق بعاصمة النوباديين أسقف ما في الـواقـع. أمـا تيودور فقد أقام على الدوام بجزيرة فيله باستثناء

زيارات خاطفة إلى بلاد النوبة ؛ وكان قد أصبح شيخاً فانياً وأضحت الرحلات البعيدة إلى الجنوب مرهقة للغاية بالنسبة له. وهكذا استمر الوضع ثمانية عشر عاماً [102, p.8] . ولم يتخذ(٦٤) البطاركة المونوفيزيون قراراً فيما يبدو بتعيين أسقف للنوبيين بعد موت تيودور، وبخاصة لأن النوبيين لم يظهروا كثيراً من الإخلاص ليوسطينان أو للسلطات البيزنطية بمصر.

وعلى الرغم من هذا فقد أثارت قصة يوليان حول تعميد النوبة السفلى الكثير من الاهتمام بالقسطنطينية وبولايات الامبراطورية. فالمونوفيزيون دون شك لم يكونوا قد تخلوا عن فكرة تدعيم ما نالوه من النجاح. ويفترض رقيوّ Revillot أن يوليان غادر بلاد النوبه بسبب موت حاميه سلكو. وليس في هذا إطلاقاً ما يستبعد، وإن كانت البراهين التي يسوقها رقيوّ لصالح هذا الفرض لا تثبت على محك النقد [101, p.502 ff.] . ولا يرد في قصة يوحنا الافسوسي شيء ما بصدد موت ملك النوبة الذي كان أول من اعتنق النصرانية. على أن هذا الملك ليس بالإمكان أن يكون سوى سلكو.

غير أنه في بداية عام ٥٥٩ أو حوالي ذلك الوقت لم يعد سلكو على عرش النوبة السفلى. فحاكم هذه البلاد أصبح الملك إيريانمه؛ أغلب الظن وريث سلكو. وعنه يحكي لنا رقيم دندور الذي يحمل تاريخ ٢٧ تيب من الاندقطيون السابع، أي الموافق الثالث والعشرين من يناير ٥٥٩. ويذكر هذا الرقيم تيودور أسقف فيله المعروف لنا، كما يذكر القس التابع له وهو يوحنا القبطي الذي رفع الصليب عند تكريس معبد دندور؛ ووالي طلمي المدعو يوسف؛ وكبار النوبيين ممن حملوا ألقاباً بيزنطية (مثل الهيبارخ والهيبوتران والفيلارخ) أو أسماء نصرانية

---

(٦٤) يدلّل أ. روزوف بطريقة مقنعة أن يوحنا الافسوسي اختزل بعض الشيء من هذه المدة، لذا يجب رفعها إلى عشرين عاماً [101, p.555–565] . وقد حفظ نقش يوناني بساحل جزيرة فيله تاريخه ١٤ ديسمبر ٥٧٧ ترد فيه الإشارة إلى الأسقف تيودور على أنه ما زال رأساً للكنيسة المحلية. وللمتن والترجمة والتعليق . انظر [101, p.343–346] كذلك يرد ذكر تيودور أيضاً في ثلاثة نقوش باليونانية عثر بها في كنيسة اسطفان تتحدث عن مشاركته في قلب هذا المعبد الوثني إلى كنيسة [101, p.343–346] .

(مثل بافنوطيوس وابيفانوس ومرقص). وكان من بينهم الملك إيريانمه هو الوحيد الذي لم يحمل اسماً نصرانياً؛ وعلى الرغم من ذلك كان نصرانياً وتم تحويل المعبد الوثني القديم إلى بيعة وفقاً لأوامره(٦٥). من هذا يتضح أن خلف سلكو شغل نفسه بتثبيت جذور النصرانية بدندور التي لم تُضم إلى املاكه إلّا منذ عشرة أعوام فحسب.

أما فيما يتصل بأسقف فيله تيودور فقد كان معتدلاً في مونوفيزيته حتى عده رقيّو ارثوذكسياً (ولا يوجد أساس كاف لهذا، لأن تيودور كان رفيقاً وخلفاً ليوليان؛ وفيما بعد عدّه لونجين من أهل عقيدته). ومن المحتمل أن تيودور لم يبحث مع النوبيين بصورة خاصة الاختلاف بين الارثوذكسية والمونوفيزية؛ الأمر الذي جاء تماماً في مصلحة الدولة البيزنطية.

أما الحكاية التالية ليوحنا الافسوسي فتتعلق بأحداث الأعوام ٥٧٠ـ٥٨١ بالتقريب. ففي يوم موته وسم البطريرك ثيودوسيوس أسقفاً جديداً للنوبة هو لونجين، الذي كان قد قدّم له ذات يوم خدمة جليلة. ولقد تم اختيار لونجين لأنه كان «شخصاً غيوراً وكان بمقدوره أن يدخلهم ويثبّتهم في النصرانية». غير أن الامبراطور يوسطنيان منع سفره إلى بلاد النوبة، خشية أن يعمل الأسقف الجديد على «إثارتهم (أي النوبيين) إلى الحرب وإلى الاستيلاء على الأراضي الرومية». ولم يفلح لونجين في الهرب من القسطنطينية و بلوغ بلاد النوبة إلّا بعد ثلاثة أعوام. «فجهد في تفقيههم جميعاً وتنويرهم وتدريبهم في أمور الدين. وبنى هناك بيعة ودرّب رجال الدين وعلّمهم الخدمة الدينية وجميع قواعد النصرانية... وقد أقنع لونجين ملك هذا الشعب بتوجيه سفير إلى ملك الروم بالهدايا. فاستقبل بالاحترام لدينا ولدى غيرنا، وأثنى على لونجين قائلاً: «وعلى الرغم من أننا كنا نحمل اسم النصارى [فاننا لم نعرف] ما هي النصرانية في الواقع حتى قدم علينا لونجين وعلّمنا إياها». ولقد قال الكثير والحسن بصدده، ولكن الامبراطور لم يكن راضياً فالتزم الصمت» [97, p.294, 296–297]. ومن

(٦٥) عن متن النقش وترجمة راجع [101, p.597–599,600]

الممكن الانضمام إلى رأي أ. روزوف A.Rozov بأن الجملة «نصارى بالاسم فقط» تشهد بأنه على زمن لونجين وحده وليس على زمن تيودور بدأت الدعوة المونوفيزية بمعنى الكلمة ببلاد النوبة [101, p.573–575] .

ولم يكن الامبراطور راضياً من أن العقيدة الغالبة على بلاد النوبة ليست هي الغالبة بامبراطوريته، وأن الرباط الديني بين النوبيين والبيزنطيين الذي كان يريده بذلك القدر كان ضعيفاً بعض الشيء. ولقد وضح عدم رضا الامبراطور بصورة جليّة عند استقباله للسفارة الصديقة، مما يقف شاهداً أيضاً على أن الحكومة الفتيّة لم تتمتع بمكانة رفيعة في القسطنطينية. على أية حال فقد كان لمملكة اكسوم أهمية عالمية أكبر من ذلك بكثير. لهذا لم يكن اعتباطاً أن دعا سلكو نفسه مجرد «ملك»، أي بنفس الطريقة التي دعا بها رقيم عيزنه باللغتين زعماء البجا الستة الخاضعين لاكسوم. أمّا حكّام اكسوم المعاصرين لسلكو فكانوا يُدعَوْن في المصادر البيزنطية «ملوكاً» (Βασιλευς) - أي كما دعا أباطرة بيزنطة أنفسهم. ومن الجلي أن الحاكم الأعلى للنوبة السفلى لم يحسّ بنفسه في درجة مساوية مع جيرانه الأقوياء - أي «ملك ملوك» اكسوم وامبراطور بيزنطة . ويحاول يوحنا الافسوسي تخفيف هذا الانطباع بإشارته إلى العدد الكبير لسكان النوبة . وعلى الرغم من هذا فقد جرى بين بيزنطة والنوبه السفلى، كما تشهد بذلك المصادر السريانية، تبادل كثيف في السفارات.

ونتيجة لنشاط جميع المبشّرين المعروفين لنا - أي يوليان وتيودور وافرام ولونجين والمبعوثين الارثوذكس ليوسطنيان الذين سبقوهم ممن ظلوا غير معروفين - فقد دعمّت النصرانية لنفسها بشدة في وسط الطبقة الحاكمة بمجتمع النوبة الشمالية. وفي منتصف القرن السادس كان جميع السكان بالتقريب قد اعتنقوا رسمياً العقيدة الجديدة على أغلب الظن. ويحكي يوحنا الافسوسي ، ورقيم دندور عن تأسيس أبرشية خاصة ببلاد النوبة وتنظيم رجال الدين وتكريس البيع الأولى في مواضع المعابد الوثنية القديمة.

واكتسبت بيعة القديس اسطفان بجزيرة فيله التي كانت داخل الحدود البيزنطية، وفيما بعد العربية أهمية خاصة. وكانت بمثابة موضع الحج التقليدي

لأهل النوبة، ولذا قدّر لها أن تقوم بنفس الدور الذي قامت به المعابد الوثنية السابقة من قبل: أي تقديس موضع اتصال مصر ببلاد النوبة، وأن تخدم في ذات الوقت أهداف النفوذ البيزنطي بوادي النيل الأوسط.

بعد هذا[٦٦] يورد يوحنا الافسوسي أخباراً مهمة للغاية وبصورة غير عادية، تتعلق بالوضع السياسي في السودان آنذاك، وتعميد علوه. ولكنه يحكي لنا قبل ذلك عن رحلة لونجين إلى مصر، فيقول إنه بعد أن أمضى الأسقف لونجين ستة أعوام بالتقريب في «نوبادوس» تسلم مكتوباً من القس الأكبر ثيودوسيوس وقريبه الارخديا قون [كبير الشمامسة] تيودور يدعوانه إلى مصر من أجل انتخاب البطريرك الجديد. فتوجّه لونجين إلى مريوط حيث عقد اجتماع الأساقفة المونوفيزيين[٦٧]. هذا الحادث يرجع إلى عام ٥٧٥-٥٧٦ [101, p.551]. وكانت الكنيسة المونوفيزية قد تعرّضت في تلك الآونة لنزاعات مذهبية جديدة بين اليعقوبيين أنصار يعقوب البرادعي المشهور والبولصيين أنصار بولص البطريرك المونوفيزي لانطاكية. وفي الانتخابات التي جرت بمريوط انتصر اليعقوبيون وتم انتخاب الارخدياقون تيودور بطريركاً للاسكندرية. وقد أدلى لونجين بصوته لتيودور، ولكن لكونه بولصياً فإنه لم يتمتع بعطف البطريرك الجديد. وشرع اليعقوبيون في اضطهاد البولصيين بعد انتصارهم عليهم، وخاف لونجين أيضاً عاقبة القمع. ونظراً لما لحق بمتن «تاريخ» يوحنا الافسوسي من تشويه شديد، فإنه لا يعاون في استكناه الظروف التي غادر فيها لونجين مصر عائداً إلى بلاد النوبة السفلى. بيد أنه قررّ لبعض الوقت مداومة نشاطه التبشيري حتى يتمكن من استعادة وضعه السابق بالاسكندرية في أغلب الظن. لذا فإن «. . . لونجين غادر قوم النوباديين الذين

(٦٦) الفصول التالية من «تاريخ» يوحنا الافسوسي (التاسع - الخامس والخمسون) مقتبسة من ترجمة أ. روزوف.

(٦٧) يصف لنا يوحنا بما عهد فيه من ميل الى تزويق الكلام كيف أن «الملك وجميع رجال دولته» من النوبة عملوا على ثني لونجين من السفر إلى مصر (بالطريقة المعهودة: «لمن ستتركنا يا أبانا؟»)؛ غير أنه لما أصرّ على الذهاب تركه حكام «النوبادوس» يذهب وهم يذرفون الدمع.

عاش بينهم وتوجه إلى شعب آخر كبير وراءهم يقطن على بعد فراسخ عديدة في الداخل، هم الذين دعاهم اليونان باسم العلوديين (أي أهل علوه) والذين يقال إنهم من الكوشيين. و شدّ الرب ساعده فتحدث [عن النصرانية] إلى مليكهم وجميع كبار رجال دولته وجميع القبائل الموجودة تحت سلطانه» [102, p.8] . ويعدّ هذا أول خبر عن علوه، أو بلاد النوبة العليا، يصلنا بعد رقوم عيزنه والمصادر الكلاسيكية القديمة.

ثم يقول يوحنا الافسوسي إنه حتى من قبل وصول لونجين إلى مصر كان ملك علوه قد وجّه بسفارة إلى ملك نوباته يرجوه إرسال أسقف إليه «ليفقّههم في الدين ويعمّدهم». ولأن لونجين كان قد توجّه للمشاركة في انتخاب البطريرك فقد وجّه ملك علوه بسفارة ثانية إلى نوباته. ويؤكّد يوحنا الافسوسي أن اليعقوبيين بالاسكندرية «وقد أسكرتهم نشوة الحسد والكراهية» أرسلوا مكتوباً إلى علوه/ جهدوا فيه أن يشوهوا سمعة لونجين في أعين أهل علوه، ولكنهم لم ينجحوا في هذا. وفي ذات الوقت عرض رجال الدين الاسكندريون على أهل علوة استقبال بعثة دينية تتكون من أسقفين وأشخاص آخرين، ولكن طلبهم قوبل بالرفض. وفي تلك الأثناء كان لونجين قد توجّه إلى علوه يصحبه بعض كبار رجال الدولة والأعيان من أهالي النوبة الشمالية، وأيضاً أناس على معرفة جيدة بالصحراء . وكان اجتياز الصحراء بين الشلال الثاني ونهر عطبره شيئاً مرهقاً فوق العادة «وكما يروي في مكتوبه فقد نفق في الصحراء من الحيوانات التي أخذها معه سبعة عشر بعيراً بسبب الحر»[٦٨]. وبالإضافة إلى هذا فإن ملك البلاد الواقعة بين هاتين المملكتين وتسمى مقرّه علم بأن لونجين كان في الطريق فزيّن له الشيطان بأن يضع حرساً على جميع حدود مملكته وبجميع الطرق والسهول إلى البحر الأحمر لإلقاء القبض على لونجين» [102, p.11] .

بعد هذا يقتطف يوحنا الافسوسي من ثلاث رسائل : « قسماً من مكتوب الاسقف لونجين » ، و « مكتوب ملك علوه إلى ملك النوباديين » ، وقطعة من

(٦٨) بعد هذا يورد يوحنا الافسوسي فقرة من خطاب لونجين يقول فيها إن مطاياهم سقطت من الإعياء «لأنها لم تستطع احتمال الحر والعطش بالجبال وفساد المياه» [102, p.14] .

«مكتوب ملك النوباديين إلى تيودور الاسكندري» [102, p.12-17] . وفي آخر هذه الرسائل، بخلاف القصة عن «النوايا السيئة للملك مقرّه»، توجد إيماءة قيّمة: إذ أرسل ملك نوباته بلونجين ورفاقه «إلى ملك البلميين ليوجّه به [إلى علوة] بطرق في داخل [الصحراء]». وبهذا فإن ملك البلميين يظهر في «تاريخ» يوحنا الافسوسي بوصفه تابعاً لحاكم نوباته، وذلك في اتفاق تام مع ما جاء برقيم سلكو. ولكن لا ينبغي المبالغة في إبراز هذه التبعية لأن البلميين في المناطق الصحراوية البعيدة عن بلاد النوبة لم يكونوا يحسبون لسلطان ملك النوباديين كبير حساب؛ ولم يكن من النادر على الرغم من معاهدة الصلح بين الملك والبيزنطيين، أن أغاروا على مدن صعيد مصر وقراه . ففي عام ٥٥٢ هدد البلميون بنهب امبوس [كوم امبو الحالية] ونواحيها: ويرد ذكر هذا في الالتماس الذي رُفع إلى دوكس مقاطعة طيبة المحفوظ بمتحف القاهرة [318, p.58-59]

وفي الوقت ذاته رفع شاعر من «أرض افروديت (الزُهَرَة)» (من الواضح أنه اسم لناحية بمصر لا تبعد كثيراً عن طيبة) واسمه ديوسقوريدس بن رايوللونيوس، قصيدة يمدح فيها اثناسيوس دوكس مقاطعة طيبة. في هذه القصيدة يمجّد الشاعر الدوكس محرّر المدينة ويقول إن طيبة لم يعد يهددها «قبائل البلميين والسرقونيين» [318, p.59]. ومن الممكن أن البلميين الشماليين عقدوا حلفاً مع القبائل العربية التي نفذت حوالي ذلك الوقت إلى صحراء مصر الشرقية قادمة من سيناء؛ وليس اعتباطاً أن حملت تلك الصحراء في ذلك العهد كما هو الحال الآن اسم الصحراء العربية(٦٩)★. وثمة قصيدة أخرى مرفوعة إلى دوكس

---

(٦٩) يرى مونيريه دي فيلار، معتمداً في هذا على أقوال ننوس، أن مدينة البلميين المسماة فينيقون احتلها في تلك الآونة السراقونيون [318, p.59, n.2]. غير أن ن. ڤ. بيغوليفسكيا بيّنت أن الأمر إنما يتعلق ها هنا بمنطقة آجـــام النخيل الواقعة بالأطراف الشمالية الغربيـــة للجزيرة العربية [97, p.118, 160, 176ff.]. (راجع عن منطقة فينيقون ترجمتي العربية لكتاب بيغوليفسكيا «العرب على حدود بيزنطة وايران»، الكويت، ١٩٨٥، ص ٢٠٧، ٢٠٩، ٣٨٧ - المترجم).

★ *يبدو أن صحراء مصر الشرقية حملت اسم العربية منذ عهود موغله في القدم؛ راجع مثلاً الكتاب الثاني من تارخ هيرودوت (المترجم).*

مقاطعة طيبة يوحنا الذي خلف اثناسيوس، تكشف عن الفزع الذي أدخله البلميون في قلوب سكان «أرض افروديت (الزُهَرَة)»؛ فقد اضطر الأهالي إلى افتداء أنفسهم من البدو بدفع إتاوة سنوية [318, p.59] . وثمة شاهد آخر على غارات البلميين على مصر في النصف الثاني من القرن السادس؛ ففي ١٥ نوفمبر ٥٧٠ عمل طبيب من / مدينة انطينوي بمصر العليا اسمه فلافيوس فيبامون Flavius Fibammon وصيته التي ترك بمقتضاها قدراً من المال يعدّ كبيراً بمقياس تلك الأزمنة، وذلك لافتداء من وقعوا في أسر البلميين [318, p.59] . ويبدو أن الاهتمام بالدفاع عن الفانتين بالذات من غارات البلميين هو الذي دفع الأسقف تيودور في عام ٥٧٧ إلى ترميم سور الحصن.

وكان أكثر من يُعتمد عليه في تلك الآونة كحليف لملك النوبة هو ملك علوه. وعلوه هذه أكثر ممالك النوبة بُعداً صوب الجنوب. وكانت تضم مصب نهر عطبره، حيث وجدت وفقاً للمصادر العربية للقرون من التاسع إلى الرابع عشر الحدود الشمالية لبلاد علوه والتي حملت اسماً معبّراً هو «الأبواب» [كبوشية حالياً]. وباجتياز الأبواب كان المسافرون العرب يلجون مملكة علوه(٧٠) التي كانت عاصمتها تقع عند موضع التقاء النيلين الأبيض والأزرق [سوبه حالياً]، أما حدودها الجنوبية فقد وجدت بنواحي سنّار وفقاً للمعطيات الأثرية؛ وبهذا تتفق مع الحدود الجنوبية لمملكة مروه القديمة. وبين الشلال الثالث ومصب العطبره كانت تقع الدولة الثالثة من دول النوبة وهي مقرّة التي يدعو المؤرخون العرب عاصمتها دنقلة العجوز(٧١).

ويدعو يوحنا الافسوسي في اقتباسه من مكتوب ملك علوه إلى ملك النوبيين الشماليين هذا الأخير باسم افرفؤلو [102, p.12] . ومن الممكن جداً

---

(٧٠) يرد ذكر «الأبواب» لدى اليعقوبي [70, p.42,45] والاسواني [راجع ص ٠٠٠ من هذا الكتاب - المترجم].

(٧١) يرى عالم الاثنوغرافيا الألماني ر. هرتسوغدش جشطعطص. أن أملاك سلكو امتدت جنوباً إلى دنقلة نفسها بل ولعله وحتى مروة (منطقة الشلال الرابع)، أي شاملة المقاطعة الرئيسية لبلاد المقرة [251, p.59] . هذا الرأي التعسفي يتناقض مع جميع المعطيات المعروفة.

على رأي ج. ماسبيرو J.Maspero أن الشكل افرفؤلو قد وجد طريقه إلى السريانية نتيجة لتشويه على يد الناسخ لاسم ايريانمه ليس إلّا [306, p.287, note 4]. على أنه من الممكن أيضاً أن يكون الأمر متعلقاً بشخصين مختلفين تماماً(٧٢). ومن العسير ومعرفتنا الآن على ما هي عليه، القطع بشيء محدّد في هذا الصدد. ويبدو أن وضع افرفؤلو كان مضطرباً للغاية، فليس اعتباطاً أن كتب إليه ملك علوه: «سأجلب إليك الهدوء والطمأنينة وأطرد أعداءك من أراضيك. . . فلا تبتئس وتشجّع وابتهج. . .» [102,p.13]. من هذا يبدو واضحاً أن نوباته كانت أحوج إلى الحلف مع علوه، مما كانت هذه لتلك. ولقد اتخذ الحلف صيغة معهودة في تلك الأزمنة الإقطاعية ـ هو القَسَم بالأخوة بين الملكين. ومما دعّم من ذلك اعتناق حكام علوه لدين النوبيين الشماليين(٧٣). أما مكتوب افرفؤلو إلى البطريرك تيودور فيعبّر بكثير من الوضوح وبكثير من المبالغة أيضاً عن المصاعب المتعلقة بالدخول في علاقات مستديمة مع علوه [102, p.16].

ولقد جهد ملك مقرّة ألا يسمح بحدوث حلف بين جيرانه ـ أي حكام نوباته وعلوه. ولعل المبادرة بعقد مثل هذا الحلف قد نبتت لدى حاكم علوه، الذي كان يتوق إلى قدوم المبشرين من نوباته وأيضاً السفارات التي حظيت بشهرة عريضة هناك. ومن جانبه فقد قدّر افرفؤلو من قيمة الحلف مع علوه، بحيث وجّه مع لونجين بقافلة كبيرة تتألف من عشرات الجمال وحيوانات أخرى في صحبة أعيان النوبيين وزوّدها بمرشدين خاصين. وتسترعي الانتباه الإشارة

(٧٢) فسّر ج. بروغش [G.Brugsch] اسم افرفؤلو على أنه من لهجة المحس (أي لهجة القسم الجنوبي من بلاد نوباته)، لا من اللهجة الدنقلاوية التي تستند عليها اللغة الأدبية للنوبة [152a, p.30-32] كذلك ظهر رأي يقول بأن اسم افرفؤلو إنما هو تشويه للاسم اليوناني اوريبيلوس Ευρπυλος؛ غير أنه لا يوحنا الافسوسي الذي كانت معرفته باليونانية ليست أقل من معرفته بلغته القومية السريانية، ولا لونجين الذي كانت اليونانية لغته الوطنية، لم يقبلا هذا التشويه للاسم اليوناني.

(٧٣) لا يخلو من مغزى أسلوب مخاطبة ملك علوه للملك نوباته: «ونحن نذكر محبتك يا أخانا السيد افرفؤلو. وأنت تبرهن الآن على أنك قريبي الصدوق بارسالك أبانا الروحي جميعاً. . . وإنما عدوك عدوي، كما أن أرضك أرضي وشعبك شعبي» [102, p.12-13].

إلى وجود مكاتبات بين ملوك علوه و/نوباته. فما هي اللغة التي حررّت بها هذه المكاتبات؟ أغلب الظن أنها اليونانية، لأن الكتابة المروية كانت قد نسيت منذ عهد طويل؛ كذلك فإن الرقوم الأولى للنوبة الوسيطة، سواء كانت رسمية أو شخصية، قد دوّنت باليونـانية. وهذا يفسّر لنا لماذا استطاع يوحنا الافسوسي قراءة المكتوب الذي يقتبس منه.

ووفقاً لرواية يوحنا الافسوسي فإن ملك مقره كان له بعض السلطة على مناطق الصحراء النوبية أيضاً إلى سواحل البحر الأحمر، مما مكّنه من ارسال جند في محاولـة للقبض على قافلة لونجـين. وفي موضع ما من الصحراء كانت تمر الحدود بين أملاك مقرّه وقبائل البلميين الذين اعترفوا بسيادة ملك نوباته. وكان جزء آخر من البلميين يتبع لاكسوم. ولا يخلو من مغزى أن يوحنا يعتبر الأراضي الصحراوية القريبة مباشرة من البحر الأحمر حدود مملكة مقره. وينبغي أن نأخذ في الاعتبار أنه ببلاد النوبة قد روعي بشدة القانون الذي يحظر على الأجانب دخول البلاد دون إذن. ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى رواية يوحنا نفسه؛ فيوليان ورفـاقه عندما بلغوا حدود نوباته توقفوا هناك وانتظروا أن يرسل ملك النوبة «جنداً» للقائهم، أي إذناً خاصاً وجماعة من العسكر لاصطحابهم داخل أراضيه. وبنفس الطريقة لم تدخل قافلة لونحين علوه إلّا بعد أن قوبلت على الحدود بواسطة صاحب مكوس الملك المدعو ايتاكو او ايتكيو [102, p.12,14] الذي أرسل خصيصاً لمقابلته. وهذا يسوقنا بدوره إلى ذكر أن تبادل السلع على هيئة «بَقطْ» قد جرى لدى النوبيين سواء في العصور القديمة أو الوسيطة عند نقاط على الحدود أعدّت خصيصاً لهذا الغرض، وأن الأجانب في العادة لم يؤذن لهم بدخول بلاد النوبة. والاستثناء الوحيد المعروف في هذا الصـــدد يتعلق بالسفراء وحدهم وأيضـــاً بالحاج الأثيوبي اوستافيوس [106, p.238-329] . أما التجـــار الايطاليون فلم يظهروا بدنقله إلّا بعد استيـــلاء المسلمين على المقـرّه [188, t.III, p.94,246] .

وحكاية يوحنا الافسوسي ومكاتبات ملك علوه ولونجين، تقدّم لنا فكرة عن النشاط التبشيري للونجين بجنوب النوبة. فلونجين «عمّد الملك وجميع كبار

رجال دولته وبقية الشعب شيئاً فشيئاً» [102, p.12-13,14] . ووفقاً ليوحنا فإن هذا حدث في عام ٥٨١ [102, p.17] . غير أنه يوجد أساس للاعتقاد بأنه حتى من قبل لونجين نفذت النصرانية إلى علوه ـ ليس من نوباته بقدر ما كان من جارتها اثيوبيا . وفي ذات الوقت إن حدث ولم يكن جميع الاكسوميين قد أضحوا نصارى آنذاك فقد وجد لديهم على أية حال أسقفان ـ أحدهما لاكسوم والآخر لعدولي، كما ظهرت في وسطهم الرهبانية[٧٤] . أضف إلى هذا أن مكتوب لونجين إلى بطريرك الاسكندرية تيودور يذكر الاكسوميين النصارى بعلوه . فبعد أن يشير المبشر إلى تعميد أهل علوه «وتزايد شعب الرب كل يوم»، يضيف: «غير أن بعضاً من الاكسوميين[٧٥] ممن وقعوا في ضلالات فانتازية يوليان و/قالوا «إن المسيح قاسى بطريقة بعيدة عن الإدراك ولم يكن جسمه قابلاً للفساد» أبلغناهم حقيقة الإيمان وطالبناهم بأن يطّرحوا هذه الهرطقة كتابة وأخذنا منهم تعهداً بتوقيعهم » [102, p.14] .

وهكذا نبصر بعلوه منذ وقت ما نصارى اكسوميين اتبع قسم منهم عقيدة الفانتازيين Phantasiastae أو عقيدة «الافثاردوستيه» aphathardocetism التي نادى بها يوليان الهاليكارناسوسي Julian of Halicarnassus الذي انضمت إلى مذهبه في القرن السادس الطبقات الشعبية من أهل الاسكندرية وبعض مدن

(٧٤) وفقاً لقول قزما الذي أبحر إلى الهند فإنه في منتصف القرن السادس « بأثيوبيا واكسوم ، وبمصر وليبيا وبنطابول وافريقيا وموريتانيا إلى غديره الجنوبية ، وفي وسط النوبيين والغرمانطيين ـ وجد في كل موضع بيع نصرانية وأساقفة وشهداء ورهبان ونسّاك ، ونشطت الدعوة إلى النصرانية» [310, p.120; 413, p.119] . ومما يستلفت النظر أنه عقب هذا ، وذلك عند وصفه لحدود انتشار النصرانية بافريقيا ، ينتقل الى الحديث عنها بأوروبا فيقول : «وبقليقيه . . . ولازقه وبنطس وبلاد الاشكوزيين . . . والهيرولي والبلغار . . . والقوط ، وبإيليريا ودلماسيا ولدى الفرنجةوغيرهم من الشعوب . . . » [310, p.120-121; 413, p.119-120] .

(٧٥) يوجّه أ. مونيريه دي فيلار اهتماماً خاصاً لرواية يوحنا المتعلقة بوجود الاكسوميين بعلوه [318, p.69] .

أخرى بالدولة البيزنطية*. ويروى ميخائيل السرياني أن الفانتازيين دعوا إلى تعاليمهم بالحيرة عاصمة اللخميين وبحمير أيضاً. وأحد الفانتازين وهو سرجيوس أمضى بحمير ثلاثة اعوام ووسم موسى الظفاري أسقفاً [256, p.129; 97, p.269] . وبهذا فإن دعوة الفانتازين نفذت إلى جميع أقطار البحر الأحمر، بما في ذلك الشمال والجنوب العربي واكسوم والنوبة العليا ومصر . [Cf 214, p.66]

وفي خاتمة مكتوبه يرجو لونجين إرسال أساقفة إلى علوه [102, p.14] . وهذا المكتوب يلقى ضوءاً جديداً على السياسة الدينية لملك علوه. ومن المحتمل أن بعض رعاياه اعتنق النصرانية التي دعا إليها الاكسوميون. وغير معلوم لنا أكان هؤلاء الاكسوميون من التجار أم من العملاء السياسيين «لملك ملوك» اكسوم، وإن كان لا يحوم الشك حول إن كانت علوه موجودة في محيط نفوذ اكسوم. لهذا فإنه يجتذب الانتباه الشديد اتجاه ملك علوه برجائه لارسال القسس لا إلى اكسوم بل إلى النوبة السفلى؛ ومن الواضح أن الدافع إلى ذلك كان عدم رغبته في أن يدعّم أكثر للنفوذ الاكسومي ببلاده. ولعله لا يخلو من وجاهة أن نتساءل ما الذي كان عليه موقف اكسوم بإزاء المقرّه من ناحية وحلف نوباته وعلوه من ناحية أخرى. ومما يؤسف له أنه لم تحفظ لنا معلومات عن هذا، أو حتى معطيات عن هيئة تبعية علوه في القرن السادس لمملكة اكسوم.

ومما هو جدير حقاً بالتنويه نعت يوحنا الافسوسي ولونجين وملك النوباديين لملك المقرّه بأنه « عدو لتعاليم المسيح » ، ولكنهم لم يقولوا بأنه

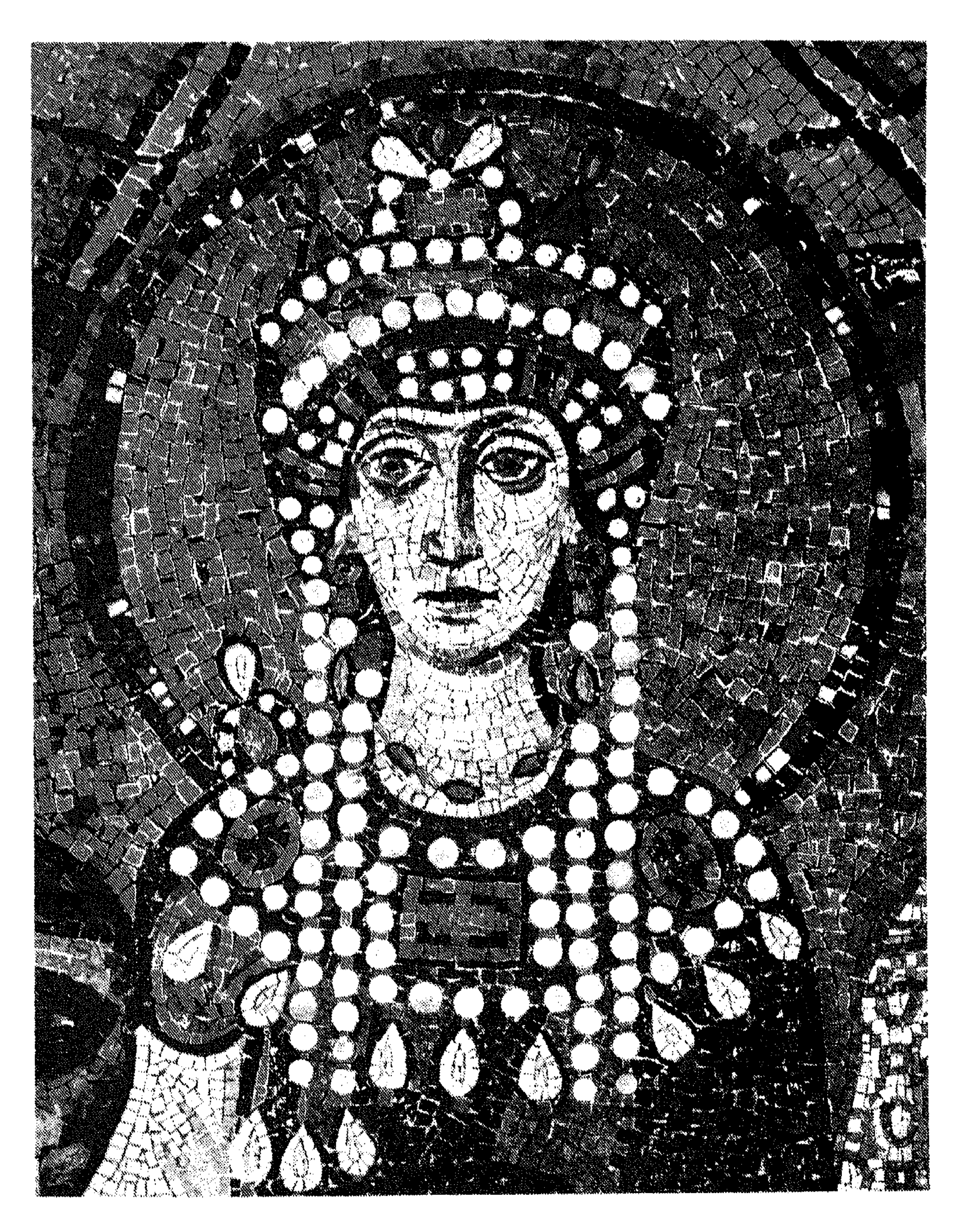
* يوليان الهاليكارناسوسي أسقف مونوفيزي توفي بعد عام ٥٢٧، وكان زعيماً لشق هرطوقي متطرف يقول بأن جسم المسيح كان في جوهره غير قابل للفساد (افثارتوس) وأن عذابه وموته حقيقتان ولكنهما كانا بمجرد ارادته. ودعاهم أعداؤهم بالفانتازيين phantasiastae لزعمهم أن المسيح لم يكن جسمه سوى طيف. وكان معارض يوليان الرئيسي هو سويرس الانطاكي. ولا تزل خير دراسة عن يوليان وتعاليمه هي التي ظهرت بالفرنسية عام ١٩٢٤ *R. Draguet, Julien d'Halicarnasse et sa controverse avec Sévére d'Antioche sur l'incorrvptibilité du corps du Christ, Louvain, 1924.* (المترجم)

كان وثنيـاً أو من عَبَـدة الأصنام . أو لم يكن في هـذه الحال نصرانياً أيضـاً ولكن من أنصـار يوليان الهـاليكـارنـاسوسي ، شأنـه شأن « عدد كبير من الاكسوميين » [102, p.577] ؟ .

كل هذا لا يستنفـد المعلومـات التي حواها مكتوب لونجين. فهو مثلاً المؤلف الوحيد للعصور الوسيطة الذي يفيدنا بعدد سكان علوه: «يوجد ألف ألف يسارعون إلى النجدة» [102, p.14-15] . وبطبيعة الحال فإن هذه الأعداد تبدو مبالغاً فيها جداً ، وإن وقفت شاهداً على أن المثقفين من البيزنطيين تصوروا شعب علوه على أنه يعدّ بالملايين. فليس اعتباطاً أن دعاهم يوحنا الافسوسي «شعب علوه الكبير» [102, p.11] .

وبالنسبة لملوك النوبة وأعيانها فقد عنى اعتناق النصرانية أكثر من مجرد الانخراط في عقيدة جديدة، كما كان عليه الحال مع دول الشرق الأوسط أو بالصين على زمن التانج حيث اكتسب المذهب النسطوري آنذاك عدداً كبيراً من الأتباع أصحاب النفوذ. / فأولاً قدّمت النصرانية للملكية النوبية الفتيّة عقيدة جديدة دعمّت من وضعها بصورة قوية ، وهو ذلك الوضع الذي لم يكن اكتسب بعد طابع التقاليد وسط مجموعة من الرعايا ينتمون إلى شتى القبائل وطبقة من الأعيان كان قسم منها ينازع الملك نفسه في السلطة قبل زمن ليس بالبعيد. وثانياً فإن الكنيسة التي تعرضت للانشقاق بمصر واثيوبيا وسورية وأيضاً بين الأرمن فاعتمدت على مساندة اليعقوبيين، قد قدّر لها أن تلعب دور العامل الرابط بين القبائل في أملاك النوبة السفلى التي جرى توحيدها قبل قليل من ذلك. ثالثاً فإن اعتناق النصرانية كان ذا مدلول عالمي مهم، فقد عاون على ميلاد علاقات الصداقة وحسن الجوار بين حكومات النوبة والدولة البيزنطية ومملكة اكسوم ودولة حمير في الجنـوب العـربي التي كانت تعـترف لها بالتبعية. أخيراً فقد استغلت النصرانية تقـدمهـا الحضـاري أكثر فأكثر فقدّمت لحكام النوبيين خبراء مهرة ومثقفين كانوا ضروريين بصورة خاصة للدولة الجديدة، وذلك في وقت كانت فيه الحضارة المروية بل وحتى الكتابة المروية قد نسيت تماماً.

وغير واضح تمام الوضوح لماذا اعتنق النوبيون المذهب المونوفيزي (اليعقوبي) بالذات. ولعل مردّ ذلك إلى الجهد الشخصي للامبراطورة تيودورا وليوليان والأساقفة تيودور ولونجين. ولعله مما لعب دوراً في ذلك بساطة المذهب المونوفيزي الكبرى ، الذي لم يقل إن للمسيح طبيعتين (إحداهما إلهية والأخرى بشرية) . على أي فإن الأرجح هو أن دوراً حاسماً لعبته في هذا الصدد السياسة الخارجية. فاليعقوبية وحّدت النوبيين مع اكسوم القوية ومصر الغنية اللتين كانتا كما هو الحال مع سورية ومعها انطاكية في نزاع دائم مع القسطنطينية. ومصر في نضالها ضد سيطرة الروم البيزنطيين كثيراً ما بحثت عن النصير في الجنوب. وفي عهد الاحتلال الفارسي وبداية الاحتلال الروماني كان مما قوّى عواطف الوطنيين المصريين نحو السودان تلك الأسطورة المتعلقة بالمرويين «السعداء» ، الأتباع الغيورين للديانة المصرية القديمة. والآن نبصر هذه الاسطورة متهيّئة لميلاد جديد، حينما لم تعد الاختلافات الدينية تقف حجر عثرة في وجه العواطف المصرية نحو النوبيين.



الامبراطورة تيودورا
(فسيفساء بيعة القديس ڤيتالي بمدينة راڤنّا بايطاليا)

١٠ ـ انهيار الأسرة الاثيوبية الحاكمة ببلاد حمير

اتخذت الاشتباكات بين بيزنطة وايران في آخر الأمر صورة حرب طويلة مدمّرة، ظلت مشتعلة مع بعض التوقفات لعشرات السنين وساقت في آخر الأمر الى استنفاد الامكانيات المادية والبشرية لكليهما. وصحب هذا انهيار عام للوضع السياسي العالمي؛ ففي الأطراف الغربية لمنطقة الحضارة الرومانية البيزنطية انتقلت الأملاك التي كان استردها يوسطينان إلى أيدي البرابرة؛ وفي الشرق انهارت دولة الهفتاليين [الهياطلة]؛ كما أنه لم يعد بعيداً ذلك اليوم الذي ستنهار فيه دولة الساسانيين/ (التي حاولت في البداية الاستفادة من زوال دولة الهفتاليين لتوسّع أملاكها، وأن تضع يدها على أغنى الولايات البيزنطية) بأكملها تحت ضربات العرب المسلمين. وكذلك تدهورت بيزنطة نفسها إلى دولة من الدرجة الثانية.

وبعد موت يوسطينان عام ٥٦٥ لم يعد بمقدور البيزنطيين اتباع سياسة نشيطة بغربي البحر المتوسط، فانسحبوا أمام القوط الغربيين في اسبانيا وأمام اللنغوبرديين في ايطاليا. وكان حلفاء البيزنطيين في الغرب هم الفرنجة، وفي الشمال الأنتى Antae، وفي الشرق الترك الذين وضعوا أيديهم بين عامي ٥٦٧ و ٥٧١ على جميع القوقاز الشمالية والقسم الاكبر من أسيا الوسطى. وفي عام ٥٧١ حاول الشاهنشاه خسرو انوشروان تخليص يديه من آسيا الوسطى بعقد صلح مع الترك. إلا أنه في ذلك الوقت بدأت ببلاد القوقاز الجنوبية ثورة الأرمن ضد الفرس، التي كان يساندها البيزنطيون والكرج. كذلك اشتعلت في عام ٥٧٢ نار حرب جديدة كان مسرحها أرض الجزيرة العليا وجنوبي القوقاز.

وتبيّن لنا رواية ثيوفيلاقط سيمو قطا لأحداث ٥٧١-٥٧٢ كيف أبصرت القسطنطينية الروابط مع حمير الخاضعة لاكسوم الحليفة: «اتهم الروم... الفرس بأنهم أشعلوا نيران الحرب بكل مكان، وقالوا بأنهم حرّضوا الحميريين على العصيان. وهؤلاء الأخيرون قبيلة هندية [أي من الجنوب العربي] تخضع

للروم. ولمّا لم يستجيبوا (أي الحميريون) للإغراء فقد تعرضّوا للعديد من هجمات الفرس الشديدة، مما تسبب حسب قولهم في فسخ الصلح بين الفرس ودولة الروم». وبخلاف هذا اتهم البيزنطيون الدبلوماسية الفارسية بتحريض اللان Alans المقيمين بالقوقاز على قتل سفراء آسيا الوسطى (من الترك والصغد) الذين كانوا في طريقهم إلى القسطنطينية عام ٥٦٨، وبإثارة العمليات الحربية بارمينيا [68, p.82] .

وحرب الأعوام ٥٧٢ ـ ٥٧٥ كسبها الفرس الذين عقدوا صلحاً في مصلحتهم مع بيزنطة [31, t.I, p.68–84; 249, t.II, p.193–203] . وتُرك الأرمن لصروف الدهر، فسحق خسرو انوشروان ثورتهم وخرّب ارمينيا. ولم تلبث الحرب الفارسية البيزنطية ان اشتعلت من جديد. وفي الفترة ٥٧٦ ـ ٥٧٩ كان انتباه الحكومة البيزنطية موجهاً إلى حدود الدانوب التي نفذ من خلالها إلى البلقان الافار والصقالبة. في هذه اللحظة بالذات قررّ خسرو انوشروان الذي كانت تقدمت به السن أن يوجّه بحملة عسكرية إلى بلاد العرب الجنوبية.

أما عن الوضع في الجنوب العربي في النصف الثاني من القرن السادس فإن معلوماتنا نزرة للغاية، لأن مادة المصادر تناقصت بشدة في منتصف القرن السادس سواء من حيث كميتها أو مصداقيتها. وابتداء من عام ٥٥٤ اختفت الرقوم العربية الجنوبية؛ مما يقف شاهداً على انهيار الحضارة الحميرية. ومصدرنا الوحيد عن تاريخ الجزيرة العربية لذلك العهد هو الرواية الشفوية المتواترة، التاريخية والشعرية [التي حفظها لنا العرب المسلمون]. وقد أفاد منها بصورة استثنائية أولئك المؤرخون الذين درسوا «حملة الفيل» لعام ٥٧٠ـ٥٧١.

ووفقاً للروايات العربية فقد شغل عرش حمير عقب موت ابرهة ابنه يكسوم. والطبري والدينوري والمطهّر [بن طاهر] المقدسي وغيرهم من المؤرخين إنما يقدمون لنا الرواية المناهضة للأسرة الحاكمة الاثيوبية، فيقولون إن يكسوم «كان شراً من أبيه وأخبث سيرة» لأنه عرّض الحميريين للبلاء [10, p.945; 2, p.64] . كذلك قام هذا الملك بحملة على بلاد العرب الوسطى ورد ذكرها لدى الشاعر

الجاهلي لبيد [151, p.26] ؛ ولعل هذه كانت «حملة الفيل» المشهورة. والأثر الوثائقي لتملّك يكسوم يعدّه نولدكه [334, p.219, note 3] ، ويتابعه في هذا أ. ج. لندين [78, p.87] ، قطعة من المسكوكات عثر عليها في اثيوبيا يعطي وجهها اسم الملك على أنه جرسم ؛ أما الكتابة بظهرها فيقرآنها على أنها «الملك يكسومي». ومنذ ذلك الوقت تم العثور بسكة أخرى لجرسم يحمل النقش بظهرها دون شك نفس ذلك اللقب المعهود لملوك اكسوم وهو [Βασιλευς Αξωι Mι [των] [أي «ملك الاكسوميين» باليونانية]. أضف إلى هذا أن جرسم فيما يبدو حكم بعد عام ٦٣١. ومن ثم فإن هذه القطعة من السكة لا علاقة لها البتة بيكسوم. ولم يكن ملوك حمير على وجه العموم قد ضربوا السكة في تلك الآونة. حقاً إن البلاذرى يقول إنه كانت تجلب عشية الاسلام إلى مكة نقود ذهبية بيزنطية وساسانية و «حميرية». غير أن هذا القول لا يوجد ما يؤيده؛ ويرى كونتى - روسيني أن اسم «حميرية» إنما أطلق على النقود الذهبية من اكسوم [200, p.204] . لهذا سيظل متمتعاً باحتمال كبير، ولكن على هيئة فرض ليس إلاّ، رأى أ. ج. لندين و ن. ق. بيغوليبقسكيا القائل بأن «يكسوم كان في علاقة من التبعية مع اثيوبيا كما كان أبوه» [78, p.87] ، وأن «كلا الأخوين (يكسوم ومسروق) كانا ولاة تابعين لاثيوبيا التي كان وجود جيشها باليمن أمراً باهظاً للغاية بالنسبة لأهل تلك البلاد على عهد يكسوم» [94, p.331;346, p.267–268] .

. [p.331;346, p.267–268

والعديد من أخبار المؤرخين العرب يروي بأن يكسوم قلبه عن العرش آل ذي يزن بمساعدة الفرس [10, p.912, 913, 933, 946–953, 956–957ff; 2, p.65–66; 40, p.313, 324–327 ff] . وتحكي الأخبار أن ابرهه قال لعبده الذي أنقذ حياته في لحظة المبارزة مع أرياط: «اطلب ما تريد»، فطلب هذا شيئاً واحداً: «ألا تنتزع امرأة رجل من اليمنيين». غير أن ابرهه لم يستمع لقوله وانتزع من أحد أعيان اليمن وهو أبو مرة ذو يزن امرأته ريحانة [10, p.932,933] . فيقال إن هذا كان سبب العداء بين أبي مرة وابرهه. أما المصادر الأخرى فتعطى اسم النبيل اليمني على أنه معديكرب بن أبي مرة ذويزن أو معديكرب

أبو مرة ذويزن، واسم ابنه على أنه سيف. وفيما يبدو فإن هذين كانا ابن سميفع أشوع وحفيده [78, p.87-88] . والأرجح أنهما هربا من الجنوب العربي عقب إخماد ثورة يزيد بن كبشت.

ووفقاً للأخبار العربية المتواترة فإن أبا مرّة توجّه مع أولاده قبل كل شيء إلى بلاط «قيصر» ببيزنطة [10, p.946] ـ حليف والده سميفع أشوع. غير أن الامبراطور يوسطين الثاني، رغبة منه في تحاشي الصدام مع «الحبش» رفض رجاء الأمير الحميري وآثر المصالحة مع ابرهه. ويقول الشاعر أمية بن أبي الصلت إن معديكرب/ أمضى ببلاط امبراطور بيزنطة سبعة أعوام، وفي رواية أخرى عشرة أعوام.

وليأس أبي مرة من الحصول على عون الملك الذي يشاركه في الدين (والذي كان مشغولاً آنذاك بالحروب في غربي البحر المتوسط وفي البلقان) فإنه اتجه كما هو متوقع بالرجاء نفسه إلى أعداء بيزنطة الفرس. وقد رأى من باب الحذر أن يفعل ذلك عن طريق ملك اللخميين عمرو بن هند، ابن المنذر الثالث والأميرة الكندية النصرانية هند (وقد كان الأمير الحميري نفسه نصرانياً بطبيعة الحال). وكان اللخميون بوصفهم أتباع الشاهنشاه ملزمين بالوفادة على بلاطه في كل عام. فاصطحب عمرو في رحلته التالية إلى طيسفون أبا مرة وابنه وقدّمه إلى خسرو أنوشروان؛ فحكى الأمير اليزني عن الوضع باليمن وما تعرض له أهلها من بلاء من طرف «الأحباش»، والتمس من الملك نصرته بعون عسكري [10, p.951] .

والمؤلفون العرب كما بيّنا فيما مر يخلطون في معلوماتهم بين حملتين عسكريتين ـ بحريتين للساسانيين بالجنوب العربي، أو على الأقل بين مُمثلَين (إن ليس ثلاثة) من عشيرة ذي يزن قدما إلى بلاط خسرو الأول بطيسفون. فحمزة الاصفهاني مثلاً يستعمل الروايتين العربية والفارسية معاً، فيحكي عن كيف التمس سيف بن ذي يزن العون من خسرو انوشروان ضد الأحباش الذين استولوا على بلاده بجيش تعداده ثلاثون ألف مقاتل [65, p.109] . ومن المغري أن نبصر في هذا العدد جميع الاثيوبيين بالجنوب العربي في نهاية القرن السادس.

غير أن هذا العدد يبدو مرتفعاً بصورة غير عادية، أضف إلى هذا أن الرواية التي يستند عليها ليس من الممكن إطلاقاً الاعتماد عليها. ويتحدث مؤلفون عرب آخرون عن جيش قوامه مائة ألف من الحبش والحميريين والبدو، جمعه آخر حكّام اليمن من الحبش على ما يقال لصد الفرس.

ولقد تردّد خسرو انوشروان نفسه في التدخل بصورة عاجلة في شؤون الجنوب العربي، لأن ارسال حملة عسكرية إلى تلك البلاد كان أمراً محفوفاً بالمخاطر ـ سواء بالبر عن طريق أملاك اللخميين بنجد، أو بالبحر حول القسم الأكبر من سواحل الجزيرة العربية المترامية الأطراف.

١١ ـ حملات الفرس في الجنوب العربي حمير ولاية ساسانية

هذا وقد مات أبو مُرّة في المنفى ببلاط الشاهنشاه، ولكن ولده سيف بن معد يكرب استمر في محاولته لجر ايران إلى النزاع مع الأسرة المالكة الاثيوبية بحمير. غير أن خسرو ظل على رأيه في عدم الدخول في مغامرة بجيشه. ولكن كبير كهنة الزردشتية أي موبذ موبذان أشار على الشاهنشاه بأن يرسل إلى فتح اليمن بالقتلة والمساجين. وكان هذا عين ما فعله خسرو، فقد تم اختيار ثمانمائة فارس من عتاة المجرمين الذين وجد بينهم بعض النبلاء ممن حاق بهم سخط الشاهنشاه. ونُصب على رأس الحملة/ قائد فارسي متمرّس هو وهرز أو وهريز (والأرجح أن هذا هو اللقب «وهريز»). وصحبه في الحملة سيف بن معد يكرب (والذي يدعوه الطبري في معظم الحالات خطأ معد يكرب، ولمرة واحدة فقط سيفـــاً)[٧٦].

وتم تنظيم هؤلاء المقاتلة الفرس المجرمين في مئات، وضعوا في ثماني سفن. وبعد رحلة طويلة بدجله والخليج الفارسي وبحر العرب بلغ الأسطول

(٧٦) في الأزمنة التالية جعل العرب من هذا الحميري تحت اسم سيف بن ذي يزن بطلاً لملحمة شعبية وعدواً لدوداً للاثيوبيين الذين وجد على رأسهم آنذاك فيما يزعم نجاشي باسم سيف أراد (وواقع الأمر أن هذا اسم لنجاشي من القرن الرابع عشر الميلادي) [112].

الصغير سواحل حضرموت . ولكن غرقت سفينتان في الطريق بمن فيهما ، وأنزلت السفن الباقية الوحدة الفارسية التي بلغ تعدادها ستمائة مقاتل بالساحل . ووفقاً للرواية المتواترة فقد أحرق وهريز مراكبه ودمّر المؤن والميرة بل وكل متاع عسكره ، ثم ألقى عليهم خطبة يدعوهم فيها إلى النصر أو الموت .

وكانت الأملاك الأساسية لعشيرة ذي يزن كما كان عليه الحال دوماً في غربي حضرموت . وكما حدث من قبل فقد سارع السكان المحليون إلى معاونة الأمير اليزني ضد الملك الأجنبي . وتدعو الأخبار العربية المتواترة هذا الملك مسروقاً ، ولكن من الواضح أن الملك كان لا يزال يكسوم . وقد تمكنت القوات المتحدة للفرس الغزاة وأنصارهم من ثوار الجنوب العربي من كسر جيش الملك الأثيوبي ، بل إن الملك نفسه فقد حياته . وبعد احتلال صنعاء أجلس وهريز سيف بن يزن الحميري على العرش وفرض عليه إتاوة سنوية (ويرد في المتن العربي « وجزية وخرجاً ») للشاهنشاه خسرو ، ثم قفل عائداً إلى أرض الوطن [10, p.949-950] . وهذه الأحداث جرت في الأعوام ٥٧٥ - ٥٧٧ على وجه التقريب [172, p.154; 54, p.66; 78, p.89] .

وتتحدث المصادر العربية عن سفارات من مختلف القبائل العربية جاءت لتهنئة سيف بمناسبة اعتلائه العرش وتخليص اليمن من سطوة الحبشة [10, p.950] . وكان من بينهم الشاعر أمية بن أبي الصلت الذي مر ذكره قبل قليل، وشخصيات مرموقة أخرى تذكرها لنا الأخبار العربية المتواترة . ويبصر أ . ج . لندين في هذه السفارات استمراراً للسياسة التقليدية لدولة حمير ازاء قبائل بلاد العرب الوسطى [78, p.90] ؛ الأمر الذي لا يمكن إلاّ أن نتفق معه فيه . ولقد أصبح اللخميون الآن حلفاء لحمير، وبذا فإن جميع بلاد العرب باستثناء الأطراف الشمالية الغربية لشبه الجزيرة اتحدت تحت هيمنة الفرس . وهناك مصدر عربي واحد من القرن الحادي عشر يروي لنا كيف ثبّت خسرو بعاصمته ، عملاً بنصيحة ملك اللخميين ، عشرة من ملوك العرب على عروشهم كان من بينهم ملوك حمير وكندة والغساسنة وغيرهم [152, p.246-247] . وعلى الرغم من الطابع الأسطوري لهذه الرواية ، فمما لا شك

فيه أنها تعكس صدى تلك اللحظة التاريخية التي تسلم فيها سيف ملك حمير التاج من خسرو شاهنشاه الفرس بمعاونة ملك اللخميين .

ومن المؤسف أن المصادر العربية وهي تروي لنا العديد من التفاصيل التي غلبت عليها الأسطورة فيما يتعلق بمفاوضات ملك الحميريين الجديد مع سفارات القبائل العربية ، لا تذكر شيئاً عن علاقاته مع الغساسنة والدوائر المناصرة للبيزنطيين بالمدن التجارية على سواحل البحر الأحمر أو القريبة منها مثل نجران ومكة وغيرها . وبوجه عام فإن معلوماتنا عن فترة حكم سيف بن معديكرب نزرة للغاية .

ووفقاً لرأي أ . ج . لندين فإن «سيف بن معديكرب ذا يزن بوصفه ممثلاً للطبقة العليا اتبع سياسة ترمي إلى حماية الامراء ـ الأقيال» لموازنة نفوذ الاثيوبيين الذين شكّلوا «بدولة حمير طبقة خاصة من صغار الأعيان كانت حرفتهم الجندية» [78, p.89-90] . ويبدو لي أن هذا الرأي فيه تبسيط شديد للوقائع ، لأن الطبقة الحاكمة الاثيوبية باليمن كانت تمثل مجموعة حاكمة من كبار الاقطاعين لا تقل بحال من الاحوال من حيث الثروة والنفوذ عن طبقة الأعيان من الوطنيين . وواقع الأمر أن سيفاً كما تؤكد الرواية العربية المتواترة تعقّب الاثيوبيين واستأصل شأفتهم [10, p.937; 346, p.270] ، ولكن من العسير القول بأنه جهد في تصفيتهم كطبقة من المقاتلين . ذلك أن رماة الحراب من الاثيوبيين كانوا يمثلون فرقة مهمة من القوات المسلّحة ببلاد العرب آنذاك ؛ ولم يكن جيش سيف بن معديكرب ليمثّل استثناء في هذا الصدد . «فقد دفعه عدم تبصّره إلى أن يجمع حوله حرساً مسلحاً من أولئك الاثيوبيين» [94, ,p.334] ، وإن كان عدم تبصره هذا له مبرراته فيما يبدو . ولعل الدافع إليه هو حذره من الأمراء الحميريين الذين كانوا يمثلون بالنسبة للملك حمير منافسين أشد خطراً من المقاتلين الاثيوبيين البسطاء . ولكن هؤلاء الأخيرين لم يلبثوا أن قتلوا سيف بن ذي يزن بأن «وجؤوه بالحراب» [10, p.957] . ووفقاً لقول الأزرقي فقد حكم أقل من سنة [3, p.102] ، ولرواية الطبري «حيناً غير كثير» [10, p.957] ؛ أما أ . ج . لندين فانه يعد مدة حكم هذا الملك مساوية لعشرة أعوام بحالها [78, p.90] .

وعلى عرش حمير أجلس المتآمرون (وهذا ما يجب أن يطلق على قتلة سيف) «رجلاً من الحبش» [10, p.957] ، هو الأخ الأصغر ليكسوم ويدعى مسروقاً. ووفقاً للأخبار العربية المتواترة فقد كان ابناً لابرهه من ريحانة أم سيف ابن ذي يزن (وهذا الأخير يدعوه مصدر الطبري خطأ معديكرب لاسيف بن معديكرب) [10, p.933] . وبهذا فإن مسروقاً (وهذا هو المعنى الحرفي للفظ بالعربية والسبئية، مما يعطي فكرة عن أصله) كان أخاً من ناحية أبيه مع أحد ملوك حمير وأخاً من ناحية أمه مع آخر. وهذا مما ساعده فيما يبدو على أن يعيش بعد كسر الأحباش وأن يعتلي العرش بالتالي؛ على أنه لم يستطع فيما بعد أن يتفادى مصير يوسف ذي نواس (والذي وفقاً لشمعون الأرشمي كان يدعى أيضاً مسروقاً) .

ووفقاً للرواية المتواترة فإن مسروقاً تملك لمدة اثنى عشر عاماً [5, p.72; 78, p.91] . أما فيما يتعلق بحكمه فلا نكاد نعلم شيئاً . فالمصادر العربية إما أنها لا تذكر اسمه البتة ، أو تخلطه بمسروق ذي نواس . وعلى عهد مسروق الثاني يرجع الانهيار النهائي لسد مارب ، لأن ملك حمير الجديد لم توجد لديه الوسائل لترميمه . ولقد ضعف سلطانه بدرجة أن المصادر العربية التي ترجع إلى القرن السادس لا تذكر شيئاً بصدد ملك حمير وتتحدث فقط عن حكّام المدن والولايات والقبائل المختلفة [78, p.91] . وبهذا انهارت مملكة حمير. ولم يستطع الاكسوميون أو أنهم لم يريدوا مدّ يد العون إلى مسروق ؛ أضف إلى ذلك أن أقوى دولة بالجزيرة العربية آنذاك وهي دولة اللخميين ومن ورائها ايران قد عاونتا الاثنتان على إضعاف حمير .

هذا وتضافرت جميع الظروف الدولية بعد عام ٥٨٧ـ٥٨٨ (وهو المفروض أنه عام سقوط سيف بن معديكرب) بصورة منحوسة ضد حاكم الحميريين الجديد. فايران وبيزنطة شُغلتا بحرب جديدة بأرض الجزيرة العليا. كما أن حلفاء بيزنطة من الخزر والترك والعرب أغاروا على أملاك الشاه بالقوقاز الجنوبية وآسيا الوسطى وجنوبي العراق. وعلى بيزنطة أغار الصقالبة ؛ أما دولة الساسانيين فلم يعد بمقدورها أن تتبع سياسة نشيطة في بلاد العرب. ولقد اضطر

الساسانيون إلى افتداء أنفسهم من القبائل العربية التي خرجت الآن من سيطرة الفرس والبيزنطيين . وفي آخر الأمر تم عقد الصلح بين بيزنطة وايران الذي دام أحد عشر عاماً (٥٩١ـ٦٠٢)، وكان في مصلحة البيزنطيين دون غيرهم . وفي بلاد العرب الشمالية والوسطى شرع النعمان ملك اللخميين الذي كان الحليف المخلص للفرس من قبل، يميل من وقت لآخر إلى جانب البيزنطيين وحاز على استقلال متزايد . وقد جمع حوله لاحلفاء ايران من قبائل العرب الشمالية الشرقية فحسب، بل وأيضاً حلفاء بيزنطة من قبائل العرب الشمالية الغربية . وكان هذا أشبه بأنموذج لدولة عربية موحّدة مثّلت بالتالي خطراً للدولتين الكبريين . ولكي يداوم اللخميون على توحيد الأراضي العربية كان عليهم أن يبسطوا سلطانهم على الجنوب الغربي للجزيرة العربية، حيث كانت مملكة مسروق بن ابرهه التي استنفذت طاقتها تلفظ أنفاسها الأخيرة . أما شاهنشاه ايران الجديد وهو خسرو الثاني برويز [فيروز] الذي ثبّت نفسه نهائياً في العرش حوالي عام ٥٩٥، فقد أخذ يخططّ لإخضاع حمير من جديد حتى يتمكنّ من السيطرة على عمّاله من العرب وعلى البحار التي كانت تمخرها السفن التجارية القادمة من الصين الجنوبية وجنوب شرقي آسيا والهند محّملة بالسلع إلى سواحل اثيوبيا ومصر وفلسطين . فاحتلال اليمن وحضرموت كان من شأنه أن يمكّن الفرس من أن يحوّلوا إلى يدهم، أو يوقفوا إلى أي أجل يريدون، تجارة بيزنطة واكسوم مع الهند وسيلان التي كانت تمثل أهمية كبرى لكلا الدولتين النصرانيتين . وبهذا تقرّر مصير مسروق بن ابرهه .

وجاءت نهاية مملكة حمير حوالي عام ٥٩٨ـ٥٩٩، عندما قررّ خسرو الثاني تكرار تجربة سلفه خسرو الأول باحتلال الجنوب العربي . فأرسل من جديد بوهرز إلى الساحل العربي الجنوبي على رأس أسطول هائل وأربعة الاف رجل [10, p.957; 80, p.23,29] . وواجهه مسروق بجيش بلغ تعداده فيما يقال المائة ألف من الحبش والحميريين والبدو، بل ومعه فيلة [10, p.957; 80, p. 23–27] . وتحكي الروايات العربية المتواترة عن حدوث معركة بين الطرفين انتهت بمصرع

مسروق وسقوط أعداد هائلة من الأسرى وغنائم كثيرة في أيدي الفرس(٧٧). وبعث وهـرز أخبار النصر إلى سيده ومعها كنز الملك القتيل. أما الاثيوبيون فتعرضوا لاضطهاد مجدّد وجرى استئصالهم دون شفقة [10, p.955; 80, p.25, 29;4, p.292].

وتخلط المصـادر في العادة بين حملتي وهرز إلى اليمن؛ ومن الممكن أن الأخبار المتعلقة بانضمام السكان المحليين إلى الغزاة إنما تتصل بالحملة الأولى - تلك التي شارك فيها إلى جانب وهرز أيضاً سيف بن معد يكرب. أما جيش الساسانيين المدرّب تدريباً كافياً والكبير العدد/ الذي نزل بساحل اليمن الجنوبي في عام ٥٩٨-٥٩٩ فإنه لم يكن بحاجة في هذه المرة إلى معاونة الثوار الحميريين كما حدث عند إسقاط يكسوم. أضف إلى هذا أن حمير المتدهورة لم تعُد خصماً يخشى بأسه.

ومن الممكن أن اللخميين كان يحدوهم الأمـل في أن يستفيدوا بمرور الوقت من ثمار النصر الفارسي؛ أما بيزنطة واكسوم فلم تحركا ساكناً. هذا ولقد تصادف وضع الفرس يدهم على الجنوب العربي مع فترة من الكوارث الطبيعية التي جلبت ضربات قاضية لوضع بيزنطة الاقتصادي والسياسي (وأيضاً على ما يظهر لبلاد العرب الجنوبية وللشمال الشرقي الافريقي) أشد من أكثر الحروب تدميراً. ففي ربيع عام ٦٠١ (الثاني من نيسان - ابريل) حدث زلزال عنيف، تحول في إثره عدد من المدن البيزنطية إلى أكوام من التراب. وتلا هذا أن قدم من جوف آسيا إلى القسـطنطينية الطاعون الأسود (bubonic plague) الذي انتشر بجميع الـولايات الأسيوية للامـبراطـورية، وربـما الافـريقية أيضاً. ويروى ميخـائيل السرياني أن الـطاعـون اجتاح في أعقابه ٣١٨٠ ألف نفس، دون حساب لأولئك الذين لم يشملهم التعداد [177, p.314; 89, p.164–165]. على أيه حال فقد قضى الطاعون على الملايين من الناس. ولا بد أنه وجد طريقه من

---

(٧٧) هذه الأحداث تتعلق بفترة حكم خسرو الأول انوشروان.

سورية وفلسطين ومصر إلى جزيرة العرب وإلى بلاد النوبة، ومن هناك إلى اثيوبيا. وفي عام ٦٠٠ - ٦٠١ حدث الجدب الذي ساق إلى إخفاق المحصول بالولايات الشرقية للدولة البيزنطية . وتلا هذا ثلاثة أعوام بالتوالي أغار فيها الجراد على هذه الولايات ، فقضى بسورية على جميع الزرع والثمار [177,p. 314;89, p.165] . وفي الأعوام التالية ، وذلك بعد مهلة بين عامي ٦٠٥-٦٠٦ ، تجدّدت الكوارث الطبيعية، فقد نزل برد شديد. ومما لاشك فيه أن جزيرة العرب وشمال شرقي افريقيا تعرّضت أيضاً لهذه الكوارث الطبيعية التي استمرت إلى عام ٦١٠ والتي ليس بوسعنا أن نتصور مداها الحقيقي ، بالنظر لغياب المصادر التي يمكن الاعتماد عليها .

في هذه المرة لم يتخذ الجنوب العربي وضع مملكة تدين بالتبعية ؛ مما سيكون بطبيعة الحال أمراً تقليدياً بالنسبة له. بل تم تحويله إلى ولاية من ولايات الدولة الساسانية ؛ وكانت هذه بداية لسياسة جديدة للفرس بالجزيرة العربية. فالحاكم الفارسي لليمن يحمل في المصادر العربية اسم مرزبان★ ، «مما يدفع إلى الاعتقاد بأن اليمن تم تنظيمها على هيئة ولاية من ولايات الثغور [الايرانية] وكان لها حاكمها الذي حمل لقب مرزبان» [94, p.334-335; 346, p.271] .

ولقد استمرت السيادة الفارسية بالجزيرة العربية إلى لحظة توحيدها على يد المسلمين في الأعوام ٦٢٨-٦٣٠. وجرى قلب بعض أقطار الجزيرة العربية إلى ممالك تدين بالتبعية للفرس مثل عُمان التي وجدت بها على الرغم من ذلك أقلية فارسية ذات بال [65, p.108-109] . ولم يوجد باليمن في نهاية القرن السادس وفقاً للرواية العربية المتواترة أكثر من ستمائة من جند الفرس، ولكنهم كانوا ينتمون إلى طبقة الفرسان، بل إلى عشائر الأعيان (عشرة بمن فيهم القائد). وعلى الرغم من أصلهم الرفيع فقد كانوا من عتاة المجرمين، وبالتالي لم يكن لديهم أمل/ في العودة إلى أوطانهم. ولابد أن هؤلاء المقاتلين اتخذوا

★ مرز بالفارسية تعني الحدود، ومرزبان هو حافظ الثغور وحاكم الحدود . (المترجم)

لأنفسهم زوجات من النساء المحليات واستقرّوا بصورة نهائية ومستديمة بالبلاد التي فتحوها. وفي ذات الوقت وجد لديهم ميل خاص إلى أعمال العنف والخروج على القانون؛ مما هو متوقّع من مجرمين أمثالهم.

والحكام الفرس الثلاثة الأول لليمن عيّنهم خسرو برويز، بمافي ذلك فاتح البلاد وهريز الذي يقال إنه حمل اسم مرزبان (والمرجّح أنه لقب أيضاً). ووفقاً لإحدى الروايات فقد حكم اليمن بعد وهريز المنحدرون من صلبه. ولكن ثمة رواية أخرى أوثق منها تقول إنه بعد موت وهريز عينّ الشاهنشاه أحد الأساورة* واسمه زين عاملاً على اليمن؛ ولكنه لم يلبث أن عزله لأنه كان «جبّاراً مسرفاً» واستعمل محلـه المروزان. وفي زمن المروزان هذا عصى الجبليـون بمنطقـة المصانـع وامتنعوا عن حمل الخـراج. هذه الثورة تم إخمادهـا بقسوة. وبعد مـوت المروزان انتقلت المرزبانية إلى أولاده، وكـان أحدهم يدعى خرخسره. وفي آخـر الأمر عزل خسرو برويز خرّخسره وعين مرزباناً لليمن في شخص أحد الأعيان واسمه بذان أو بزان، الذي كان معاصراً لظهور الإسلام [10, p.957-958, 1039-1040]. وبـاليمن أُدخـل النظام الفارسي للخراج وأيضاً النظام الفارسي لقياس المسافات بالبرسنج (وهو «الفرسخ» بالعربية)، الذي استعمل بالأنحاء الشمالية من الشرق الأدنى منذ عهد الهخامنشيين وإن لم يعرف بالجزيرة العربية نفسها حيث كانت المسافات بين المدن تُعدّ بالمراحل اليومية. ويمكن القول إلى حد ما بأن الجزيرة العربية دخلت في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع في محيط الحضارة الايرانية ولكنهافي ذات الوقت تمثّلت غزاتها الفـرس.

وكـانت الضرائب التي تجمـع من سكـان الولايات تُحمل بالقوافل إلى العراق؛ وتحكي الرواية العربية المتواترة عن نهب إحدى هذه القوافل بواسطة

---

* *الأساورة لدى الفرس هم طبقة الفرسان، ومفردها أسوارى. راجع العربية الدارجة المعاصرة «السوارى» (أي الخيّالة)، وذلك في مقابل «بيادة» أي المشاة؛ وهذه الأخيرة أيضاً فارسية. (المترجم)*

البدو من قبيلة تميم [40, p.464-465; 3, p.791 ff.] . ومن الممكن أن الجاليات اليهودية والوثنية باليمن قد دعّمت من وضعها على عهد الفرس، غير أن غالبية السكان ظلت على النصرانية ولم تتعرض للاضهاط بسبب عقيدتها .

وغير واضح تمام الوضوح موقف مملكة اكسوم من أحداث الجنوب العربي في نهاية القرن السادس. «فالاثيوبيون» الذين تقاتل معهم الفرس وأقيال الحميريين ـ لم يكونوا الاكسوميين بل نسل جنود المستوطنات العسكرية التي استقرتّ ببلاد العرب. ولا توجد معلومات البتة عن تدخّل أكسوم في هذا النزاع. وفي نهاية القرن السادس وبداية السابع كان مثل هذا التدخل سيبدو أمراً غير مفهوم؛ ومما يوكدّ هذا إلى حد ما سياسة دولة اكسوم إزاء المسلمين الأوَل، وإزاء أعدائهم العرب على زمن البعثة النبوية. ولا بد أن تجربة النصف الأول للقرن السادس بأجمعه أقنعت حكام اكسوم بأن القيام بمحاولة لإخضاع الجنوب العربي لن تكون نتيجتها في أحسن الظروف إلّا نجاحاً مؤقتاً، يعقبه إما ثورة للسكان ضد الاثيوبيين النازلين بينهم، أو ثورة لأهل المستوطنات الاثيوبية أنفسهم، أو/ الانفصال الفعلي للمحميين و التابعين لاكسوم عن حكومة «ملك الملوك». وكما حدث أن رأينا فإن الاكسوميين في العهد السابق لهذا تحاشوا الاشتباك في قتال مباشر مع دولة الساسانيين القوية. وفي هذه المرة فإن تطوّر الأحداث بالجزيرة العربية لم يسق إلى حرب فارسية ـ اثيوبية. بل إن حرباً كهذه لم تنشب حتى في الأعوام ٦١٨ ـ ٦٢٨ عندما ظهرت القوات الفارسية بمصر وعلى الحدود الشمالية لبلاد النوبة.

١٢ ـ الحركات المعادية لبيزنطة بمصر وصلتها بممالك النوبة

وعلى الرغم من توكيد قوربيوّس وبروقوبيوس أن يوحنا الوالي البيزنطي لقرطاجه قد جلب الرفاه لليبيا بعد سحقه للحركات المعادية لبيزنطة في الأربعينات من القرن السادس، فإن تلك البلاد الواسعة الأرجاء والتي كانت

ذات يوم من الأهراء التي تمد الامبراطورية الرومانية بحاجتها من القمح، قد أضحت آنذاك عاجزة عن تغذية سكانها الذين تناقص عددهم وهجروا مدنهم. ولم تعد عاصمة الامبراطورية تتسلم قمحها من ليبيا بل من مصر سنوياً وبكميات هائلة؛ وكانت مصر إلى جانب هذا تزوّد بلاد العرب وفلسطين وبلاد النوبة بالقمح. وعن الأهمية التي أولاها يوسطنيان لضرائب مصر من الحبوب يتحدث قانونه (codex) الذي كُرّست فيه النوفيللا (Novella) ١٢٨ بأكملها للمسائل المتعلقة بتنظيم نقل القمح من مصر إلى القسطنطينية. وكانت المراقبة على هذا في يد الاوغسطال Augustal نفسه، أي والي مصر البيزنطي [71, p.48;64, p. 20;346, p.37] .

وبعد فَقْد البيزنطيين لمصر عام ٦١٦ لم تعد تصدّر منها مثل تلك الكمية من الحبوب. كما لم يعد من الممكن جمع مثل هذا القدر من المحصول لتصديره، إلّا باستغلال لا يعرف الرحمة لطبقة الفلاحين. أضف إلى هذا أن التشدّد في جمع الضرائب وفي تصدير القمح من البلاد حرمها من إمكانية التطور الاقتصادي المتناسق، بل وحتى من التطور النسبي الذي كان من الممكن إبصاره بآسيا الصغرى البيزنطية وبسورية. وكما لاحظ إ. ف. فِخْمان I.F. Fikhman فإنه «من العسير الالتقاء بولاية أخرى من ولايات الامبراطورية شغلت فيها الزراعة مثل ذلك الوضع المسيطر في اقتصادياتها، لدرجة ارتبطت بها أنماط النشاط الاقتصادي الأخرى وأشكاله مثل ذلك الارتباط الوثيق [كما كان عليه الحال بمصر]» [177, p.48] . غير أن عدداً من الوثائق يتحدث عما لحق من فقر متزايد وفاقة بطبقة الفلاحين المصريين في العهد البيزنطي.

وفي نهاية فترة القرن الخامس ـ القرن السادس تحوّلت مصر في آخر الأمر إلى بلاد غلبت بها المِلْكيات الزراعية الكبرى. وفي العهد السابق لهذا وجد عدد ليس بالقليل من مُلّاك الأرض الأحرار من صغار وكبار، كما وجد عدد كبير من الاشكال القانونية لأنواع الأراضي المختلفة التي جرى تأجيرها في قطع غير كبيرة ولأمد محدود. أما الآن فإن الأراضي وإن اختلف وضعها القانوني من الناحية الشكلية، إلّا أنها تساوت جميعها في أنها أصبحت ملكيات خاصة تركزت في

ملكيــــات خاصــة تركزت في أيـــدي عدد قليل من كبار الـمُــلّاك والأديرة وأيضـــاً الامـبراطـور. غير أنه في القرن السادس انكمشت بشدة مساحـــة الأرض الامبراطورية [p.30 , 116; 117, p.59ff; 71] ، كمـــا لم تأت بنتيجة ما مجهودات يوسـطنيان/ لتدعيم وتكبـيـر الملكيات الأرضية لكوريات [بلديات] المـــدن . [117, p.58–59] . ولقد جهـد يوسطنيان عبثـــاً كما هو الحـــال مع السابقين له في مكافحة نظــــام الملكيات الكبيرة والسيادة على أراض واسعـــة ذلك الذي انتشر بشكل خـــاص بمصر . ومن بين القوانين الثمانية التي ظهرت قبل عـــام ٥٣٥ والمكرّسة للملكيات الكبيرة ، كانت ستة منها موجّهه إلى والي مصــــر [71, p.48] . وبصفة كبـــار ملاك برز كبـــار المؤجّـــرين (الديناتيـون Dinatists)★، الذين كانوا في ذات الوقت من الإداريين بالولايات أو الإداريين المحليين . ومعــروف لنـا بعض الأسر الـديناتية الكـبرى بمصر في العهـد البيزنطي . مثال ذلك آل أبيون Apion الذين خلفوا ارشيفاً مرموقاً من البردى . وكانت أملاك آل ابيون تضم عدداً كبيراً من الأراضي الزراعية والكروم والبساتين والمراعي والمباني والمصانع ، وأسطولاً كاملاً من المراكب النيلية كان ينقل منتجات أمـلاكهم إلى الاسكندرية ، وغير ذلك من الممتلكات . ولقد كانت حقاً دولة داخـل دولـة ، لها نظامهـا الخاص للإدارة وشرطتها المحلية وسجونها الخاصة وجندها الخاص ، وآلاف من «الرعايا» كانوا في غالبيتهم من الفلاحين المصريين الـذين يدينون لهم بالتبعية . ولقد شغلت هذه الأملاك قسماً كبيراً يوشك أن يكـون النصف من مقـاطعـة اوكسرينخ Oxyrhynchus [البهنسا] ، وقسماً من أراضي مقـاطعات هرقليوبوليس Heracleopolis [اهناس] وارسينوي Arsinoe [الفيوم] وقينـوبـوليس Qainopolis [قنـا] . وهي قد تشكّلت في نهاية القـرن السادس وظلت قائمة إلى الفتح العربي لمصر [.117, p.69 ff] .

★ *الديناتيون من اليونانية ديناتوس dynatos أي القوى، وكان يطلق في الدولة البيزنطية (خاصة في الوثائق القانونية) على الطبقة العليا من المجتمع ، كالاقطاعيين وكبار ملاك الأرض (المترجم) .*

ومثال آخر لأسرة من هذه الأسر الحاكمة (من فئة الدوناتيين) هي أسرة ارسطوماخ Aristomach والي مصر على عهد موريقي والذي سيرد الكلام عنه فيما يلي. وكـان للديناتيين إدارتهم المحلية الخاصة الضاربة بفروعها في مجالات عريضة، كما كان لهم حرسهم وجندهم من المرتزقة الأجانب (القوط وغيرهم). وكانت الإدارة المحلية في جزء منها في يد أفراد من المجتمع الرفيع، وجزء آخر في يد العبيد. كذلك عمل عبيد الديناتيين الموثوق فيهم بالتجارة أيضاً وبالمشاريع بمـدن مصر [71, p.21,75] . وبأراضي مقاطعتي هرموبوليس Hermopolis [الاشمونين] واوكسرينخ وجد عبيد يعملون بانتاج سلع الاستهلاك وبالزراعة وبالصناعة [71, p.20; 114, p.211; 117, p.183–207] ؛ غير أن عدد هؤلاء العبيد كان قليلاً للغاية. كذلك جرت الاستفادة منهم إلى جنب الأجراء في اقتصاديات الريف التي وُجدت لها مراكز بالممتلكات الزراعية شغلت جزءاً صغيراً من هذه الأخيرة، لأن الجزء الأكبر من الأملاك الكبيرة قد جرى تقسيمه إلى قطع من أجل الفلاحين العاملين فيها [117, p.69 ff.] .

وكـانت طبقة الفلاحين المصرية في القرن السادس تنقسم إلى فئات عديدة تبعاً لوضعها الاقتصادي والقانوني . ويرد في سيرة القديس شنوتي أن سكان مصر العليا كانوا يتكونون من الفلاحين الذين يعملون في اقتصادهم الخاص بهم، ثم عمّال المياومة، وأخيراً الرعاة [292, p.174] . وتسمح أوراق البردي بتمييز فئات أخرى أيضاً وسط الفلاحين مُلّاك الأرض، وذلك جنباً إلى جنب مع الكتلة الأساسية « لأهل المستوطنات المسجّلة أسماؤهم » [117, p.73 ff.] .

أما إحصائيات ملكية الأراضي بالريف المصري لذلك العهد فنلتقي بها عند فحص إحدى/ الوثائق التي تبين أن أكثر من نصف الأرض كلها كان في يد ٥ر٣٪ من المُلّاك، هذا بينما لم تتجاوز أملاك بقية الملاك بالتقريب في تلك الناحية ٣٪ من جميع الأرض [353, p.303] . وفي ذات الوقت وجد اتجاه مناقض - فالضغط الإقطاعي المتزايد كأنما دمج الفئات المختلفة لطبقة الفلاحين المصرية في طبقة واحدة. وبموازاة هذا جرى بالمدن (التي حملت طابعاً نصف

زراعي) تركيز لملكية المباني ، فتضاءل شيئاً فشيئاً عدد من امتلك منازله من السكان بينما تزايد بالتدريج عدد من استأجروا بالكراء أماكن لسكناهم أو مجرد غرف بسيطة [322, p.342–343] . وقد تزايد عدد الأديرة بالمدن وبخارج المدن كما تزايدت أيضاً ثروتها ، وتركزت في يدها مختلف العقارات بل وأيضاً الأيدي العاملة المكوّنة من العديد من الرهبان وسكان المستوطنات الزراعية [72; 114, p.208–211; 117, p.87–95] .

وكما بيّن عدد من الباحثين (م . ف . لفتشنكو M.F.Levchenko وإ. ف . شفمان I.F. Shifman وغيرهما) فإن مصر في الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع كانت لها صناعة متطورة ضربت بجذورها في أعماق القرون . ويقول لفتشنكو في أحد بحوثه « كان لمصر في القرنين الخامس والسادس صناعة متطورة . فانتاج الكتان بلغ على اقل تقدير درجة تعادل انتاجه بسورية . ولقد احتفظت الاسكندرية بالمكانة الأولى في الامبراطورية في انتاج الأواني الزجاجية سواء من حيث ألوانها أو شكلها الخارجي . ولعل أهم المنتجات كان دون شك ورق البردى المصري» [114, p.3] . هذا إلى جانب صناعات أخرى لم تنل الرواج محلياً فحسب بل وجدت أيضاً طريقها إلى الخارج ، وبصورة خاصة إلى بنطابول (قورينية Cyrenaika) وقرطاجه وبلاد النوبة وأقطار البحر الأحمر. غير أنه من العسير القول بأن ولاية أخرى في الامبراطورية البيزنطية وُجد فيها الصنّاع في حال من الفقر وفُقْدان الحقوق أو جرى استغلالهم بقسوة كما كان عليه الحال بمصر . وكان قسم من الصنّاع يعمل بالملكيات الكبرى ، مثل التي لآل ابيون . وكان العبيد يكوّنون جزءاً ضئيلاً من بينهم ، أما الغالبية فكانت من أشباه الأحرار « الذين انتقلوا تحت حماية مُلاّك الأراضي الكبار أو دانوا لهم بالتبعية لسبب أو آخر » [114, p.227] . وقد أسبغت نقابات أهل الحرف بالمدن وبالملكيات الكبرى « ضرباً من الحماية على مصالح أعضائها » ، ولكنها عملت إلى حد كبير على ارضاء مطالب الحكومة ورغبات المسؤولين والأفراد ، والحفاظ بقبضتهم على أهل الحرف عن طريق الكفالة الجماعية . وتم بطريقة منظّمة إخماد جميع

أشكال الاحتجاج من طرف الصنّاع في وجه استغلالهم . وعلى خلاف العهود السابقة لم تحفظ لنا من فترة القرنين الخامس والسادس معلومات ما عن إضرابات للصنّاع . وعلى غرار ما كان عليه الحال بولاية افريقيا ، لم يكن من النادر أن لجأ صناع مصر البيزنطية إلى الأديرة . بل ويتحدث الباحثون عن « هرب الصنّاع إلى الأديرة » [114, p.190–193, 204 et note 14] . هذا وقد اشتغل عدد كبير من الرهبان بمختلف الحرف ؛ بل إن رؤساء الأديرة والصوامع وبعض الأساقفة لم يترفّعوا عن العمل الحرفي/ توخياً لمبدأ جعل الضرورة فضيلة (Making a virtue of necessity) لذا لم يكن عبثاً أن أكّد القديس شنوتي أن خير العمل ما فعله الانسان ضد إرادته والذي لا يجلب الربح لعامله [292, p.125] .

وكان وضع الفلاحين العاملين بالملكيات الخاصة مرهقاً بصورة غير عادية ، ثم أصبحوا على عهد يوسطنيان من رقيق الأرض بشكل نهائي وحرموا من أي أمل في تعديل «قانوني» لوضعهم [73, p.123 ff.] . ولقد جهد عدد من سكان المستوطنات الزراعية في الخروج من هذا المأزق بالانخراط في سلك الرهبان . غير أن النوفيللا المائة والثالثة والعشرين Novella CXXIII ليوسطنيان نهت الأديرة عن ضم العبيد أو العاملين بالمستوطنات أو الفلاحين « المسجّلة اسماؤهم » دون موافقة أسيادهم . أما أولئك الذين انخرطوا في سلك الرهبانية ، وأقاموا بالأديرة لمدة تقل عن ثلاثة أعوام فكان عليهم أن يعودوا إلى أسيادهم ؛ وأما من أقاموا بالأديرة أطول من هذا الأجل ثم خرجوا من زمرة الرهبان ونزعوا عن أنفسهم رداء الرهبانية فإن هذا لا يجعلهم أحراراً وعليهم أن يعودوا إلى وضعهم السابق غير الحر [عن النوفيللا الخامسة 71, p.23; cf.73, p.117] . ولقد هرب الفلاحون من الملكيات الشخصية إلى الممتلكات الديرانية حيث كانت حياة أهل المستوطنات أقل عسراً [71, p.66;116, p.153–154; 112, p.53] . وتبيّن برديات او كسرينخ أن كبار مؤجري الأرض (من آل ايبون) جهدوا في ربط فلاحيهم (وأيضاً أهل الحرف) بالكفالة الجماعية ليحولوا دون هربهم من الضياع [71, p.26] . وكانت

الكفالة الجماعية أو الدخول في اتحادات جماعية (كويني Koine)، وسيلة فعّاله لجمع الضرائب المختلفة بما في ذلك الحكومية، وأداء الالتزام، وحفظ الأيدي العاملة بالأرياف.

وقد انتشر التعاون الجماعي بين صغار المنتجين انتشاراً واسعاً بمصر في القرن السادس. لذا لم يكن اعتباطاً أن دخل مستأجرو الأرض بأملاك آل ابيون في اتحادات جماعية [117, p.73] . وكانت الجماعات الريفية وأيضاً نقابات أهل الحرف، بمثابة الخلايا في القاعدة السفلى للمجتمع الاقطاعي بمصر البيزنطية وعنصراً من عناصر الضغط على صغار المنتجين. ولكنها كانت في ذات الوقت حصناً من حصون الحضارة والطاقة الحيوية لطبقة الفلاحين. وبمصر كانت الطبقات الثريّة بالمدن والفئة العسكرية تنتمي منذ القدم إلى عناصر أجنبية ليست من أهل البلاد، على حين كانت الكتل الشعبية أي الأقباط تتمثل قبل كل شيء في طبقة الفلاحين التي تعدّ بالملايين، ثم غالبية الرهبان وقسم مهم من أهل الحرف. لذا فإن النظام الكنسي والديراني للمونوفيزية، والجماعة الريفية، ونقابات أهل الحرف، كانت الأشكال التي اتخذها تنظيم الأهالي الأقباط في مواجهة حقوقهم المهضومة على يد السلطات اليونانية - البيزنطية والديناتيين و الطبقات الثرية بالمدن والإدارة المحلية والاستبداد الامبراطوري.

وثمة شكل آخر لتنظيم القبط (ولكن في المدن وحدها، خاصة الاسكندرية) كان فئة الخُضر (البراسينيين Prasinoi) التي عضدت الدعوة المونوفيزية ضد الدين الرسمي للامبراطورية وهو الارثوذكسية، كما ساندت الأقباط ضد اليونانيين واليهود [35, p.185 ff.] . / وقد لاحظ جميع الباحثين «انتعاش الشعور القومي ونمو الكراهية نحو السلطات البيزنطية وكنيسة القسطنطينية» [117, p.41] بمصر في القرن السادس وجميع النصف الأول من القرن السابع. وفي الميدان العقائدي كان لواء القومية القبطية هو النصرانية المونوفيزية، أما في ميدان القانون فقد تمثّل في المعارضة ضد المدارس الرسمية للتشريع بالقسطنطينية وبيروت؛ هذا على حين تغذّت تعاليم المدرسة التشريعية بالاسكندرية على لبان تقاليد القانون العرفي المصري. ويلوح أن قوانين

يوسطنيان التي أدانت التعاليم «الكاذبة» كانت موجهة بصورة رئيسية ضد مدرسة الاسكندرية بالذات [73, p.113] .

ويخلاف القبط واليونان نزل بمصر في فترة القرن السادس والثلث الأول من القرن السابع جماعات عرقية أخرى صغيرة العدد نسبياً، وإن لعبت من وقت لآخر دوراً ملحوظاً في الحياة السياسية للبلاد. وهؤلاء كانوا هم اليهود بالمدن، والأعراب بالصحراء الشرقية، والقادمون من جوف افريقيا وبصورة رئيسية افريقيا الشمالية الشرقية. وقد حمل هؤلاء الأخيرون اسماً جامعاً هو «الاثيوبيون» . ΑιΘιοπες

وفي الأملاك الأفريقية البيزنطية، وذلك على غرار ما كان عليه الحال بالجزيرة العربية، وجد في نهاية القرن السادس وبداية السابع عدد من هؤلاء «الاثيوبيين» ذوي البشرة السوداء ولكن وضعهم كان اسوأ بكثير من وضع «الأحابيش» ببلاد العرب. فالعبيد السود يرد ذكرهم في أوراق البردى من مصر الرومانية المتأخرة والبيزنطية المبكرة. [وغيرها 23, p.596-597; 114,p.47,note 301] . كذلك يرد الكلام عليهم فيما يتصل بالثورة التي اشتعلت نيرانها بمصر على عهد الامبراطور موريقي. ورغماً من أن الخطر الأساسي الذي هدّد الامبراطورية جاء من الشمال وذلك من طرف الأفار والصقالبة، إلّا أنه برزت بالقارة الافريقية أيضاً قوى معادية للبيزنطيين. وقد حفظت لنا أخبار هذه الأخيرة في مصنف واحد هو تاريخ يوحنا النقيوسي، ذلك المصنف الذي تعّرض للتشويه في أصله وأيضاً خلال نقله بادىء الأمر إلى العربية ثم بالتالي إلى الجعزية.

ويروي يوحنا أن الامبراطور موريقي بعد أن أخمد ثورة البربر من لواته (بطرابلس) وجّه إلى مصر [417, p.291-296] بارسطوماخ وأصله من نقيوس وكان ابناً للوالي تيودوسيوس. وقد أصبح ارسطوماخ الحاكم المطلق بالتقريب للبلاد. وإلى جانب هذا وجّه الامبراطور أيضاً رسالة إلى جميع الجند بمصر طالباً منهم المشاركة في الحرب مع البرابرة. وسيتضح ممايلي أن هؤلاء «البرابرة» لم يكونوا لواته. «لأن ارسطوماخ انتصر على برابرة أرض النوبة وافريقيا الذين حملوا اسم «مرطانيس» وبرابرة غيرهم حملوا اسم «مرقوس». فكسرهم كسرة شنيعة وخّرب

بلادهم وانتزع ممتلكاتهم وساق الأسرى إلى مصر بطريق النيل، لأن الحرب جرت على ضفاف ذلك النهر» [417, p.293-294] .

فعن أي شعب أو شعوب يدور الحديث؟ ليس من الصعب أن يتعرّف الانسان في التسمية «مرطانيس» على اسم «الموريتانيين» أو «المورسيين» بالشمال الغربي لافريقيا. ولدى بروقوبيوس ويوحنا ملاله يُطلق هذا الاسم على البربر عامة، أما المناطق التي يقطنونها/ فكانت تدعى «افريقيا» أو «ليبيا». ومن الممكن أن القوات المصرية لارسطوماخ أخذت طرفاً في المعارك ضد البربر، مثلاً بقورينية وبمشارف الفيوم وغيرها من الواحات المصرية★. غير أنه من الممكن أن يوحنا النقيوسي أو مصدره، أو في نهاية الأمر أحد مترجميه، قد وقع في سهو. على كل حال لا ترد تفاصيل ما عن حملة لارسطوماخ ضد الموريتانيين. ووصف العمليات العسكرية يتعلق بوضوح بشعب «بربري» آخر يقطن على ضفاف النيل. ويميّز يوحنا بدقة بينه وبين «الموريتانيين» الذين يقطنون «افريقيا»، إذ يضعه ببلاد النوبة («أرض نوبه» في الترجمة الاثيوبية). وهؤلاء ليس من شأنهم أن يكونوا سكان نوباته أو النوبة السفلى، الذين ظلّوا مخلصين دون كلل لجارتهم الشمالية القوية منذ انهيار مملكة البلميين وإلى الفتح العربي لمصر. ومن الجلي أن الأمر إنما يتعلق بمملكة المقرّه أو مقورية؛ وكان سكانها هم «المقوريطاي» Μακουριται أو Μακτωριται ـ التي تحوّلت نتيجة لتشويه في الترجمات أو تصحيف من الناسخ إلى «مَرَقوس» الغامضة التي نلتقي بها في الترجمة الاثيوبية لتاريخ النقيوسي. وقد حظيت وجهة النظر هذه بالقبول العام [397, p.240-241] . ومثل هذا التحريف لاسم مقرّة نلتقي به أيضاً في أثر جغرافي مجهول المؤلف من القرن السابع (هو « انونيم رافنّا ») .

ولا يذكر تاريخ يوحنا النقيوسي شيئاً عن أسباب هذه الحرب التي جرت بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة مقرّة أو أحداثها. ويلوح أن أهل مقرّة غزوا

★ *لفظ واحه مصري قديم دخل اليونانية في صورة وازه لعدم وجود حرف الحاء بها، ومنها انتقل الى اللاتينية وبقية اللغات الأوروبية (Oasis). أما العربية فاحتفظت باللفظ كما هو. ويقول ياقوت في معجمه الجغرافي «الواحات واحدها واح على غير قياس لا أعرف معناها وما أظنها إلّا قبطيه». (المترجم).*



المادونا والطفل (فرس)

بلاد النوبة السفلى التي استنجد حاكمها بالبيزنطيين. وتلا ذلك اقتحام جيش والي مصر للمنطقة وهزيمة مقرة. ولا علم لنا إلى إي مدن نفذ الجيش البيزنطي بأعالي النيل، وإن كان معروفاً أنه خرّب أراضي مقرة وأخذ أهلها في السبي. ومما يهمنا في هذا الصدد هو أن هذه الأحداث تدحض الرأي القائل بأرثوذكسية اهل مقرة في مقابل مونوفيزية أهل فرس وعلوه. ولا يوجد ثمة شك في أن الحرب نتج عنها توطّد النفوذ البيزنطي أكثر من قبل بمنطقة فرس، وأيضاً تزايد عدد «العبيد» السود بمصر نتيجة لوصول سبي مقرة. وخلال أعوام من هذا رفع هؤلاء السود لواء الثورة بالاشتراك مع القبط ضد السيادة البيزنطية.

وهذه الثورة التي هزّت أركان الامبراطورية بوادي النيل من أسسها بدأت بمدينة ايكله Aikela الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن الاسكندرية. وكان على رأسها حاكم المدينة وإخوته فيما يبدو، وكانوا ينتمون إلى فئة الخُضْر لانهم كانوا أعداء للزُرْق (الفنيتيين Venetoi)*. واحتل الثوار المدن المجاورة وقطعوا اتصال

---

* *اتخذت فئتا الخضر والزرق طابعاً سياسياً في الدولة البيزنطية، ولكن أصلهما يرجع إلى الفئات القديمة بحلبات السباق بالمدن الكبرى مثل رومه واثينا وبيزنطة التي كانت تتخذ لوناً خاصاً بها يختلف من فئة لأخرى. وما لبث أن اتسع نشاط الفئتين فشمل الخدمات العامة والتطوّع من أجل الدفاع عن المدينة وترميم أسوارها إلخ، وانخرط فيهما بالتالي سكان المدينة أجمع. وقد اتخذت الفئتان موقف العداء بعضهما من بعض؛ فكان الزرق يمثلون في العادة الارستقراطية، أما الخضر فيمثلون الطبقات الدنيا. لذا وجد من بين زعماء الزرق ملاّك الأراضي الكبار وطبقة البطارقة، هذا بينما كان زعماء الخضر من كبار التجار وأهل الحرف. وقد ساند الزرق الأرثوذكسية اليونانية، بينما تعاطف الخضر مع المونوفيزيين وغيرهم من أتباع الطوائف الشرقية. واتخذ العداء بين الطائفتين صورة صدامات عنيفة، حتى تميزت الحياة السياسية ببيزنطة ابتداء من القرن الخامس بالنزاع المستديم بين الفئتين، شاركت فيه أحياناً السلطة المركزية وساق ذلك إلى تعضيد إحدى الفئتين للحكومة وانضمام الأخرى تلقائياً إلى المعارضة. وخير بحث في الموضوع هو:*

Alan Cameron, Circus Factions. Blues and Greens at Rome and Byzantium, 1976. (المترجم).

الاسكندرية بالمناطق الداخلية لمصر، حارمين إياها هي وعاصمة الامبراطورية من حمولات القمح. ثم وضعوا أيديهم على السفن وضمّوا اليهم النوتية وقاموا بغارة على جزيرة قبرص. وبهذا تمت محاصرة الاسكندرية من البر والبحر. وإلى مختلف أنحاء مصر أرسل الثوار من أيكله بمبعوثيهم الذين «أثاروا جميع ولاية مصر». وبمقاطعة اخميم تجمع عدد كبير « من العبيد وقطّاع الطرق من الاثيوبيين» / حول قائدهم ازاريه، وبسطوا سيطرتهم على المناطق المحيطة بل وجمعوا الضرائب باسمهم.

ولم تنجح الحكومة في إخماد الثورة إلّا بالكثير من العناء، وذلك بعد أن تم جمع «جيوش الاسكندرية ومصر والنوبة» التي وضع على رأسها تيودور، أحد كبار قواد الامبراطورية [417, p.309-316] . ومن الأهمية بمكان ملاحظة استعمال القوات النوبية ضد الثوار بمناطق الاسكندرية واخميم أيضاً [417, p.312, 315]. ولم يكن ليحدث هذا دون موافقة حاكم فرس. ذلك أنه لم توجد من قبل قوات نوبيه بمصر.

ويبدو أن الوالي البيزنطي للاسكندرية قد أرسل خاصة إلى ملك النوبة السفلى بفرس يذكّره بالتزامات الحلف بين الطرفين ويرجوه ارسال جنده للمشاركة في «إخماد ثورة مصر» التي أشعلها الأعداء التقليديون للنوباديين، أي أهل مقرّة. وهذا من شأنه أن يعطينا فكرة عن «التصوّر المصري» لحلف فرس مع القسطنطينية الذي ينص على أن تتسلم النوبة من بيزنطة معونة مالية وما تحتاج إليه من السلع التجاريه وأيضاً العون في قتالها مع مقرّه، على أن تقوم في مقابل ذلك بحماية حدود مصر الجنوبية وأن ترسل في حال الضرورة بقوات للعون في السيطرة على البلاد.

وقد اختلف الباحثون في تقييم جوهر ثورة المصريين. فمثلاً تعتبرها ن. ف. بيغوليفسكيا ثورة للعبيد، وبصورة عامة للطبقات الدنيا المستغلة التي حاولت أن تلقي عن كاهلها عبء الاستغلال الذريع [94, p.30; 346, p.44] . وهي تعنى بلفظ العبيد أهل مقرّة المستقرين بمصر، أما الطبقات الدنيا فيفهم منها أولئك الذين يطلق عليهم يوحنا النقيوسي اسم «قطّاع الطرق». وفيما يتعلق

بهؤلاء الأخيرين فإنه لا يجب وضع ثقة كبيرة في مصطلحات صاحب «التاريخ» الـذي كان الثـوار بالنسبة له من عامة الناس، بحيث لم يختلفوا في شيء عن «قطّاع الـطرق» . وفي هذا يتردد صوت مواطن يوناني ينتمي إلى فئة الزُرق، يروي، بكثير من المبالغة، « فظائع » الثوار من الفلاحين القبط .

وإن مجرّد واقعة أن ثورة الأقباط و «الاثيوبيين» قد شملت ذلك الشطر المهم من أرض مصر، ليقف شاهداً على تركيبها الاجتماعي العريض. وبخلاف هذا يقدّم لنا يوحنا النقيوسي بعض المعلومات عن الثوار، فيذكر من بينهم الـطوبـارخـات Toparchs (رؤسـاء القـرى) وصيادي الأسماك والنوتية وسبى «الاثيوبيين» بمصر؛ غير أن الكتلة الأساسية انتمت دون شك إلى الفلاحين الأقباط. وغير واضح تمام الوضوح ذلك الموضع من الترجمة الاثيوبية الذي يحكي فيه يوحنا عن ثورة الخضر، والذين وجد بينهم أهل الحرف. وبهذا فإن التركيب الاجتماعي للثورة كان متشاكلاً بما فيه الكفاية. غير أن اتجاهها المعادي لبيزنطة لا يحوم حولـه الشك، وإن لم يصل إلى أيدينا شيء أكثر من ذلك فيما يتعلق ببرنامج الثوار. ولكننا على علم بأن مصر في القرن السادس وبداية القرن السابع تشابكت فيها الاختلافات الاجتماعية التي ساقت إلى التناقض الطبقي، أقول تشابكت مع المشاعر القومية أيضاً. ذلك أن غالبية مؤجري الأرض كانت/ من اليونانيين، كما كان التجار والمرابون وأهل الصناعة الأثرياء بالمدن من اليونان واليهود. أما الفقراء من سكان المدن والفلاحون فكانوا من الأقباط. لهذا فإن الاتجـاه المعـادي للبيزنـطيين ولليونانيين في الثورة، وارتباط الثورة بفئة الخُضْر المونوفيزيين التي تتشكل من الأقباط، إنما يقف شاهداً في حد ذاته على طبيعة الكفاح الطبقي الذي شنهّ الأقباط ضد بيزنطة.

وعلى الرغم من أن حكومة موريقي نجحت في إخمـاد الثورة فقد ظلت مصر في أعماق نفسها ولاية متمرّدة تتحيّن الفرصـة المواتية لاشعال نيران الثورة من جديد. ومثـل هذه الفـرصة سنحت عقب موت موريقي مباشرة، وذلك عنـدما وصلت إلى مصـر من المغرب جيوش اكسارخ افريقيا هرقل المعادية للامـبراطـور فوقـاس ودعت الشعب إلى خلعه بوصفـه مغتصباً للعـرش

الامبراطوري. وكان على رأسها أحد قواد هرقل المدعو نقيطا Nicetas الذي جمع جيشاً كبيراً من المرتزقة و «البرابرة»، وأيضاً من مواطني الاسكندرية المنتمين إلى فئة الخضر [417, p.550]. كذلك انضم إلى نقيطا بمضي الوقت قسم من الزرق [417, p.548]. وبولاية افريقيا القاعدة الأساسية لهرقل انضم إليه الخضر قبل غيرهم.

ولقد اشتعلت نيران القتال من جديد على مدى الامبراطورية بين الخضر والزرق؛ وكانت زعامة هؤلاء الأخيرين يمثلها ملّاك الأرض من اليونان. «وبدأت الاشتباكات الدامية لا بمدن الشرق ومصر وحدها، بل شملت أيضاً آسيا الصغرى وامتدت إلى أوروبا. وفي البداية هزم الخضرُ الزرق، وفيما بعد عندما أرسل فوقاس حملة تأديبية إلى مصر على رأسها ونوس بدأت مذبحة الخضر والمونوفيزيين في ذات الوقت» [35, p.225]. ونزلت قوات ونوس بمصر وبدأت حربها الطويلة مع جيش نقيطا التي تخللها الكثير من المناورات. وكان النصر في آخر الأمر حليف نقيطا بفضل معاضدة السكان من الأقباط [47, p.539 ff.].

ولا يخلو من مغزى أنه في أثناء النضال مع الحكومة البيزنطية ومع الأغنياء من اليونان، اتّحد القبط عن رغبة مع غيرهم من الأفارقة - مع «الاثيوبيين» من أهل مقرّة أثناء ثورة زاريه ومع البربر المغاربة تحت قيادة نقيطا. ولعل الأصل الأرمني لهرقل وعدد من رفاقه أضاف إلى شعبيّته في أعين القبط المونوفيزيين الذين شاطروا الأرمن في العقيدة.

ولقد كانت هذه حقيقة بالغة الأهمية: ذلك أنه بالنسبة للأقباط وأيضاً للسريان وإلى حد ما للأفارقة الرومان، فإن الأرمن و «البرابرة» من جوف أفريقيا وبلاد العرب أخذوا يبدون لهم شيئاً فشيئاً وكأنهم من «ذويهم»؛ أي على نقيض العنصر اليوناني المتغلّب حتى وإن شاطرهم هذا الأخير مجتمعاتهم نفسها. أضف إلى هذا أن المنافس الأكبر لبيزنطة وهي ايران الساسانية كانت على استعداد لاستغلال الاضطرابات بين شعوب أطراف الامبراطورية من الأفارقة والآسيويين. وكان الفرس يعدّون لحرب جديدة من أجل السيطرة على الشرق الأدنى وينتظرون الذريعة المناسبة ليقتحموا حدود الامبراطورية.

١٣ ـ الفرس بمصر وبالبحر الأحمر

بعد استيلاء خسرو الثاني برويز على بلاد العرب الجنوبية وتدعيمه لوضعه بأرض الجزيرة العليا وبمنطقة القوقاز الجنوبية أحسّ الشاه أنه في وضع يستطيع معه مداومة توسّعه في ناحية الغرب، وخاصة بعد فسخه لمعاهدة الصلح مع بيزنطة التي لم تكن في مصلحة الفرس. وقد سنحت له الفرصة في عام ٦٠٣ عندما فقد صهره الامبراطور موريقي عرشه وحياته؛ وكان موريقي قد عاون خسرو في الماضي لاستعادة عرشه. وهلك موريقي نتيجة لعصيان عسكر جيش الدانوب الذي كان يشتو بأرض العدو في مواجهة غزو القبائل الصقلبية. وسخط العسكر على موريقي لوقت طويل لتقتيره عليهم، فرفعوا لواء العصيان واختاروا امبراطوراً جديداً في شخص السنتوريون [قائد المائة] فوقاس وزحفوا في اتجاه العاصمة. ولمّا اقتربوا من القسطنطينية اشتعلت نيران ثورة عامة بين سكانها، فأعدم موريقي علناً واعتلى فوقاس عرش الامبراطورية [68, p.180–187].

وأعلن خسرو برويز نفسه المنتقم للامبراطور «الشرعي» القتيل [68, p.192]؛ مما اجتذب أنصاره إلى شرقي الامبراطورية. وبهذا بدأت حرب جديدة كانت أطول الحروب بين البيزنطيين والفرس (٦٠٢ ـ ٦٢٨). ويلوح أن الشاهنشاه في رغبته لحماية جناحه الأيسر قرر وضع حد للاستقلال النسبي لدولة اللخميين، فألقى بالملك النعمان في سجن الفرس إلى أن مات؛ وبهذا تمت تصفية مملكة اللخميين نهائياً. وعُيّن بالحيرة في صفة عامل ـ مرزبان عربي يدعى اياس بن قبيصة، ومعه حاكم فارسي للإشراف عليه. وبهذا أصبح شمال شرقي الجزيرة العربية ولاية فارسية، أسوة بما حدث مع اليمن. غير أنه امتد بين الولايتين العربيتين للفرس حزام من القبائل العربية المستقلّة، أقواها جميعاً حلف قبائل ربيعة (بكر) وتميم وغيرها. وكان النعمان متمتعاً بنفوذ كبير في وسطهم، لذا أرسل قبل اعتقاله على يد الفرس بأمتعته إلى صهره هاني بن مسعود زعيم ربيعة. فلما طلب خسرو من هذا أن يسلّمه امتعة النعمان كان رده

بالرفض، بل شرع أفراد قبيلته في الإغارة على أملاك الفرس [64, p.78-83]
ولـمّـا كانت القـوات الـرئيسية للفـرس مرابطة بأرض الجزيرة وارمينية في مواجهة القوات البيزنطية، فإنه لم يكن تحت تصرفهم عدد كاف من الجند لصد غارات البدو.

وكان نجاحاً كبيراً للفرس أن انضم إليهم واحد من خيرة قواد البيزنطيين هو نرسيس الأرمني الذي رفض الاعتراف بالامبراطور فوقاس ووضع يده على اذاسا. وباتفاق معه تحرك خسرو برويز في ديسمبر ٦٠٣ بقواته صوب الغرب، وهـزم القائد البيزنطي جرمان على ضفاف الفرات. ويلوح أنه في صيف عام ٦٠٣ وذلك قبل تجدّد العمليات العسكرية ضد البيزنطيين، قام الفرس بمحاولة لسحق البدو من العرب. فتحركت وحدة من خيّالة الفرس يصحبها خمسة آلاف من الأحلاف العرب من الحيرة إلى مياه ذي قار (بنجد)، ولكنهم تعرضّوا لهزيمة منكـرة. ذلـك أنـه أثنـاء القتـال بين الطرفين/ «انسحبت الوحدات العربية المسـاعـدة من ميدان المعـركـة، فأوقـع هذا الاضطراب في صفوف الفرسان الساسانيين» [64, p.78-85; 65, p.76 ff.] . وكانت هذه ظاهرة جديدة تماماً في تاريخ العرب. فعلى الرغم من العداء التقليدي بين قبائلهم ووجود قوّاد موالين للفرس مثل إياس بن قبيصة الذي كان على رأس القوات الفارسية العربية ومعه النعمان بن زوره الذي ترجع إليه فكرة الحملة فقد غلبت العصبية القومية على العصبية القبلية لدى العرب كمجموعة في وجه دولة عالمية هي دولة الفرس. كما لا يخلو من مغزى أن وافق مائتان من مقاتلي قبيلة تميم كانوا في أسر ربيعة على الانضمام إليهم في القتال ضد الفرس [64, p.78ff; 65, p.76ff.] .

ولم يعط استمـرار الحـرب مع بيزنـطة الفـرصة للفرس ليعاقبوا القبائل العربية بنجد، تلك التي قطعت الاتصال بين الحيرة واليمن وانتهبت القوافل الفارسية وهدّدت السيادة الفارسية نفسها بجزيرة العرب. وفي ذات الوقت فإن العـرب، خاصـة حلف ربيعـة ، أحسّـوا في أنفسهم القـوة واقتنعوا بضعف الساسانيين. ولم يمض ربع قرن على هذا حتى تجمعت كلمة العرب تحت راية

الاسلام فوضعوا حداً للسيطرة الأجنبية بالجزيرة العربية، ثم قضوا بالتالي على الدولة الساسانية نفسها.

ووفقاً للملاحظة المحقّة للمؤرخة ن. ڤ. بيغوليفسكيا فإن «استيلاء ايران على اليمن ينبغي النظر إليه على ضوء التوسع الايراني بالغرب» ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية [94, p.335, 346, p.271] . ويبدو أن خسرو الثاني برويز قد عدّ نفسه الوريث الشرعي لعرش بيزنطة . فبحملات عسكرية صيفية ظافرة في الفترة ٦٠٤ ـ ٦٠٩ استولت القوات الفارسية على كل أرض الجزيرة العليا واحتلت جميع الحصون التي تحميها ؛ وفي الفترة ٦١٠ ـ ٦١١ احتل الفرس سورية بما في ذلك مدن حلب وانطاكية وافاميه وحمص وغيرها . ثم اقتحموا آسيا الصغرى حتى بلغوا خلقيدون على البوسفور . وقد أبدى شطر من السكان ، خاصة المتحدثون باليونانية والذين يدينون بالارثوذكسية ، المقاومة ضد الفرس ولكن الشطر الغالب وهم الساخطون على اضطهادات فوقاس للمونوفيزيين والنساطرة واليهود لم يرغبوا في القتال ضد أعداء أعدائهم [89, p.193 ff.] . كذلك اشتعلت الثورات بالولايات الأسيوية والافريقية للامبراطورية .

وشرعت الدولة البيزنطية في الانهيار . فايطاليا حيث جهد فوقاس للمصالحة مع البابا واللنغو برديين ، خرجت في الواقع من سيطرته . وفي عام ٦٠٨ رفض هرقل الخضوع للامبراطور وأوقف إمدادات القمح إلى العاصمة . ثم ضم صفوفه إلى صفوف البربر المغاربة والثوار من المصريين والحاميات التي أخذت جانبه ، فوحّد تحت قيادته جميع افريقيا الشمالية البيزنطية [156, p.21–42; 89, p.189–190] . ونتيجة لهذا سقطت جميع أهراء القمح الكبرى للامبراطورية في يد العصاة . أما تراقيا / وغيرها من ولايات البلقان التي تمثل مصدر القمح الثاني لبيزنطة ، فقد عاث فيها الصقالبة . وبخلاف هذا كانت فصول الشتاء للأعوام ٦٠٧ ـ ٦١٠ قارسة البرد بصورة غير عادية . وبشهادة ميخائيل السرياني وثيوفان الداعي فإن « الفرات وغيره من الأنهار تجمد ماؤها وسقط ثلج كثير وحدث صقيع هائل » ؛ كذلك

تجمدت سواحل البحر المتوسط فهلكت الأسماك وهلك محصول الحبوب وتجمدت أشجار الفاكهة [89, p.195-197] . أما الزراعة التي خرجت بالكاد من كوارث الأعوام ٦٠٠ ـ ٦٠٤ فقد ألحق بها التجمّد أضراراً بالغة. وهكذا فشل النظام الاقتصادي للامبراطورية الذي كان يستند في جوهره على الاستغلال الاقطاعي للولايات بواسطة الدوائر العسكرية والبيروقراطية بالحكومة المركزية. وأما في المدن التي ظلت تحت سلطان فوقاس فقد ثار السكان وخربّوا المؤسسات الحكومية [89, p.180-188] .

وفي خريف عام ٦١٠ تمكّنت الحملة العسكرية التي قادها هرقل الأصغر بن الاكسارخ هرقل ، وذلك بعد أن وضعت يدها على السلطة بالشمال الافريقي وانضوى تحتها الموريون وغيرهم من أهالي افريقيا الشمالية [85, p.242] ، من احتلال العاصمة القسطنطينية بمساعدة فئة الخضر بالمدينة. فأعدم فوقاس وتوجّ هرقل امبراطوراً.

أما الفرس فتابعوا تقدمهم حتى بلغوا سواحل البحر المتوسط ومزقّوا الامبراطورية شر ممزق. ففي عام ٦١٢ هُزم البيزنطيون على ضفاف نهر هاليس [قزيل إيرماق الحالي]، وفقدوا قيساريه قبادوقية [قيصري] وعدداً كبيراً من المدن الصغرى؛ ومرة أخرى اجتاحت القوات الفارسية جميع البلاد إلى خلقيدون . وفي سورية احتل الفرس دمشق، ثم المناطق الساحلية. وفي حملة ٦١٣-٦١٤ وضعوا يدهم على فلسطين بكاملها، بما في ذلك اوريشلم التي أجروا فيها مذبحة للنصارى وأخذوا الباقين سبايا. وقد أنقذ قسم من النصارى أنفسهم بالهرب إلى المدن والواحات في الجزيرة العربية فزادوا في أعداد الجماعات النصرانية فيها. أما اليهود الذين كانوا يشكّلون آنذاك غالبية سكان اوريشلم فقد فتحوا أبواب المدينة للفرس واستقبلوهم كمحررين [156, p.59-62; 89, p.199-202] . وكان للفرس أنصار من اليهود والنصارى المونوفيزيين في جميع المدن الكبرى بالشرق الأدنى، وخاصة انطاكية والاسكندرية وغيرها؛ بل وحدثت حالات فضّل فيها ممثلو الأعيان من اليونانيين والارثوذكس التفاوض مع قائدي القوات الفارسية [89, p.201-202] . وفي عام ٦١٤ اقتحم الجيش

الشمالي للفرس من جديد آسيا الصغرى، ومرة أخرى بلغ خلقيدون وهدّد القسطنطينية تهديداً مباشراً. وفي الوقت نفسه زحفت على العاصمة من جهة الغرب القوات المتحدة للافار والصقالبة. وكانت وحدات أخرى لهم تحاصر سالونيكا ، ووضعت يدها على صولونا بدلماسيا وانتقلت جميع شبه جزيرة البلقان باستثناء بضعة مدن ساحلية إلى أيدي الصقالبة. وفي عام ٦١٦ حاصروا سالونيكا من جديد، ولكن في هذه المرة من البر والبحر معاً؛ وعلى الرغم من ذلك لم يستطيعوا الاستيلاء عليها.

وفي الوقت ذاته بدأ الجيش الجنوبي للفرس غزوه لمصر، بعد أن فرغ من إخضاع فلسطين. ففي خريف ٦١٦ [156, p.504] اجتازت القوات الفارسية برزخ السويس ثم عبرت الدلتا/ وحاصرت الاسكندرية التي استمر حصارها أكثر من عامين ولكنها استسلمت في عام ٦١٨ للقائد الأعلى للفرس (فاذوسپان الغرب) السالار شاهين(٧٨) [156, p.75-80] . وقتل شطر من السكان وأخذ البعض سبايا، غير أن القسم الأساسي من الأقباط واليهود ومن المحتمل أيضاً السريان من أهل الاسكندرية احتفظوا بحياتهم وبحق العيش بمسقط رأسهم. وفوق هذا فإن ممثلي الأقباط شغلوا للمرة الأولى بعد قرون عديدة من السيطرة الأجنبية مراكز رفيعة في إدارة الاسكندرية. فمثلا ابن عم البطريرك القبطي اندرونيقوس أصبح رئيساً للمجلس البلدي فيها. وحتى لو لم يقابل الأقباط من أهل الاسكندرية الفرس كمحررين لهم من الاضطهاد البيزنطي أسوة باليهود [89, p.81-83] ، فإن مكانتهم تحت السلطة الجديدة نمت نسبياً.

وكان استيلاء الفرس على مصر ضربة قاسية لاقتصاديات الدولة البيزنطية. وكما سبق أن أشرنا فإن هذه الولاية كانت مركزاً من مراكز الانتاج الصناعي المتطّورة [114] و «مصدر القمح بالنسبة للامبراطورية الرومانية الشرقية». وإلى جانب هذا كانت مصر تمد بلاد العرب بالحنطة، وعلى ما يبدو أيضاً بلاد النوبة الشمالية [71, p.2-3] . لذا فإن انتقالها إلى أيدي الساسانيين

(٧٨) تطلق معظم المصادر على القائد الايراني الذي فتح مصر اسم شاهين ؛ وميخائيل السرياني هو الوحيد الذي يجعل فاتح مصر ياتسوكيان [فاذوسيان] ايرانياً آخر هو شهر براز [89,p.203].

أعطاهم وسيلة للضغط على اقتصاديات هذه الأقطار. وبعد استيلاء الفرس على الاسكندرية تحركت قواتهم مصعّدة مع النيل. وتحكي لنا «سيرة» بيزنطيوس الأسقف القبطي كيف ظهر الفرس أولاً بقفط، ثم بالتالي بصعيد مصر. وقد هرب بيزنطيوس نفسه ومعه تلميذه الوفيّ يوحنا إلى الصحراء [156, p.83-86] . ومن الممكن أن بعض رجال الدين والرهبان والعلمانيين من صعيد مصر لاذوا من الفرس ببلاد النوبة .

وهكذا فإنه حوالي عام ٦١٨ [156, p.504] ضُمت مصر كلها إلى الدولة الساسانية. ويؤكد الطبري في القرن العاشر أن القوات الساسانية لم تضع يدها على مصر وحدها بما في ذلك الاسكندرية ، بل على النوبة أيضاً [10, p.1002] . غير أنه لا يوجد مؤلف يوناني ولا سرياني يؤكد قول المؤرخ الاسلامي. ووفقاً لألفاظ ثيوفان الداعي (مات في بداية القرن التاسع) فإن الفرس لم يحتلوا سوى «مصر كلها والاسكندرية وليبيا إلى حدود اثيوبيا (أي بلاد النوبة)» [85, p.266] . أما ميخائيل السرياني في القرن الثاني عشر فيعطي المعلومات الموجزة لمصدره بالطريقة التالية: فقد احتل الفرس «ليبيا إلى حدود الكوشيين» [89, p.203] . وأما الحوليات السريانية لمؤلف مجهول فتتحدث فقط عن ضم مصر والاسكندرية إلى دولة الساسانيين [89, p.263] ؛ على أن الفرس لم يتوغلوا أبعد من ذلك صوب الجنوب أو الغرب. وكانت قواتهم الرئيسة مقيّدة في نواحي الشمال الغربي ضد البيزنطيين، لهذا فقد كان من العسير عليهم التوغّل في جوف القارة الافريقية.

ولابد أن أفعال القوات الساسانية بمصر، كما كان الشأن من قبل ببلاد العرب وسورية وفلسطين حيث جرت مذابح كبرى للنصارى، ساقت إلى سخط الدوائر الحكومية والكنسية بأقطار افريقيا الشمالية الشرقية. ويبدو أن الشعور الذي انتشر هنا كان أشبه بذلك الذي انبعث على عهد اضطهاد/ النصارى بالجنوب العربي قبل مائة عام من ذلك، وإن خفف منه التسامح الذي وقفته السلطات الفارسية بسورية ومصر على وجه العموم ازاء المذهب المونوفيزي. ويضع المؤلف القبطي لنهاية القرن السابع على لسان القديس

شنوتي الرؤية الأتية: «سيأتي الفرس إلى مصر يسفكون الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبون اولادهم يبيعونهم بالذهب، فإنهم قوم ظالمون معتدون وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغتصبون الكنائس وما بها من آنية مقدّسة ويشربون الخمر في المحراب لا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن. وسيبلغ الشر أعظمه والشقاء قصاراه، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس في بؤس وعذاب، وسيبقى الفرس في مصر حيناً من الدهر ثم يخرجون منها» [156, p.87-88] .

أما دخل الكنيسة القبطية فقد فرضت عليه الضرائب، وإن لم تغلق كما هو الشأن مع الكنيسة الارثوذكسية. ويلوح أن من بقي من الارثوذكس بمصر اضطروا إلى الانضمام إلى الكنيسة المونوفيزية حفاظاً على حياتهم وحريتهم. وأمام الموقف السلبي للفرس من النصرانية، لم يكن من المتوقّع ألّا تحدث أعمال عنف ضد دين القبط. ويشهد بهذا حكاية في «سيرة القديس صمويل» عن جهد «البرابرة» (وواضح أن المقصود بذلك الفرس) في قسر ذلك القديس على السجود للشمس، فلما أبى قرنوه إلى جارية سوداء ولكنهم أطلقوا سبيله فيما بعد وأعيد إلى ديره حيث مات فيه بعد أن تنبأ بمجيء «برابرة آخرين» - أي العرب [127,p.384-385] . ويجتذب النظر في هذه الحكاية أمران؛ أولهما أن صمويل قد أطلق سراحه على أية حال، والثاني أن رفيقته في المقاساة كانت امرأة سوداء أغلب الظن نوبية أو اثيوبية. غير أنه باستثناء هذا لم يحدث اضطهاد منظّم للمونوفيزية.

ومهما بلغ طغيان السلطات الفارسية فإنه لم يكن من شأن الادارة الفارسية بمصر أن تكون كبيرة العدد بشكل خاص، أو ذات فاعلية. فليس اعتباطاً أنه لم يصلنا من هذه الفترة سوى عدد ليس ذا بال من الوثائق الإدارية [117, p.9] . وحكماً من كل شيء فإن الفرس عند احتلالهم لمصر قد أداروها بصورة أساسية بوساطة الأعيان المحليين وزعماء الجماعات الدينية. أما السلطة الاقتصادية والإدارية بالأقاليم فقد تركزت أكثر فأكثر بالأديرة والابرشيات والملكيات الكبيرة.

ويبدو أن العلاقات التجارية بين النوبة ومصر لم تنقطع حتى في عهد الاحتلال الفارسي - ومن المستبعد أنه جرى قطعها برغبة السلطات الفارسية أو بأوامر ملك نوباته. والرسوم على الخزف النوبي المختوم من النوع «الكلاسيكي» لم يسترع انتباه المؤرخين فيما عدا واحدة منها فقط. فختمها على هيئة نوط به صورة جانبية لوجه رجل فارسي وبتاج غريب فوق رأسه، ومنقوش حولها في شكل دائرة اسم «يرسوس» (أي الفارسي) توضيحاً للرسم. وكما بيّن ب. ل. شيني P.L. Shinnie وم. شيني M.Shinnie فإن هذا الختم يحاكي بوضوح واجهة السكة الساسانية لأوائل القرن السابع، أي عهد الاحتلال الفارسي لمصر [387, p.267-268] . ومن هذا يرجّح أن النقود الساسانية/ التي وجدت طريقها لأول مرة إلى بلاد النوبة في ذلك العهد، قد تركت أثرها على الصنّاع المحليين.

ولم تصلنا معلومات عن الوضع في بلاد النوبة واكسوم في سني الاحتلال الفارسي لمصر، ولكن تتضح لنا بعض المعالم التي اتسّم بها الوضع السياسي العام. فظهور دولة عالمية جديدة على الحدود الشمالية الشرقية لافريقيا معادية للنصرانية أو متسامحة معها بعض الشيء، لا بد أنه ساق أيضاً إلى قلق عام في كل من بلاد النوبة السفلى ومقرّة وعلوه واكسوم. ولابد أن عزلة مقرّه قد زادت بصورة حادّة، لدى مقارنة ذلك بالعهد الذي لم تكن فيه الارثوذكسية قد جرى اضطهادها بمصر بل وكانت العقيدة الرسمية بها؛ وأيضاً عندما كان بمقدور مقرّه نفسها أن تعتمد على مساندة بيزنطة.

وكما حدث في القرن السادس قبل الميلاد فقد أخضعت دولة فارسية من جديد جميع الشرق الأوسط ومصر. غير أنها أضافت الآن إلى الأملاك الفارسية أيضاً افريقيا الشمالية الشرقية من جهتين - الشمال والشرق، وذلك من ناحية مصر ومن ناحية بلاد العرب. وبهذا فإن علاقات اثيوبيا والنوبة بالعالم المتحضر، بما في ذلك بيزنطة والهند، لم يعد بالامكان مباشرتها إلاّ من خلال الأملاك الفارسية وتحت سيطرة الساسانيين، بما يصحب ذلك من دفع المكوس على السلع إليهم.

وإلى الشرق من ايران لم يعد يوجد منافسون خطرون باستثناء الهفتاليين. وفي الهنـد إلى الشرق من أمـلاك الفرس (بالسندوبوادي كابل) لم توجد دولة قوية[٧٩]؛ وفقط بوادي الكنج بدأ هرشقرذنه Harshavardhana منذ عام ٦٠٦ يشكّل مملكته الواسعة .47, p.70ff . ولا يخلو من مغزى أنه على الرغم من أن أمـلاكـه الـوراثية وعـاصمتـه استنقشقـره Sthanvisvara كانت بمنـطقة دهلي وبالبنجاب الشمالية الشرقية، فقد اهتم بتوسيع أملاكه بصورة استثنائية في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ولم يقترب من حدود الدولة الساسانية.

وإلى الشـمال الشرقي من ايران انهارت خاقـانية الترك الغربيين بصورة نهائية (٦٠٤) ، وتوزّعت فلولهم إمارات صغيرة (اردوات) (٦١٢) . ولكن حوالي عام ٦١٦ عندما شغلت القوات الرئيسة للساسانيين بالحرب في الغرب ، خرج الهفتاليون وحلفاؤهم الترك من طخارستان وخراسان في غزوة خربّوا فيها جميع القسم الشمالي الشرقي من ايران حتى الري واصفهان . ولم يكن بوسع خسرو برويز أن يفرد لقتالهم سوى كتيبة من الفرسان لم يتجاوز عددها الألفين، ونصب على رأسها أحد قواده وهو أمير أرمني يدعى سمبات بتراتوني الذي كان مرزباناً على جرجان . وعلى الرغم من بعض النجاح الذي ناله سمبات فإنه لم يكن بمقـدوره أن يكسر شوكة الهفتاليين ، فاضطر الفرس إلى اقتطاع قوات عسكرية ذات بال من أجل المشرق [65, p.82–83] .

وعلى نقيض ذلك استطاعت بيزنطة بعد عقدها الصلح مع الأفار عام ٦١٩ من إطلاق يدها من الشمال حتى تتفرغ للنضال مع ايران . وانقضت ستة أعـوام قبـل أن يتمكن الافار في عام ٦٢٦ ، وذلك بعد أن أخضعوا البلغار الكوتور غوريين وغيرهم من القبائل التي حرّضتها بيزنطة عليهم، من الإغارة

---

(٧٩) في أحد أبهاء اجانتي حفظ لنا رسم جداري يصوّر استقبال سفراء خسرو برويز بواسطة أحد ملوك أسرة جالوكيا التي حكمت آنذاك بشمال الدكن، اسم الملك بولاكيشين الثاني (٦١٠ - ٦٢٤). وفي عام ٦١٠ وصل مبعوثو خسرو برويز الى بلاط امبراطور السوي بالصين. ومن المؤسف أنه بالنظر لغياب المصادر فلا نستطيع إلاّ الافتراض بأنه وجّهت أيضاً سفارات ايرانية في تلك الأزمنة إلى دول افريقية مثل اكسوم ولعله أيضاً إلى نوباته.

من جديد على أراضي الامبراطورية. في تلك الآونة ظهر لدى الترك الغربيين، وبطبيعة الحال لأحلافهم/ البيزنطيين، حليف قوي جديد ممثلاً في امبراطورية التانج Tang بالصين. وكان الترك الغربيون أنفسهم قد استعادوا قواهم من أجل الكفاح مع الفرس. ففي عام ٦٢٠ تشكّل في آخر الأمر حِلْفان من الدول كادا ينتظمان العالم المتمدّن بأجمعه لذلك العهد. الأول منهما مركب من بيزنطة وامبراطورية التانج وخاقانية الترك الغربيين ومملكة الهفتاليين وعدد من دول الدرجة الثانية أو الثالثة. هذا الحلف وجد في مواجهته حلف آخر يقف على رأسه دولة الفرس وخاقانيان الأفار والترك الشرقيين [26, p.182–184] . وقد عمل كل من الحلفين بنشاط ليكسب أحلافاً جدداً بمنطقة القوقاز الجنوبية وبأوروبا الشرقية. غير أن جزيرة العرب الكبيرة التي وجدت نفوذ الدولة الساسانية، وأيضاً دول الشمال الشرقي الافريقي المجاورة لها، لم تهرع إلى المشاركة في «الحرب العالمية للقرن السابع» [26, p.193] ضد القوة المسيطرة آنذاك على أقطار البحر الأحمر دون نزاع، وهي ايران. حقاً حدث ضرب من التذمّر بمصر والحجاز كما اندلعت ثورة باليمن، ولكن الساسانيين ظلوا على وجه العموم مسيطرين على الوضع في الأقطار التي فتحوها ببلاد العرب وافريقيا وبسواحل البحر الأحمر وبحر العرب إلى عام ٦٢٧ .

وفي الجنوب العربي اختلط الفاتحون الفرس، كما حدث مع الاثيوبيين من قبلهم، بالسكان الأصليين للبلاد وكوّنوا طبقة حاكمة جديدة. وعشية الإسلام وفي العشرات الأولى من حياة الدولة الإسلامية حمل هؤلاء اسم «بني الفرس». وغير واضح تمام الوضوح علاقة هذه الجماعة العرقية بمن يشار إليهم زعماً «بالفرس» بالمدن الساحلية بالقسم الجنوبي من البحر الأحمر وخليج عدن، وإن افرد لهذه المسألة عدد كاف من البحوث [142, p.200, 295–296; 317, p.30ff; 352; p.41ff; 395, p.52] . وينسب إلى هؤلاء «الفرس» في الأساطير الشعبية لأهل عدن وجده على الساحل العربي، وبربره وبيلول ورهيته وعصب وعيذاب على الساحل الافريقي، وبجزر سواكن ومصوع وعقيق (اركيكو) وايرى ودهلك الكبير وغيرها من جزر الساحل الافريقي، عمل الآبار والصهاريج (بما في ذلك

الصهاريج المشهورة بعدن ودهلك الكبير وادال ومصوع وغيرها) بل حتى تأسيس مدينة زيلع. ويصوّر هؤلاء الفرس على أنهم شعب من العمالقة وأهل الصنعة، اشتغلوا بالملاحة والتجارة والبناء. غير أنه لا واحدة من هذه المنشآت المنسوبة لهؤلاء «الفرس» من الممكن اسنادها بصورة جازمة إلى أهل الصناعة الفرس؛ بل إن بعضها يبدو واضحاً أنه من أصل مغاير. فمثلاً بأرخبيل دهلك وبالجزيرة التي تحمل الاسم ذاته يعدّ السكان المحليون من آثار نشاط الفرس: صهريجاً (بل وصهريجاً آخر بجوار قرية أدال) ، وأطلال مقدس وثنى اكسومي من القرن الثاني - الثالث ، وبيعة نصرانية من القرن الرابع - الخامس، ومقابر محلية للمسلمين من فترة القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، وأيضاً جبانات قديمة بعضها غير بعيد العهد نسبياً ولا يوجد فيها أي أثر للطقوس الزردشتية [352, p.35ff.] .

وكان العالم الطبيعي الايطالي أ. ايسيل A.Issel هو أول من أعرب في عام ١٨٧٠ عن فرض مؤدّاه أن « الفرس » في أساطير جزيرة دهلك الكبير إنما هم/ الايرانيون الذين فتحوا اليمن في نهاية القرن السادس، والذين يقال إنهم احتلوا جزر البحر الأحمر بعد أن ثبّتوا أقدامهم في الجنوب العربي [259, p.70, note 2] . هذا الفرض بدا مغرياً للغاية . غير أنه في عام ١٩٢٨ قام كونتي - روسيني بفحص دقيق للقصص المتصل «بفرس» البحر الأحمر وخرج بنتيجة مفادها أن سيطرة الفرس الساسانيين على البحر الأحمر لم تكن بذلك القدر من الأهمية والاستمرار لتسمح لهم باقامة المنشآت المنسوبة إليهم والتي تركت ذلك الأثر القوي على ذاكرة السكان [200, p.295-296] . ويرى مونيريه دي ڤيلار U.Monneret de Villard أن الأساطير المتعلقة «بالفرس»، كما هو الحال مع الأساطير المتعلقة «بالشيرازيين» بسواحل افريقيا الشرقية الأبعد إلى الجنوب، إنما هي من آثار التسرب السلمي إلى داخل هذه المناطق للتجار البحريين من الفرس، وليس شاهداً على السيطرة السياسية للدول الايرانية [317, p.30ff.] . وفي الوقت الحاضر غلبت وجهة النظر هذه في الدوائر العلمية [352, p.47] . ولقد أثبتت البحوث الأثرية التي

أجراها ج. پوليزي G. Puglisis بدهلك أنه من المستحيل الاتفاق مع الرواية المحلية المتواترة التي تنسب جميع هذه الآثار إلى الفاتحين الساسانيين لليمن أو إلى خلفهم المباشرين. وفوق هذا أعرب ج. يوليزي عن فرض مؤدّاه أن الاسطورة المتعلقة «بالفرس» إنما تستند على الرحلات البحرية للتجار الفرس في الفترة من القرن السادس إلى القرن العاشر [47–35] .

وبهذا فإن المسألة المتعلقة «بالفرس» في القسم الجنوبي من البحر الأحمر وخليج عدن ينبغي فصلها عن تاريخ الفتح الفارسي لبلاد اليمن في نهاية القرن السادس؛ فالرواية المحلية المتواترة لا تقدّم دليلاً ما على أن الاسطول الساساني الـذي جعل قاعدته بالمواني الجنوبية لبلاد العرب قد استولى على جزر ونقاط ساحلية عديدة بافريقيا الشمالية الشرقية. غير أنه بمقدورنا أن نخرج باستقراء تخميني بحت مفـاده أن التجـار الايرانيين استغلوا منـذ عام ٥٩٩ أساطيلهم الخاصة المستندة على قواعدهم بمواني الخليجين الفارسي والعدني وأيضاً بالبحر الأحمـر، وأسـاطيل بلاد العـرب الشرقية والجنـوبية الخاضعة لهم بما في ذلك سقـطرىٰ على وجـه الاحتمال، فعملوا على احتكار التجارة البحرية بسواحل افريقيا الشرقية وافريقيا الشمالية الشرقية في أيديهم. أما إلى أي حد كانت هذه المحاولة ناجحة فهو مجال للحدس والتخمين. على أي، فإن الأعداء الأساسيين للفرس وهم البيزنطيون توقفوا كلية ابتداء من تلك اللحظة وإلى ما بعدها عن الملاحة وراء مضيق باب المندب إلى عدن وإلى افريقيا الشرقية والهند وإلى آسيا الجنوبية الشرقية. وغير معلوم لنا هل استمر الاكسوميون في مثل هذه الرحلات البحرية أم أوقفوها هم أيضاً. ويجب الافتراض بأن هيمنة الفرس على طرق الملاحة بالمحيط الهندي والقسم الجنوبي من البحر الأحمر لم تكن في مصلحة تجارة اكسوم وعدولي؛ غير أن المعطيات المدوّنة والمادية نزرة للغاية بحيث لا تعين في إصدار حكم مؤكّد في هذا الصدد.

١٤ ـ اثيوبيا وبلاد العرب في الربع الأول من القرن السادس

على الرغم من هيمنة الفرس على الجزيرة العربية والبحر الأحمر فإن الاتصال بين مناطق بلاد العرب الداخلية واثيوبيا لم ينقطع. فالأخبار العربية المتواترة التي نلتقي بها في مصنف الطبري في التاريخ تروي رحلات تجارية/ لأهل مكة من قريش إلى اثيوبيا، وللاثيوبيين إلى الحجاز عشيّة الإسلام. فيقال مثلاً عن أولاد عبد مناف (في حدود القرنين السادس والسابع) إنهم تاجروا مع مختلف الأقطار وإن أكبرهم سناً عبد شمس تاجر مع ملك اثيوبيا . والأخبار المتصلة ببداية الدعوة الإسلامية تشير إلى تجارة واسعة للقرشيين من أهل مكة مع مملكة اكسوم: « وكانت أرض الحبشة (في بداية القرن السابع) متجراً لقريش يتّجرون فيها ويجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً » . وطريفة الاشارة إلى أمن المتجر داخل حدود مملكة اكسوم في بداية القرن السابع، مما يقف دليلاً على توطّد السلطة المركزية وسعيها لتشجيع التجارة الخارجية والداخلية. وقد لجأ المهاجرون من المسلمين الأوائل إلى الحبشة، وكانت مجموعتهم في البداية تتكون من خمسة عشر شخصاً أبحروا من ميناء الشعيبة بالحجاز على «سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار» (للرأس الواحد؟). من هذا يتبيّن أن الاتصال المنتظم كان متيسّراً بواسطة السفن التجارية الخاصة (ليست من الحجم الكبير، لأن خمسة عشر شخصاً احتاجوا إلى سفينتين) على أساس جُعْل محدّد للعبور. وعلى الرغم من أن هذه المعلومات جرى تدوينها في القرن الثامن إلّا أنها من الممكن أن تعكس تماماً ذكرى غير بعيدة لبداية القرن السابع [10, p.1181-1182] . وفي الوقت ذاته بالتقريب وصل إلى «عاصمة ملك الحبش» الشاعر العربي المشهور الأعشى من اليمن، وهو معاصر النبي محمد وعرف بكثرة أسفاره ببلاد العرب وسورية وفلسطين [14, p.490] . ويبدو أنه كان من الممكن الالتقاء

باكسوم لذلك العهد بجماعات من مختلف الأقطار؛ لا من جنوب وغربي الجزيرة العربية فحسب بل ومن شرقيها أيضاً.

وكان ف. ف بارتولد V.V. Bartold [المستشرق والمؤرخ الروسي النابه] هو أول من لفت النظر إلى الرواية التالية التي حفظها لنا ابن هشام والطبري. فيقال إن أحد أعداء النبي وهو عِكْرمة بن أبي جهل (الذي اعتنق فيما بعد الإسلام وجاهد في سبيله جهاداً شدَيداً) كان قد جمع ثروة طائلة من تجارة الطيب (الافريقي؟) ثم هرب من مكة عند استيلاء المسلمين عليها عام ٦٣٠، فاتجه إلى ساحل البحر ليحاول العبور إلى الحبشة. «فكان عكرمه يحدّث فيما يذكرون أن الذي ردّه إلى الاسلام بعد خروجه إلى اليمن أنه كان يقول اردتُ ركوب البحر لألحق بالحبشة فلما أتيتُ السفينة لأركبها قال صاحبها يا عبدالله لا تركب سفينتي حتى توحّد الله وتخلع مادونه من الأنداد فإني أخشى إن لم تفعل أن نهلك فيها» [10, p.1640ff.] ويعلّق بارتولد على هذا بقوله: «ومن الممكن أن الاتصال البحري بين الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر المواجه لها كان في يد الأحباش النصارى» [13, p.108,110]. وليس في هذا شيء غير محتمل، حتى وإن لم يكن صاحب السفينة بالضرورة اثيوبياً. وهو لم يقل عنه إنه كان حبشياً بل كشف فقط عن كونه موحّداً، أغلب الظن نصرانياً. غير أنه في القرن السادس كان يعتنق النصرانية بخلاف الأحباش أيضاً عرب ساحل البحر الأحمر، مثل أهل فرسان الذين كانوا ملاّحين بطبعهم. ولعله إلى عدادهم / كان ينتمي أيضاً صاحب السفينة الذي توجّه إليه عكرمة.

وفي الشعر الجاهلي لنهاية القرن السادس وبداية السابع نلتقي بأمثلة للملاحة على سواحل اثيوبيا. فالشاعر طرفة بن العبد يذكر في إحدى قصائده سفن عدولي بقوله:

عدولية أو من سفين بن يامن   يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

ويقارن كثير عزّة ركوبة ممدوحه بسفن عدولي وهي مبحرة عند الصباح من دهلك:

كأن عدولياً زهاء حمولها غدت ترتمي الدهنا بها والدها لك

ولا تتحدث الرواية العربية المتأخرة عن ذكرى ازدهار عدولي إلّا في الأزمنة السابقة للإسلام، عندما «لم تزل العرب على قديم الزمان تأتي هذه المملكة [اكسوم] للتجارات . . . » [70, p.254, 259] . كذلك يقتبس البيروني قولاً يشير إلى أن «الأحابيش» أخذوا طرفاً مع القبائل العربية في سوق «من أعظم أسواق العرب» قبل الاسلام، وهو المنعقد بواحة عكاظ بين جدة والطائف [80, p.110] . والحقيقة أن هذا الخبر يتعلق بعصر أوسع بكثير من الفترة الممتدة من نهاية القرن السادس إلى بداية القرن السابع؛ أضف إلى هذا أن مفهوم «الأحابيش» هاهنا لا يقتصر على سكان مملكة اكسوم بل يشمل أيضاً جميع الاثيوبيين النازلين بجزيرة العرب لهذا فإنه لا تكاد توجد في أيدينا في واقع الأمر معلومات تتعلق بالملاحة الاثيوبية في فترة السيادة الاثيوبية باليمن.

والشعر العربي والأخبار المتواترة لذلك العهد لا تصوّر لنا «الأحابيش» كتجار أو غزاة من البحر، بل كعبيد فحسب أو مرتزقة يعملون لدى زعماء القبائل العربية. وفي معارك القبائل العربية لذلك العهد شاركت جنباً إلى جنب مع فرسان العرب المدجّجين بالسلاح وحدات خاصة من العبيد والمرتزقة بأسلحتهم الخفيفة. وكانت غالبيتهم من الأحباش، حكماً من اسمائهم والنعوت المختلفة التي حملوها ونوع أسلحتهم. وواقع الأمر أنه لم يوجد بافريقيا جميعها لذلك العهد فرسان مسلحون تسليحاً ثقيلاً، باستثناء البيزنطيين والفرس بمصر. أما بشمال شرقي افريقيا فلم يوجد سوى حملة الرماح من الخيّالة والمقاتلين على ظهور الإبل والمشاة الذين يرمون من الأقواس، وبصورة أساسية حملة الحراب من المشاة. وببلاد العرب كان سلاح المشاة إلى جانب ذلك النبل والحراب التي يقذفون بها وأيضاً على ما يلوح الدرق، ولكن لم يكن لديهم حلق الزرد. وكان السلاح الذي لم يكن ليستغنى عنه المقاتلون من الأحباش هو خنجرهم الكبير المعقوف، أما السيف فحمله القادة فقط. هكذا وصف لنا شعراء العرب ومؤرخوهم المقاتلين الأحباش البسطاء، وهكذا صوّر لنا أحدهم في القرن السادس قزما الذي أبحر إلى الهند. هؤلاء المقاتلون حملوا لدى العرب

اسم «الحبش» («الحبشة والحُبْش و الأحابيش») و «السودان» (أي سود البشرة) و «العسكر» ؛ وذلك تمييزاً لهم من العرب الأصليين، فرساناً كانوا أو مشاة. ولعل لفظ «عسكر» و «عسكري» من أصل اثيوبي★، وأيضاً تسمية موضع نزول الجند «بالمعسكر». وأول مرة يظهر فيها لفظ «عسكري» في اللغة العربية كان في أبيات لشاعر يثربي من القرن السادس هو قيس بن الخطيم الذي مات قبل الهجرة بسنوات قلائل [282, p.445] . وفيها بعد نفذ اللفظ إلى لغات الشعوب الإسلامية الأخرى بمعنى «الجندي»، وأيضاً في صورة اسم علم. والشعراء الجاهليون/ كثيراً ما تغنوا بذكر الأحباش رماة الحراب وبسلاحهم. فالشاعر لبيد يمجّد الرماح الجميلة من سمهر (بساحل اثيوبيا إلى الجنوب من عدولي) و «الحبش»، بقوله:

. . . . حُبشاً قياماً بالحراب وبالألال [282, p.433](٨٠)

وكان اشهرهم بلا خلاف عنترة أحد «أغربة العرب» [282, p.433;200, p.204] ، الذي كان نفسه ابناً لأمة اثيوبية . ولابن ذئبة أحد شعراء ثقيف من غير المشهورين أبيات يشهد فيها بما خلفه في ذاكرة ساكني جبال سراة الحجاز ورود الأحباش ظافرين في سهول تهامة بعد أن دخلوا اليمن وأخضعوها . قال [282, p.433] :

أبعد قبائل من حمير أبيدو صباحاً بذات العِبرَ
بألف ألوف وحُرّابة كمثل السماء قُبَيْل المطر
يُصمّ صياحهم المقربات ينفون من قاتلهم بالزفَر
سعالى كمثل عديد التراب ييبس منهم رطاب الشجرَ

★ *إنني أميل الى الرأي الذي يقول بأن لفظ «عسكر» من اللاتينية exercitus (اكسرسيتوس) . (المترجم) .*

(٨٠) توجد ترجمة روسية لقصيدة لبيد من عمل إ. سنكوفسكي O.I. Senkovsky [103, p.313 ff.] . وقد حفظت بالمدينة في القرن التاسع وما يليه حربة يقال إنه أهداها إلى النبي محمد نجاشي اكسوم وجلبها معه من اثيوبيا الزبير [بن العوام] ابن أخ خديجة زوج النبي الأولى★★؛ غير أن مصادر القرنين السابع والثامن لا تعرف شيئاً بصدد هذه الحربة [15, p.95]

وفي القصة الشعبية العربية من القرون التالية أخذت وحدات المقاتلين من الأحباش صورة عصابات اللصوص المتعطّشة إلى سفك الدماء . بهذا تصف «سيرة عنترة» ثلاثين من العبيد السود من اليمن تحت زعامة طارق الزمان وهو عبد أسود عملاق ، كانوا يختطفون الفتيات ويغتصبوهن ثم يلتهمونهن عقب ذلك [111, p.178] . وفي واقع الأمر كان أولئك الجنود السود والعبيد الآبقون يتصرفون هكذا في القرن السابع فسببوا الهلع والفزع للقوافل وسكان الواحات ، شأنهم شأن عصابات البدو . ويرد الكلام عنهم في القرآن وفي «سيرة النبي» لابن هشام . غير أن الشخصية الغالبة في القصص الشعبية لم يكن قاطع الطريق الأسود ، بل الحبشي المخلص والحارس الشجاع لأسياده . وخير مثال لهذا شخص بلال الذي عمل في البداية حارساً للنبي . ثم انضم بالتالي مع غيره من المقاتلين الأفارقة إلى قوات النبي . وكان يمشي بين يدي النبي مستلاً سيفه . وكغيره من الحكام العرب بالحجاز فإن محمداً اتّخذ لنفسه حرساً أسود ؛ وإلى جانب بلال دخل في عدادهم في أغلب الظن الأحباش والعبيد الذين كانوا رقيقاً لأفراد اعتنقوا الإسلام(٨١) .

وكذلك وجد لدى النبي في منزله خدم موثوق فيهم ومعتقون من الأفارقة . وكان أحد هؤلاء صالح بن عدي أو شُكران (وهو اسم معتاد للعبيد!) [10, p.1778] . وتضع الرواية المتأخرة على لسان محمد الثناء عليهم ؛ وأيضاً الحديث النبوي «خير سبيكم النوبة» [70, p.80] . وعلى الرغم من أن هذا الحديث★ استعمل فيما بعد لتبرير «البَقْط» ، فمن الممكن أن هذه الصورة عن الموالي من النوبة بالحجاز في بداية القرن السابع انطبقت على واقع الحال آنذاك

(٨١) قام هؤلاء المقاتلة بتسلية عائشة زوج النبي بلعبهم بالحراب [282. 434] . ويفترض كونتي - روستي أن هذا كان رقصاً من الضرب الذي يقال له فنتازية [200, p. 205] .

★ *نقل ياقوت في معجمه الجغرافي (النوبة) : «وقد مدحهم النبي ﷺ حيث قال : من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً من النوبة . وقال : خير سبيكم النوبة» . (المترجم) .*

★★ كان من الأجدر بالمؤرخ السوفييتي أن يذكر أولاً أن الزبير بن العوام هو ابن عمة النبي صفية بنت عبد المطلب . (المترجم) .

فالجواري والعبيد السود الذين عملوا خدماً بالمنازل والعبيد الموثوق فيهم والمزارعون المربوطون بالأرض ورعاة الماشية، لم يوجدوا لدى قريش وحدها بل لدى غيرها من القبائل العربية. فمثلاً كانت زبيبة أم الشاعر الفارس عنترة أمة حبشية وفقاً للأخبار المتواترة، وإن جعلت منها الرواية الشعبية المتأخرة ابنة لنجاشي اكسوم. على أي، فإن الرواية الأسبق عليها بكثير والتي تعتمد على أشعار عنترة والأقوال المتواترة عن قبيلة عبس/ تؤكّد ما قاساه ابن الجارية هذا من فقد لحقوقه كفرد [111, p.19ff; 30ff.] .

وقد مرّ بنا الكلام قبل قليل عن الجالية الاثيوبية بمكة لذلك العهد. ولعل جالية مشابهة لها كوّنها بنو قدر سود البشرة بواحة الحاير جنوبي الرياض بنجد [200, p.204] . وباليمن ينسب إلى أصل أثيوبي قبائل بني نجاح الذين أسسوا مؤخراً في القرن الثاني عشر سلطنة زبيد [380, p.96ff.] . وبحضرموت وفي عديد من نواحي اليمن وعسير والحجاز عاشت منذ القدم طبقة «الخدم» التي تذكّر في الكثير «بأحابيش» مكة في القدم، وتعتبر نفسها من نسل المستوطنات العسكرية للقرن السادس [380,p.25-33] .

OOOOOOOOOO

في هذه الأزمنة المضطربة ولدت بالحجاز في عام ٦١٠ ثم ترعرعت بالتالي حركة دينية ـ سياسية، لم يلبث أن قدّر لها خلال العشرات من السنين القادمة أن تغيّر وجه العالم. ولقد تميّز الاسلام من بين أديان البشرية ببساطته وملاءمته للأوضاع التاريخية و الاستراتيجية لذلك العهد. ولم يتطلب اعتناق الاسلام من العربي آنذاك أو من غيره من سكان الشرق الأدنى، مجهوداً كبيراً في تفهّم العقيدة وأقل من ذلك في أسلوب الحياة. كذلك ترك المجال مفتوحاً للتديّن الفكري لأهل المدن والاعتقاد البسيط للأعراب. ويمكن الالتقاء فيه بقصص الكتاب المقدّس ومعتقدات العرب في الوحدانية جنباً إلى جنب. ولقد وقف الإسلام المبكّر موقفاً شديد التسامح مع النصارى، بل موقفاً متعاطفاً ـ فهو لم

يعدّهم من الوثنيين بل جعلهم «أهل الكتاب» الذين لا تفصلهم سوى خطوة من اعتناق الإسلام. وبالنسبة للمونوفيزيين والنساطرة بالشرق الأدنى فإن هذا الموقف من عقيدتهم لم يختلف عن موقف السلطات الارثوذكسية البيزنطية، بل ولعله كان أكثر تسامحاً من موقف الفرس منها(٨٢). كذلك اعترف الإسلام باليهود على أنهم من «أهل الكتاب»، وإن كان موقف الإسلام المبكّر منهم أقل تعاطفاً مما كان عليه الحال مع النصارى، خاصة أثناء إقامة النبي بالمدينة في الفترة ٦٢٢-٦٣٢. وتعاليم الإسلام الأساسية فيما يتعلق بالجهاد، أي «الحرب المقدّسة» ضد الكفار، ذات مغزى سياسي عميق. ولقد كانت الغارات التي تقوم بها القبائل العربية مع بعضها بعضاً في كل عام شطراً لا يتغيّر من حياتها التقليدية، ولكن باعتناق الإسلام أُخضعت هذه الطاقة لأهداف سياسية أوسع. فبداخل الجزيرة كان الجهاد يعني حرباً لاهوادة فيها من أجل توحيد العرب في دين واحد ونظام سياسي واحد★، أما مع الفرس فكان كفاحاً أساسياً ضد عبدة النيران الذين أخضعوا لسلطانهم الأطراف الشمالية والجنوبية للجزيرة العربية.

---

(٨٢) ليس من باب الصدفة أن تشير السورة الثلاثون من القرآن [سورة الروم] إلى هزيمة جند الروم في عام ٦١٤ في «أدنى الأرض» أي فلسطين بوصفها هزيمة للموحدين. وجاء في السورة الخامسة [سورة المائدة] «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون».

★ *لعل ألفاظ عمر بن الخطاب التي أجاب بها على الهرمزان توضّح بشكل جليّ دور النبي في توحيد كلمة العرب. فقد ردّ الفاروق على ذلك الزعيم الفارسي الذي أسر وأحضر إلى المدينة بقوله «إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا» (الطبري، ليدن، ص٢٥٨٨). كذلك وقف النبي موقفاً متشدداً من النزعة القبلية القديمة، فيقال إنه عندما أرسل عمراً بن حزم الانصاري عامله على اليمن كتب إليه «وينهى إذا ما كان بين الناس من هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فيقطعوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له» (شرحه، ص ١٧٢٧). (المترجم).*

وفي الفترة التاريخية من ٦١٠ إلى ٦٣٢ لمع على الحلبة السياسية العالمية ثلاث شخصيات فذّة؛ أحدها الامبراطور البيزنطي هرقل، والثاني امبراطور الصين تاي تزونغ T'ai Tsung ، ثم النبي محمد. غير أنه إذا كان الاثنان الأولان/ بدءا حياتيهما جنديين ثم كشفا بالتالي عن صفات قيادية مرموقة، مثلما كانا منظمين لامبراطوريتين وجدتا منذ وقت طويل؛ فإن مهمة محمد كانت أعسر من ذلك بكثير بوصفه مؤسساً وداعية لدين من الأديان العالمية الكبرى وأول موحّد للشعب العربي، بل في واقع الأمر مؤسس دولة عالمية جديدة (ولم يفعل «الخلفاء الراشدون» سوى إتمام عمله). ولقد بدأ محمد دعوته في عام ٦١٠ وهو العام نفسه الذي اعتلى فيه هرقل العرش. وكان عدد أنصاره في الأعوام الأولى ضئيلاً للغاية، أضف إلى هذا أن غالبيتهم كانت من عشيرة بني هاشم التي ينتمي إليها النبي نفسه. وفي عام ٦١٥ لم يتجاوز عدد أنصاره المائة والخمسين شخصاً، هاجر ثلثاهم إلى الحبشة.

ففي شهر رجب من العام الخامس للبعثة النبوية، أي عام ٦١٥ توجهت إلى الحبشة من مكة أول مجموعة من المسلمين وعلى رأسهم عثمان بن عفان الخليفة الثالث لمحمد فيما بعد؛ وهو من بني أمية وكانت زوجه رقية بنت النبي محمد. وفي هذه المجموعة من المهاجرين الأول كانت رقية نفسها وبعض المسلمين البارزين؛ وبلغ العدد في مجموعه أحد عشر رجلاً وأربع نسوة. ومما يوكد صحة الرواية المتواترة بصددهم أن جميع المهاجرين ترد أسماؤهم مصحوبة بالإشارة إلى أنسابهم وصلة رحمهم. ويقال إن النبي هو الذي أوصاهم بالذهاب إلى الحبشة لأن بها ملكاً صالحاً يقال له النجاشي «لا يُظلم أحدٌ عنده وهي أرض صدق». وتذكر الرواية المتواترة على لسان أحد المسلمين الذين رجعوا بالتالي من اثيوبيا الألفاظ الآتية: «وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمنّا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه» [10, p.1182]. كل هذا يقف شاهداً على التسامح الديني الذي ساد باكسوم في تلك الأزمنة.

ولقد استمرت الهجرة لبضعة أعوام. فإلى المجموعة الأولى انضم مهاجرون جدد؛ بل إن بعض المهاجرين قدموا بنسائهم وأطفالهم. ومن بين

القادمين الجدد كان جعفر بن أبي طالب ، ابن عم النبي . وقد اجتمع بمملكة اكسوم أكثر من مائة من المهاجرين ، كان من بينهم اثنان وثمانون بأطفالهم ونسائهم . أما بمكة فلم يتبق من أنصار النبي سوى اثنين وخمسين .

ووجّهت قريش بسفارة إلى الحبشة تسأل تسليم المهاجرين ؛ وتعطينا مصادر الطبري الأسماء الكاملة للسفراء وهما عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة . ويلوح أن اللاجئين باثيوبيا كانوا يعدّون لعمليات عسكرية ضد مكة ، على غرار من استقرّوا بالمدينة . وكان نصيب سفارة قريش الإخفاق ، لأن النجاشي « حمى من ضوى إلى بلده منهم » [10, p.1189] . ولقد حافظ المهاجرون المسلمون على صلتهم بذويهم ، وكانت تبلغهم أخبار الأحداث بالحجاز [10, p.1193] . وبهذا فإن علاقات مملكة اكسوم بمكة لم تنقطع . وبعد أن تصالح محمد مع قريش رجع شطر من المهاجرين/ إلى مكة [10, p.1193] ، ولكن بقيتهم ظلت مقيمة باثيوبيا لبضعة أعوام حتى بعث النبي عمراً بن أمية الضمري فحملهم على سفينتين وقدم بهم إلى النبي [10, p.1198] .

في هذه الحكاية نلتقي بتفاصيل ذات مغزى كبير توكّد صحتها. فيقال إن خالد بن سعيد بن العاص الأموي وزوجه أمينة [همينة] بنت خلف عندما عادا من اثيوبيا إلى أرض الوطن كانت معهما ابنتها الصغيرة أَمَة التي يجب الافتراض بأنها ترعرعت بالحبشة ؛ فلمّا أهداها النبي حُلّة صغيرة سوداء مزوّقة بالزهور أعجبت بها الصبية وصاحت « سنّا » [10, p.1198] . هذا اللفظ الأخير كما لاحظ كونتي - روسيني [200, p.210] هو بالأثيوبية « سنّاى » (وبالعربية «حَسَن»). وتقف هذه الواقعة شاهداً على ما تعرضّ له المكّيون من تمثيل حضاري باثيوبيا؛ وهو امر ليس بالوسع تحاشيه بإزاء عددهم القليل وضعف اتصالهم مع الجزيرة العربية. وتروى لنا الأخبار العربية المتواترة عن واقعة أخرى جديرة بالانتباه: فنساء المهاجرين عند عودتهن إلى أرض الوطن كنّ يذكرن بيعة مريم التي زرنها باثيوبيا والمزوقّة تزويقاً حسناً بالجداريات (Frescoes) [10, p.1198] . ويبدو أن الأمر يتعلق بالبيعة الجامعة بعدولي ، لأنه هنا بالذات ، حكما من

قرائن الأحوال ، استقر المهاجرون من مكة الحارة ، بمرتفعات اكسوم. هذه الواقعة تصوّر المسلمين المهاجرين إلى اثيوبيا وكأنهم شطر قائم بذاته من سكان المدينة النصارى. وهو أمر يتّسق مع وضعهم « كمستجيرين » بالنجاشي .

وفي صيف عام ٦٢٢ عقب موت ابي طالب عم النبي الذي كان يسبغ الحماية على ابن أخيه ، ذهب محمد إلى الطائف ليلتمس نصر ثقيف فلم يفعلوا بل رموه بالحجارة. عند ذلك قررّ الهجرة هو وأتباعه إلى يثرب ، التي أصبحت تعرف من بعد باسم المدينة. وبالمدينة بنى النبي أول مسجد للمسلمين وجعل مؤذناً له العبد المعتوق بلالاً الحبشي.

وفي الأعوام ٦٢٣-٦٢٥ قام المسلمون من المدينة بهجمات منتظمة على القوافل المكيّة. وفي عام ٦٢٤ ساق هذا إلى أول معركة كبيرة بينهم وبين قريش. فقد ترامى إلى علم المكّيين أن المسلمين يدبّرون لمهاجمة قافلة لهم عائدة من الشام مكوّنة من ألف بعير، فأرسلوا للقائها وحدة مسلّحة هزمها المسلمون هزيمة منكرة عند بئر بدر. وكان سبب هزيمة القرشيين أنهم لم يرسلوا لحراسة القافلة جيش «الأحابيش» حملة الحراب [282, p.436-437, 443] . ويقول البلاذري إن عمر عينّ بالتالي لجميع رجال بدر خمسة آلاف درهم لكل، ولكل من هاجر إلى الحبشة أربعة آلاف درهم [4, p.450] .

غير أن محمداً تعرّض في عام ٦٢٥ للهزيمة على أيدي القرشيين قرب جبل أُحُد. وكان الذي جلب النصر لأهل مكة في هذه المعركة المقاتلون السود الذين تدعوهم المصادر «أحابيش وعبدان أهل مكة» . ووفقاً لألفاظ ابن هشام «فخرجت قريش بحدّها وجدّها وأحابيشها ومن معها/ من بني كنانة وأهل تهامة» [10, p.1384-1385] . ووفقاً لقول الواقدي فإن قريشاً جمعت «ألفين من أحابيشها ومن تبعهم من العرب» [10, p.1635] . ويصوّر المؤرخون العرب بحيوية المشاة يقتربون من أُحُد وهم يتقاذفون بالحراب قذف الحبش.

وإلى جانب المقاتلين الحبش الذين اقتربوا من ميدان المعركة وهم عراة إلى الوسط ومدجّجين بالسلاح، صحب جيش مكة أيضاً خدمهم السود

(«مقنعّين»، وفقاً لمصطلح العرب آنذاك). وفي المعركة فقد المسلمون وأعداؤهم عدداً لا يسُتهان به من مقاتليهم الشجعان. وقتل تسعة من حملة لواء مكة الواحد تلو الآخر، فحمل اللواء غلامهم الحبشي صؤاب ودافع عنه حتى قطّع عليه. قال حسّان بن ثابت معاصر هذه الأحداث والذي أخذ طرفاً فيها يهجو قريشاً:

تسعة تحمل اللواء وطارت ... في رعاع من القنا مخزوم
لم يولّوا حتى أبيدوا جميعاً ... في مقام وكلهم مذموم
لم تطق حمله العواتق منهم ... إنما يحمل اللواء النجوم

وفي موضع آخر:

فَخَرْتم باللواء وشر فخر ... لواء حين رُدّ إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيها لعبد ... من الأم من وطي عفر التراب

وفي موضع ثالث:

فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم ... تمدّون سوداناً عظام المناكب
فأما القتال فلا قتال لديكم ... ولكن سيراً في عراض المراكب

أما أعراب تهامة الذين قاتلوا إلى جانب أهل مكة فقد عيرّهم حسان بقوله:

... أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب [282, p.440,443, 445–447,450,475].

١٥ ـ آخر الوقائع بين بيزنطة والفرس . كتب النبي [إلى الملوك والزعماء]

في الوقت الذي كان فيه النبي وأنصاره يدعّمون من وضعهم بالمدينة، دخلت الحرب الكبرى للقرن السابع [بين الفرس والبيزنطيين] مرحلة جديدة. ففي عام ٦٢٢ أحاط الفرس والأفار بالقسطنطينية من جميع الجهات. ولكن هرقل ألحق بالفرس هزيمة شنيعة في عام ٦٢٣؛ وفي ربيع العام نفسه اقتحم من جديد أرمينيا واتروباتين، فاحتل دوين ونخجوان ودمّر مدينة جنزك

(المشهورة بمعبد النار الزردشتي). وقد جهد في أن يجتذب إلى جانب الامبراطورية امراء جنوبي القوقاز، أي الأرمن والكرج والأجوان. ولكن مجهوده لم يكلّل بالنجاح، ووجد نفسه في الربيع محصوراً بين ثلاثة جيوش فارسية يعاونها السكان المحليون المعادون له؛ فاضطر إلى الانسحاب صوب الغرب. وفي وقت تقهقره هجره حلفاؤه من اللاظ والأباظجي (الأبخاز والاديجه). وكانت هذه ظاهرة خطيرة: ذلك أنه على الرغم من انتصارات السلاح البيزنطي، فإن الشعوب النصرانية بجنوبي القوقاز لم ترد مساندة سياسة الامبراطورية الرامية إلى توحيد العقيدة. كذلك لم يظهر ميل كبير من طرف العرب النصارى ليفعلوا ذلك.

ولا نشغالهما بحرب استنزاف طويلة لا مخرج منها، /فقد فقدت بيزنطة وايران امكانية التدخل الفعّال في شؤون الجزيرة العربية لمنع هذه البلاد المترامية الأطراف ذات المصادر البشرية الهائلة من توحيد الكلمة وجمع الصف. وفوق ذلك فإن الدولتين الكبريين بقلبهما الشرق الأدنى إلى حلبة للصراع العسكري بينهما، وما صحب ذلك من اضطهاد للمخالفين في العقيدة و «الخونة»، مهدتا الطريق بذلك للفاتحين الجدد.

وفي ربيع ٦٢٦ تحرك الجيش الفارسي تحت قيادة شهر براز في حملة جديدة على القسطنطينية فظهر بالبوسفور، وبهذا قطع الامبراطور هرقل الذي كان مع جيشه بلازقة من عاصمته. وبحسب اتفاق مسبق حاصر القسطنطينية مع الفرس أيضاً الافار وأجداد البلغار والجبيدي Gepidi (من الجرمان) والصقالبة، الذين كانوا تحت قيادة خاقان الافار نفسه. ولعجزهم عن الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية فقد رفع الافار والفرس الحصار. أما هرقل فجدّد التحالف التقليدي مع خاقانية الترك الغربيين، وفي صيف عام ٦٢٦ خرّبت وحدات الترك والخزر أذربيجان الفارسية. وفي العام ذاته تحرك شهر براز من جديد على القسطنطينية، أما هرقل فتحرك من لازقة بحملة جديدة على ايران. ومرة أخرى لم توفّق جيوش الافار ـ الصقالبة والفرس في حصارها المشترك للقسطنطينية، ورفع الجيشان الحصار. وفي تلك الآونة هاجم حلفاء البيزنطيين

وهم الأتراك الغربيون (الذين أطلق يدهم الصلح الذي عقده الأتراك الشرقيون مع الصين [26, p.191, 193]) الفرس من جهة الشمال. أما قبائل الترك والخزر فقد استولت على دربند وخربت الفانيه (اذربيجان) وبلاد الكرج الشرقية وحاصرت تفليس واتصلت هناك بجيش هرقل. وبحلول الخريف تقدّم هرقل مخترقاً ارمينيا في طريقه إلى طيسفون عاصمة الساسانيين، وقرب أطلال نينوى هزم جيش الفرس. وفي بداية عام ٦٢٨ احتلّ دستجرد مقر الشاهات وقارب طيسفون نفسها.

وليتحاشى خسرو برويز الذي تقدمّت به السن الانقلاب الحتمي الذي يهدده فقد أصدر أمراً بإعدام القواد الذين لحقت بهم الهزيمة، فجرى القبض عليهم وألقوا بسجن طيسفون. غير أنه في فبراير من عام ٦٢٨ قُلب الشاه نفسه على يد المتآمرين من الأعيان، الذين أطلقوا سراح المحكوم عليهم بالاعدام ثم أعدموا بالتالي الشاه نفسه وأجلسوا على العرش ابنه قباد الثاني شيرويه الذي التمس الصلح فوراً من هرقل [65, p.85ff.] ؛ فوافق هذا الأخير(٨٣). ونصّت معاهدة الصلح على إعادة الأراضي التي وضع الفرس يدهم عليها إلى البيزنطيين، وبدا وكأن الوضع (status quo) عاد إلى ما كان عليه من قبل. غير أنه لا بيزنطة ولا ايران استعادتا مقدرتهما على اتباع سياسة نشطة في بلاد العرب تمكنهما من الوقوف في وجه المحاولة العربية لتوحيد الصف. ففي تلك اللحظة بالذات استطاعت الدولة الإسلامية الفتيّة أن تكشف عن وجودها للعالم أجمع.

وقد أشتهر العام السادس للهجرة (٢٧ ابريل ٦٢٧-١٢ ابريل ٦٢٨) في تاريخ الإسلام على أنه «عام الرسائل»؛ ففي هذا العام بالذات كما توكّد الرواية العربية المتواترة وجّه النبي بكتبه إلى حكام الدول المجاورة كبيرها وصغيرها، /وهم «كسرى» أي شاهنشاه الفرس خسرو برويز، و «قيصر» أي امبراطور

(٨٣) يقول أ. إ. كليسنكوف إنه على عهد قباد شيرويه تم عقد صلح فقط، أما المعاهدة فحدثت على عهد خلفائه. غير أن شروط الصلح جرى تنفيذها منذ عهد حكم قباد الذي لم يحكم لأكثر من ثمانية أشهر [65, p.89–90].

بيزنطة هرقل، والمقوقس حاكم الاسكندرية، والحارث [ابن أبي شمر الغساني] أمير عرب فلسطين، وحوزه بن علي من بني حنيفة حاكم اليمامه، والمنذر بن ساوى حاكم البحرين، وبازان حاكم اليمن، وملك عمان جيفر بن الجلندى وأخوه عبّاد بن الجلندى الزدبي (وهؤلاء الخمسة الأخيرون يدينون بالطاعة للشاه)، والنجاشي ملك الحبشة [10, p.1559ff.] . وإلى عهد ليس بالبعيد كان إجماع كبار المستشرقين على رفض إمكانية إرسال هذه الكتب إلى شخصيات مثل هذه من طرف زعيم مغمور لحفنة من المنشقين على ديانة آبائهم، هربوا من مسقط رأسهم وليس لهم شاغل سوى التخطيط للعودة إلى مكة. ويجب الإضافة إلى هذا أن نصوص الكتب كما حفظها لنا الطبري، ومعيد صياغة «تاريخه» بالفارسية البلعمي (القرن الحادي عشر)، واليعقوبي، والمؤلفون العرب والفرس الآخرون، مدوّنة بروح تجعل من العسير اعتبارها صحيحة. ولمّا تم الكشف عن الرقوق الأولى لكتب النبي صرّح العلماء لأول وهلة بأنها منحولة. وموقفاً آخر اتخذه مؤلف هذا الكتاب، ففي عام ١٩٦٤ وذلك في موجز قصير لتاريخ اكسوم السياسي ـ قلت بصدد كتاب النبي إلى ملك الحبشة الوارد لدى الطبري مانصه: «وهو يبدو دون شك ثمار انشاء أدبي متأخر. غير أن حادث السفارة نفسها وحملها مكتوب النبي لا يتطرق الشك إليه» [54, p.156] . في الآونة التي تم فيها تدوين هذه الأسطر كان العلامة المسلم محمد حميدالله، المتخصّص المعروف في دراسة الوثائق الإسلامية المبكّرة، قد أعدّ نشرته لرق فريد من مجموعة هنري فرعون وزير خارجية لبنان الأسبق.

ووفقاً لرأي حميد الله فإن هذا الرق الذي يحتوي على متن مكتوب النبي إلى خسرو برويز يمكن أن يكون الأصل أو نسخة منقولة عنه قديمة العهد جداً. وهاك نص هذه الوثيقة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ألّا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

وادعوك بدعاء الله فـإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنـــذر من كان حيـاً ويحق القـول على الكافرين . فاسلم تسلم . فـــإن أبيتَ فـإن إثم المجوس عليك » [245, p.57ff.] .

ويوجد بالوثيقة أثر للختم (وإن لم يحفظ منه سوى حرف واحد) . ولا فرق في رواية الرق عن الروايتين لكتاب النبي اللتين حفظهما لنا الطبري إلاّ فرقاً يسيراً . فهي مثلاً لا يوجد فيها كما هو الحال مع رواية البلعمي [63, p.76-77] التهديد بالحرب إذا لم يعتنق الإسلام ؛ كما أن مخاطبته للشاهنشاه لا تخلو من الاحترام . والتبجيل ولا يرى محمد حميد الله أو أ . إ . كلييسنكوف A.I. Kolesnikov الذي يشاطره الرأي أن من المستبعد أن يكون محمداً في العام السادس للهجرة وذلـك عندما اضطربت أمور خسرو/ بتلك الصورة قد جرؤ على الكتابة إلى الشاهنشاة يعرض عليه الإسلام [63, p.79] .

ومن النـاحية الپاليوغـرافيه (paleagraphic) يتفق رق كتـاب محمد إلى خسرو مع الرق الذي يحوي كتاب النبي إلى المقوقس « عظيم القبط » بمصر . فبداية الوثيقتين تتفق من حيث الاسلوب (وإن اختلفتا في اسم المرسل إليه فقط) [245, p.57ff.] . وكان تم الكشف عن هذا الرق في عام ١٨٥٠ قرب إخميم بأحد الأديرة القبطية بمصر . ويقرأ متنه كالآتي :

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين . فإن تولّيت فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضـــاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهـــدوا بأنّا مسلمون» [146, p.488-489] .

وفي زمن الكشف عن الرق الذي يحمل كتاب النبي إلى المقوقس اعتبره العلماء (برتليمى Barthelemy وبيلان Belin ورديجر Rediger) أصيلاً ، ولكن تغيّر

الموقف بالتالي ازاء الوثيقة. فالمستعرب الايطالي المعروف ل. كايتاني L. Caetani يرى أن الرواية العربية المتواترة بصدد ردّ المقوقس على النبي وهداياه إليه «ليست سوى خرافة تفتقر إلى الأساس التاريخي» [161, t.VI, p.90] . فهل أتت اللحظة لفحص جديد للمسألة المتعلقة بحقيقة الرواية العربية المتواترة فيما يتعلق بالرسائل المتبادلة بين النبي والمقوقس ؟

وكان أ. ج. بتلر A.J. Butler قد كرسّ بحثاً خاصاً للكشف عن شخص المقوقس وأصل هذه التسمية بالذات [156, p.508–526] . ففي فحصه لمادة المؤرخين العرب والقبط خرج بتلر باستقراء مفاده أن الذي أرسل إليه محمد بكتابه (وهو لم يتشكك في كتاب النبي) إنما هو العامل البيزنطي جرجس الثاني. ويدعو أبو صالح الأرمني المقوقس هذا جريج بن مينا ؛ ومصدر هذه الرواية للمؤرخ الأرمني المصري غير معروف . وفي عام ٦٢١ تم تعيين جرجس بطريركاً ارثوذكسياً للاسكندرية ، وهو منصب كان في تلك الأعوام صورياً بحتاً (وقد ظل هو مقيماً ببيزنطة). وفي بداية عام ٦٢٧ تم سحب الشطر الأكبر للقوات الفارسية من مصر والتي كانت تحتل البلاد آنذاك. كذلك غادرت بقيّة الحاميات الفارسية مصر في نهاية عام ٦٢٨ ، وجاءت محلها القوات البيزنطية التي قدم معها فيما يقال جرجس هذا [156, t.171 ff.] . وفي خلال تلك الفترة القصيرة التي استمرت لعام بالتقريب لم يكن جرجس الثاني ولا البيزنطيون ولا العامل الساساني ولا الفرس يديرون شؤون مصر، بل كان يدير شؤونها الطبقة المتصدّرة من الأقباط التي وجد على رأسها البطريرك بنيامين. ولكي يعتبر أ. ج. بتلر جرجس الذي بلغ مصر حوالى عام ٦٢٩ [156, p.172] على أنه «المقوقس» الذي جرت المكاتبات بينه وبين النبي ، فقد افترض على ما يبدو أن كتاب النبي / أُرسل إليه في تاريخ تال لذلك التاريخ. فإن كان هذا الرأي المناقض للرواية العربية غير مقبول، فإنه لا يبقى سوى أن نفترض أن كتاب محمد إلى المقوقس «عظيم القبط» قد أرسل إلى البطريرك بنيامين. ويبدو أن السلطة التي تمتع بها كانت مشابهة لسلطة جرجس الثاني، الذي لم يكن في واقع الأمر حاكم مصر الروحي فحسب بل والزمني أيضاً. وقد شغل بنيامين كرسي

البطركية بعد موت البطريرك اندرونيقوس عام ٦٢٢ ، واحتفظ بمنصبه إلى لحظة وصول البطريرك الأرثوذكسي الذي طرد بنيامين عام ٦٣٠ أو ٦٣١ [333, p.9] . ووفقاً لبعض المعطيات فإن شغل جرجس الثاني لمنصب بطريرك مصر إنما هو مجرد وهم ، بل لعله مات قبل انسحاب القوات الفارسية من تلك البلاد . غير أنه لا الرواية العربية ولا القبطية تجعل من البطريرك بنيامين «المقوقس» . وأكثر الآراء قبولاً هو الذي يجعل من المقوقس الذي كاتبه النبي البطريرك قور المعروف جيداً للروايات التاريخية اليونانية ـ البيزنطية والسريانية والقبطية . وقور هذا أصله من بلاد الكرج الغربية ، وكان في عام ٦٢٦ أسقفاً لفاسيس Phasis ببلاد قولخيد حيث جهد في بث جذور المونوثيلية* Monothelitism وسط اللاظ الارثوذكسي . ثم عيّن الامبراطور هرقل ذلك القولخيدي الغيور بطريركاً ـ والياً على مصر . واتفاقاً مع الرأى الأكثر رواجاً بين المؤرخين فإن هذا حدث عام ٦٣٠ أو ٦٣١ [127, p.381ff.; 418, p.385ff.; 156, p.511ff.; 128] .

غير أن المستشرق الفرنسي ف . نو F. Nau قدّم هذا التاريخ سنتين ، مقترحاً أن قور وصل الاسكندرية في عام ٦٢٨ [333, p.9] ؛ وأمام هذا فإن قور بامكانه أن يكون المقوقس الذي أُرسل إليه كتاب النبي محمد . ومن المعلوم أن قور الذي اعتبر مهمته الأساسية هي نصر المذهب المونوثيلي كان قد دعا إلى مجمع بالاسكندرية ليوكّد فيه النصر المزعوم للمونوثيلية على المونوفيزية بمصر ؛ وقد جرى هذا في عام ٦٣٣ . ويتساءل أ . الكوك A. Alcock بالكثير من الوجاهة هل من المحتمل أن قوراً انتظر خمس سنوات لدعوة هذا المجمع لو كان وصل إلى مصر في عام ٦٢٨ وليس في عام ٦٣٠ أو ٦٣١ ، كما ظن أكثر المؤرخين؟ أضف إلى هذا أن الرواية المتواترة تجعل هرب بنيامين من الاسكندرية في عام ٦٣٠ ـ

---

* *المونوثيلية Monotheletism مذهب هرطوقي من القرن السابع ، كان يهدف القيام بمحاولة لإرجاع المونوفيزية إلى حظيرة المذهب الارثوذكسي بالقول بأن المسيح انبعثت أعماله من إرادة واحدة monon thelema . ولم تستمر الحركة لأكثر من ستين عاماً ، فقد أدينت عام ٦٨١ في المجمع المسكوني السادس . راجع Ostrogorsky, History of the Byzantine State (المترجم) .*

٦٣١ عقب وصول قور مباشرة إليها [128] . ولا نزاع في أن شخص المقوقس كما تصوّره لنا الرواية القبطية المعادية له، وأيضاً المؤرخون العرب من نصارى ومسلمين المرتبطون بها، إنما تذكّر بالذات بالبطريرك قور. ولقد تمتّع قور بسلطة كبيرة، تشابه سلطة بابا رومه. فالبطريرك الاسكندري قور كانت له السيطرة على النظام القضائي والإدارة المدنية والخزانة. وبصدد قور المقوقس كتب المؤرخ الارثوذكسي المصري العربي اوتيخوس يقول إنه كان المشرف على الأموال باسم الامبراطور هرقل، أما سويرس بن المقفع فيقول إن هرقل عيّن قوراً في وقت واحد بطريركاً ووالياً على مصر [156, p.511] . ويحكى المصنف القبطي «سيرة الأبّا صمويل القلموني» أن «كبير الأساقفة الكاذب قوخيوس»/ الخلقيدوني جاء إلى الفيوم والتقى بصمـويل. وأن «قـوخيوس» أي قور هذا الـذي اضطهد كبير الأساقفة ـ البطريرك بنيامين ، كان في ذات الوقت « المشرف على خـراج مصر» [127, p.365-368] . أمـا الـموجـز العـربي «لسـيرة الأبـا صمـويل» فيدعو «قوخيوس» هذا «بالمقوقس». ويقول إنه بعد مقابلته مع صمويل بالفيوم توجّه إلى صعيد مصر [127, p.384] . ويحكي كتاب السنكسار القبطي (أي سير القـديسـين) بصدد المقوقس هذا أنه كان على رأس العقيدة الخلقيدونية (أي الارثـوذكسية) وعُـيّن والياً وبـطريركـاً على مصر. ويرد في الموضع المقابل من سيرالقـديسين الاثيوبيين مانصه: «كان المقوقس والياً وكبيراً للأساقفة بمدينة الاسكنـدرية وجميع أرض مصر» [156, p.521] . وقد كان هذا التركيز غير المعهود من قبل للسلطة عنصراً جديداً في السياسة الداخلية للامبراطورية التي جرى إصلاحها على يد هرقل.

وبالنظر لما تمتع به المقوقس من سلطة توشك أن تكون مطلقة، فلا بد أنه لاح ببلاد العرب كما لو أنه المتصرف في شؤون مصر والحاكم صاحب السلطة المطلقة على الأقباط. أما غياب اسمه من الوثيقة فلعله يشير إلى أنه لم يتسنّم السلطة إلّا منذ وقت قصير وأنه لم يكن يُعرف عنه بالمدينة إلّا القليل. ومهما يكن من شيء فإن شخصية المقوقس الذي دخل معه النبي في اتصال ما زالت غير معروفة. على أن الرواية العربية المتواترة تقدّم العديد من التفاصيل حول علاقة

النبي بالمقوقس هذه الرواية (التي حفظها لنا أبو صالح والسيوطي وغيرهما) تقول إن مكتوب النبي إلى المقوقس أوصله إليه حاطب بن بلتعة، وأن المقوقس عند قراءته الكتاب أملى رداً حسناً للغاية على كاتبه الذي كان على معرفة بالعربية. ونص الرد ذاته أسطوري واضح في أسطوريته، وكذلك عديد من التفاصيل المتعلقة بعودة حاطب بن بلتعة إلى المدينة. غير أنه لذو مغزى كبير أن تكون للرواية العربية معرفة باسم الشخص الذي وُجّه إليه الكتاب، وأيضاً باسم الشخص الذي حمل كتاب النبي إلى مصر. وفوق هذا تورد الرواية اسماء الأشخاص وأسماء الحيوانات التي يقال إن المقوقس أرسل بها مع حاطب إلى النبي. وقد شملت الهدايا أختين هما مارية وسيرين ابنتي أحد أعيان القبط ويدعى شمعون، وجاريتين أخريين، والخصىّ ميوّد، وحصاناً وبغلة وحماراً، وكوباً من المرمر، وأكسية من الكتان المصري؛ ووفقاً لروايات أخرى كيس نقود وزيتاً وعسلاً. هذه الهدايا تم قبولها قبولاً حسناً؛ وقد أصبحت مارية الزوج الطيّبة للنبي الذي أحبها كثيراً والتي لفرحته الكبرى انجبت له ابنه الوحيد الذي حمل اسم ابراهيم. وفيما بعد توفي ابن النبي من مارية ولمّا يبلغ العامين؛ وعقيب ذلك ماتت مارية نفسها [10, p.1559–1577; 223, p.100–101; 46, p.499ff.; 333, p.13;128] .

فهل تقرب كثيراً من الصحة الأخبار العربية الاسلامية فيما يتعلق بالموقف الودّي للمقوقس «عظيم القبط» من النبي، وعن هداياه إليه؟ وليس لدينا في الحقيقة أساس للتشكك في صحة الرواية، غير أنه إذا لم تثبت شخصية المقوقس فليس لدينا ما نضيفه. وكل ما يمكن قوله إن/ محمداً الموقّر للمسيح ولأمه مريم البتول لم يكن في عين بطريرك مصر، سواء أكان المونوفيزي بنيامين أو المونوثيلي قور، بذلك القدر من الهرطقة كما كان المونوفيزي بالنسبة للمونوثيلي أو المونوثيلي بالنسبة للمونوفيزي أو الارثوذكسي بالنسبة للإثنين.

وأقل من ذلك ينبغي التشكك في أن النبي قد وجّه فعلاً كتاباً إلى حاكم الاسكندرية من نفس محتوى الرق بالتقريب الذي نشره بيلان. وثمة تساؤل يطرح نفسه، هو هل هذه الوثيقة هي الأصل أم نسخة مبكّرة أو حتى منحولة

(الأمر الذي لا يحول بالضرورة دون اعتبارها صادقة ـ ولنتذكر في هذا الصدد ملاحظة م. بلوك M. Blok من « أن عدداً ليس بالقليل من الوثائق المنحولة قد تـــم تحضيره في الفترة من القرن الثامن إلى القـــرن الحادي عشر بديلاً عن أصول مفقـــودة » [18, p.144] .

أما فيما يتصل بالردود التي تسلمها النبي على كتبه التي أرسل بها في العام السادس للهجرة، فإن اثنين منها ـ وبالذات اللذين بعث بهما هرقل★ ونجاشي اكسـوم (أنظر مايلي) ـ حملا طابعاً اعتذارياً ودفاعياً (apologetic) حتى ساوت الرواية الإسلامية بينهما وبين الاعلان باعتناق الإسلام. وكما هو معروف فإن الملكـين ظلا في واقـع الأمـر على نصرانيتهما، غير أن ردهما اتّسم بالكثير من الاحترام والكياسة فيما يبدو، بحيث دفع الرواية الإسلامية إلى هذا الحد البعيد من المبالغة. فمتى حدث هذا؟ من الممكن في العام السادس للهجرة، وكان أسلوباً دعائياً مقصوداً. من هذا يتضح أن المسألة المتعلقة بكتب النبي إلى حكام الأقطار المجاورة معقّدة للغاية، تقدّم بالتقريب أساساً لاستقراءات ايجابية مثلما تقدّم أيضاً استقراءات مفعمة بالتشكك الشديد على السواء.

★ *رأينا استكمالا للفائدة أن نورد هاهنا مكتوب النبي إلى هرقل:*

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله الى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، واسلم يؤتيك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون».

وهو يوجد في عدد كبير من المصادر الإسلامية، مثل البخاري والطبري واليعقوبي الخ. ويقال إن أصله وجد طريقه إلى خزانة ملوك اسبانيا المسيحية. ومن الأفضل أن يراجع القارىء بصدده مقال محمد حميدالله:

«La lettre du Prophète a Heraclius et le sort de l'original», ARABICA, t. II, 1955, pp.97–110. (المترجم).

وقد عثر بدمشق في عام ١٩٣٨ على رق آخر يحمل مكتوب النبي إلى نجاشي اكسوم. ونشر الوثيقة د. م. دنلوب D.M. Dunlop ؛ وأقرّ الإخصائيون بالمتحف البريطاني بمن فيهم المستعرب المشهور مرجليوث أن ذلك الرق من مصنوعات القرن التاسع عشر [219, p.56ff.] . ومتن الكتاب لا يختلف بالتقريب عن متن مكتوب النبي إلى النجاشي الوارد «بالسيرة الحلبية». ونصه كالآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فإني رسول الله. وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ وقد بلّغتُ/ ونصحت فاقبلو (كذا) نصيحتي. والسلام على من اتّبع (كذا) الهدى».

وتختلف هذه الرواية كثيراً عن الرواية التي يثبتها الطبري ، وهي الآتية [10, p.1569] :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الاصحم ملك الحبشة سلْم أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى».

وكلا الروايتين «لكتاب النبي إلى النجاشي» تشير إلى الشخص الموجّه إليه الكتاب. فهو في رواية الطبري يدعى باسمه ولقبه، وهو النجاشي الاصحم

ملك الحبشة؛ هذا بينما يطلق عليه في الرق النجاشي عظيم الحبشة. ومن الواضح أن محضّر الرق تأسّى أسلوب كتب النبي إلى خسرو برويز وهرقل والمقوقس بقوله «عظيم [شعب ما]. . . » - ولم يكن له علم باسم ملك اكسوم الذي وُجهّ إليه الكتاب. لذا فإن أقدم متن لمكتوب النبي إلى ملك اكسوم هو الذي يورده الطبري. بل إن المؤرخ الاسلامي الكبير يورد حتى اسماء مبعوثي المسلمين الذين حملوا كتاب النبي إليه، وهم عمرو بن أمية الضمري وجعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب [10, p.1560,1569] .

أما واقعة أن محمداً بعث في واقع الأمر بمكتوب إلى ملك اكسوم فتؤكدها الملابسات الآتية: فأولاً الأخبار المتواتره التي تدعمها الأسا نيد تحّدد لنا على وجه الدقة الاسم الكامل لمبعوث المسلمين؛ وثانياً فهي تحّدّد بدقّة اسم الشخص الذي أرسل إليه الكتاب، أي ملك الحبشة، فتدعوه الاصحم بن ابجر. واسم إلا صحم معروف في « قوائم الملوك » ؛ وبخلاف هذا يرد ذكر الملك صحم في أقاصيص قبيلة ساهو [195, p.318]. فالاسم يرتبط بصورة ما بالمواضع الشمالية من اثيوبيا، شأنه شأن أسماء أخرى لملوك اكسوميين. وتوجد مقاطعة صحم [402, p.108] إلى الجنوب من هضبة التيجرة. أما الاسم ابجر فغير معروف في «قوائم الملوك» أو في السكة الاكسومية، ولكن الكتابة العربية ابجر يمكن أن تكون تصحيفاً لاسم الجبز - إلا جَبَز المعروف للسكة و «لقوائم الملوك» ، حيث يرد في هذه الأخيرة على أنه والد إلاّ صَحَم وسلفه المباشر على العرش.

وكان الهدف من بعثة عمرو بن أمية الضرمي هو في الأرجح تلك الأهداف نفسها التي تتحدث عنها الرواية الإسلامية المتواترة، وهو أن النبي / دعا ملك اكسوم إلى اعتناق الاسلام وأنه قبل ذلك فيما يقال. والرواية التي حفظها لنا الطبري تورد كتاب ملك اكسوم رداً على النبي، مدوّناً بروح إسلامية محضة ويحوي التأكيد بأن الملك اعتنق فعلاً الإسلام [10, p.1569–1570] . كذلك يفيد النجاشي في ردّه أنه سيرسل إلى النبي بابنه [10, p.1570] ؛ ويرد اسم هذا الأخير مرة على أنه أرما وأخرى على أنه أرها وثالثة على أنه أرمى ؛

وهـذا دون شك تحريف اسم ارمـاه. والمقصود هو أرماه، أحد ملوك اكسوم المعروف جيداً مـــن السكة ومن «قوائم الملوك». ويروى ابن اسحـــاق بصدده أن أباه بعث به من الحبشة في سفينه، فلمـــا كانوا في وسط البحر غرقت بهم فهلكوا جميعـــاً [10, p.1570] . هذا بينما في واقع الأمر حكم ارماه حكماً سعيداً وطويلاً، مما يمكن إبصاره من ذلك العدد الغفير الذي تبقى من سكته. ومن الجلي أن قصة سفره إلى مكة ليست سوى اختراع موفّق، أما القصة بصدد هلاكه فهي محاولة للتوفيق بين رواية زيارته لمكة والشكوك التي قد تثـار حول صحة هــذه الحجــة .

فلئن حدث حقاً أن انقلب ملك اكسوم إلى تابع غيور للإسلام كما تحكي الـرواية الإسلامية المتواترة، أو حتى رفض موقف الحياد في الحرب بين محمد وأهل مكة، لما فكّر عكرمة بن أبي جهل في اللواذ ببلاده. وأكثر رجحاناً هي الرواية المتعلقة بنتيجة أخرى للسفارة إلى ملك الحبشة، وإن لم تبدُ على درجة كبيرة من الأهمية. فقد عاد عمرو بن أمية الضرمي إلى بلاد العرب وفي صحبته ستة عشر مـــن المسلمين من بين أولئك المهاجرين الذين لاذوا باثيوبيـــا من قبل [10, p.1198] . وتحكي الرواية العربية أن النبي نعى إلى جماعة المسلمين في خريف عام ٦٣٠ وفاة نجاشي الحبشة بوصفه حادثاً محزناً [10, p.1882] . فإذا ما قبلنا هذه الرواية على ظاهرها فإن عام ٦٣٠ يمكن اعتبـــاره عام موت إلاصحم واعتلاء ارماه الأول العرش. غير أنه للأسف لا توجـــد معطيات تسمح بالتثبّت من هذا التاريخ.

على أن أكثر الروايات الاسلامية تحيّزاً تسمح بالوصول إلى استقراء مفاده أن إلاصحم وارماه الأول قد اتبعا سياسة ملوك اكسوم السابقين القائمة على الاستقلال والتسامح الديني والمتاجرة مع دول ما وراء البحار وعدم التدخل في شؤونها. غير أن المسلمين و أعداءهم لم يقطعوا الأمل في اجتذاب اكسوم، كل إلى جانبه، في الصراع من أجل السيادة على مكة. فالطرفان المتنازعان بعثا إلى اكسوم بسفاراتهم. وفي حالة الضرورة لاذ أتباع هذه «الطائفة» أو تلك باثيوبيا، حيث حسبوا أنهم سيجدون «رفاغاً من الرزق وأمناً» [10, p.1181] . وقد مر

بنا الكلام أعلاه عن هجرة المسلمين الأول إلى الحبشة وعن عودتهم بالتالي إلى أوطانهم . ونفس الطريقة سلكها أيضاً أعداؤهم .

وحكماً من كل شيء فإن سياسة اكسوم في بداية القرن السابع اتّسمت بالحذر الشديد، كما اتّسمت في ذات الوقت بالنبل والوقار. فاكسوم لم تسلّم اللاجئين السياسيين أو تطردهم ـ سواء من المسلمين أو المشركين. وفي ذات الوقت امتنعت الملكية الاكسومية عن التدخل في شؤون الجزيرة العربية . هذا الموقف كان مفهوماً تمام الفهم. لأن القسم الأكبر من بلاد العرب، وذلك باستثناء/ المناطق الداخلية الصعبة الاتصال والمناطق الواقعة إلى الشمال منها كانت تدخل في فترة الأعوام ٥٩٩ـ٦١٨ في محيط نفوذ الدولة الساسانية؛ لذا فإن أية محاولة لاكسوم للتدخل كانت ستفضي إلى حصار تجاري لها أو حتى العدوان على اثيوبيا نفسها التي كان لها مع الساسانيين حساب قديم العهد قد يحتاج إلى التسوية. وابتداء من عام ٦٢٨ حلّ محل السيطرة الايرانية على بلاد العرب توطّد جماعة المسلمين بالمدينة وأحلاف القبائل التي كان على رأسها محمد وصحابته. وبهذا فإن التدخل في شؤون الجزيرة العربية، سواء إلى جانب المسلمين أو إلى جانب المشركين، أصبح أمراً محفوفاً بالخطر. لذا لم يكن اعتباطاً أن ورد في الحديث على لسان النبي : «اتركوا الحبش ما تركوكم» [15, p.30] . وهذا هو السر في أن اثيوبيا لم تصبح «دار حرب» للمسلمين مع الكفار.

ولقد عرف ملوك اكسوم كيف يحافظون على علاقات الصداقة مع بلاد العرب، قبل الاسلام وبعده، وذلك دون أن يفقدوا الاستقلال السياسي والعقائدي لبلادهم. وكان أن أبعدت هذه السياسة اكسوم من الضربة القاصمة التي تعرضت لها الدولتان الكبريان بالشرق الأدنى والمتمثلة في الفتوح الإسلامية التي انفجرت بعد أعوام من ذلك، كما أتاحت لها بقدر الامكان فرصة الحفاظ على مكاسبها الاقتصادية التي اعتمدت على التجارة البحرية.

١٦ ـ معارك المسلمين الأولى مع الحبش والنوبة

كان من أثر الحرب الكبرى لبداية القرن السابع والتي انتهت بإضعاف الدولتين العالميتين الكبريين خاصةايران، أن ساق هذا إلى خلق «فراغ قوة» (power vacuum) بمنطقة الشرق الأدنى. وقد جرى الإحساس بهذا بالدرجة القصوى في الجزيرة العربية التي حُرمت من هيمنة الساسانيين فتمزقت إلى عشرات من الدويلات المستقلة في واقع الأمر. هذا الفراغ أخذت تملؤه بالتدريج القوة السياسية الوحيدة التي وُجدت لديها فرصة البقاء، أقصد الدولة الإسلامية الفتيّة التي نمت قوتها كالكرة الثلجية المنحدرة من عل.

وكُتُب النبي إلى شاهنشاه الفرس والمقوقس بمصر وقيصر الروم البيزنطيين وإن لم تحقق هدفها المباشر، كشفت عن القوة العقائدية للحركة الإسلامية. فقد أراد محمد أن يبيّن للعرب أجمعين الأهمية السياسية للاسلام، ليقنع المتردّدين بالانضواء سريعاً إلى الحركة والاعتراف بالنبي. وبنفس الهدف على ما يلوح أُبصرت الردود المهذّبة من قبل المقوقس وقيصر والنجاشي. أما زعماء العرب فإنهم على نقيض هؤلاء الحكام البعيدين والأقوياء لم تترك لهم هذه الفرصة ـ أي فرصة الاكتفاء بارسال رد مهذّب على تمجيد النبي لعيسى المسيح ولأمه مريم ولآدم أبي البشر. إذ كان عليهم إما أن يعتنقوا الإسلام تماماً ويعترفوا بمحمد كرأسهم الديني والدنيوي، أو يردّوا بالرفض فيتعرضون لفقد سلطانهم وممتلكاتهم بل وأرواحهم . وباليمن ظلت بقية من النصارى مقيمة، ولعلهم كانوا في أغلب الظن في الصفوف الأولى للمعارضة ضد الفرس. وقد انضم إلى/ النصارى أتباع ضرب من الوحدانية المبهمة ـ هم الحنفاء. وفي عام ٦٣٠ اشتعلت هناك نيران ثورة ضد «الفرس» تزعمها «رحمن اليمن» أيهله (أو ابهله) الذي اشتهر بكنيته «الأسود» و «ذو الخمار» (لأنه كان يضع قناعاً على وجهه)؛ ولعله كان حبشياً.

انتشرت الثورة قبل كل شيء في تلك المناطق من بلاد العرب الجنوبية التي كانت وفقاً للتقاليد مجالاً خاصاً للنصرانية المغالية وللنفوذ الاكسومي . وقدوضع

الثوار يدهم على نجران ثم بالتالي على صنعاء (أما منطقة رِمَع بتهامة اليمن وهي منزل قبيلة أشعران، فقد خضعت في وقت أحداث عام ٦٣٠ للمسلمين وفقاً للرواية العربية وظلت مخلصة لهم حتى بعد وفاة النبي). واضطر مبعوثو المسلمين الذين جاؤوا إلى اليمن للتفاوض مع بازان مرزبان اليمن إلى الهرب - بعضهم إلى المدينة والبعض الآخر إلى حضر موت. غير أن الأسود قُتل بعد قليل من هذا وتم إخماد الثورة. أما الفرس الذين أفزعتهم حركته فقد اعتنقوا الإسلام دون شرط أو قيد، منضوين تحت رايته مع بقية قبائل الجنوب العربي. وينبغي أن نأخذ في حسابنا أن «الفرس» كانوا قد دخلوا قبل ذلك في حلف مع المسلمين، لذا فإن ثورة اليمنيين كانت موجّهة ضد هؤلاء الأخيرين أيضاً.

ومن المحتمل أنه في ارتباط مع هذه الثورة حدثت غارة الاسطول الحبشي على الحجاز. ففي العام العاشر للهجرة (يوليو - آغسطس ٦٣٠ - لأن الشهر ورد ذكره) بلغ محمداً أن اسطولاً حبشياً صغيراً أغار على ميناء الشعيبة، فأرسل النبي كتيبة من ثلثمائة من المسلمين تحت قيادة علقمة بن المجزّز المدلجي. ووفقاً لابن اسحق فإن الوحدة رجعت بلا شيء، بل إنها لم تشتبك حتى مع العدو. أما الواقدي فيقول إن المسلمين انقضوا على السفن الحبشية في الضحضاح [10, p.1772] .

وعلى الرغم من مقاومة بعض القبائل فإنه لم يحل عام ٦٣٠-٦٣١ إلّا وكانت الجزيرة العربية قد اكتمل بالتقريب توحيدها في إطار الدولة الإسلامية الجديدة. وفي يناير ٦٣٠ زحف محمد على مكة بجيش قوامه عشرة آلاف. وعقد الصلح على أساس اعتناق المكيينّ الإسلام محتفظين بإدارة مدينتهم، وبهذا انضم المكيّون إلى جماعة المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. كذلك اعتنقت القبائل البدوية الاسلام وتم ضمها إلى الدولة الاسلامية الجديدة.

و «فتح الفتوح»، أي ضم مكة، كان أيضاً من المنعطفات المهمة في علاقات المسلمين مع الأحباش ببلاد العرب - وبطريقة غير مباشرة مع اكسوم نفسها. ففي الأعوام الأولى للدعوة وفي وقت إقامة محمد بالمدينة، جهد النبي في الحفاظ بأي ثمن على علاقات حسنه مع دولة النجاشي؛ ليس فقط لأهميتها

العسكرية بل وأيضاً بسبب مكانتها وسط «أحابيش» الجزيرة العربية. ومهما قيل في وضاعة النصارى بالحجاز ونجد واليمن، ومهما قيل في تعيير الأحباش لارتزاقهم بالجندية؛ فقد تصوروا أنفسهم كجماعة متماسكة ومنظّمة إلى حد كبير (في المواكب الكنسية / والتجمعات العسكرية وغيرها)، كان من اللازم عمل حساب لها في المجالات العسكرية والسياسية عند حدوث نزاع على السلطة. وما أن انتصر محمد على مكة حتى سارع إلى تدعيم انتصاره، وكان مما عمله هو حلّ القسم الأكبر من قوات «الأحابيش» المكيّة. ولم يترك سوى حرس الكعبة (الذي كان يقوم بحراستها منذ قرون). وأما بالمدينة فقط ظل الحرس الأسود للمسجد ولقبر النبي قائماً إلى عهد المروانيين. ولكن منذ اللحظة التي انقطعت فيها حياة المجتمع المكي المستقل، فإن عملية تجنيد المرتزقة من «الأحابيش» اختفت إلى الأبد.

ولما رفض أهل الطائف وقبيلة هوازن التي كانت تترحّل حول الطائف الخضوع لمحمد، عرض المكيّون (الذين كان لبعضهم قصور بالطائف) على النبي استخدام جنودهم السود ضدهم، المرتزقة منهم والعبيد. ولأن محمداً كان يخشى غدرهم من جهة، ومن جهة أخرى لعدم رغبته في أن يحيى القوة العسكرية «للأحابيش»، فقد رد على المكيين «بدهاء»: «لا خير في الأحابيش إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا». وفي وقت تال عندما أراد خالد وقف «رقيقه في سبيل الله» أي من أجل الجهاد، شكره محمد ولكن لم يأخذ باقتراحه ذاك. ويرى هـ. لامنس H. Lammens أن المقصود بذلك العبيد الأفارقة، أي الذين أطلقت عليهم المصادر تسمية «سودان مكة» و«عبيد مكة». والنبي بفعله هذا لم

يجتذب إليه فحسب قلوب «ملاّك الرقيق» من العرب ، بل قضى على أمل أولئك الذين كانوا يريدون إحياء جيش «الأحابيش» [Cf. 282, p.482]★ .

ويبدو أن هذه الواقعة يجب وضعها جنباً إلى جنب مع سياسة محمد المعادية للاثيوبيين والنصارى باليمن، حيث تم للتو إخماد حركة التمرّد ضد الإسلام التي رفع لواءها الأسود العنسى ، وأيضاً بالاستعدادات للحرب الكبرى مع بيزنطة . ومن المحتمل أن سياسة اكسوم المتعاطفة سابقاً مع المسلمين قد تغيّرت بدورها. فليس اعتباطاً أن ينسب إلى النبي حديث مفاده أن الكعبة يهدمها الأحباش [282, p.480] .

وبعد موت النبي في عام ٦٣٢ اضطلع أول الخلفاء الراشدين وهو أبو بكر (٦٣٢-٦٣٤) بإخماد ثورة أهل الردة، أي القبائل العربية التي خلعت ربقة الإسلام . ثم وجّه بثلاثة جيوش لفتح سورية وفلسطين منذ خريف ٦٣٣ أو ربيع ٦٣٤ ، وبلغ عدد كل جيش سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل . وكان أحدها تحت قيادة عمرو بن العاص فاتح مصر فيما بعد. وقد وضح منذ المعارك الأولى مع البيزنطيين ما بلغته الامبراطورية من ضعف؛ فهذه الدولة التي كانت أكبر دول الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط (إلى جانب ايران) لم تستطع الوقوف

★ *يبدو جلياً أن المؤرخ السوفيتي قد اعتنق رأي المستعرب هنري لامنس H. Lammens الذي يقول إن أحلاف قريش « الأحابيش » ينتمون إلى الشعب الإثيوبي أو على الأقل من الأفارقة عامة الذين نزلوا في تلك الآونة بأرض الحجاز (أنظر الترجمة العربية لمقال الأب لامنس بعنوان « الأحابيش والنظام العسكري في مكة » ، مجلة «المشرق»، ١٩٣٦) . وعدد من كبار الخبراء في تاريخ الجزيرة العربية لا يقبلون هذا الرأي ويرون في « الأحابيش » حلفاً من قبائل عربية صغرى نزلت آنذاك بظاهر مكة وارتبطت بقريش . من هؤلاء المؤرخين المستشرق النابه مونتجومري وات (M. Watt, Muhammad at Medina, p.81) ، والجغرافي الكبير هرمان فون فسمان (H. von Wissman, «Badw» , Encyclopaedia of Islam, 2nd ed.) والعلاّمة الباكستاني محمد حميد الله M. Hamidullah, «des Ahabish de la Mecque.» Studia) (Orienalistici in onore di G. Levi della Vida, Vol. I, p.434–447. Roma, 1956 (المترجم) .*



المادونا والطفل يحميان اميرة نوبية

في وجه العرب. أما الجيش العربي الرابع فكان يعمل بجنوبي العراق التابعة لدولة الساسانيين.

وبهذا فإن الخلافة الإسلامية وجّهت منذ اللحظة الأولى جندها في وقت واحد لفتح الدولتين الكبريين بالشرق الأدنى. هذه «الجرأة» استندت على حساب دقيق/ للعلاقة الحقيقية لميزان القوى، وعلى المطامح الهائلة للقبائل العربية، سواء النازلة منها بأراضي الدولة الإسلامية الفتيّة أو التي كانت في طاعة بيزنطة وايران.

وفي عام ٦٤٠ كان العرب قد ضموا إلى دولتهم جميع الأملاك الأسيوية لبيزنطة بالتقريب، باستثناء الأطراف الغربية والشمالية لآسيا الصغرى؛ كما احتلوا أيضاً الولايات الغربية للدولة الساسانية. وفي نهاية عام ٦٣٩ اقتحم جيش العرب تحت قيادة عمرو بن العاص حدود مصر، وبعد أن تلقى المدد هزم جيش البيزنطيين عند عين شمس. وفي ابريل ٦٤١ وضع العرب يدهم على حصن باب إليون وحاصروا الاسكندرية. وفي تلك الأثناء كان البطريرك قور قد عزل من منصبه وأرسل إلى المنفى؛ فقد اتهم بالانهزامية والتراخي أمام العرب عندما طالبوا بالجزية، كما اتهم بالافتقار إلى المهارة في تنظيم المقاومة ضدهم. وفي مكان قور القولخيدي أرسل الأرمنى مانويل بوحدة من العسكر. وفي الوقت الذي تهيأ فيه العرب لإخضاع مصر اخضاعاً كاملاً، كانت هذه البلاد في واقع الأمر منقسمة على نفسها، يعادي بعضها بعضاً [127, p.357ff.; 418, p.349ff, 156, p.283–284, 310–311; 85, p.248]. وفي اكتوبر ٦٤١ أخضع عمرو مصر الوسطى وشطراً من صعيد مصر دون مقاومة، وفي سبتمبر ٦٤٢ دخل العرب الاسكندرية [418, p.349–386; 127, p.357,ff.; 156, p.318–319, 329,545].

ومن الممكن أنه في وقت حملة اكتوبر على الجنوب عام ٦٤١ جرى أول صدام للعرب مع النوبة، فكان أشبه بالاستهلال لأول حملة لجند المسلمين بتلك البلاد. وهذه الحملة ليس من شأنها أن تكون قد حدثت قبل نهاية العام الحادي والعشرين للهجرة (خريف ٦٤١)، لأن يد العرب كانت مقيّدة بمسألة

التفاوض من أجل تسليم الاسكندرية وسقوط مدن الدلتا التي كانت في أيدي البيزنطيين سريعاً في يد العرب، بل إن عمراً نفسه في انتظار جلائهم عن الاسكندرية كان مشغولاً بوضع يده على البلاد التي جرى فتحها للتو وبربط النيل بالبحر الأحمر وبناء مدينة الفسطاط التي أصبحت مقراً للحكام العرب لمصر والتي نمت حولها فيما بعد مدينة القاهرة. عند ذاك فقط، أي في شتاء ٦٤٢/٦٤١ كان بمقدور عمرو أن يرسل بوحدة لإخضاع النوبة.

ولم يُحفظ لنا عن هذه الأحداث سوى رواية المؤرخين العرب للقرون من التاسع إلى الخامس عشر. وكلها ترتفع إلى حكايات الذين أخذوا طرفاً في الحروب النوبية ـ العربية، مدعّمة بالاسانيد (لدى ابن عبد الحكم والبلاذري والكندي). وهكذا تَمْثُل أمام أعيننا رواية تاريخية متواترة ذات طابع عام، سار على منوالها المؤلفون المتأخرون أيضاً. وأخبار المعارك الأولى بين العرب والنوبة حفظها لنا البلاذري واليعقوبي والطبري وابن الأثير والمقريزي. فالبلاذري يقول: «لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها/ الخيل ليطأهم، فأرسل عقبة بن نافع الفهري وكان نافع أخا العاصي لأمه، فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فُسُموا رماة الحدق فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح» [70, p.24–25, 27] .

أمـا اليعقوبي فيقول إن العمليات العسكرية بالنوبةجرت قبل تأسيس حصن الجيزة في العام الثاني والعشرين للهجرة [6, p.431] . ويقول الطبري إنه في عام ٢٠ للهجرة (٦٤٠) وذلك بعد أن أخضع العرب مصر «غزوا نوبة مصر، فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمى فسمّوا [النوبة] رماة الحدق» [10, p.89;102] . ويجب القول بأن المسلمين في عام ٢٠ للهجرة لم يكن بوسعهم إطلاقاً اقتحام بلاد النوبة مالم يخضعوا صعيد مصر. وهذه الأخبار نفسها يوردها ابن الأثير الذي كان أصحّ في إرجاعه الحملة إلى عام ٢١ للهجرة [40, p.433] . والمقريزي على معرفة بالتاريخين أي ٢٠ و

٢١ للهجرة، وإن أعطى الأفضلية للأول منهما؛ أما قائد الحملة فيجعله عبدالله ابن سعد بن أبي سرح الذي بلغ عدد جنده في الحملة على ما يزعم العشرين ألفاً. وهذا الجيش أمضى بعضاً من الوقت ببلاد النوبة ثم قفل راجعاً إلى مصر بعد أن تسلّم أمراً مكتوباً من عمرو بن العاص [8, p.323] . ورواية المقريزي تطفح بالأخطاء: ومن الجلي أنه خلط بين حملتين مختلفتين للعرب ببلاد النوبة - إحداهما في عام ٢٠ والأخرى في عام ٢١ للهجرة.

إن مجرد واقعة أن القوة العربية لم يكن على رأسها عمرو نفسه، بل أحد قواده (عقبه بن نافع لدى اليعقوبي والبلاذري، وعبدالله بن سعد لدى المقريزى) يقف شاهداً على أنه لم يأخذ طرفاً في الحملة على النوبة إلّا شطر من الجيش العربي؛ الذي من العسير القول بأنه بلغ العشرين ألفاً. لذا فإنه يجب اعطاء الأفضلية لرواية البلاذري، وهو مؤلف أقرب من الناحية الزمنية إلى الأحداث. وفي الحقيقة فإن رواية البلاذري تحوى جوهر المعلومات بصدد الحرب العربية - النوبية الأولى: وهو أن كتيبة من خيل العرب تحت قيادة عقبة بن نافع الفهرى هاجمت من صعيد مصر منطقة الحدود النوبية وخرّبت القرى في طريقها. ولكن النوبة بفضل مهارتهم في الرمي بالنشاب ألحقوا الهزيمة بالمسلمين وأجبروهم على الرجوع إلى داخل حدود مصر.

فهل انتهى اختبار القوى الأول هذا بمعاهدة صلح؟ إن البلاذري وهو مؤرخ واسع الاطلاع ينفي وجود معاهدة من هذا القبيل [70, p.16,18] . أما المقريزي فيتحدث عن معاهدة صلح عقدها آنذاك مع النوبة عبدالله بن سعد [8, p.323] . وأما ابن خلدون فيورد متن معاهدة الصلح التي عقدت عام ٢١ للهجرة بعين شمس، ويقول بألفاظه إنه نقلها عن الطبري [43, p.127]. غير/ أنه لا وجود لهذا المتن في «تاريخ الرسل والملوك» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري[٨٤]. وليست هذه هي الحالة الوحيدة من هذا النوع؛ وقد أشرنا فيما مر

(٨٤) لفت النظر إلى هذا أ. ج. بتلر [156, p.326, n.] .

إلى أن المؤرخ البلعمي في ترجمته الفارسية لتاريخ الطبري يقدّم الأصل العربي لكتاب النبي محمد إلى الشاهنشاه خسرو برويز الذي يخالف ذلك الموجود بالمتن العربي للطبري الذي وصلنا(٨٥). هذا وإن لم يشهد بصحة الوثيقة التي يوردها ابن خلدون، لا يقدّم من ناحية أخرى برهاناً قاطعاً على أنها منحولة. وتتفق لغة الوثيقة وأسلوبها تمام الاتفاق مع لغة وأسلوب غيرها من المعاهدات التي عقدها العرب في القرن السابع (قارن الاتفاقية بين العرب والنوبة لعام ٦٥٢ التي سنورد متنها فيما يلي). وها هو نص وثيقة ابن خلدون [156, p.323-326] :

«هذا ما أعطى عمرو بن العاصي أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يُدْخَل عليهم شيء من ذلك ولا يُنْتقص ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم (أي النيل) خمسين ألف ألف(٨٦)، وعليهم ما جنى نصرتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم(٨٧)، على ما في هذا الكتاب. عهدالله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمة المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على أن لا يُغْزوَا ولا يُمنعوا من تجاره صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبدالله ومحمد إبناه، وكتب وردان».

---

(٨٥) يفترض أ. إ. كليسنكوف أن هذه الرواية استعارها البلعمى من مصدر عربي مجهول [64, p.74-77; 65, p.74-83].

(٨٦) المتن مشوّه في هذا الموضع؛ وقد جرى استعادته وفقاً لألفاظ بتلر.

(٨٧) هكذا يفسر بتلر العبارة غير المفهومة : «وعليهم ما عليهم اثلاثاء ض كا ـ ل ثلث عليهم» [156, p.325 et n.2].

وينقل أبو المحاسن بن تغري بردي المؤرخ المصري للقرن الخامس عشر عن ابن كثير أنه بعد الاستيلاء على عين شمس خاطب عمرو أهل مصر بنداء وعدهم فيه بأمان «أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم»، وأيضاً حماية البلاد من غارات النوبة وغيرهم من الأعداء شريطة دفع الجزية [41, p.96] . ومما لا شك فيه أن ابن خلدون وابن تغري بردي إنما يتحدثان عن وثيقة واحدة. ويرى أ. ج. بتلر أن ذكر/ عين شمس إن هو إلا « مجرد سهو » و «خلط غريب»، وأن الحديث إنما يدور في واقع الأمر عن صلح الاسكندرية [165, p.324,338, note 2,p.339] .

وللخوض في هذه المسألة ينبغي التركيز على متن المعاهدة نفسه. وأول ما يقفز إلى الذهن هو موقف الأطراف المتفاوضة. فالاتفاقية تبدو متكافئة: فالجانب العربي ممثّلاً في عمرو بن العاص بسبيل عرض شروطه على الطرف الآخر. وهذا الطرف الآخر هو « أهل مصر » وليسوا البيزنطيين. هذا على حين تحدّد شروط اتفاقية الاسكندرية الموجودة لدى يوحنا النقيوسي [4181, p.279ff.] البيزنطيين بوصفهم الجانب المتفاوض، كما أن ذكر القوات «الرومية» يرد لثلاث مرات بمتن الاتفاقية. ومما لاشك فيه أن الشروط الأساسية لاتفاقية الاسكندرية، مثل دفع المصريين الجزية للعرب وحرية التمسك بالعقيدة النصرانية والحفاظ على البيع وعدم إعاقة جلاء القوات البيزنطية؛ كل هذا يتفق مع ما هو وارد في المتن العربي. غير أن الشروط العسكرية البحتة لعملية الاستسلام التي كانت قصيرة الأمد من حيث فاعليتها (إيقاف العمليات العسكرية، والأجل المحدّد لخروج القوات البيزنطية من الاسكندرية، وعدم استعمال هذه القوات في غزو جديد لمصر، وتقديم الرهائن) لا وجود لها في اتفاقية عين شمس. ولا يخلو من مغزى أنه لا يرد في هذه الأخيرة ذكر ما لليهود، وذلك على نقيض معاهدة الاسكندرية الموجود نصها لدى يوحنا النقيوسي. وفي هذا توكيد لمخاطبة عمرو للمجتمع القبطي وحده. ومن الممكن وإن كان ليس من الضروري، أن الجالية اليهودية تسلّمت من الفاتحين معاهدة منفصلة تحدّد وضعها تحت الحكم الجديد. وفي مقابل هذا يرد ذكر النوبة في

الوثيقة التي يسجلها ابن خلدون ثلاث مرات. وتنص المواد المتعلقة بهم على: (١) منع النوبة من غزو مصر، (٢) مراعاة النوبة المقيمين بأرض مصر لقوانينها، (٣) حرية مغادرتها لمن يريد منهم ذلك، (٤) تزويد النوبة للمسلمين بعدد معيّن من العبيد والخيل، (٥) التزامهم بعدم إعاقة تجار المسلمين في أسفارهم. ومما لا شك فيه أن مصدرنا إنما يورد في واقع الحال شروط معاهدة الصلح التي عقدها العرب مع النوبة. ولعل هذه لم تكن الاتفاقية الرسمية بل شيئاً أشبه باتفاقية مؤقتة. وابن عبد الحكم نفسه يؤكّد على لسان شيخ مصري «وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق» بعد الحرب الأولى بين العرب والنوبة، ولكنهم أهدوا إلى عمرو بن العاص أربعين رأساً من الرقيق. «فكَره أن يقبل منهم، فردّ ذلك على عظيم من عظماء القبط يقال له نستقوس وهو القيّم لهم فيها، فباع ذلك واشترى لهم جهازاً، فاحتجوا بذلك أن عمراً بعث إليهم القمح والخيل، وذلك أنهم زجروا عن القمح والخيل فكشفوا ذلك في الزمان الأول فاصيبوا» [70, p.1618–19] . ويورد المقريزي/ الرواية نفسها، ومفادها أن «النوبة» دفعت إلى عمرو بن العاص «البقط» الذي وعدوه به في المعاهدة وأهدوا إليه أربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وأعطى الهدية إلى كبير القبط المدعو سمقوس فاشترى بها السلع اللازمة للمعيشة والنبيذ. ويتفق هذا الموضع من رواية المقريزي مع عبارة «القمح والخيل» الواردة لدى ابن عبد الحكم. ولفظ «الخيل» غير ملائم في هذا السياق، ولعل مردّ ذلك إلى خطأ من الناسخ بدلاً من «الخمر» ؛ وقد ظن الناسخ المسلم أنه من غير المحتمل أن يشتري عمرو خمراً حتى للقبط النصارى. على أن المصادر الجديرة بالثقة تذكر أنه على عهد الأمويين وعلى عهد السابقين لهم من حكام مصر العرب تم تزويد النوبة بالنبيذ (أنظر مايلي). ولعل الحكاية المتعلّقة بهذه اللفتة الكريمة من جانب عمرو إنما هي أسطورية، غير أن الإشارة إلى نقص السلع الضرورية لدى الأقباط في البداية يتفق مع الواقع التاريخي ؛ مما يشهد بصدق الرواية العربية التي سقناها قبل قليل.

ومن الجلي أن المؤلفين العرب قد نفوا وجود الاتفاقية نفياً باتاًcum silis [؟]؛ ولكن الاتفاقية حدثت في واقع الأمر de facto ، وإن لم يتم التصديق عليها

وفقاً لقواعد الشريعة الإسلامية de jure . والأرجح أن الاتفاقية الأولى بين العرب والنوبة عقدت في بداية عام ٦٤٢ وأن شروطها كشروط معاهدة الاسكندرية انعكست في تلك الوثيقة التي حفظها لنا ابن خلدون. هذه الوثيقة ليست بحال من الأحوال هي اتفاقية الاسكندرية، بل جرى عقدها في وقت تال لذلك في أغلب الظن وذلك بعين شمس في ربيع عام ٦٤٢.

وكما أبصرنا فإن الجانب العربي لم يراع كثيراً الاتفاقية مع النوبة، لأنهم لم يتشككوا في أنها مؤقته وغير دائمة. ومن العسير القول بأن الجانب النوبي اتخذ منها موقفاً مخالفاً. ومن المحتمل أن حكّام النوبة لم يثقوا لأول وهلة في دوام سلطان العرب بمصر، التي على مدى قرن من الزمان انتقلت لثلاث مرات من يد إلى أخرى - من البيزنطيين إلى الفرس، ثم من الفرس إلى البيزنطيين، وأخيراً من البيزنطيين إلى العرب؛ وأن سكانها كانوا يختلفون تمام الاختلاف من حيث العنصر ومن حيث الدين عن جميع حكامها، سواء من اليونان أو الفرس أو العرب. وعلى الرغم من أن البيزنطيين غادروا الاسكندرية في ١٧ سبتمبر ٦٤٢ فإن الحرب بين العرب والبيزنطيين استمرت، وكان من العسير التنبؤ بنهايتها. ولا بد أن قوة الامبراطورية لاحت ببلاد النوبة وكأن لا نهاية لها: إذ كان لا يزال في يدها آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وسواحله والقسم الأكبر من افريقيا الشمالية.

حقاً إن فتوحات العرب إلى الغرب من مصر تابعت مسيرتها، ففي عام ٢٢ للهجرة (٣٠ اكتوبر ٦٤٢-٢٠ سبتمبر ٦٤٣)، وأغلب الظن في بداية عام ٦٤٣ ، اقتحمت خيل العرب تحت قيادة عمرو نفسه ليبيا فاحتلت انطابلس (بنطابوليس) وطرابلس ولكنها لم تبلغ قرطاجه، ولما تسلّمت الجزية قفلت راجعة إلى مصر. وأثناء العودة من طرابلس احتلت وحدة من المسلمين واحه زويلة/ . أما الحملة الجديدة على طرابلس وقرطاجه فحدثت في العام الخامس والعشرين من الهجرة؛ وتميل الرواية العربية إلى خلطها مع حملة عام ٢٢ للهجرة [38, p.18-19] .

ولما اعتلى الامبراطور قسطانز الثاني العرش بعد موت هرقل في فبراير ٦٤١ جهد في القيام بهجوم مضاد على العرب، على الرغم من تهديد الصقالبة لشمال غربي الامبراطورية عام ٦٤٢ واقتحامهم لأملاكها بالبلقان [46, p.366] . على أنه لم تحدث عمليات حربية بالبحر الأحمر حتى عام ٢٠ للهجرة (٦٤٠). وقد مرت بنا قصة مغامرة عكرمة بن أبي جهل الذي هرب من مكة في عـــام ٦٣٠ ومحاولته اجتياز البحر إلى اثيوبيـــا. ويحكي البكري أن الخليفة أبا بكر نفى جماعة من العرب إلى منطقة عيـــذاب [على الشاطىء الافريقي للبحر الأحمر] [248a, p.31] . وعلى عهد عمرو ذلك في عام ٦٣٧ نفي إلى باضع* الشاعر أبو محجن الثقفي [10, p.2379, 2480] . ويلوح أن الاتصال بين بلاد العرب وأيضاً مع منطقة عيذاب على البحر الأحمر لم يكن خطراً في تلك الأعوام بل كان منتظماً بما فيه الكفـاية. وهذا الوضع لم يلبث أن تغيّر بصورة حادّة في العام العشرين للهجرة. ففي عام ٢٠-٢١ للهجرة جدّد الاكسوميون غاراتهم البحرية على الساحل العربي. ويروي الطبري أن الخليفة عمر اضطر في عام ٢٠ للهجرة (٦٤٠) إلى إرسال علقمة بن مجززّ المدلجي ضد الاثيوبيين « وذلك أن الحبشة كانت تطرفّت فيها ذكر طرفاً من أطراف الإسلام (أي بالجزيرة العربية) » [10, p.1889] . وغـارة الاكسـوميين على ساحـل الجزيرة العـربية كان بامكانهم الاضطلاع بها في فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أي في صيف عام ٦٤٠، أغلب الظن في يوليو - آغسطس؛ كي يتمكنوا من العودة إلى الساحل الافريقي في الخـريف مستفيدين من الـرياح المـوسمية الشـمالية الشرقية المواثمة. ومن المحتمل أنه عقب هذا في فصل الشتاء وذلك في نهاية العام العشرين للهجرة (الذي استمر إلى العاشر من ديسمبر ٦٤٠) وبداية العام الحادي والعشرين على وجـه الدقة (٢٢ ديسمبر ٦٤٠ - بداية ٦٤١) انطلقت السفن التي أرسل بها الخليفة إلى القسم الجنوبي من البحر الأحمر في أعقاب الاثيوبيين. وكان تحت

---

* *باضع كانت تقع بين سواكن ومصوّع، أغلب الظن بموازاة طوكر. وقد خربت منذ عهد طويل؛ وجاء في عجز بيت لأبي الفتح بن قلاقس الاسكندري :*
فخـــراب باضـــع وهي كالمعمـــورة (المترجم).

قيادة علقمة أربع مراكب ومائتان من الجند [10, p.1889] . ومن العسير القول بأنهم نالوا نصراً حاسماً. وهناك خبر يقول بأن ثلاثة من المراكب الاربعة غرقت بمن فيها [10, p.2595] . لذا فمن الصعب القول بأن نهب عدولي على يد العرب حدث آنذاك [263 a, p.322] . ووفقاً لرأي كونتي - روسيني فقد ظل البحر الأحمر تماماً تحت سيادة الأكسوميين [200, p.212] . وفي عام ٢١ للهجرة (الذي استمر إلى ٣٠ نوفمبر ٦٤١)، ومن المعتقد أن ذلك وقع في اكتوبر - نوفمبر ٦٤١، «سار أهل اليمن إلى الحبشة دفاعاً عن أنفسهم» [10, p.2613] ، أي رداً على غارة الاثيوبيين في صيف عام ٦٤١. ومن العسير القول بأن غارة المسلمين هذه حققت هدفها، وإن كان الخبر التالي عن غارة للافارقة على بلاد العرب يرجع إلى عام ٣١ للهجرة. ويجب الاعتقاد بأن الغارات البحرية للاكسوميين على أراضي الخلافة الاسلامية جرت بعد عام ٦٤١*.

---

* *ابن أعثم الكوفي هو الوحيد من بين مؤرخي المسلمين الذي يتحدث عن غارة الحبشة على سواحل المسلمين في خلافة عثمان. جاء في كتابه «الفتوح» (الجزء الثاني، ص ١١٦ . طبعة حيدر أباد الدكن) : «فبينا عثمان رضي الله عنه كذلك وقد فتح من البلاد ما فتح إذ بلغه أن قوماً من الحبشة أغاروا على بعض سواحل المسلمين وأصابوا منهم أموالا وسبوا منهم سبياً كثيراً، قال: فاغتم لذلك عثمان غماً شديداً ثم أرسل الى جماعة من الصحابة وغيرهم من المسلمين فدعاهم واستشارهم في غزو الحبشة. فأشار عليه المسلمون ألّا يغزوهم في بلادهم ولا يعجل عليه حتى يبعث إلى ملكهم فيسأله عن ذلك، فان كان الذي فعله أصحابه عن أمره ورأيه هيّأ له المراكب وأرسل إليه بالجند والمقاتلة، وإن كان ذلك من سفهاء أغاروا على سواحل المسلمين من غير أمر ملكهم ورأيه أن يشحن السواحل بالخيل والرجال حتى يكونوا على حذر. قال، فعمل عثمان على ذلك ثم دعا محمد بن مسلمة الأنصاري فوجّه به إلى ملك الحبشة في عشرة نفر من المسلمين يسأله عما فعل أصحابه، وكتب إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك كتاباً. قال، فلما قدم محمد بن مسلمة بكتاب عثمان بن عفان وقرأه أنكر ذلك أشد الإنكار وقال مالي بذلك من علم. قال، ثم إنه أرسل إلى قرى الحبشة في طلب السبي فجمعهم بأجمعهم ودفعهم إلى محمد بن مسلمة، فأقلع بهم إلى عثمان وخبّره بما كان من إنكار ملك الحبشة وطلب السبي. قال، فشحن عثمان السواحل بعد ذلك بالرجال وقوّاهم بالسلاح والأموال، فكانوا ممتنعين من الحبشة وغيرهم». (المترجم)*

وتنـال الرواية الآتية للبلاذري في هذا الصدد أهمية كبيرة: «ثم أقامت الحبش من البيما بعد فتح مصر/ يقاتلون سبع سنين ما يقدر عليهم لما يفجّرون من المياه في الغياض» [4, p.223] . ويفترض بتلر أن الأمر إنما يتعلق ها هنا بالنوبة [156, p.432, note] . وهو أمر محتمل للغاية، وإن كان البلاذري يميّز جيداً بني النوبيين والحبش. ومن الممكن بطبيعة الحال الافتراض بأن الاثيوبيين - الاكسـوميين أخـذوا طرفـاً ما في العمليات العسكرية ضد المسلمين بالقارة الافـريقية. غير أن رواية البلاذري تفتقر إلى الوضوح ولايوجد ما يؤكدّها في مصدر آخر حتى يمكننا الحكم عليها بصورة أكثر جزماً.

ولا شك أن علاقات اكسوم مع الدولة الاسلامية التي اتصفت من قبل بالمودة، لم يلبث أن غلب عليها طابع العداء في عهد خلافة عمر. ومن الممكن أن سبب الحرب كان طرد النصارى من جزيرة العرب★، وأيضاً استيلاء العرب على مصر الذي لا بد أن بلغ خبره اكسوم في نهاية عام ٦٤١. ومن الجلي أن ملك اكسوم تلقى في العام التالي له وذلك «بطريق الثلاثين» خبر اقتحام العرب الأول لبلاد النوبة والهزيمة التي حاقت بهم. لذا فمن الممكن اعتبار نشاطات الاسطول الاكسومي ورماة السهام النوبيين والقوى البرية والبحرية للبيزنطيين

★ *مما لا شك فيه أن وجود النصارى باليمن شكّل ضرباً من الخطر لظهر الدولة الاسلامية الفتيّة وهي في حالة صراع مرير مع القوى النصرانية الكبرى مثل بيزنطة واكسوم. لذا فقد خطط عمر بوعيه السياسي الممتاز لإجلاء النصارى من بلاد العرب، مستنداً في ذلك على رواية مؤداها أن النبي أوصى أبا بكر في مرضه بذلك حين قال «إئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه، واقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيّرهم البلدان واعلمهم إنـا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام منهم على دينه ثم تعطيهم أرضاً كأرضهم اقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم إلخ». وبهذا اختفت المسيحية من الجزيرة العربية إلى غير رجعة. والغريب في الأمر أنه بعد قضاء النبي على يهود المدينة، فإن المسلمين لم يتعرضوا بالأذى ليهود اليمن الذين ظلّوا إلى عهد قريب مقيمين بها حتى أغرتهم دولة اسرائيل بالجلاء. (المترجم).*

على أنها عمليات مستقلة لقوات متحالفة ضد عدو مشترك هو الخلافة الإسلامية . ولا يزال غير معلوم لنا ما إذا وجد بينهم تنسيق ما . على أية حال فإن احتمال وجود ذلك بين الاكسوميين والنوبيين وارد للغاية . أما فيما يتعلق بالبيزنطيين فان دبلوماسيتهم كانت على دراية بالأساليب السرّية بصورة تسمح لها بالتسرب إلى أقصى زوايا العالم آنذاك ، حتى عبر أراضي العدو .

لهذا فإن النوبيين لم يشعروا بأنفسهم منعزلين في الكفاح مع القوة العالمية الجديدة . ومن الممكن أنهم تحوّلوا إلى الهجوم منذ عام ٦٤٢ . ويحكي البلاذري على لسان شيخ حميري من الذين أخذوا طرفاً في الأحداث : « شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب فلم أر قوماً أحدّ في حرب منهم . . . فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف ، فما قدرنا على معالجتهم ، رمونا حتى ذهبت الأعين فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوءة ، فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح ، إن سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة فلم يصالحهم عمرو[٨٨] ولم يزل يكالبهم حتى عزل » [70, p.25,27] . وقيمة للغاية إشارة الشيخ الحميري إلى أن كلتا المعركتين اللتين شارك فيهما ضد النوبيين جرتا له في خلافة عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) . الأولى منهما يجب ارجاعها إلى وقت حملة عقبة بن نافع على النوبة ، أما الثانية فإلى الفترة بين عامي ٦٤٢ و ٦٤٤ ؛ إذ من العسير القول بحدوث معركتين خلال حملة واحدة هي تلك التي جرت في العام العشرين للهجرة .

أما بصدد الصدام المسلح بين العرب والنوبة عقب عام ٦٤١ فيحكى لنا عن هذا أيضاً ابن عبدالحكم والمقريزي . ورواية هذا الأخير متحيّزة للغاية : «نقض النوبة / الصلح . . . وكثرت سراياهم إلى الصعيد فأخربوا وأفسدوا» . [8, p.323] أما ابن عبدالحكم فيروي في جوهرها المعلومات التي لدى البلاذري ولكنه يوجز بعض الشيء ، وإن لم يهمل ذكر الأسانيد . ووفقاً لألفاظه « فدخلت

(٨٨) «يكالبهم» هذا اللفظ ترجمه ل. إ. كوبّل وف. ف. متفييف بلفظ «يؤذي» [70, p.27] . ومعناه الحرفي هو «يهارش كالكلاب» و«يواثب كالكلاب» ويضايق ويعانف إلخ .

خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوايف الروم . . . فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح . . . » [70, p.15, 17] . ومن المحتمل أنه جرت غارات للنوبيين على مناطق الحدود بمصر، بنفس الطريقة التي أغارت بها خيل العرب المدرّعة على قرى النوبة بالحدود على نمط اقتحام خيل المسلمين في خريف كل عام لآسيا الصغرى حيث كانوا يخربون أجزاء كبيرة أو صغيرة من أملاك البيزنطيين ثم يرجعون لتمضية الشتاء بسورية وأرض الجزيرة.

وفي عام ٦٤٧ احتل العرب قيسارية عاصمة قبادوقية [قيصرى الحالية]. وإلى هذا الوقت يرجع أيضاً احتلالهم لجميع ارمينيا وقيامهم بهجوم على بلاد الكرج. أما بجهة الشمال الشرقي في آسيا الوسطى فقد اصطدم العرب بالترك، ثم فيما بعد بامبراطورية التانج الصينية عقب انهيار خاقانية الترك الغربيين في عام ٦٥٧. وأما بجهة الجنوب الشرقي فقد التحمت القوات العربية مع البلوشيين حينما كانت تعدّ لفتح السند.

وبشمالي افريقيا رفض اكزارخ قرطاجه جرجس في عام ٦٤١ الاعتراف بسلطان قسطانز الثاني وأعلن نفسه امبراطوراً. وكان ضياع قرطاجه ضربة قاسية للنظام الاقتصادي للامبراطورية، فقد حرم القسطنطينية من شطر كبير من حاجتها من القمح والوسائل النقدية. كما قلّل أيضاً من فرص البيزنطيين لاستعادة مصر.

وفي نوفمبر ٦٤٤ بويع عثمان خليفة بعد مقتل عمر. ولمّا كان يعد عمراً ابن العاص قوياً بأكثر مما يجب وفيه ميل للاستقلال فقد عمل الخليفة الجديد على الحدّ من سلطانه بمصر بأن نقل ادارة منطقتي طيبة والفيوم إلى أخيه من الرضاع عبدالله بن سعد بن أبي سرح. وفي الوقت عينه جعل عبدالله على أموال مصر بكاملها*، فسارع بزيادة خراج الاسكندرية والدلتا مما أثار سخط الذمّيين

* *راجع في هذا الصدد قول المقريزي : «فلمّا هزم الله الروم أراد عثمان رضه عمرو بن العاص أن يكون على الحرب وعبدالله بن سعد على الخراج فقال عمرو أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو» (طبعة فييت، الجزء ٤٦، ص١٦٢). (المترجم)*

أي رعـايا الخليفـة من غير المسلمـين. وقد استغلّ أنصار بيزنطة ذلك فدعوا القوات البيزنطية إلى الاسكندرية. ففي نهاية عام ٦٤٥ قام الاسطول البيزنطي بنـزلة في ميناء الاسكندرية قضى فيها على الحامية العربية غير الكبيرة واحتل المدينة. ومن هناك حاول البيزنطيون بسط سيطرتهم على مدن الدلتا وقراها، فارضين الضرائب على السكان المحليين. وقد رفض القبط معاونة البيزنطيين وقابلوا الجيش العربي لعمرو بن العاص كمحرر لهم من نير البيزنطيين. وبدون تعضيد السكـان الأصليين للبـلاد فإن محاولـة البيزنطيين لاستعادة مصر كان مقضياً عليهـا بالفشـل. لذا برحـــوا في صيف ٦٤٦ الاسكنـدرية إلى غير رجعـــة [156, p.465–483] .

ويروي [مطهر بن طاهر] المقدسي أنه عندما أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عثمان بالمدينة «السبي» الذي وضع يده عليه بالاسكندرية لم يستحسن الخليفة تصرّفه «فردّهم عثمان إلى ذمتهم». وكان هذا كما لاحظ المؤرخ العربي/ من أسباب « بدء الشر بين عثمان وعمرو » [80, p.29,30]★ .

واضطلع عبدالله بن سعد بحملة على قرطاجه. ولعل أول غارة له جرت منذ العام الخامس والعشرين للهجرة، غير أن حملته الكبرى ترجع إلى العام الســابع والعشرين للهجرة [70, p.263,264] . ويحكي لنا المقدسي تفاصيل الحملة وان وجد لديه خلط كبير في حساب السنين. وفي محاولته لايقاف تقدم المسلمـين فإن جرجس الذي كان أعلن نفسه امبراطوراً بقرطاجه، عبّأ قوات قبائل البربر ولكنه هزم وسقط في المعركة. غير أن العرب لم يتمكنوا من إخضاع المدن الحصينة بالقسم الشمالي من البلاد فانسحبوا بغنائم وافرة. ويقول محمد الكندي إن العرب استولوا في هذه الحملة على غنائم كبيرة حتى بلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار [70, p.263,264] .

★ *جاء لدى ابن حوقل (ص ١٣٥) : «جبا عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اثني عشر ألف ألف دينار فصرفه عنها عثمان بعبدالله بن أبي سرح فجباها أربعة عشر ألف ألف دينار. فقال عثمان لعمرو يا أبا عبدالله علمت أن اللقحة درّت بعدك. فقال نعم ولكنها أجاعت أولادها». (المترجم)*

١٧ ـ الحرب العربية النوبية لعام ٦٥١-٦٥٢ . معاهدة عام ٦٥٢

في العـام الحـادي والثـلاثـين للهجرة (٦٥١-٦٥٢) تقاتل أهل النوبة والاكسوميون في وقت واحد مع المسلمين من جديد، وإن كان ذلك قد حدث على حدة مع كل. فقد نوى عبدالله بن سعد الذي خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر أن يوجّه ضربة قاضية لذلك القطر النصراني الذي أبى الخضوع والذي أهاج جيشه مناطق الحدود الجنوبية لمصر . (حقاً إن المقدسي يوكّد أن عبـدالله بن سعـد بن أبي سرح قد اضطلع بمجرد تعيينه واليـاً بحملة على طرابلس ، غير أن المقدسي في هذه الحال بالذات يخلط بين أحداث الأعوام ٢١ و ٢٧ و ٣١ للهجرة. وكما نبصر فيما يلي فإن هذا الخلط يمكن ملاحظته أيضاً في وصفه للغنائم التي تم الاستيلاء عليها في الحملة) .

وكما حدث قبل عشرة أعوام من ذلك فإن الحرب مع النوبة كانت قصيرة الأمـد في هذه المـرة أيضاً، وإن كانت أكثر تدميراً. وقد انتهت كما يدل متن معـاهدة الصلح في رمضان عام ٣١هـ الذي يتفق مع ١٦ ابريل ـ ١٦ مايو ٦٥٢. غير أنـه من العسـير أن تكون معاهدة الصلح قد عقدت فور انتهاء الأعمال العسكرية التي لم تكن ناجحة بالنسبة للعرب[٨٩] ؛ ومن الجلي أنه بين عودة جيش المسلمين من الحملة على النوبة وتوقيع معاهدة الصلح (في صورة مكتوب من عبدالله بن سعد إلى ملك مقرّه) مضى شهر أو شهران. لذا فإن بداية حملة جيش عبدالله بن سعد يجب أن تقع في شتاء ٦٥١-٦٥٢ .

وظل عدد جيش المسلمين الذي اقتحم بلاد النوبة غير معروف. وقد سمع المقدسي بمصر في القرن العاشر أن جيش عبدالله بن سعد بلغ تعداده في وقت الحملة على بلاد النوبة سبعين ألفاً بين فارس وراجل [80, p.30] . وهذا

(٨٩) من رأي يوسف فضل حسن أنه « من المشكوك فيه جداً من الناحية التاريخية عقد اتفاقية [بهذه الصورة] عقب واقعة دنقلة في عام ٣١ هـ = ٦٥٢م » [248a,p.25] .

العدد يبدو مبالغاً فيه للغاية. وفي القرن الرابع عشر وذلك اعتماداً على مصدر غير معروف (كان استمد منه معلوماته أيضاً محمد بن يوسف الكندي) يقدّر ابن الفرات عدد هذا الجيش بأجمعه في خمسة آلاف [42, p.45] . وهذا العدد الأخير يقرب كثيراً من الصحة، وإن كان من العسير البرهنة/ عليه. على أن رواية المقدسي عن مشاركة الفرسان والرجالة في الحملة أجدر بالثقة مما يورده بشأن عددهم . كذلك يتحدث عن مشاركة الفرسان الدارعين للعرب في الحملة الشاعر الذي يورد بيته ابن عبد الحكم ومحمد بن يوسف الكندي [70, p.15, 18, 263, 264] . وتذكر المصادر أنساب فرسان العرب ، فمعاوية بن حديج [70, p.25, 28, 263, 264] كان كنديا ، وشريك بن طفيل [70, p.15, 17] من بني عامر ، أما أبو سهم ابرهة بن الصباح [70, p.263, 264] وابو شمر بن ابرهه [70, p.15,17] وعمر بن شرحبيل [8, p.323] فكانوا من حمير حكماً من أسمائهم، كما كان من حمير أيضاً ذلك الشيخ الذي لم يذكر اسمه والذي أشرنا فيما مر إلى حكايته عن المعارك الأولى للعرب مع النوبة.* وكان الحميريون على وجه العموم يمثلون شطراً كبيراً من مقاتلة عمرو. ومن الممكن كذلك أن يكون قد أخذ طرفاً في الحملة جنباً إلى جنب مع الحميريين أيضاً أحابيش الجنوب العربي الذين وجدوا في جيش عمرو. ويقول ياقوت الحموي إن عمراً أنزل بقلعة الجيزة جنده من الحميريين والأحباش، وأيضاً من قبائل رعين والأزد بن الحَجْر [47a, p.177]. ويذكر أبو صالح أيضاً الهمدانيين الذين أنزلهم عمرو بن العاص بالجيزة [223, p.173]. ومن الممكن أن وحدات من هذه القبائل، وبخاصة الهمدانيين، أخذت طرفاً في الحملة على النوبة. وإذا ما تذكرنا تاريخ الحميريين والهمدانيين والكنديين وعامر (حتى وإن أغضينا النظر عن أحابيش الجزيرة العربية) والروابط التقليدية لهذه الجماعات العرقية مع اكسوم، فإنه بامكاننا تكوين فكرة عن الحالة النفسية لهؤلاء الذين أخذوا طرفاً في الحملة لاقتحام بلاد النوبة: فهم أكثر من غيرهم من العرب كانوا يتوقون إلى اخضاع جميع افريقيا الشمالية الشرقية، بما في ذلك هضبة الحبشة واكسوم نفسها. وقد صحب الجيش عجلات تجر المجانيق (راجع

مايلي) حملتها في أغلب الظن السفن النيلية في الشطر الأكبر من الطريق(٩٠).

ولا علم لنا بحدوث معارك بين جيش الغزاة الذي اقتحم النوبة السفلى وبين السكان المحليين. وأغلب الظن أن جميع السكان أنقذوا أنفسهم بالعبور إلى الجزر أو البر المقابل للنيل أو بالاحتماء بالتحصينات. وعلى ما يبدو فإن العرب لم يضيعوا وقتهم في حصار الحصون الكبرى بنوباته، بل اندفعوا صوب الجنوب نحو دنقلة. وتؤكد جميع المصادر أن جيش عبدالله بن سعد بلغ دنقله، باستثناء البلاذري الذي لسبب ما يلتزم الصمت حيال ذلك. فابن عبدالحكم ومحمد بن يوسف الكندي يستشهدان ببيت لأحد الشعراء فيذكران «يوم دمقله» [70, p.15, 18, 263, 264] . أما المقدسي فيقول إن عبدالله بن سعد «بلغ دمقلة مدينة السودان» [80, p.30] . وبخلاف هذا يضيف محمد بن يوسف الكندي أن «دمقله» هي أبعد نقطة بلغها عبدالله بن سعد [70, p.263, 264] ، بينما يتحدث المقدسي عن حصار «دمقلة» إلخ.

وعن العمليات العسكرية التي جرت عند أسوار دنقلة وصلتنا فقط نتف من أخبار لدى ابن عبدالحكم والمقريزي. فالأول يسوق رواية لابن لهيعة بألفاظ الحارث/ بن يزيد (الذي كان معاصراً للأحداث ومشاركاً فيها كما سيتبين من اسمه): «اقتتلوا قتالاً شديداً وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حديج وابي شمر ابن ابرهه وحيويل (أو حيويل) بن ناشرة ؛ فيومئذ سُمّوا رماة الحدق» [70, p.15,17]. وكما يبصر من قصة هليودوروس Heliodorus الرومانسية فإن

(٩٠) يوكّد يوسف فضل حسن دون إشارة إلى مصادره★ أن عبدالله بن سعد اجتاز [البحر الأحمر إلى القسم الشمالي من بلاد البجا] رأساً من الحجاز إلى اسوان عشية الحملة على دنقلة عام ٣١ هـ = ٦٥١م [248a, p.32] . كذلك يقول استانلي لين يول دون إشارة إلى المصادر إن الأقباط عاونوا العرب في الحملة على النوبة فكافأهم العرب [284, p.15] .

★ *لقد تجنّى المؤرخ السوفيتي على المؤرخ السوداني الكبير. جاء لدى ابن حوقل وكان عبر إليها من الحجاز». أي أن فكرة عبور البحر الأحمر (سواء حدثت أو لم تحدث) لم يتفتق عنها خيال المؤرخ السوداني، بل استقاها من مصدر عربي (راجع ابن حوقل)، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، ص ٥٠. طبعة ليدن، ١٩٣٨).*

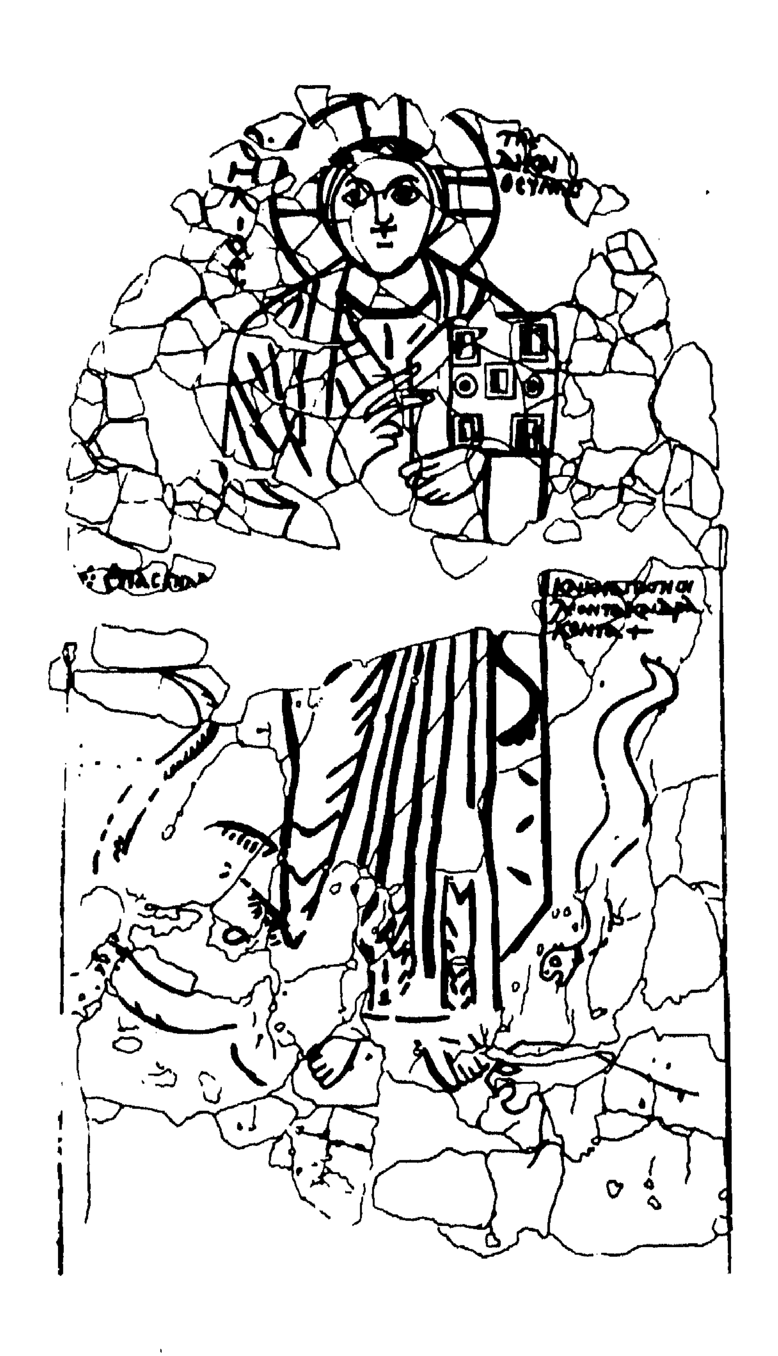
نعت «رماة الحدق» يرجع إلى مائتين وخمسين عاماً على الأقل قبل ذلك ، غير أن ذكر ابن عبدالحكم لأسماء مقاتلة العرب الذين فقدوا أعينهم في المعركة يقف شاهـداً على مهـارة الرماة من النوبة وعلى الدقة في نعتهم. ويعتمد محمد بن يوسف الكندي على الرواية الشفوية ليقول «وغزا عبدالله بن سعد غزوة الأساود حتى بلغ دمقلة . . . فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيب يومئذ عين معاوية بن حديج وعين أبي سهم ابرهة بن الصباح وعين حيويل بن ناشرة» [60, p.15,28] . أما البلاذري فيعتمد على محمد بن عمر الواقدي ليقول «وبالنوبة ذهبت عين معاوية ابن حديج الكندي» [70, p.263,264] . وأما أوثق الأخبار التي تكررها لنا الرواية العربية المتواترة فهي بيت لشاعر مجهول يقتبسه ابن عبد الحكم ومحمد ابن يوسف الكندي ، جاء فيه :

لم تر عيني مثل يـــوم دمقله   والخيل تعدو بالدروع مثقله

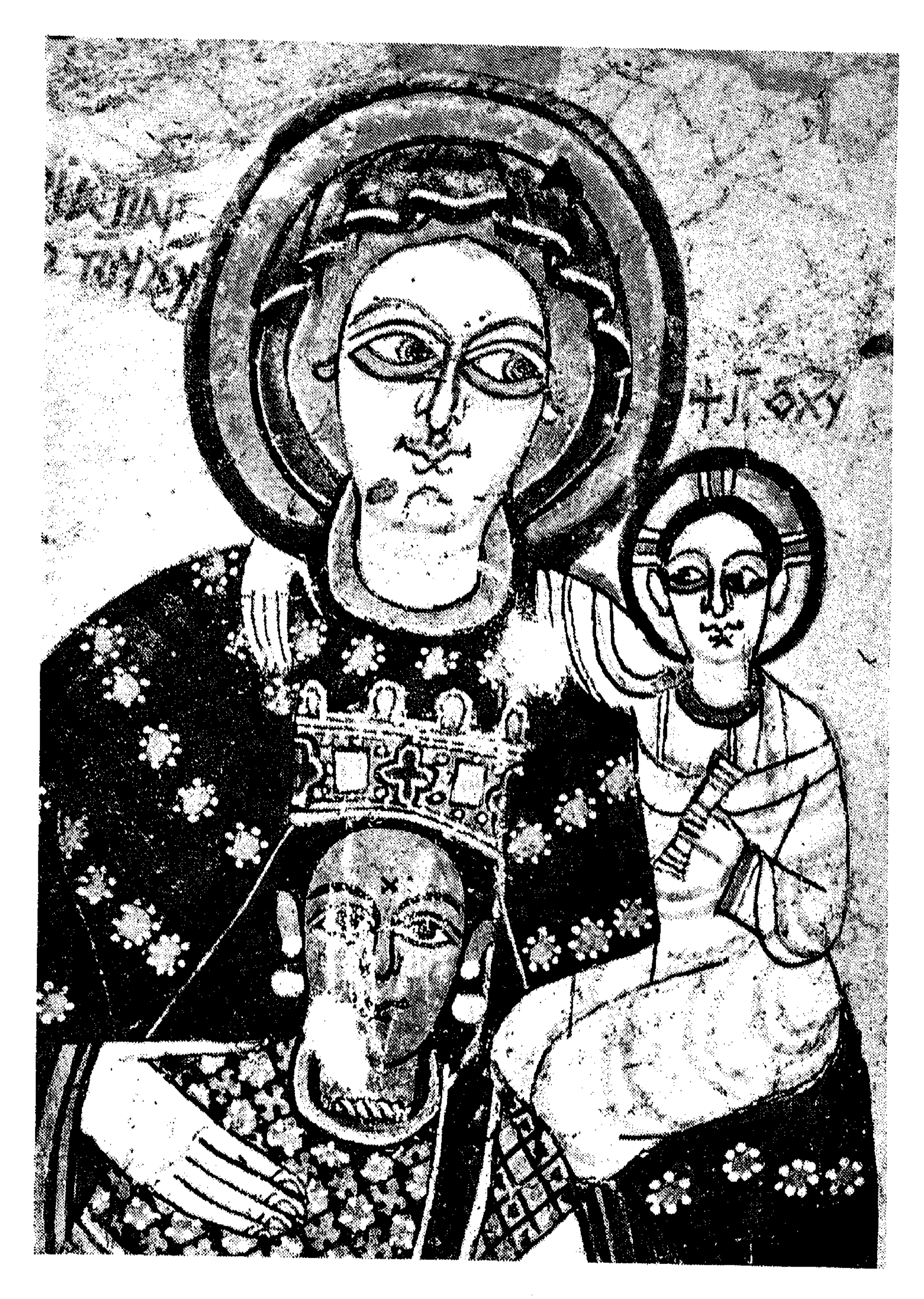
[70, p.15,18, 263, 264] .

غير أن الدورع التي كانت تغطي جسم الفارس وذراعيه، لم تحم وجهه من وقع السهام، وبذلك لم يكن التوفيق من نصيب الخيل العربية في هجماتها. وعلى الرغم من أن عبارة «يوم دمقلة» تعنى الواقعة عند مدينة دنقلة، فالأرجح أن الأمر لا يتعلق بواقعة حاسمة بين الجيشين النوبي والعربي بل بخرجة قام بها النوبيون من المدينة المحاصرة. وعن حصار دنقلة بواسطة عبدالله بن سعد عام ٣١ للهجـرة يحكى لنـا المقـريزي : «وحصرهم بمـدينة دنقلة حصاراً شديداً ورمـاهـم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهـم ذلك» [8, p.323] .

واضـطر العـرب في آخـر الأمـر إلى رفع الحصار والانسحاب من بلاد النوبة، بما في ذلك النوبة السفلى. ويقول ابن عبد الحكم «فهادنهم عبدالله بن سعد إذ لم يطقهم» [70, p.15, 17-18] ، هذا على حين يؤكّد المقريزي «وطلب ملكهم واسمه قليد روث الصلح . . . » [8, p.323] . ووفقاً لألفاظ المقدسي فإن العـرب وضعـوا أيديهم ببـلاد النوبة على كمية هائلة من الغنائم (حرفياً



صورة المسيح من دنقلة القديمه



المادونا والطفل تحمي اميرة نوبية

«الأمـــوال») حتى بلغ نصيب الفارس ثلاثـة آلاف دينار والراجل ألف دينار [80, p.30]. (ولكن من الأرجح ان هذا يتعلق بالحملة الطرابلسية لعبدالله بن سعد التي مر الكلام عنها أعلاه). كذلك وقع في يدهم عدد من الأسرى. ويذكر ابن عبدالحكم مثلاً اسم شخص معروف بمصر هو يزيد بن أبي حبيب النوبي الذي يرتفع إليه اسناده والذي كان ابناً لسويد مـن «سبي دمقله»، بل ويورد أيضاً اسم مالكه [70, p.16,18]. وينقل عن يزيد بن أبي حبيب أيضاً البلاذري 70, p.263,264] والكندي [70, p.25,28]، ويوكد هذا الأخير أن أصله من «سبي دمقلة». ولعله سقط في الأسر عند أسوار دنقلة.

ولا علم لنا بما إذا حاول ملك دنقله استجلاب عون عسكري لمجابهة العدو. ولا بد أن أخبار الغزو بلغت خلال أشهر من بدايته اكسوم، بل قبل ذلك عاصمة علوه وهي سوبه. ولا يرد اسم علوه في المصادر المتعلقة بحملة ٣١ للهجرة سوى مرة واحدة فقط، وذلك بوصفها دولة متاخمة لمقرّه فحسب؛ ويبدو أنها لم تأخذ طرفاً في الحرب. أما فيما يتصل بمملكة أكسوم، فتوجد أخبار عن غارة للأسطول الحبشي على جدة في عام ٣١هـ بالذات [10, p.2613]. ففي هذاالعـام لم تصلح سوى أشهر معدودات، هي التالية مباشرة للغزو العربي للنـوبـة، للقيام بغـارة بحرية للحبش على ساحل الجزيرة العربية. فهل من الممكن اعتبار هذه الغارة محض صدفة؟ من العسير قبول ذلك. والأرجح أن الاكسـوميين كانـوا في تصرفهم هذا يعملون كأحـلاف للنوبة. ولعلهم كانوا يتهيئـون لإرسـال جيشهم البري لغوث دنقلة، لو لم ينسحب الجيش العربي ويسارع قليدروث بعقد الصلح.

ومن المحتمل أن ملك دنقله (أو ملك النوبة السفلى) التمس العون من حاكم البجا. ويقول ابن عبد الحكم «فتجمع له في انصرافه على شاطىء النيل البجه»، أي ضد عبدالله بن سعد عند انصرافه من حملته على دنقله؛ ولكن يفهم من متنه أنهم لم يلتحموا في معارك مع العرب. ومن الممكن أنهم كانوا قد استعدوا فقط لرد هجوم المسلمين. غير أن القائد العربي لماأخبر «بمكانهم» (أي أنه حار ولا ينبت به شيء) «هان عليه أمرهم فنفد وتركهم»، أي أنه لم يهتم لهم

وابتعد عن بلادهم [70, p.16–17, 19] . ويجب الاعتقاد أن جيشه لما لحق به من خسائر في القتال ولما ناله من الاعياء وهبوط الحال المعنوية لما أصابه من فشل، لم تجتذبه الحرب في صحراء صخرية لا ماء فيها ضد مقاتلي البجا الذين وصفهم هليودوروس بأنهم لا يعرفون الكلل(٩١).

والخطر العام المترتّب على الفتح العربي كان لا بد أن يدفع إلى التقارب بين النوبة والبجا؛ ذلك أن التحالف بين الشعبين من شأنه أن يؤدي إلى اخفاق جميع محاولات حكام مصر المسلمين لفتح السودان الشرقي. غير أن شهوة البدو إلى النهب، والاختلاف حول المصالح التجارية جعلت من هذا الحلف إن لم يكن مستحيلاً على الإطلاق، فعلى الأقل غير ثابت الدعائم. وكان من أثر الصلح مع النوبة أن أطلق هذا يد العرب للقتال مع قبائل البجا. وفي ذات الوقت كانت علاقات البجا مع مصر العربية ضماناً لانفصامهم المحتوم من النوبة. وكان مما عقّد المسألة أن زعماء قبائل البجا المختلفة دخلوا في نزاع بعضهم بعضاً من أجل الهيمنة على صحراء النوبة والأراضي المتاخمة لها.

أما فيما يتعلق بمعاهدة الصلح التي عقدها عبدالله بن سعد مع النوبة فقد حفظت لنا في رواية عربية شفوية، كما حفظت قطع من متنها العربي. وابن عبدالحكم والبلاذري يعتمدان على الرواية الشفوية التي ترتفع عن طريق ابن لهيعة وغيره من الرواة إلى/ يزيد بن أبي حبيب النوبي الذي مر ذكره (والمتوفى حوالي عام ١٢٤ للهجرة/ ٧٤٦م). وجاء لدى ابن عبدالحكم: «يقول ابن لهيعة (بألفاظ يزيد بن أبي حبيب)... فهادنهم عبدالله بن سعد إذ لم يطقهم»... يقول ابن ابي حبيب في حكايته: «إن عبدالله صالحهم على هدنة بينهم على أنهم لا يغزونهم ولا يغزو النوبة المسلمين، وأن النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين كذا وكذا رأساً من السبي، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح

(٩١) ابن حوقل هو المؤلف الوحيد من العرب في القرن الحادي عشر الذي زعم خطأً أن عبدالله بن سعد أخضع في عام ٣١ للهجرة «فراعنة البُجّة» [80, p.37,54] .

كذا وكذا، ومن العدس كذا وكذا في كل سنة» [70, p.15-16,18] . وبنفس الطريقــة يتحدث البلاذري ولكن بصورة أوجز مستنداً على قـــول يزيد بن أبي حبيب وابن لهيعـــة وعبد الله بن صالح وأبي عبيـــدة القاسم بن سلاّم [70, p.25-26,28] . وهذا الراوية الأخير قدّم للبلاذري تفاصيل ترتفع إلى الفقيه الليث بن سعد (القرن الثامن) : «إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقاً ونعطيهم بقدر ذلك طعاماً [70,p.26,28] .

ويكرّر ابن عبدالحكم شروط الاتفاقية العربية النوبية لعام ٦٥٢ مستنداً على أقوال أخباري غير معروف كان قد اطّلع على نصّها في وثائق إمارة مصر: «ويقال فيما ذكر بعض المشايخ المتقدمين، إنه نظر في بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحرق فإذا هو يحفظ منه: إنا عاهدناكم وعاقدناكم إلى أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً وتدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذا ندخل بلادكم، على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً فقد برئت منكم الهدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبداً فقد برئت منكم الهدنة، وعليكم رد أُبّاق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمّة» [70, p.16,18] .

أما المتن الكامل للوثيقة فنلتقي به لدى المقريزي الذي أخذه على ما يبدو من تلك المجموعة نفسها من الوثائق [8, p.324] . ونصه كالآتي: «وكتب لهم كتاباً نسخته بعد البسملة(٩٢). عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدّ أرض اسوان إلى حد أرض علوة. (١) أن عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين، فمن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمّة: / إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشرائط التي بينا وبينكم. (٢) على أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيه. (٣) وعليكم

(٩٢) أي القول «بسم الله الرحمن الرحيم».

حفظ من نزل بلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد، حتى يخرج عنكم. (٤) وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردّوه إلى أرض المسلمين. ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرّضوا لمسلم قصده وحاوره، إلى أن ينصرف عنه. (٥) وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلّياً، وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته. (٦) وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من اواسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيه ذكران واناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى اسوان. (٧) وليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم ولا منعه عنكم، من حدّ أرض علوه إلى أرض اسوان. (٨) فان انتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً. فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وانتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح وذمّة الحواريين وذمّة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين».

ولغة هذه الوثيقة وأسلوبها الذي يشابه ما هو معهود في الوثائق العربية للقرن السابع تشهد بصحّتها. وتتفق الشروط الأساسية للمعاهدة مع تلك التي يوردها «الشيخ» غير المعروف الذي اطّلع على الوثيقة بالفسطاط، كما تتفق أيضاً مع الرواية الشفوية، باستثناء النقطتين الخامسة والسابعة. وصحة الأخيرة منهما لا يرقى إليها الشك[٩٣]، وكان على علم بها أيضاً الليث بن سعد من فقهاء

(٩٣) توجد الترجمة الانجليزية للاتفاقية بين العرب والنوبة لعام ٦٥٢ (حيث سقطت النقطة السابعة لسبب غير معلوم) لدى كل من استانلي لين يول [248, p.21-23] ويوسف فضل حسن [248a, p.22-24].

القرن الثامن[8, p.324-325]. وغير واضح تمام الوضوح أين كان المسجد الذي أخذت دولة النوبة على عاتقها المحافظة عليه والعناية به، وهل وجد في واقع الأمر. ومن الطبيعي الافتراض قبل كل شيء أن يرد اسم «مدينة» النوبة التي بني بها المسجد في المصدر على أنها دنقلة، عاصمة مقرّة. ويرى يوسف فضل حسن أنه / «من المستبعد تاريخياً بناء مسجد بموضع كدنقلة في تلك الآونة المبكّرة، لأن هذا من شأنه أن يدفع إلى الاعتقاد بوجود جالية مسلمة؛ وهو أمر من العسير القول به في تلك الأزمنة» 248 a, p.24-25 (٩٤). ومن المعلوم أن عدد المسلمين بدنقله كان ضئيلاً للغاية، لا في القرن السابع فحسب بل وفي أزمنة تالية له. لذا لم يكن اعتباطاً أن نُقضت سريعاً النقطة الثانية من المعاهدة كذلك، ولم تراع سوى رحلات التجار العرب إلى بلاد النوبة التي تنص على عدم إقامتهم الدائمة بتلك البلاد.

ويمكن ايجاز الوضع ببلاد النوبة بصدد أحداث ٦٥١-٦٥٢ في الصورة الآتية، اعتماداً على روايات المؤلفين العرب: أدّى اقتحام العرب لبلاد النوبة السفلى(أو نوباته) التي تشكّلت بها دولة مستقلة على أيام سلكو وافرفؤلو وابربنوم إلى اشتعال نيران الحرب مع ملك مقرّه الذي كان منافساً لنوباته في القرن السادس. وقد اضطر الجيش العربي خلال انسحابه من دنقله إلى تطهير نوباته حتى جزيرة فيله نفسها. غير أنه عند انعقاد الصلح برز ملك دنقلة على أنه الممثل الوحيد للجانب النوبي، ومن الواضح أنه كان يتحدث باسم مقرّه ونوباته

---

(٩٤) لتوكيد رأيه هذا ينقل يوسف فضل حسن فقرة من «تاريخ النوبة» للاسواني وردت في مصنف للمقريزي ما زال مخطوطاً [248a, p.25] . وجاء في هذه الفقرة أن ستين من الدناقلة المسلمين ذهبوا في « عيد الأضحى » إلى خارج المدينة لأداء صلاة العيد فأغضب هذا النوبيين الذين أرادوا التعرض بالأذى لهؤلاء المسلمين لو لم يتدخل ملكهم . من هذا يمكن الافتراض بأنه لم يوجد تحت تصرف الدناقلة المسلمين مسجد جامع عام ٩٧٠ . غير أنه يتضح من فقرة اخرى للأسواني أنه وجد مسجد عتيق بدنقلة في تلك الأزمنة ينسب بناؤه (دون تفسير لهذا) إلى عرب أسوان من قبيلة بني كنز . وينقل المقريزي في خططه الألفاظ الآتية من الاسواني « غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة . . . وبنى بدنقلة جامع يأوي إليه الغرباء » [8, p.312] . هذه الألفاظ عارية من الصحـة .

معاً. كل هذا يضطرنا إلى الافتراض بأن دولتي النوبة الشمالية قد اتحدتا قبل الغزو العربي تحت سلطان ملك دنقلة.

ووفقاً لبحث ل. ق. جبكر L.V. Zabkar فإنه يرتبط بهذه الواقعة صورة اورو (ملك) دنقلة يحمل تاجاً معقوداً بالصليب والقرون، يتركّب من تاج مقرّه المزين بصليب وحجرين كريمين والتاج «بالقرون» لنوباته. هذه الصورة حفظتها لنا إحدى القطع الخزفية التي تم العثور عليها بالنوبة السفلى★ [419, p.218–219, Tabl.X]. وبهذا فإن ملك نوباته الذي كان مستقلاً من قبل قد دان بالطاعة لملك مقرّة، وحمل منذ تلك اللحظة لقب هيبارخ. وكما سنرى فيما يلي فقد كان مسؤولاً عن شطر كبير من المسائل العسكرية والتجارية والدبلوماسية بدولة النوبة المتحدة، ولكن تحت سلطان بلاط دنقله. ومن المحتمل أن النوبة السفلى احتفظت في الأزمنه الأولى ببلاطها الملكي الخاص، أشبه بما كان عليه الحال مع البجا المقيمين على ضفاف النيل والذين احتفظوا بحاكمهم الخاص على أزمنة ملوك نوباته في القرن السادس. ولقد ظلت نوباته على مدى فترة القرون من التاسع إلى الثاني عشر محتفظة برواسب ثانوية لشخصيتها المستقلة السابقة؛ ليس ذلك فحسب بل وبنظامها الإقطاعي الخاص.

أما فيما يتصل بالبجا الذين اعترف شطر منهم بسلطان سلكو وحلفائه، فإن اسمهم لم يرد في معاهدة ٦٥٢ بوصفهم رعايا لملك النوبة، رغماً من وقوفهم في حربه مع العرب موقفاً ينطوي على التعاطف الشديد مع النوبة.

ولقد كان الصلح مع النوبة هو أول مرحلة لاستتباب حدود الدولة الإسلامية، وإن لم يحل هذا دون انتشار العرب في اتجاه الغرب والجنوب لمدة طويلة بعد ذلك. ففي العشرة التالية لهذا فتح العرب افريقيا الشمالية بأجمعها، وأعقب هذا افتتاحهم لآسيا الوسطى ووادي السند والأندلس وجزر البحر

★ *راجع قول أبي صالح الأرمني بصدد ملك المريس (ص ١١٩): «اللابس العصابة والقرنين والسوار الذهب». ولعل حمل الملك لسوار الذهب لا يزال ينعكس في اسم أسرة دنقلاوية عريقة معروفة بالسودان الشمالي (المترجم).*

المتوسط . وبهذا خلقوا دولة مترامية الأطراف لم يعرف العالم مثلها آنذاك ، امتدت حدودها/ من المحيط الهندي إلى المحيط الاطلنطي ومن صحراء قزيل قوم بآسيا الوسطى إلى الصحراء الكبرى بالقارة الافريقية . ولقد فصلت دولة الاسلام بلاد النوبة واثيوبيا عن الدولة البيزنطية التي تقلّصت مساحتها بصورة هائلة ، كما فصلتها أيضاً عن بقية دول أوروبا النصرانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح رعايا الخلافة الإسلامية هم حلقة الوصل بين الأفارقة والحضارة الأوروبية والهند وغيرها من مناطق العالم .

ولكن ، وكما كان عليه الحال من قبل ، ظل الشرق الأوسط (بما في ذلك افريقيا الشمالية ومنطقة القوقاز الجنوبية) مرتبطاً بشمال شرقي افريقيا بمختلف العلاقات ـ من ثقافية وعقائدية وسياسية واقتصادية (آخذين في حسابنا أن هذا الضرب من العلاقات ضعف إلى حد كبير في العهد الإقطاعي) .

ولقد أتخذت العلاقات السياسية ، كحالة الحرب وتبادل السفارات وعقد الاتفاقيات بين الحكومات وما شابه ذلك ، طابعاً متقطعاً غير منتظم . واكثر انتظاماً من ذلك كانت علاقات التبادل الحكومي في المنتجات والخدمات ، وذلك على هيئة المتاجرة والبقط[٩٥] (الذي يمكن التدليل على وجوده قبل ذلك على عهد السيطرة البيزنطية بمصر) وتبادل الهدايا وتنقّل أهل الدراية والتخصّص .

ومن غير الممكن ارجاع أي نمط من أنماط العلاقات هذه إلى العوامل الاقتصادية وحدها ، بقدر ما يمكن ارجاعه إلى العوامل السياسية أيضاً أو إلى غيرها من العوامل التي كانت جميعها ذات ضرورة حيوية من أجل الأداء العادي لدول مثل أكسوم ومقرّه وعلوه . ولقد قدّمت لهم سورية ومصر كنسيين متعلمين استطاعوا بدورهم المعاونة في اجتذاب بني جلدتهم إلى تلك الأقطار؛ كان من بينهم أهل الصناعة وغيرهم من أهل التخصّص . وفي مقابل هذا احتاج

---

(٩٥) [راجع عن « البقط » المقالين اللذين ظهرا « بدائرة المعارف الاسلامية » ، الطبعة الأولى والطبعة الثانية ـ المترجم] .

المهاجرون من الشرق الأوسط والمصريون إلى مجيء رجال الدين من بني جلدتهم لتلبية احتياجاتهم الروحية. وعلى ما يبدو فإن اضطهاد المونوفيزيين وغيرهم من النصارى بالشرق الأوسط، وبصورة خاصة بالجنوب العربي، على عهد الفرس وبالتالي كنتيجة للفتوحات الاسلامية، اجتذب إلى مدن الشمال الشرقي الافريقي أعداداً كبيرة من اللاجئين لم يلبث شطر منهم أن رجع عقب ذلك إلى وطنه، أسوة بما حدث مع المسلمين الأوائل. غير أن شطراً آخر (مثل سبايا الجنوب العربي) ظل مقيماً على الدوام، عاملاً على اثراء الانتاج الصناعي والحياة الثقافية بوطنه الجديد. وهذا يفسّر إلى حد كبير ما لقيته اكسوم وعدولي ومتارة من انتعاش في الفترة ما بين القرن السادس وبداية القرن الثامن وما لقيته فرس ودنقله في القرن السابع، رغماً مما تعرضّت له تجارة الافارقة من ضربات نتيجة لنشاط اليهود الحميريين في فترة الأعوام ٥١٧ـ٥٢٤ والفرس في الفترة ٥٧٠ـ٦٠٠ والمسلمين في الفترة ٦٢٨ـ٧٠٢.

١٨ ـ مجتمعات ودول افريقيا الشمالية الشرقية في القرنين السادس والسابع

وجد بافريقيا الشمالية الشرقية في القرنين السادس والسابع مركز سياسي وحضاري متين هو اكسوم، كما وجدت أيضاً مراكز من الدرجة الثانية في السودان النوبي. / وكانت الفتوح الاكسومية قد أدت خلال الفترة من القرن الثاني إلى القرن الخامس إلى خلق امبراطورية شاسعة ضمت أقطاراً زراعية غنية كشمال اثيوبيا والسودان وبلاد العرب الجنوبية، أي بالتقريب جميع الشعوب المتحضرة القاطنة إلى الجنوب من الامبراطورية الرومانية وذلك ما بين الصحراء الكبرى الافريقية في الغرب وصحراء الربع الخالي بجوف الجزيرة العربية في الشرق. ولم يتمتع من بينها باستقلال نسبي سوى إمارات السودان الشمالي وهي النوبة السفلى ومقرّه و(إلى منتصف القرن السادس) دولة البلميين، فكانت أشبه بدول عازلة (buffer states) بين اكسوم وبيزنطة ؛ وفي الحجاز لعبت دوراً مماثلا لهذا مدينة مكة (قبل عام ٦٣٠).

وفي داخل هذا التنظيم السياسي المعقّد (والذي يمكن أن يطلق عليه فوق العرقي لمنطقة البحر الأحمر) جرى توحيد شعوب تنتمي إلى أصول عرقية متنوّعة أشد التنوع وإلى أنماط اقتصادية وحضارية عديدة، وتتحدث بلغات تنتمي إلى أسر ومجموعات لغوية مختلفة (منها الساميّة ـ الجعزية والعربية الجنوبية القديمة أو السبئية والعربية؛ ومنها الكوشية ـ باثيوبيا وصحراء النوبة والقرن الافريقي؛ ومنها النيلية ـ ببلاد النوبة؛ ولغة كُنامة؛ ولغة الباريا وغيرها). هذه الأنماط الاقتصادية والحضارية تجمّعت تاريخياً في ثلاثة تنظيمات كبيرة ارتبط بعضها ببعض، كما ارتبطت أيضاً بالمناطق الحضارية التاريخية المجاورة في الشرق الأوسط وفي العالم الكوشي النيلي★.

وإحدى هذه التنظيمات الثلاثة يشكلها الجنوب العربي؛ أما الثانية فالسودان؛ وأما الثالثة فهي اثيوبيا الشمالية. وبالجنوب العربي كانت المواضع المركزية في النمط الاقتصادي والحضاري يشغلها المزارعون أهل الري بسفوح حمير واليمن الشمالية وأودية سبأ وحضرموت وأيضاً الجبليون بالهضبة، أما المواضع البعيدة عن المركز فكان يشغلها المزارعون بالواحات والمزارعون صائدو الأسماك بتهامة والجزر الساحلية وأخيراً البدو من الأعراب. أما بالسودان فإن المواضع المركزية في النمط الاقتصادي الحضاري كان يشغلها المزارعون أهل

★ راجع في هذا الصدد التحليل الجيد لابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» : «ولم أذكر بلدان السودان في المغرب والبجه والزنج ومن أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة؛ وهؤلاء مهملون في هذه الخصال ولاحظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك. غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحِكَم ويقاربون أهل هذه الممالك، كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم. وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة مصاقبة أرض مصر، والحبشة على بحر القلزم، وبينها وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن الذهب ويتصلون بمصر والشام عن طريق بحر القلزم» ـ (مكتبة الجغرافيين العرب، الجزء الثاني، ليدن، ص ٧ ـ ١٠، الطبعة الأولى؛ وص ٥ ـ ١٠ الطبعة الثانية BGA, II). (المترجم)

الري بدنقلة وفرس وأيضاً بالجزائر النيلية المنفصلة ، هذا على حين شغل المواضع البعيدة من المركز المزارعون الذين يشتغلون بالزراعة المطرية بعلوه وواحات كردفان ثم المزارعون أصحاب الماشية بأرض الجزيرة [بين النيلين الأبيض والأزرق] وبمناطق النيل الأبيض وبواحات الصحراء النوبية والرّحل أصحاب الإبل بالصحراء وصائدو الأسماك بجنادل النيل وسواحل البحر الأحمر والعاملون بصيد الوحش والجمع والالتقاط إلخ . . وأما في اثيوبيا الشمالية فكانت أكثر الأنماط الاقتصادية والحضارية تطوراً وانتشاراً متمثلة في المزارعين أهل الري بهضبة التيجرة الواقعة وسط الأنماط الاقتصادية والحضارية التي أشرنا إليها فيما مر بالسودان والقرن الافريقي ، وأيضاً سلسلة من الأنماط الاقتصادية والحضارية تتراوح من هذه الأخيرة إلى النمط الاقتصادي والحضاري للمشتغلين بالزراعة والري .

وظهور جميع هذه الأنماط الاقتصادية والحضارية وما تركه بعضها من أثر على بعض لأمد طويل داخل المناطق وأشباه المناطق الحضارية التاريخية (ويمكن أن نذكر من بين هذه الأخيرة النوبة العليا بالسودان وحضرموت بالجنوب العربي) لا بد أنه أدّى في ظروف المجتمع الإقطاعي المبكّر إلى تشكيل نظم جماعية وطبقية شديدة التعقيد. ومما يؤسف عليه أن المعطيات عن قيام هذه النظم في بلاد العرب وافريقيا الشمالية الشرقية تتعلق أساساً بعهد تالٍ لذلك بكثير. غير أن ما وصلنا من معلومات بصدد الجماعات الطبقية أو الطبقية العرقية في اثيوبيا و/ السودان مبعثرة في مصادر من القرنين السادس والسابع ، بل وحتى من زمان أسبق من ذلك . ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى رواية ننوس عن «آكلي السمك» بجزر البحر الأحمر وإلى سلسلة من الروايات تتعلق بسكان الصحراء النوبية ، وغير ذلك .

وعلى وجه العموم فإنه في ذلك النظام فوق العرقي (super–ethnic) الذي كانت تمثله امبراطورية الاكسوميين ، بلغ أعلى مستوى للتطور في الانتاج والحضارة اولئك السكان الحضر من أهل المدن والريف بالجنوب العربي الذين وضعوا نظماً متطورة لتوفير الماء من أجل الري وجمعوا محصولين من الحبوب في

العام وشيدوا منازل وقصوراً من طوابق عدّة وصنعوا أواني من مختلف الأنواع نالت الشهـرة في جميع الجزيرة العربية، ووجدت طريقها الى افريقيا الشمالية الشرقية. أما ببلاد النوبة العليا التي كانت تمثل الأراضي الأساسية التي قامت عليها مملكة مروة القديمة والتي أصبحت من أملاك اكسوم في الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس فقد كان مستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي في تلك الأزمنة أدنى من ذلك بكثير. وقد غلبت الزراعة المطرية (الذرة البيضاء والدخن) ، في ارتباط مع التوسع في تربية الماشية بالبراري. وعلى الرغم من زوال الحضارة المروية فقد استمر صهر الحديد وزراعة القطن بالنوبة الوسطى والعليا. ولم يلبث مستـوى النمو أن ارتفع من جديد: فاستعمل المحراث في الزراعة، كما جرى استعمال السواقي وزرع القمح والشعير والكروم ومختلف الخضروات ونخيل التمر. وتراوحت الواحات الزراعية الأساسية بوادي النيل الأوسط ـ بمنـاطق دنقلة وفرس ـ مع المناطق النزرة السكان التي كثرت فيها الوحوش ففاق عددها عدد الحيوانات المستأنسة . وفي حالات نادرة كان من الممكن الالتقاء بأجمات النخيل وبعض الغلال ومن وقت لآخر بالكروم أيضاً ؛ وذلك في رقاع صغيرة من الأرض.

وفي القرون الأولى من التقويم الميلادي كانت هضبة التيجرة دون بلاد العرب الجنوبية والنوبة الوسطى في الانتاج والمستوى الحضاري، ولكن منذ فترة ما بين القرن الخامس والسابع يمكن ملاحظة الاتجاه نحو التكافؤ في مستوى النمـو بهذه الأقطار الثلاثة. فأولا سارت معدّلات التطور بالأملاك الأساسية لمملكة اكسوم بمستوى أسرع. وثانياً وضع الاكسوميون يدهم خلال حملاتهم بالسودان والجنوب العربي على المئات والألوف من السبي ، وهو ما ترويه لنا عنهم الـرقوم وأيضاً بعض المصادر الأخبارية. هذا وقد جرى توطين الأسرى بهضبـة التيجرة وكانت أكثريتهم من الفلاحين الذين جلبوا معهم خبرة قيّمة للغاية في مجال الزراعة المكثّفة، بينما جلب الصنّاع الذين جرى تهجيرهم قسراً إلى اكسوم وغيرها من مدن اثيوبيا الاكسومية أسرار صناعتهم. وجنباً إلى جنب مع هذا فإن كثـافـة السكـان بهضبة التيجرة نمت ليس فقط بسبب الأسرى

المهجّـرين إليهـا من الأقطار المجاورة بل لأن الولاية المركزية التي وجدت بها عاصمة دولة اكسوم لم تتعرض في فترة ازدهارها لهزّات سياسية عديدة ، بكل ما يسوقه ذلك من عواقب ليس في الوسع تجنبّها . وثالثاً فإنه لهذا السبب الأخير (أي تزايد الأمن)، وأيضاً بفضل التدخل العاجل للسلطات الحكومية داخل حدود اثيوبيا الجنوبية ، فقد تحولت الطرق التجارية والمحطات ذات الأهمية الإقليمية إلى طرق تجارية كبرى ربطت بين القارات . وجلب هذا رخاء متزايدا إلى البلاد وقبل كل شيء إلى / مدنها الكبرى؛ ونمت جنباً إلى جنب مع هذا مطالب أكثر للحياة .

وفي العهد الاكسومي ، وخاصة في فترة القرنين السادس والسابع ، يمكن ملاحظة التقدم الرائع في تطور الإنتاج والمجتمع والحضارة بشمال اثيوبيا ، وذلك بدرجـة لم تبلغهـا البـلاد مرة أخـرى إلّا بعـد ألف عام من ذلك . وقد زرع الاثيوبيون القمح وغيره من الحبوب على ما يظهر، كما عرفوا زراعة الكروم . ومن بين الحيوانـات المستـأنسـة وجدت أعداد هائلة من البقر والغنم . ولكن غير معـروف فيما إذا بلغ الاكسـوميون تقدماً من حيث الكيف في الزراعة وتربية المـاشية . وأسهل من ذلك الافتراض بأنهم تقدموا في الصناعات . وكان أهم تجديد تقني في العصر الاكسومي لدى مقارنة ذلك بالعصر السابق له هو انتشار الأدوات المصنـوعة من الحديد، مما ترك أثراً حتمياً على التطور التالي للزراعة والصناعة والشؤون العسكرية . وثمة تجديد آخر يتمثل في إدخال الملاط في فن البنـاء الجديد، مع تطوير الأبنية الحجرية والخشبية معاً . وقد اتفق فن البناء الجديد مع تطوير الأبنية بالمدن وتشييد البيع المحكمة البناء بجميع أنحاء البلاد الذي ارتبط مع انتشار النصرانية فيها؛ وعاون ذلك على تطوير أسلوب جديد في المعـمار اتصف بنـظام خاص وبتزاوج عناصر مختلفة الأصول. والمعطيات القليلة المعروفة لنا عن التركيب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمملكة اكسوم تسمح لنا بوصفها على أنها حكومة اقطاعية ، أو على الأدق إقطاعية مبكّرة . وفي تصوّرنا فإن الاقتصاد الاقطاعي الذي اعتمد قانونه الأساسي على إيجار قطع الأرض، تميّز في طابعه العام باستغلال صغار المزارعين عن طريق القسر؛ مما لم يكن له علاقة بالانتاج الاقتصادي [61, p. 238 ff.] .

وحكماً على ما في أيدينا من معطيات فقد كان الدخل الأساسي لمملكة اكسوم يشكّله الإيجار البدائي أو الضرائب المجباة من المزارعين ورعاة الماشية، الذين تمتعوا بحرياتهم الشخصية واتحدوا في هيئة جماعات. وإلى جانب هذا وجدت عناصر غير حرّة من السكان، بعضها يعمل كرقيق يخدم بالبلاط وبعضها كعبيد للتجار الأجانب (وأحد هؤلاء العبيد كان أبرهة) وآخرون سبايا؛ ولكن لا توجد معلومات بصدد مشاركتهم في الانتاج[٩٦]. وكانت الطبقة الحاكمة وعلى رأسها الملك وإلى جانبه عشيرته تستغلّ أفراد المجتمع؛ فلم تكتف بجباية الضرائب منهم بل سخّرتهم في أعمال البناء الكبرى (كما حدث في الجنوب العربي عام ٥٢٥)، كما كانت ترسل بهم في الحملات العسكرية والتجارية. وبخلاف الضرائب فقد كان لملك اكسوم مصادر أخرى للدخل من بينها نصيب الأسد في غنائم الحرب؛ وكانت القطعان تشكّل أحد العناصر الأكثر أهمية في الغنائم.

وفي العهد الاكسومي نمت مدن اثيوبيا الشمالية بسرعة متزايدة، وخاصة اكسوم وعدولي ومتاره. وبخلاف هذه المدن الثلاث الكبرى وجدت مدن صغيرة مثل كُهيتو وتكنده وجولومكده، وتقع هذه الثلاث الأخيرة إلى الشرق من الهضبة بين عدولي ومتاره. وبالإضافة إلى هذا تم الكشف عما لا يقل عن/ عشر قرى من النوع الريفي. وفي القرنين الخامس والسادس أصبحت اكسوم أكبر مدن الشمال الإفريقي، وتركت أبعادها وفخامتها أثراً لا على العرب وحدهم بل على الرحالة البيزنطيين. أما عدولى فقد تحولت من «القرية» كما نعتها «مرشد الملاحة بالبحر الأحمر» Periplus Maris Erythraei المنسوب لأريان Pseudo-Arrian (بداية القرن الثالث) إلى أكبر ميناء في القسم الجنوبي للبحر الأحمر والقسم الغربي

(٩٦) إنني أبصر في نظام الرق ارتباطاً وثيقاً مع النظام الاقطاعي، بل إن النظامين يتشابهان كثيراً في أسلوب تطورهما. فمثلا يتشابه الاقطاع الذي سادت فيه السلطة الأبوية مع الرق الذي سادت فيه السلطة الأبوية، وكذلك يتشابه رق السخرة في المناجم والمعسكرات إلخ - مع أعلى درجات تطوّر الإقطاع إلخ [61, p.202 ff.]. ومن الجلي أن التطور الضعيف لنظام الرق بدولة اكسوم تجاوب مع التطور الضعيف للعلاقات الإقطاعية بوجه عام في فترتها المبكّرة.

للمحيط الهندي★. وأخذ يختفي بالتدريج من المصنفات الجغرافية حتى مجرد ذكر مواني شمال شرقي افريقا الأخرى؛ بحيث لا توجد ابتداء من القرنين الرابع والخامس معلومات ما عن تجارة بربرة بساحل الصومال. ويمكن تفسير هذا بانتقال العلاقات التجارية السابقة إلى عدولى، مما ساق إلى اختفاء المواني الأخرى بساحل البحر الأحمر الجنوبي الإفريقي بما في ذلك بربرة أو على الأقل إلى اضمحلالها ثم فقدها بالتالي لأهميتها التجارية. وقد بلغت متاره قمة أوجها في القرون من الخامس إلى السابع بوصفها مركزاً إدارياً وتجارياً.

أما ببلاد النوبة في الفترة ما بين القرنين الخامس والسابع فإن المدن بالمعنى الحقيقي للفظ - وذلك وفقاً للمعطيات الأثرية والمصادر المدوّنة - فكانت سوبه ومروه وبر - توتي Per–Tuti («فرتوتي» النقش DAE 11) ودنقلة وبخورس (فرس)، التي كانت جميعها دون اكسوم وعدولى. وفي النقش DAE 11 يرد وصف علوه (سوبه أو مروه) وير - توتي على أنها «مدن من الآجر»، على خلاف القرى العديدة التي كانت «مدناً من القصب». والمبشرون تيودور ويوليان ولونجين يدعون فرس وسوبه المدن الملكية لكل من نوباته وعلوه.

وكان تركيب مملكة اكسوم أنموذجاً للدول الاقطاعية المبكّرة (أو وفقاً لمصطلح هـ. كلايصن H. Classen وب. اسكالينك P. Skalnik للنماذج المبكّرة للدول [182]). فقد توزعت الحكومة على ثلاث مناطق أحاطت بالعاصمة. وكانت أقرب هذه المناطق إلى مدينة اكسوم تشكّلها إلى جانب المدينة نفسها مملكة اكسوم بالمعنى الضيق للفظ، حيث كانت سلطة رأس الدولة أكثر ثباتاً ومباشرة. وقد كانت هذه أكثر أقسام دولة اكسوم تمتعاً بالامتيازات. أما الأنحاء الباقية من هضبة التيجرة والمحيطة بعدولي فكانت تكوّن المنطقة الثانية - وهي

★ *عن عدولى من الأفضل أن يراجع القارىء تعليق المترجم الوافي بحواشي الصفحة ١٨٩، من ترجمتنا العربية لكتاب ن. ف. بيغوليفسكيا «العرب على حدود بيزنطة وايران» (الكويت، ١٩٨٥). ولنضيف إلى هذا أن الاسم ورد أيضاً في صورة أدولى لدى كل من الخوارزمي وسهراب. (المترجم).*

مملكة اكسوم بالمعنى العريض للفظ، والتي كانت تنقسم الى عدد من الممتلكات التابعة لملك اكسوم وتقوم بدفع الضرائب له بصورة أكثر أو أقل انتظاماً. وأما المنطقة الثالثة فكانت تتكوّن أولاً من مملكات كبيرة تقع وراء حدود أثيوبيا (بالسودان والجنوب العربي)، وثانياً من دول بدائية وقبائل تقطن الجبال والصحارى حيث كانت سيطرة اكسوم أقل ما تكون ثباتاً وتدعماً.

وكان اللقب الكامل لملك اكسوم يضم أيضاً ألقاب كبار الخاضعين له، ويتركّب من ثلاثة أقسام. فكحاكم لمملكة اكسوم بالمعنى الضيق للفظ كان رأس الدولة يُدعى «ملك الاكسومين» أو «نجاشي اكسوم»؛ وكحاكم لجميع هضبة التيجرة حمل لقب النجاشي؛ وكرأس لامبراطورية عريضة حمل لقب ملك أو «نجاشي» الأراضي الأساسية «للمنطقة الثالثة». فمثلاً دعا عيزنه (القرن الرابع) نفسه في الرقوم «نجاشي اكسوم وحمير وسبأ وذي ريدان وسلحين (والأربعة الأخيرة بالجنوب العربي) وكاسو (مملكة مروه) والبجا (قبائل البجا بشرق السودان) وسيامو» (وهذه الأخيرة بأجمعها في افريقيا). أما كالب/ فدعا نفسه «نجاشي اكسوم وحمير وذي ريدان وسبأ وسلحين والنجاد ويمنات والتهائم (أي السواحل العربية للبحر الأحمر) وحضرموت وجميع أعرابهم، والبجا والنوبة وكاسو وسيامو ودربت واصفي» (وأغلب الظن أن الأخيرتين بالقارة الافريقية). أما وأذب فدعا نفسه «نجاشي اكسوم وحمير وذي ريدان وسلحين والبجا وكاسو وسيامو وويتجه» [376, p. 771, 778].

وبخلاف هذا كان الحاكم الأعلى للبلاد يدعى «ملك الملوك» ووجدت أيضاً إلى جانب ذلك ألقاب مختصرة مثل «ملك الاكسوميين والحميريين»، أو فقط «ملك الاكسوميين» و«ملك اكسوم». وكانت كل إمارة تدين بالتبعية سواء بهضبة التيجرة أو وراء حدودها، للنجاشي الحق في ضم لقب أميرها إلى لقبه هو. ولقد دعا البيزنطيون في القرن السادس ملك اكسوم «الباسيليوس»، كماهو الشأن مع امبراطورهم ومع شاهنشاه ايران. ومن بين جميع ملوك العرب العديدين لم يستحق هذه التسمية سوى ملك حمير وحده، هذا بينما لقّبوا أتباعه بالفيلارخات والاثنارخات. وفي «الطبوغرافية النصرانية» Topographie

Chretienne يطلق على المعترفين بالطاعة «لباسيليوس» اكسوم ، وهم حكام عدولى وأجوْ، لقب «الارخونت» Archonts [413, p.70, 72] . أما المؤلفون السريان (يوحنا الأفسوسي ومصادره ـ يوليان ولونجين، وشمعون الأرشمي وغيرهم) فقد أطلقوا لقب الملك (ملكا) على ملك اكسوم وأيضاً على ملوك حمير وعلوه ومقرّه والنوبة السفلى، وكذلك على ملوك ممكلات بلاد العرب الشمالية. ومن بين هؤلاء كان ملكا حمير وعلوه من الخاضعين للنجاشى. وبهذا تشكل تدرّج هرمي للسلطة(hierarchy) بدءاً «بملك الملوك» إلى رؤوس شتى الجماعات الأخرى.

وكان ملك اكسوم والملوك الصغار التابعون له والأمراء والأقيال قادة للجيوش أثناء الحرب، كما أشرفوا بأنفسهم على أعمال البناء وجمع الضرائب من الجماعات الخاضعة عن طريق «الطواف» (البلودية Poludye). هذه الطريقة المعروفة في عدد من دول أوروبا للقرون الوسيطة المبكّرة، وأيضاً بافريقيا وبمنطقة الاوقيانوسية، كانت تتكوّن من الملك يصحبه عدد كبير من الأتباع فيطوف شخصياً بممتلكاته يجمع الضرائب من الحكام من الرتب الأدنى ومن الجماعات المستقلة ذاتياً، ويقدم خلال ذلك المأكل لمرافقيه. أما في الحالات الأخرى فقد كان الملوك الخاضعون لملك اكسوم (مثل ملك حمير) يرسلون بالضريبة السنوية لملكهم. ووفقاً لمصادر القرنين التاسع والعاشر والسادس عشر أيضاً فإن «الطواف» كان معروفاً كذلك ببلاد النوبة★ . ويفترض «الطواف» وجود انتاج فائض بإزاء التطور الضعيف للإدارة الحكومية، فهو أشبه بضرب من ضروب تحويل المِلْكية وتوزيعها. كما يفترض أيضاً وجود دور مهم للجماعة، والغلبة التامة للانتاج الطبيعي المحدود لجماعات الفلاحين التي تمتع أفرادها بحريتهم الشخصية.

★ *راجع عن «الطواف» قول أبي صالح الأرمني «وإذا أراد ملك الحبشة أن يغزو هذا الإقليم يقيم سنة كاملة يطوف فيها سوى أيام الآحاد والأعياد السيدية إلى أن يعود إلى كرسي مملكته» (ص ١٣٢). (المترجم)*

ولا يوجد بالمصادر معلومات ما عن الجهاز الحكومي لاكسوم في القرنين السادس والسابع ، والذي حكماً من كل شيء ظل على درجة ضعيفة من التطور. وقد شغل مكانة مهمة في إدارة البلاد وفي قيادة الجيوش أقرب أقرباء الملك . وفي رأينا أن عشيرة الملك شكّلت مجموعة خاصة سيطرت على الدولة .

ولا تزال معرفتنا بتاريخ اكسوم / والنوبة الوسيطة بدرجة من القلة بحيث لا تعاون في متابعة تطور نظمها السياسية . ومن الممكن فقط الافتراض بأنه حدث تركيز للسلطة الحكومية في عهد ازدهار اكسوم . غير أنه حتى في القرن السادس، كما يبصر من مثال حمير ونجران، كان ملك اكسوم يعيّن الحكام التابعين له من أعضاء الأسر المحلية العريقة (مثل عشيرة ذي يزن بحمير وعشيرة جو بنجران). وبخلاف هذا أسكن كالب بعاصمة حمير ثم بالتالي بمواضع أخرى من الجنوب العربي بضعة آلاف من جنده، كان قادتهم يدينون له شخصياً بالطاعة ويفرضون سيطرتهم على الملوك والمكوك المحليين. ويبدو أن هذا كان استمراراً للسياسة التقليدية لملوك اكسوم الذين عملوا منذ الفترة ما بين القرن الثاني والقرن الرابع على إسكان القبائل المقاتلة أو أقسام منها على حدود الدولة. ولقد أصبحت هذه المجموعات العرقية القومية بموطنها الجديد دعامة لسلطان اكسوم وسط القبائل والجماعات الوطنية من أهل البلاد الأصليين.

ويقدّم لنا يوحنا ملاله وثيوفان الداعي وصفاً للبلاط الملكي باكسوم في لحظة استقبال السفراء البيزنطيين، وهما يطلقان على الأعيان لقب «أعضاء المجلس» وذلك بنفس الطريقة التي دُعي بها النبيلان الاكسوميان اللذان أرسل بهما ملك اكسوم إلى الاسكندرية لدعوة أسقف جديد (أنظر مامر) . وفي رأينا أن الألقاب العليا في التدرج الهرمي داخل الإقطاع الاثيوبي في الفترة التالية للعصر الاكسومي انما انبعثت من ألقاب البلاط الاكسومي [54, p. 212] .

ويعطينا الرقيم القبطي من تافه الذي يحمل تاريخ ١٤ ديسمبر ٧١٠ فكرةعن بلاط ملك مقرّه المدعو مرقوري، والذي يشابه في تنظيمه البلاط البيزنطي ـ ولعله غير مأخوذ مباشرة من البلاط البيزنطي بالذات، بل من خلال

نمـوذج بلاط حاكم الـولاية. وفي رقيم ٥٥٩ من دندور تحمل حاشية الملك والمعترفون له بالتبعية ألقاب هيبارخ وهيبوتران وفيلارخ. ولا علم لنا على وجه التحديد بنظام الإدارة بمقرّه أو كيف كان نظام البلاط الملكي بدنقلة نفسها قبل بداية القـرن الثـامن. وكل ما نعرفه هو أن هيبارخ نوباته (مريس) و«ملك» البلميين ـ البجـا كانا يخضعان لملك مقرّة بوصفهما مُقرّيْن له بالتبعية، عقب فقـدهمـا لاستقـلالهـما الـذاتي. أمـا المعلومات الأكثر تفصيلا بصدد التركيب السياسي لبـلاد النـوبـة فترجـع إلى فترة ما بين القـرنين التاسع والرابع عشر فحسب. ومصـادر القـرن السـادس، وبـالذات يوحنا الافسوسي ومن زوّده بالمعلومات، يقسمون «سكان النوبة، سواء النوبة السفلى أو علوه، إلى ثلاث طبقات اجتماعية؛ هي: الملك والأعيان والشعب. ولكنهم لا يذكرون شيئاً فيما يتعلق بوضعهم الاقتصادي أو القانوني.

أما الجيش الذي لعب دوراً كبيراً بأكسوم، كما هو الحال مع مجتمع العهود الإقطاعية المبكّرة، فكان ينقسم إلى وحدات قائمة بذاتها أو إلى كتائب (يضم كل منها بضع مئات على ما يبدو) حملت في العادة أسماءاً قومية. فنلتقي بأسماء قومية لقبائل اثيوبية خضعت للاكسوميين، مثل متين (برقوم عيزنه) وأجَوْ (برقيم وأذب بن كالب) وأيضـاً بعدد من أسماء الأقوام التي ارتبطت في رأينا بالنظام العشـائري والقبلي للاكسوميين أنفسهم. وبخلاف هذا وجد «جيش الخاره» الذي كان يمثل على عهد/ عيزنه وحدة من جنده من العسير القول بأنها كانت تشكّل الحرس الملكي.

على أننا نلتقي في رقيم وأذب بعبارة يمكن أن نفهم منها وجود ما يقابل «جيش الخـاره»، وهم «الأحـزاب» (الأقوام). غير أن العبارة «احزابية» (أي أقـوامي) الـواردة برقـوم عيزنـه وكـالب ليست سوى مرادف لعبارة «جيوشي» (سراوتيه). وفي العهد التالي للعهد الاكسومي كان لفظ «خاره» يعني جميع جند الملك أو أتباعه المسلحين ـ أي حرسه وبلاطه في آن واحد. لهذا فإن من الممكن أن «جيش الخاره» أخذ ينال الأهمية منذ عهد ازدهار مملكة اكسوم، وذلك على

نقيض «الجيوش» الأخرى التي لم تكن سوى «قوات شعبية» (militia) من مختلف الأقوام ـ أي من الجماعات والقبائل الكبيرة.

وتسميات «الجيوش» المختلفة نلتقي بها في رقوم عيزنه وكالب و وأذب. وعلى الرغم من الفجوات الكبيرة في رقوم الملكين الأخيرين، وبالذات في تلك المواضع منها التي ترد فيها أسماء «الجيوش» فإنه باستطاعتنا أن نوجزها في الصورة الآتية :

(رقوم عيزنه)	(رقوم كالب)	(رقوم وأذب)
سبرات	دكوين	سبرات
دكوين	خاره	دموه
دموه	فلخه	خاره
خاره	أزابو	فلخه
فلخه	معات	هدفن
سره	أَجَوْ	أَجَوْ
هالين		سبهه
مهزه		
متين		

ولقد شغلت السياسة الدينية والتجارية مكانة هامة في النشاط الحكومي بمملكة اكسوم وممالك السودان في القرنين السادس والسابع. فالأولى اتصفت على وجه العموم بتسامح أكبر نسبياً مما كان عليه الحال بالامبراطورية البيزنطية. وعلى نقيض ما حدث ببلاد العرب الجنوبية فإن تنصير اكسوم والنوبة جرى بسلام، بحيث لم تعرف هذه البلاد ذلك العداء الحاد الذي نشب بين المذاهب الدينية. وكما يتبين من مثال المسلمين الأوائل الذين التجأوا من مكة إلى مملكة اكسوم، فقد كانت اكسوم ملاذاً لمن جرى اضطهادهم بالأقطار الأخرى من بين أتباع الطوائف التي تنتمي إلى عقائد دينية مخالفة.

أما فيما يمس السياسة التجارية، فقد تحكّمت فيها الظروف الموضوعية الآتية: (١) غلبة نظام الانتاج الطبيعي المحدود، حيث قدّمت الزراعة في المناطق الأكثر كثافة بالسكان بأثيوبيا وبلاد النوبة منتوجاً ضئيلاً من أجل التجارة؛ (٢) وجود عدد من سلع المناطق الحارة الطريفة داخل حدود افريقيا الشمالية الشرقية، والتي اشتد الطلب عليها دائماً ومنذ آلاف السنين بالأقطار النامية في الأقاليم المعتدلة؛ (٣) الوضع الجغرافي لافريقيا الشمالية الشرقية على مقربة من طرق التجارة الكبرى التي تصل بين القارات والمحيطات؛ (٤) تنافس القوى في حلبة السياسة الدولية آنذاك؛ حيث لم تكن الأدوار الرئيسة فيها من نصيب الدول الافريقية بل من نصيب امبراطوريات البحر المتوسط والقارة الآسيوية، أقصد بيزنطة وايران والخلافة الإسلامية وغيرها.

ولقد دخلت اكسوم والنوبة، وإلى حد ما إمارات وقبائل الصحراء النوبية وأيضاً القرن الافريقي وساحل افريقيا الشرقي، في علاقات تجارية مباشرة وغير مباشرة مع جميع هذه الدول الكبرى في العصور الوسيطة المبكّرة وأيضاً مع عدد كبير من الدول الأخرى.

١٩ ـ العلاقات التجارية لأكسوم والنوبة مع العالم الخارجي في القرنين السادس والسابع

وعلى الرغم من غلبة الانتاج الطبيعي المحدود، فإنه لم يكن بمقدور مملكة اكسوم أن تعيش دون المتاجرة؛ فاعتمدت إلى حد كبير على دخول مختلفة حصلت عليها من التجارة البحرية وتجارة القوافل. أما بلاد النوبة السفلى ومقرّه فلم تكن واحات زراعية فحسب داخل إفريقيا الصحراوية، بل محطات على الطريق من مصر إلى جوف القارة الإفريقية. فالملاحون بساحل افريقيا الشرقية وقادة الإبل بصحارى بلاد النوبة وبلاد الدناكل وبلاد الصومال والصحراء

الكـبرى، كيّفوا حياتهم وأسلوب اقتصادهم وحضارتهم للمشاركة في التجارة العـالمية لذلـك العهـد؛ وذلـك على هيئة مرشدين للقوافل وملاّحين وجمّالين ومنتجين لوسائل النقل. ونلتقي بمعطيات طفيفة عن العلاقات التجارية لأقطار افريقيا الشمالية الشرقية في العهد الذي نتحدث عنه ، عادة في مصنفات المؤلفين البيزنطيين وإلى حد ما في الرواية العربية المتواترة. وكان طريق الملاحة الرئيس يخرج من مواني مصر وفلسطين على البحر الأحمر ويتوقف بموانى الجنوب العربي وعـدولى، ثم يتـابـع مسـيرته إلى خليج عدن والمحيط الهندي وسواحل الهند الشمالية والجنوبية وسيلان ومضيق ملقه وإلى ما وراء ذلك.

وثمـة فرع جنـوبي لهذا الطريق كان يذهب إلى ثغور افريقيا الشرقية، وصفه لنا في القرن الثاني وبداية الثالث قلوديوس بطليموس واريان المنحول. هذا الطريق لم يطرّح إلى نهاية القرن السادس، كما يتبين من ذكر «زنجيون» Zengion (وهـو ذات اللفظ الـذي نلتقي به في اسم زنجبار) في «الطبوغرافية النصرانية» لقزما الذي أبحر إلى الهند [310, p.38,52;413, p.62,70] وأيضاً في معثـورات أثـرية شتى. غير أن البيزنطيين قلّ أن أخذوا هذا الطريق، وكان استعـمالهم له أقل بكثير من تجار عدولي وموانى الجزيرة العربية. ولقد كانت عدولى إلى لحظة تخريبها على يد المسلمين عام ٧٠٢ أكبر ميناء تجاري على طريق الملاحة القادم من القسم الشمالي للبحر الأحمر إلى الهند وجنوب شرقي آسيا. ولكن حتى مواني بلاد العرب الجنوبية الواقعة على هذا الطريق لم يكن في الوسع تحاشيهـا. ولم يقتصر الأمر على المذبحة التي دبّرها ذو نواس وأنصاره، بل إن الحروب المعتادة وألوان العصيان المختلفة شكّلت خطراً مهلكاً بالنسبة للسفن/ وللملاّحين والتجار المارين ببوليكاس وعدن وفرسان الكبير وسقطرى. وكان من عاقبة هذا أن لاح خطر يهدّد بانحراف مسيرة التجار من حدود اكسوم في اتجاه الشمال الشرقي. وللحيلولة دون ذلك فقد كان على اكسوم أن تحافظ على سياسة الاستقرار بسواحل البحر الأحمر وخليج عدن بتأمين هذا الطريق بواسطة القوة العسكرية. ويبدو أنه على الرغم من جميع تقلّبات التاريخ العسكري للقرنين السادس والسابع فقد ساد الهدوء بصورة عامة الطريق البحري من مصر إلى

الهند، بحيث لم يمثل اقفال مضيق باب المندب على عهد ذي نواس، وأيضاً الحملات البحرية للأثيوبيين على ساحل الجزيرة العربية في زمن الخلافة الاسلامية، سوى عوائق مؤقتة في وظيفة هذا الطريق التجاري الذي نال الأهمية على مدى العصور القديمة والوسيطة.

وفي القرن السادس، شأنه شأن القرن الخامس، كانت سفن عدولى هي الضيفة المعتادة بالهند وسيلان. ووفقاً لرواية قزما الذي أبحر إلى الهند فإن سيلان «كانت تستقبل عدداً كبيراً من السفن القادمة من الهند بأجمعها ومن بلاد الفرس ومن اثيوبيا»، كما أن سلع سيلان «وجدت طريقها إلى بلاد الفرس واوميرتاي (أي حمير) وعدولي». ويقول قزما في موضع آخر من مصنفه إن الاثيوبيين من مملكة اكسوم كانوا يتاجرون مع بلاد العرب الجنوبية وبلاد الفرس ويحصلون على الزمّرد من البجا فيبلغون به بريغازهBarygaza ميناء الهند الغربية و«الهون البيض» إلى الشمال من الهند. وإلى إيران والهند وحمير والامبراطورية البيزنطية كان يجلب من اثيوبياسن الفيل والطيب والقردة. ويذكر قزما أيضاً سن فرس النهر كسلعة مألوفة للغاية باثيوبيا ومصر. وهو يذكر شخصيات عديدة أحياناً بأسمائها كانت مرتبطة بتجارة عدولى في المحيط الهندي - من بينهم بيزنطيون عائدون إلى عدولى من سيلان، ورفاق التاجر صوباطر Sopatros، وتاجر باسم مينا، و«سريان» سمر اللون، وسكان سقطرى ممن التقى بهم قزما بأثيوبيا. وهو نفسه لم يزر عدولى فحسب بل واكسوم أيضاً [310,p. 50-54, 359-372; 413, p. 69-72, 119, 320,322-325].

وحكاية بروقوبيوس القيساري عن محاولة الامبراطور يوسطنيان اقناع إلّا أصبحه بوضع يده على تجارة الحرير التي احتكرها التجار الفرس بالهند [30, p. 281; 249, t.1, p.109-110]، تقف شاهداً على علم الحكومة البيزنطية بما كان للاثيوبيين من علاقات تجارية وثيقة للغاية مع تلك البلاد. ويتحدث نونوس عن استيراد التبر من مملكة اكسوم [331, p.178; 29, p.487; 250, p.5]؛ بينما يروي لنا قزما أيضاً عن تبر الذهب الذي كان يصل إلى اكسوم من جوف القارة الافريقية 310, p. 51-54; 413, p.70-71. على أن الذهب القادم من مملكة

اكسوم كان يبلغ العالم الخارجي في العادة على هيئة مسكوكات ضربها ملوك اكسوم للقرنين السادس والسابع في أعداد كبيرة.(٩٧)

وعن التجارة مع اثيوبيا تحدثنا أيضاً الرواية العربية المتواترة، خاصة المكّية. ومن بين السلع «الحبشية» التي كانت تباع ببلاد العرب نالت الشهرة بخاصة الرماح السمهرية التي يرد ذكرها في الشعر الجاهلي وفي الأخبار التاريخية. / أما عن واردات مملكة اكسوم من السلع الأجنبية فتتحدث مواد الحفريات الأثرية. فإلى القرنين السادس والسابع يمكن إرجاع المعثورات البيزنطية - كالصلبان والسلاسل الذهبية والمصابيح البيزنطية المصنوعة من البرونز (متاره) والموازين والمكاييل البرونزية (عدولى واكسوم) والآنية المصنوعة من الزجاج الشفاف والمعاجين الزجاجية (اكسوم، عدولى، متاره وغيرها) والجرار من منطقة البحر المتوسط ومنطقة طيبة والتي حمل فيها على ما يبدو النبيذ وزيت الزيتون (إلى مواضع عدّة). كل هذه تمثل الضرب المألوف جيداً من الواردات المجلوبة من بيزنطة إلى اثيوبيا والنوبة. وببلاد النوبة بالذات غلبت الجرار الصغيرة المعمولة بمنطقة طيبة وباسوان من أجل النبيذ، والتي كانت تحمل إليها في أعداد كبيرة سواء في العهد البيزنطي أو العهد العربي. [129, p.68-70, figure 12; 131, p. 73;134, p.752, tab1. 11, figure 2; 188, p. 12, tabl. XX; 189, p. 17; 126, p.267-281] ويرجع آدمز W.Y.Adams بانتعاش تجارة النبيذ بين مصر والنوبة إلى الفترة ما بين منتصف القرن السادس ومنتصف الثامن [124a, p.281]، معتمداً في هذا بصورة أساسية على المعطيات الأثرية. كذلك من الممكن الافتراض أن كميات كبيرة من النسيج كانت من بين الواردات

(٩٧) مما يدعو إلى الأسف أن المصادر الهندية والسيلانية لا تحوي أدلة قاطعة على وجود علاقات مع مملكة اكسوم أو غيرها من الأقطار الافريقية في العصور الوسيطة المبكّرة. وتحكي القصة الهندية للقرن السادس أو السابع والتي تحمل عنوان «دشكومارتشريتا» أن ابناً لأحد التجار قام برحلة بحرية إلى «جزيرة اليفان السود»، مما يمكن ترجمته «بجزيرة الاثيوبيين الهيلينيين». غير أنه من العسير تحديد موقع تلك الجزيرة بشكل أدق. ويفترض أ. بيشم A. Basham أن المقصود بها جزيرة مدغشقر أو جزيرة زنجبار [21, p.245].

وحفظت من التلف في حالات استثنائية، كالأنسجة الحريرية القبطية من مصر في الفترة ما بين القرنين السادس والثامن ومن حرير العراق في الفترة ما بين القرنين السابع والتاسع التي عثر عليها بدير دبره دمو [308, p.50-54; 284] . وهناك أيضاً تم العثور على نقود عربية يرتفع أقدمها إلى زمن الخليفة عبد الملك ابن مروان تاريخها عام ٧٩ للهجرة أو ٦٩٧م . وهذه النقود تمثل أقدم المسكوكات الإسلامية قاطبة.

ومن الغريب أنه لم يعثر باثيوبيا، وذلك على نقيض الحال مع أقطار افريقيا الشرقية، على قطعة واحدة من النقود البيزنطية التي ترجع إلى فترة القرنين السادس والسابع. كذلك لم يتم الكشف أيضاً عن مصنوعات نوبية لذلك العهد. والمصنوعات السودانية (مروه) ومن الجنوب العربي والهند التي تم العثور عليها بأراضي مملكة اكسوم ترجع إلى القرون الأولى للتقويم الميلادي. وغياب معثورات من الجنوب العربي في القرن السادس يثير الدهشة، ولعله من الممكن توضيحه بأن آثار اثيوبيا لم تدرس بعد دراسة كافية. أما فيما يتعلق بالنوبة فإن جميع المعثورات بالتقريب التي من أصل أجنبي والتي تم الكشف عنها بحفريات فرس ودنقلة وبمقابر القرن السادس، إنما ترجع إلى أصل مصري. وعددها ضئيل للغاية، باستثناء الجرار والمصنوعات الزجاجية. ويمثل طرافة خاصة تسعة فناجين من البرونز عُثر عليها بالنوبة السفلى في مقابر من القرن الأول إلى القرن السادس، ومن الرابع إلى السادس، ومن الخامس والسادس؛ وذلك بكرنوج وفركه وتوماس، وهي من النوع الذي يجلب من الصين. ووفقاً لبحث س. ي برزينا S.Ia. Berzina فان هذه دون شك مصنوعات صينية. وقد جرت محاولات بالنوبة السفلى لتقليدها بأكواب من الصلصال [17, p.220-223] .

أما في الدول الافريقية الأخرى فإن ما عُثر عليه من أشياء تنتمي إلى منطقة البحر المتوسط وإلى آسيا في العصور الوسيطة المبكّرة ضئيل للغاية، بحيث أنها لا تقدم في أحسن الظروف سوى دليل على أن طرق القوافل بلغت تلك الأنحاء. ولا تحوي المصادر المدوّنة للقرنين السادس والسابع سوى إشارات عابرة وعشوائية لطرق التجارة التي ساقت إلى مناطق افريقيا الحارة في ذلك

العهد. ويمكن فقط الافتراض أنه استمرت/ الاستفادة من الطرق البحرية وطرق القوافل للعهد السابق لهذا والتالي له. فمثلا تصف مصادر فترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الخامس الميلادي الطريق من ساحل البحر الأحمر الذي يفضي من منطقة سواكن - عدولى إلى ضفاف العطبرة، ووراء ذلك إلى أن يتحد مع الطريق الآخر الذي يبدأ من مصر مصعّداً مع النيل. وتورد المصادر البيزنطية والسريانية للقرن السادس تفاصيل تتعلق بقطاعات منفردة من هذا الطريق؛ فننوس وبروقوبيوس القيساري يتحدثان عن الطريق من عدولى إلى اكسوم، بينما يصف لنا بروقوبيوس وقزما الذي أبحر إلى الهند الطريق من الفانتين إلى اكسوم. وكان الطريق الأول منهما يأخذ وفقاً لقول ننوس اثني عشر يوماً [331, p.179;29, p.486]، ووفقاً لبروقوبيوس خمسة عشر يوماً فيما يقال [30, p.251; 249, t. I, p.105]؛ وهو شيء كثير جداً حتى بالنسبة لسفارة. أما الشطر الثاني من الطريق فكان يأخذ ثلاثين يوماً. [30, p.256; 249, t. I., p.104; 413, p.69]. وهذا الطريق الأخير هو الذي أخذه إلى داخل السودان المبشرون البيزنطيون للقرن السادس، وعلى وجه الخصوص لونجين. وحكاية لونجين عن عبوره للصحراء (ومن الواضح أنه أخذ طريق فرس - وادي حلفا إلى منطقة أبي حمد) بقافلة تتكون من اثني عشر بعيراً كان يقودها بجا - بلميون تقدّم لنا فكرة عن تنظيم قوافل الإبل بصحراء النوبة في القرن السادس.

أما تنظيم قوافل اكسوم التي تحكى عنها رقوم العهد السابق لهذا، فيمكن أيضاً تكوين فكرة عنها من حكاية قزما الذي أبحر إلى الهند بصدد تجارة الاكسوميين مع بلاد ساسو التي وُجدت بها معادن الذهب. ووفقاً لألفاظ قزما «فهي غنية بمناجم الذهب. لذا فقد كان ملك الاثيوبيين يرسل إليها كل عامين برجاله للحصول على الذهب وذلك تحت إشراف حاكم اجو؛ وكان يصحبهم عدد كبير من التجار بحيث بلغ جمعهم الخمسمائة. وكانوا يأخذون معهم إلى هناك الثيران والملح والحديد. وعندما يقتربون من تلك البلاد يتوقفون عند موضع معيّن ينصبون فيه معسكرهم الذي يحيطونه بزريبة كبيرة من الشوك ينزلون بداخلها. بعد ذلك يذبحون الثيران ويقطعونها قطعاً ينصبونها فوق شوك

الحظيرة ومعها قطع الملح والحديد. وعندئذ يقترب الأهالي يحملون قطع الذهب بهيئة حبة الترمس وتسمى تنخره، يضعون واحدة منها أو اثنتين أو أكثر على قطع اللحم أو الملح أو الحديد التي وقع اختيارهم عليها، ثم يبتعدون لمسافة ما، وعند ذلك يأتي صاحب الثور فإن أعجبه الحال جمع الذهب. وبعد هذا يقترب صاحب الذهب فيحمل اللحم أو الملح أو الحديد. أما إذا لم يقتنع التاجر فإنه يترك الذهب على اللحم، وعندما يبصر الآخر أن البائع لم يأخذ الذهب يقترب ليزيد في الذهب أو يحمل ما كان وضعه ويبتعد. هذه هي الطريقة التي تجري بها المعاملات مع سكان تلك البلاد لأن لغتهم مختلفة، ولأن من العسير الحصول على مترجمين» [45a, p. 182–183] . ثم يضيف قزما أن جميع المشاركين في القافلة مسلّحون ويبذلون قصارى جهدهم لاتمام الرحلة قبل الفصل المطير الذي يحدّده بالكثير من الصحّة . والذهب الذي يُحصل عليه من ساسو في قطع حجم حبات الترمس يُسمّى « تنخره » . وكان الطريق إلى ساسو/ يأخذ على ما يقال خمسين مرحلة ويعادل المسافة من القسطنطينية إلى الاسكندرية . [310, 50–54; 413, p.69–71] .

وقد جهدتُ في تحليلي لهذه الحكاية أن أعزل فيها الحقائق من العناصر الخيالية . ويمكن أن يضاف إلى هذه الأخيرة القصة عن بلاد الذهب (Eldorado) التي نلتقي بها حتى لدى هيرودوت في وصفه لاثيوبيا على النيل، وأيضاً القصة القديمة الواسعة الانتشار بصدد المتاجرة «الخفيّة»، وكذلك الحكاية بصدد الطريقة العجيبة للحصول على الذهب باستعمال قطع اللحم التي ترمى للنسور وغير ذلك [51, p.54, 190 ff.; 58, p.140 ff.] . وألفاظ قزما بصدد التجار الاكسوميين الذين «يبتعدون لمسافة ما» بعد أن يضعوا السلع على حظائر الشوك يجب مقابلتها بالتفاصيل المشابهة من حكايات أخرى تتعلق «بالمتاجرة الخفية»، حيث كان البائعون يبتعدون فيها إلى مسافة خمس مراحل أو يجلسون على السفن التي تبتعد بهم عن الساحل (كما في رواية هيرودوت عن «المتاجرة الخفية» بالذهب في افريقيا الغربية). وفي هذه الحكايات كانت المتاجرة تستغرق خمسة أيام، كما هو الحال مع حكاية قزما. وفي ذات الوقت نبصر في

حكاية قزما جهداً لتحليل تفاصيل الأسطورة بصورة عقلانية (كالإشارة إلى صعوبة إيجاد المترجم)؛ تلك الأسطورة التي اخترعها التجار منذ القدم لإخفاء تجارة الذهب عن الغرباء.

ويحسّ في حكاية قزما أن الاكسوميين كانوا يريدون بجميع الوسائل ردع التجار البيزنطيين بمن فيهم قزما نفسه، عن أية فكرة للنفاذ إلى بلاد ساسو. فمثلا امتداد الفصل المطير جرت المبالغة فيه بدرجة أنه مُدّ من شهر أبيب (يوليو) إلى شهر توت (سبتمبر)، هذا على حين كان فصل الأمطار الأكبر لا يتجاوز الفترة من آغسطس إلى سبتمبر. وأما مخاطر الطريق وإن كانت في حيّز المعقول إلا أنها نالت لديه اهتماماً فوق العادة. فهو يقول «أما طريق عودتهم (أي الاكسوميين) فكانوا يقومون به جميعاً مسلحين بلا استثناء، لأنه وجد بين سكان تلك البلاد من ينوي الشر بهم ويريد انتزاع الذهب الذي قايضوه في بلاد ساسو» [413, p.71] . ومن الممكن أن قزما نفسه فكّر في التوجه مع القافلة الاكسومية إلى ساسو، فلم يأل الاكسوميون جهداً لإخافته بمخاطر الطريق في محاولة لاقناعه باطّراح فكرته هذه.

وعلى ما يبدو فإن الحكاية التي يرويها مؤلف «الطبوغرافية النصرانية» عن تجارة اكسوم مع بلاد ساسو لم تخل من صمت مقصود. فمن الغريب مثلا ألّا يذكر في عداد السلع التي كان يجلبها الاكسوميون الى بلاد ساسو الأنسجة وغيرها من المصنوعات، بل يذكر فقط الملح والحديد وأيضاً قطعان الماشية. إذ من غير المعقول ألّا يحتاج أهل ساسو إلى المصنوعات الزجاجية والمعدنية والجلود والثياب وغيرها. ومردّ هذا إلى أن تجارة الحديد والملح كانت في يد التجار الاكسوميين، على حين كان تصدير الحديد والأغذية محظوراً على البيزنطيين بواسطة حكومتهم نفسها. وبخلاف هذا فإن قطع الحديد وقوالب الملح والقطعان استعملت بأثيوبيا منذ القدم بصفة نقود. وفي احتكارهم للتجارة الداخلية فإن ملك اكسوم وأعيان دولته كان لهم الخيار إذا ما أرادوا، أن يستبدلوا بهذه «العملة» المحلية النقود والسلع الأجنبية. ومن الجلي أن تعداد السلع لم يخل أيضاً من تزويق أدبي مقصود لم يكن من عمل قزما بطبيعة الحال، بل يرجع إلى

اولئك الذين كان يهمهم أن يثنوه هو ومن على شاكلته عن الدخول في مغامرة من هذا القبيل.

وإلى جانب هذا يقدّم لنا قزما تفاصيل قيّمة عن تنظيم تجارة القوافل الاكسومية. فنواة القافلة (وتحمل في أحد الرقوم الاكسومية (DAE 10) اسم «نجديت») كانت تتكون من عملاء الملك الذين كانت تنضم إليهم شخصيات أخرى ولكن ليس بحال من الأحوال أجانب، بل في الغالب عملاء الأعيان وأفراد من التجار. وكان الهدف الأساسي للتجارة هو الحصول على الذهب. أما فيما يتعلق بالسلع كالعاج مثلا، فإن قزما يلتزم الصمت. ولعل قوله إن عدد أفراد القافلة بلغ الخمسمائة ربما لا يخلو من بعض المبالغة، وإن كان قريباً من الواقع. وكما هو معلوم فقد كان المكيّون أيضاً يرسلون في ذلك العهد بقافلتين من هذا الضرب في كل عام، إحداهما في الضيف إلى فلسطين والأخرى في الشتاء إلى اليمن. والأساطير المتأخرة (التي ترجع إلى بداية القرن الرابع عشر) تحكي عن عملاء تجاريين لملوك اكسوم قدموا للمتاجرة بأسوان. على أية حال فقد كان الاكسوميون شأنهم شأن معاصريهم أهل مكة، يرسلون بقوافل غفيرة العدد ومنظّمة تنظيماً محكماً في اتجاهين أو ثلاثة على الأقل. وبشهادة قزما فإن القافلة إلى بلاد ساسو كانت ترسل «تحت اشراف حاكم أجوْ». وبمعنى آخر فإن حاكم هذه المنطقة التي كانت القافلة تخترق أراضيها قد أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عنها، فإن تعرّضت القافلة للنهب فإن الحاكم كان يتوقع جزاءً عسيراً. ويحكي أحد الرقوم الاكسومية للقرن الرابع (DAE 10) كيف عوقب سكان إحدى ولايات الحدود - وهم أربع قبائل كانت نهبت قافلة التجار الاكسومية وقتلت أفرادها.

وقد تنبّه علماء السلالات البشرية (ethnography) وعلماء اللغات إلى أن تسمية تبر الذهب بلفظ «تنخره» شبيه جداً بعدد من الألفاظ بافريقيا الشمالية الشرقية وفي اللهجات العربية التي تعني تبر الذهب [411 a] . وفيما يظهر فإننا بإزاء مصطلح تجاري قديم نال انتشاراً واسعاً منذ العهد الاكسومي، ولربما قبل ذلك.

أما موقع بلاد ساسو فقد حدث وأن أثبتناه داخل حدود اثيوبيا الجنوبية الغربية والجنوب الشرقي للسودان الحاليين، وبالذات بنواحي وجه وبني شنقول والنواحي المتاخمة لها. ولا يزال الذهب والبلاتين يتم الحصول عليهما بكميات كبيرة بالمنطقة. وإلى الجنوب بعض الشيء توجد ولاية كفا التي وجد بأرضها تبر الذهب [51, p. 97 ff.] . وحتى عقب سقوط مملكة اكسوم حفظت لنا حكايات الرحلات إلى تلك البلاد من أجل الذهب، كما كان عليه الحال في عهد قزما. ويحكي لنا جغرافي عربي من القرن الثاني عشر هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري عن الزنج الذين كانوا يسكنون «وراء جبل الازدكان على النيل»: «ومن عجائب هؤلاء القوم أنهم ما رآهم أحد قط إلاّ عَمي بصره ولا يرون هؤلاء القوم إلاّ عَمِيَت أبصارهم. ولقد تأتي إليهم النوبة والحبشة بالمتجر من بلادهم كالملح وهو أرفع ما يحمل إليهم فيترك كل واحد منهم سلعته على ضفة النيل ويذهب فتأتي الزنج بالتبر فيحفّون بأمام كل سلعة كأساً من التبر فتأتي النوبة والحبشة فإن أعجبهم ذلك أخذوه وإن لم يعجبهم ذلك نقلوا سلعتهم إلى مكان ثان حتى يزاد لهم في القيمة فيتبايعون وهم لا يرى أحد منهم صاحبه....» [80, p. 215, 220](٩٨) .

ومما لا شك فيه أن هذه الرواية نالت الرواج في القرن الثاني عشر وسط عرب أسوان والنوبة الذين دأبوا بوجه العموم على حكاية مختلف الغرائب عن الأقطار الواقعة إلى الجنوب من سنّار [57, p.97 ff.] . ونلتقي بعناصرها أيضاً في رواياتٍ أخرى تتعلق بتجارة الذهب في افريقيا الشمالية الشرقية؛ مثال ذلك لدى اسحق بن الحسين المنجّم وهو جغرافي عربي من القرن العاشر الذي يقدّم لنا الحكاية الآتية الشديدة الاضطراب: «وقاعدة بلاد الحبشة وهي مدينة جرمى وهي دار مملكة الحبشة وهي للنجاشي وبها يبتاع تبر الذهب بالنحاس وأهلها لا يفهمون(٩٩) فإذا أراد التاجر أن يتجر مع أحدهم جعل..... يعطيه في الأرض

(٩٨) يفترض ف. ف. متقيف أن الأمر يتعلق ببلاد افريقيا الغربية ـ ومن الممكن غينيا الحالية [80, p.373–374] .

(٩٩) يترجم ل. إ. كبّل وف. ف. متقيف هذه الجملة بالطريقة الآتية: «وبها يبتاع تبر الذهب بالنحاس، ولكن أهل المدينة لا يدرون بها» [70, p.188] .

فإن رضيه أخذه وإن لم يرض أخذ ذهبه ومضى عنه» [70, p.187] . وفي القرن الثالث يصف لنا فيلوسطراط Philostratus في مصنفه «سيرة ايوللون [بلنياس] الطوانى»Life of Apollonius of Tyane [D262, p136, VI,2] التجارة بهيرا سيكامينوس Hierasykaminus (المحرّقة) بشمالي النوبة، وكانت تجارة «صامتة» بل لعلها «خفيّة». فيقول إن التجار من مروه كانوا يضعون سلعهم من ذهب وطيب وسن الفيل والكتان في موضع معيّن. وعندئذ يتجه إلى هناك التجار من مصر ويتركون سلعهم بالكمية التي يرون أنها تعادل سلع السودان. ومن العسير في رأيي القول بأن رواية فيلوسطراط هذه تتفق مع واقع الأحوال التاريخية★.

فإلى أي عمق بداخل القارة الافريقية امتدت العلاقات التجارية لأكسوم وبلاد النوبة في القرنين السادس والسابع . يبدو أن ساسو كانت الحد الجنوبي للرحلات التجارية للأكسوميين وأهل عدولي في نطاق العالم الكوشي - النيلي. ومن الممكن أنه إلى الجنوب الشرقي أبحرت السفن العدولية بالمحيط الهندي إلى البنادر وزنجبار، ولكن لم تحفظ لنا أخبار ذلك. ومن المعلوم أنه في العهد السابق لهذا أبحرت إلى هناك سفن من الجنوب العربي والامبراطورية البيزنطية والهند وبلاد الفرس. وتشهد معثورات السكة والخزف بأن علاقات ساحل افريقيا

★ *راجع أيضاً كلام ابن بطوطة عن أرض الظلمة : «فإذا أكملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد. فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن رضي صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه، وإن لم يرضه تركه، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن أم من الإنس، ولا يرون أحداً» (Voyagbes d'Ibn Batoutah 8888 par De-frémery et Sanguinetti, t. I, p.400) . ولنضيف أنه يعني بأرض الظلمة النواحي الشمالية الشرقية من روسيا الحالية التي لا تعرف الشمس إلا لفترة قصيرة من العام. أما فيما يتعلق عامة بالتجارة الصامتة والخفية وغيرها من ضروب المتاجرة البدائية في العصور القديمة والوسيطة فراجع كتاب: P.J.H. Grierson, The Silent Trade, 1903 (المترجم).*

الشرقي المطلّ على المحيط الهندي استمرت مع أقطار البحر الأحمر والقارة الآسيوية إلى القرنين السادس والسابع فيما يبدو. على أن معثورات السكة البيزنطية (بما في ذلك القرن السادس) والأموية بالصومال وبزنجبار وجزيرة بمبه غير موثّقة بما فيه الكفاية [180 ;179 ;232] . ولكن تم العثور منذ عهد غير بعيد بجزر لامو على زهريات مطليّة بالزجاج (glazed) ترتفع إلى القرنين السادس والسابع ومصدرها الشرق الأدنى (سورية والعراق)، مما يقف شاهداً قوياً على الأقل على علاقات هذه المنطقة بالشرق الأوسط [134, p.760, note 18] . كذلك تم الكشف عن قطع من هذا النوع من الخزف بحفريات/اكسوم وعدولي ومتاره. فبأكسوم مثلا عثر على كأس زرقاء مطلية بالزجاج في حال جيدة ترتفع إلى القرنين السابع والثامن [188, p.11; 134, p.759-760] .

وكأن نبأ مثيراً يوم أن تم الكشف بناحية الأشانتي بأراضي غانه الحالية، على مصباحين من البرونز هما تقليد لصناعة قبطية أو نوبية من فترة ما بين القرنين الخامس والسابع [139;140] . وقد افترض أ. ج. اركل A.J.Arkell أن أصولها قد جلبت إلى هناك في العصور الوسيطة المبكّرة عبر حزام السافانا الافريقية. ويخالفه في هذا اولدروجه D.A. Olderogge الذي يرى أن « هذه المصابيح من الممكن أن يكون قد جلبها العرب من شمال افريقيا بعد القرن الثامن ». [86, p.51] . على أي، فقد كانت هذه هي الحال الوحيدة لصلة مباشرة، متزامنة أو غير متزامنة، بين حضارة الأشانتي والحضارة القبطية أو ربما مع حضارة النوبة المسيحية. غير أنه لا يرقى الشك إلى وجود شبه بين المصنوعات الخزفية والبرونزية لحضارة منطقة بحيرة تشاد في القرون من الخامس إلى الثامن وأعمال الخزف والبرونز التي عثر عليها بأعداد غفيرة في المقابر النوبية لذلك العهد.

وبمنطقة كورو ـ طورو Koro-Toro (بجمهورية تشاد) ، وذلك على مسافة ألف وخمسمائة أو ألف وستمائة كيلو متر بالتقريب من دنقلة ومروه ، جمع ب. كايو ـ ري P. Capot-Rey في عام ١٩٥٧ من سطح الأرض قطعاً من الخزف تذكّر جيداً بالخزف المروي والنوبي المسيحي المبكّر. وقد تم العثور على نوع مشابه من قطع الأواني والمخاريط الخزفية بمنطقة ماليدنجي إلى الشرق من

كورو ـ طورو [309, p.44] ويربط بحر الغزال بتشاد بين منطقة كورو ـ طورو وماليدنجي وبين ساو (جنوبي بحيرة تشاد) التي انتعشت حضارتها في العصور الوسيطة . وبصدد المصنوعات البرونزية التي تم العثور عليها بحفريات حضارة ساو، كتب ب . لانتييه P. Lantier يقول إن أكثرها اجتذاباً للنظر رأس الغزال الذي عثر عليه بقرية مديجه Midigué والقلادة الفريدة التي عثر عليها في مكرى Makari ؛ مما يشير إلى وجود صلة بين صناعة المعادن المحلية ومثيلتها النوبية . ومن الممكن أن النماذج الأولى لهذه المعثورات إنما تكوّن شطراً من الآنية التي عثر عليها بالمقابر النوبية للقرن الثامن . ولم يكن اعتباطاً كما لاحظ ج . ب . لوبوف J.-P. Lebeuf أن وَصَف مارسيل موسM.Moss رأس الغزال بأنه «نوبي»، وإن كان من عصر متأخّر nubien "recent" 285, p.177, 178, note 2) . أما ج . سوريه كنال G. Suret-Canal فيقابل رأي لانتييه (الذي قال بإنه «من المستحيل تحديد حدود دقيقة بين حضارات وادي النيل الأعلى وافريقيا الوسطى» [285, p.177] مع فرض أ . ج . اركل الذي أوردناه قبل قليل [105, p.146] . كذلك يميل ر. موني R. Mauny إلى الاعتراف بامكانية أثر حضارة سودان وادي النيل في الألف الأول الميلاد لا على حضارة منطقة بحيرة تشاد وحدها، بل ما وراء ذلك على منطقة النيجر الأبعد إلى الغرب [309,p.44,46] . على أن هذا الفرض لا يزال في حاجة إلى براهين تدعّمه .

ومهما يكن من شيء فقد كان مجال النشاط الجغرافي والاجتماعي للاكسوميين والنوبيين بداخل القارة الافريقية في العصور الوسيطة المبكّرة محدوداً، ولكنهم قاموا بدور الوسيط بين هذه المناطق والعالم الخارجي في القرنين السادس والسابع . ولقد أدّت هذه الوساطة بصورة رئيسية إلى إثراء الطبقة الإقطاعية العليا بالمجتمعين الاكسومي والنوبي، التي إلى جانب المكوس المفروضة على التجار تسلمت أيضاً دخولاً من المشاركة المباشرة في التجارة/ (عن طريق عملائها الخاصين) . وكانت هذه الطبقة المكوّنة من الملوك والأمراء، ممن تم الكشف عن قصورهم وأبنيتهم وضياعهم بواسطة علماء الآثار في اكسوم وعدولى ومتاره وفرس وغيرها من المدن، هي الوحيدة في ذلك العهد التي وُجدت

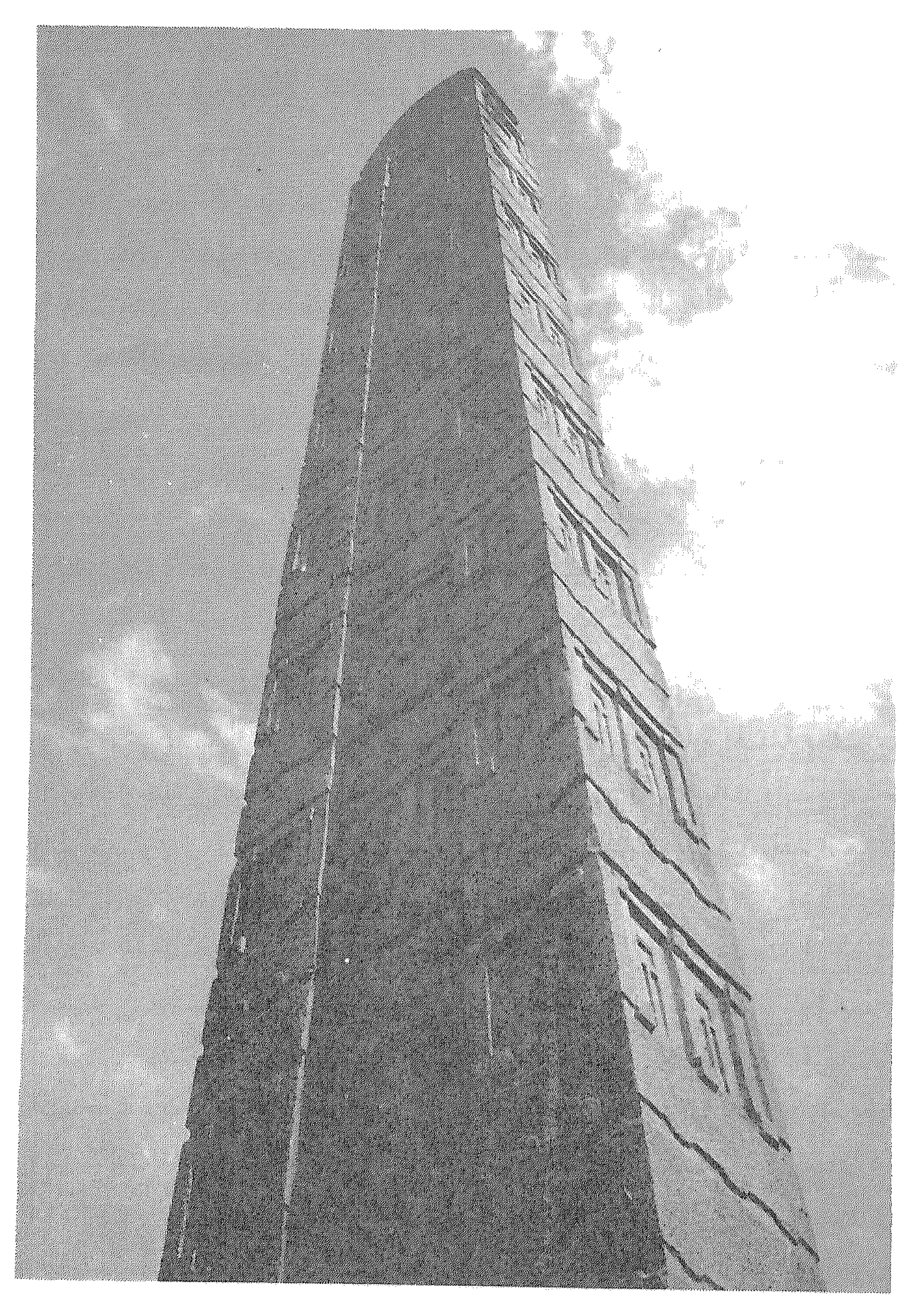
لديها الامكانيات الكافية للمشاركة في التجارة إلى مسافات بعيدة. ذلك لأنه كانت لديها الأموال والسلع وأيضاً الحبوب وقطعان الماشية لغذاء الملاحين وقوّاد القوافل، كما وجد لديها الأتباع العديدون الذين كان بوسعها ارسالهم كعملاء تجاريين ومرشدين للقوافل أو للحصول على المنتجات القيّمة وغير ذلك. وبمعنى آخر فإن الحكام والأعيان وحدهم هم الذين كانت لديهم الاتصالات والمكانة اللازمة للدخول في مبادلات مع حكومات افريقيا الشمالية الشرقية في العصور القديمة والوسيطة.

وعلى الرغم من أن الزراعة باكسوم ومقرّه وعلوه لم تكن موجّهة إلى انتاج سلع التجارة، فإن وفرة المحاصيل الزراعية ونتاج الماشية قد سمح لسكانها بإعداد السفن التجارية والقوافل والاشتغال بنقل الأغذية والأدوات المنزلية، والدخول في تجارات بعيدة. وقد حصل الذين اشتركوا في المعاملات التجارية (وكانوا في العادة نصف عسكريين) على أرباح في التجارة. على أي، فإن مستهلكي السلع الأجنبية بعدولى وفرس وبين البجا كانوا يمثلون قطاعات من السكان عريضة بما فيه الكفاية. غير أنه لا يوجد أساس يحملنا على الاعتقاد بأن فلاحي اكسوم والنوبة قايضوا السلع الأجنبية في القرنين السادس والسابع بمنتجاتهم الزراعية والرعوية. ذلك أن الغنائم الحربية والمشاركة في تجهيز القوافل وما تقدمه لهم السلطات من حوافز (وكل هذا في ارتباط مع الوضع المتميّز لسكان هضبة التيجرة وعدولى وفرس ومقره ومنطقة مروه - سوبه بالشمال الشرقي الافريقي، ولكن قبل كل شيء للاكسوميين بالذات في هضبة التيجرة) مكّنهم من الدخول في عمليات البيع والشراء دونما حاجة إلى إنتاج السلع التجارية بأنفسهم. وبمعنى آخر فإن تطور المعاملات التجارية والنقدية لم يكن في حاجة إلى تطوير إنتاج السلع المحدودة.

وبطبيعة الحال فليس هناك مجال لمقارنة تجارة الاكسوميين والنوبيين، فضلا عن البجا وغيرهم، من حيث القيمة المادية بتجارة بيزنطة وايران لذلك العهد وإن حملت نفس الطابع. وحتى بدون المشاركة المباشرة في التجارة فأن مجرد هيمنة اكسوم ومقرّه على طرق التجارة البرية والبحرية قد درّ عليها أرباحاً

ليست بالضئيلة. والمنتجات المحدودة بافريقيا الشمالية لذلك العهد لم تكن موجّهة نحو السوق، بل لم تكن ترتبط بالتجارة ارتباطاً مباشراً بقدر ما حدث ذلك الارتباط عن طريق النظم الاجتماعية والسياسية وقبل كل شيء عن طريق الدولة. ولقد ولجت حكومة اكسوم ميدان التجارة في القرن السادس كقوة يحسب لها حسابها. والدليل على ذلك هو سك العملة من الذهب الخالص والفضة والبرونز التي استمر العمل بها إلى القرن الثامن. وكان النظام النقدي لدولة اكسوم موجّهاً نحو بيزنطة، مما يشير بوضوح إلى أنها كانت العميل التجاري الأول لاكسوم. غير أن سك النقود، خاصة الذهبية، لم يكن عملا اقتصادياً صرفاً بل كان سياسياً أيضاً، يعلن/ للعالم أجمع عن استقلال مملكة أكسوم وازدهارها ويخبر بأسماء حكامها ورموز سلطانهم. ولقد كانت اكسوم في القرنين السادس والسابع هي الدولة الافريقية الوحيدة التي سكّت النقود. وكان الهدف الأساسي من ذلك في المكان الأول التعامل النقدي مع تجار منطقة البحر المتوسط والقارة الآسيوية، بل بين الاكسوميين أنفسهم؛ هذا على حين جرت المعاملات التجارية مع بقية الأفارقة بواسطة أنماط بدائية للتقايض. بل إن السودان نفسه لم يعرف استعمال النقود آنذاك. وفي القرن العاشر وما بعده لم تستعمل النقود الذهبية ولا الفضية إلى الجنوب من الشلال الثاني.

وهذا الافتقار إلى التطور في أشكال التبادل ببلاد النوبة الوسيطة لم يكن مرده إلى المستوى العام في تطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل أيضاً إلى ما تركه نظام التبادل بين الحكومات من أثر على جميع مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالبلاد.



النصب الكبير بمدينة اكسوم

٢٠ ـ حضارة اكسوم والنوبة في القرنين السادس والسابع وذلك في نطاق حضارات القرون الوسيطة المبكّرة

كان أقصى مدى بلغه التطور الحضاري في العصور الوسيطة المبكّرة وأبعده انتشاراً هو ما حظيت به حضارتان كبيرتان هما البيزنطية والهندية[١٠٠]. ويمكن إلى حد كبير تفسير بقائهما واستعدادهما الباطني للانتشار بارتباطهما العضوي بأكبر دينين لذلك العهد، هما البوذية والنصرانية. ويضاف إلى هذا أيضاً ارتباطهما بتراثين كبيرين لفكر فلسفي وعلمي وأدبي، هما الفكر الهيليني - الروماني ـ الهلينستي من ناحية، والفكر الهندي القديم من ناحية أخرى. أما الحضارات الأخرى لذلك العهد، ومن بينها تلك التي تمتعت بالنمو كالصغدية والايرانية وغيرها، فقد كشفت عن قليل من الاستعداد للانتشار والتجدّد؛ مردّه قبل كل شيء إلى غياب الارتباط العضوي بأحد الأديان العالمية.

وفي الفترة ما بين القرنين الرابع والثامن، مرّت الحضارة الهندية بعصر من الازدهار بلغ فيه الأدب الهندي القديم الأوج في المسرحيات والرياضيات والفلك. وعلى الرغم مما قاسته شبه جزيرة الهند من تفتت سياسي، فقد انتعشت المدن التجارية والصناعية التي عاش وعمل بها أهل الحرف، وخرج منها التجار والملاحون والمبشرون بالهندوكية والبوذية. وتميّزت الحياة الدينية للهند في القرنين السادس والسابع بتوطّد وانتشار الجاينية Jainism والبوذية الماهايانية [العجلة الكبرى] وانتعاش الهندوكية. ولقد غلبت الجاينية في ذلك العهد بالنقاط الساحلية بكجرات والهند الجنوبية المرتبطة بالتجارة مع بلاد العرب وافريقيا، وإن كانت الهندوكية هي التي حازت النفوذ أكثر فأكثر. غير أنه ليست هذه الديانات وإنما البوذية هي التي كشفت عن استعدادها للانتشار وراء حدود شبه

---

(١٠٠) ظلت الحضارة الثالثة الكبرى لتلك الأزمنة، وهي حضارة الصين، في حال من التدهور إلى قيام دولة التانج.

جزيرة الهند ـ وذلك بآسيا الوسطى وآسيا الشرقية والجنوبية الشرقية. وبالنسبة لجميع هذه المناطق فقد لعبت الهند وإلى جانبها نيبال وسيلان دوراً كبيراً كمركز للحضارة. ومما لا شك فيه أن نفوذها أُحسّ أيضاً بافريقيا الشرقية ذاتها. غير أنه ها هنا لا البوذية ولا الحضارة الهندية في مجموعها حازت في ذلك العهد انتشاراً ذا بال، / ويعزى ذلك بصورة أساسية إلى ما لقيته من منافسة دين آخر متطور وحضارة أخرى عالمية.

هذا المركز الأخير والقوى للحضارة تشكّل مرة أخرى كما حدث في القدم بمنطقة شرقي البحر المتوسط، حيث برزت إلى الوجود حضارة بيزنطة الرفيعة التي دمجت التراث الثرّ للحضارة الكلاسيكية القديمة في وحدة عضوية مع أفكار النصرانية. وقد ضرب تأثيرها بعيداً في أوروبا الغربية والشرقية، وبافريقيا الشمالية والشمالية الشرقية، وبآسيا الدنيا والوسطى.

وهكذا شكلت بيزنطة والهند الشمالية كل منهما على حدة مركزاً لحضارة عالمية قائمة بذاتها، ولدت بها وانتشرت منها أفكار جديدة. أحدهما من الممكن تسميته بالنصرانية البيزنطية، والآخر بالهندية البوذية. ولنبدأ «بالعالم النصراني» للقرنين السادس والسابع. ففي قسمه الغربي، وأيضاً في القسم الأوسط وهو شبه جزيرة البلقان، كانت الغالبية الكبرى من السكان تتحدث باللاتينية المتأخرة وظلت مخلصة للتقاليد الحضارية الرومانية؛ أما بمنطقة شرقي البحر المتوسط فقد كان السكان أقل تجانساً، وإن غلب بينهم العنصر الارثوذكسي النصراني اليوناني في كل مكان بالتقريب؛ وأبعد قليلا إلى الشرق كانت آسيا الدنيا بما عرفت به من انقسامات عرقية ودينية.

وبجوف آسيا وبآسيا الوسطى زحمت النصرانية والبوذيةُ الديانات المحلية ودخلتا في تنافس الواحدة مع الأخرى، كما تنافستا أيضاً مع الديانات القديمة كالزردشتية والميثرائية واليهودية من جهة، ومع ديانات أصغر سناً كالمانوية والمزدكية من جهة أخرى. وهنا في القرنين السادس والسابع ازدهرت حضارة الصغد. وأما ببلاد العرب الجنوبية فقد أدت الحروب والثورات في القرن

السادس إلى تدهور تلك البلاد، غير أنه بشمالي الجزيرة العربية ووسطها بدأت نهضة حضارية تمثلت بصورة خاصة في انتعاش الشعر الجاهلي لدى العرب الذي قدّم للعالم روائع فريدة (Chef-d'euvres . وقد وجد بين هذين المركزين، أي بيزنطة والهند، حزام عريض لحضارات الشرق الأوسط وجوف آسيا انتشر فيه بالتدريج أثر الهند الذي نفذ من الجنوب إلى الشمال وأثر بيزنطة الذي قدم من الغرب. فإن كان التجانس الديني الثقافي هو الذي ميّز الولايات المتحضرة الأساسية للعالم البيزنطي النصراني من جهة ومناطق الحضارة الهندية البوذية من جهة اخرى، فإن المنطقة الفاصلة بينهما تميّزت بالافتقار إلى هذا الضرب من التجانس.

وكانت إيران والجزيرة العربية تمثلان القسم الغربي والجنوبي الغربي لهذه المنطقة الأخيرة، بينما كانت افريقيا الشمالية الشرقية بمثابة طرفها الجنوبي الغربي. وهنا على نقيض جوف آسيا كان النفوذ الهندي أضعف بكثير من النفوذ البيزنطي؛ وظلت نشطة بصورة خاصة حضارة السريان النصرانية ذات القرابة بالحضارة البيزنطية، والتي امتدت قواعدها (أي الحضارة السريانية النصرانية) إلى جوف آسيا وإلى الصين الغربية والهند الجنوبية. وفي الغرب تاجر السريان مع بلاد الغال Gallia، حيث عثر بقبورها على عدد ليس بالقليل من شواهد سريانية ترتفع إلى القرنين السادس والسابع. ويقول م. ف. لفتشنكو بصدد النشاط التجاري للسريان والمصريين لذلك العهد: «إن الأواني الزجاجية والأنسجة الرقيقة التي صنعها السريان وجدت طريقها إلى الصين. ولقد ظلت تجارة البحر المتوسط بقدر ما كانت مستمرة، حكراً بلا منازع لرعايا/ الامبراطورية الشرقية، وبخاصة السريان. . . وكان من الممكن الالتقاء بالتجار من مصر وسورية في القرنين الخامس والسادس بافريقيا وصقلية ورافنّا واسبانيا ومرسيليا. ووجدت لهم في الغرب مستعمرات ذات خطر كان يجلب إليها الأنسجة والجلود المدبوغة وأنبذة سورية وبردى مصر» [71, p.2-3] .

وكثيراً ما تردد السريان وبنو عمومتهم المصطبغون بالحضارة اليونانية على اثيوبيا في العصور الوسيطة المبكّرة. ومن المعلوم أن أول أسقف لاكسوم في القرن

الـرابع كان فينيقياً من صور يوناني الثقافة ويدعى فرومنتيوس Fromentius ، وكـان كما هو الحال مع أخيه أدزي من المقربين وأصحاب النفوذ ببلاط ملك اكسوم لعهد طويل [312, t.25, p.631-640; 200, p.148-149; 118,t. II, p.25-35; 20-35; 20; p.266-269; 215, p.151-153; 54, p.57-62] .

ويتحدث عن وجود السريان بمملكة اكسوم فيلوستورغيوس Philostorgius ، في أغلب الظن بألفاظ الدبلوماسي والمبشّر البيزنطي تاوفيلس الهندي ، فيقول: «وقبـل هؤلاء الاكسـوميين في اتجـاه المشرق إلى الاوقيانوس الخارجي (وتشابه مواقعـه الجغـرافية إلى حد كبـير ما جاء لدى يوحنـا ملاله) يعيش السريان، المعـروفـون أيضـاً بهذا الاسم لدى السكـان المحليين. ويقال إن الاسكندر المقدوني هو الذي نقلهم من سورية وأنزلهم بهذه النواحي. وهم لا يزالون إلى الآن يستعملون لغتهم الأصلية، غير أنـه تحت أشعة الشمس المتسامتة فوق الرؤوس أصبحوا سود اللون». [147, p.35; 94, p.78-79] . و«سواد لون» هؤلاء السريان يقف دليلا على تزاوجهم مع الأجناس الاستوائية؛ ويلوح أن الأمـر لا يتعلق بالمستعمـرة السريانية باثيوبيا وحدها بل بالنصارى من أصل سرياني الذين نزلوا بجزيرة سقطرى وبالجنوب العربي. ولعله من المؤكد إن كان بالامكان الالتقاء بالسريان الهنود وأهل سقطرى من السريان في الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع بعدولى وبالمرافىء الكبرى على طول الطريق البحري من أيلة الفلسطينية السورية إلى جنوبي الهند. وبالمناسبة فإن قزما الذي أبحر إلى الهنـد أبصر سريانـاً من سورية وسقطرى باكسوم [413, p.119,322] . وينتمي إلى أصـل سرياني من سقـطرى الـدبلوماسي والمبشّر البيزنطي للقرن الخامس تاوفيلس الهندي [94, p.72 ff.] .

ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من المبشرين النصارى ببلاد العرب كان من السريان، وإن كان العرب أنفسهم ـ من الغساسنة وأهل نجران ـ قد وُجدوا وسط القساوسة والشمامسة الذين ارتحلوا من أوطانهم. وفي بداية القرن السادس غلب في وسط رجـال الدين العرب، على الأقل المونوفيزيين منهم، المواطنون المحليون كمايبصر هذا ولو من مثال نجران. على أنه حتى بتلك المدينة استشهد

مع غيره من الشخصيات الدينية الأخرى كبير الشمامسة البيزنطي حنانيا والقس الفارسي افرام ـ ومن المحتمل أن الاثنين كانا من أصل سرياني [381, p.643] . وبحضرموت في عام ٥١٧ قتل على يد اليهود أربعة من السريان اثنان منهما قسّان، أحدهما من تلا والآخر من أذاسا [381,p.45] . ويرى عرفان شهيد أن شمعون الأرشمي نفسه لم يكتف في أسفاره التي استغرقت سبع سنوات بزيارة أرمينيا والقسطنطينية ومصر وسورية وأرض الجزيرة فحسب، حيث التقى فيها بجميع الجاليات المونوفيزية؛ بل زار أيضاً مدن الجنوب العربي والنوبة واثيوبيا التي غلب عليها إخوته في الدين [381, p.137-138] . وتربط الأخبار المتواترة الاثيوبية النشاط التبشيري في اثيوبيا على عهد الملك كالب/ «بالأسرة المقدسة» التي يزعم أنها قدمت إلى اكسوم من سورية. وثمة رواية اثيوبية متواترة تقول بأن واحداً من أقدم الأديرة باثيوبيا أسسه ثمانية من السريان واثنان وستون من المواطنين المحليين. كما تشهد بوجود السريان باثيوبيا في القرنين السادس والسابع معطيات غير مباشرة [134, p.761-765] .

وكذلك نفذ السريان إلى بلاد النوبة أيضاً. وكما هو معلوم فقد شاركوا جنباً إلى جنب مع الاكسوميين والقبط واليونان في نشر النصرانية بتلك البلاد، وإن لعبوا في هذا دوراً من الدرجة الثالثة. ويؤكد مؤلف عربي من القرن العاشر أن المتعلمين من النوبة «تكتب بالسريانية والرومية والقبطية من أجل الدين»، ولكن أليس من المتوقع أن هذا الخبر الذي أخذه عالم بغدادي من رحالة مجهول يفتقر إلى الصحة★؟ . ذلك أن كل ما ورد بالمصادر السريانية المعروفة لنا حول بلاد النوبة إنما يرتفع إلى اليونان وإلى غير السريان.

ويتفق عهد ازدهار الثقافة السريانية في الفترة من القرن الرابع إلى القرن الثامن مع عهد نمو الثقافة القبطية التي لم تنتج عدداً من المؤلفين اللامعين من

★ *يشير إلى قول ابن النديم إن «النوبة تكتب بالسريانية والرومية والقبطية من أجل الدين». راجع كتاب الفهرست (تحقيق رضا تجدّد، طبعة طهران، ص ٢١) (المترجم).*

أمثال القديس شنوتي فحسب، ولا فناً رفيعاً. ولا يتطرق الشك إلى الأثر القبطي على الجارة المسيحية النوبة، أما الأثر القبطي على اثيوبيا فهو موضع نزاع أكثر حتى وإن كان من الممكن دائماً الالتقاء هناك بمهاجرين من مصر. ولقد ترك القبط ببلاد النوبة رقوماً بلغتهم وأيضاً باللغة اليونانية، أما باثيوبيا الاكسومية فلا يتجاوز الأمر خربشات (Garaffiti) متفرقة باللغتين الجعزية واليونانية [55, p.147] . ومن المعلوم أن أفراداً متعلمين من أهل مصر قاموا برحلات إلى اكسوم وعدولى في العصور الوسيطة المبكّرة. وترد الإشارة إلى أحدهم لدى قزما الذي أبحر إلى الهند، أما الآخر فكان فقيهاً قانونياً من منطقة طيبة يرد ذكره لدى كالستين المنحول Pseud-Callithenes [351, p.277-278] . غير أن لغة هؤلاء الأفراد كانت اليونانية. ولا يخلو من مغزى أنه لم يتم حتى اللحظة العثور على مخطوطات اثيوبية منقولة رأساً عن القبطية وليس عن طريق الترجمة اليونانية أو العربية.

وكانت منطقة القوقاز الجنوبية تكوّن الأطراف الشمالية للشرق المسيحي المبكّر، كما كانت تكوّن في ذات الوقت الحزام الفاصل بين منطقة البحر المتوسط المسيحية والعالم الايراني. وكان لشعوب جنوبي القوقاز روابط مع منطقة البحر الأحمر عن طريق السريان والمصريين. والروابط الثقافية التي نشأت بين الأرمن واكسوم منذ نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس في الأرجح، كانت ذات أثر كبير في نشأة الأبجدية الأرمنية. وكانت فترة ما بين القرنين الخامس والسابع عصر ازدهار الحضارة الأرمنية ، حينما أدى انتصار المذهب المونوفيزي بارمينيا إلى تدعيم العلاقات الروحية بين الأرمن والقبط والاكسوميين وإلى حد ما مع السريان والنوبيين . ولم يخل الأمر من لقاءات منذ فترة ما بين القرنين الخامس والسابع للمثقفين ومحبي المعرفة من الأرمن بل وأيضاً الكرج مع الاكسوميين والنوبة ، تناول فيها الحديث مشاكل العقيدة وأيضاً أوطانهم . وجرت هذه اللقاءات بصورة أساسية في الاسكندرية واوريشلم. وقد مر بنا الكلام عن الدور الذي لعبه بالاسكندرية في منتصف القرن السادس الأرمني نرسيس الذي أغلق آخر معبد وثني، والذي لا بد أنه كان ملزماً بمعرفة شيء ما عن المتعبدين

من البجا والنوبة؛ ومثل هؤلاء الحكام قد أحاط بهم بطبيعة الحال عدد من أبناء جلدتهم. أضف إلى هذا أن الاسكندرية كانت واحدة من أكبر المراكز الثقافية بالعصور الوسيطة المبكّرة. وأول المترجمين من الأرمن الذين نقلوا من اليونانية إلى لغتهم القومية نالوا تعليمهم في الاسكندرية وأثينا على مدى القرن الخامس بأكمله، ففي الاسكندرية درس المؤرخ الشهير موسى الخوريني Mouses Khorenatzi. وكذلك وجد في القرن السادس بهذه المدينة عدد ليس بالقليل من الأرمن أو ممن نالوا درجة من التعليم بينهم. وفي نهاية القرن السادس استكمل دراسته بالاسكندرية وأيضاً بأنطاكية واورشليم والقسطنطينية وروما الورتبيت★ تيوخيك. وفي بداية القرن السابع درس بعاصمة مصر لذلك العهد العلاّمة حنانيا شيركتزي Anania Shirkatzi إلخ. [87, p. XVII–XX]. وفي ذلك العهد ظهر الأدب الجغرافي الأرمني الذي تتمثل نماذجه الواضحة في «اشخراتسوي» Ashkharatzio، وهو مصنف في الجغرافيا من القرن السابع ليس من الممكن أن يكون مؤلفه هو موسى الخوريني أو حنانيا شيركتزي؛ وكذلك كتاب «الجغرافيا» المنسوب إلى موسى الخوريني وغير ذلك. وفي هذه المصنفات نلتقي بأوصاف ضافية لافريقيا تعتمد أساساً على بطلميوس وقزما الذي أبحر إلى الهند، مع زيادات طفيفة تقف شاهداً على استعانة مؤلفيها بمصادر أخرى.

ولعل أفراداً من مواطني القوقاز الجنوبي وجدوا طريقهم إلى المناطق الحارة من افريقيا الشمالية الشرقية. فمثلا يرد في «سيرة القديس قرياقوس» أنه بعد عام ٤٧٩ وسم قرياقوس بطريرك الاسكندرية راهباً كرجياً ليكون أسقفا مطراناً لاثيوبيا ووجّه به إلى تلك البلاد. وقد حُفظت لنا الترجمة الكرجية لهذا المصنف المنقولة بدورها من الترجمة العربية (وأصل السيرة دوّنه كرولس الاسكيثوبولي باللغة اليونانية). هذه الترجمة الكرجية وصلتنا في مخطوطة من القرن التاسع، كما وصلتنا أيضاً الترجمة الكرجية لكتاب «القادمون من جنات عدن» وتحوي

★ *لفظ أرمني ويكتب أحياناً ورد بيت وورتبيد Wardapet، ويعني منصباً كنسياً أرمنياً. (المترجم).*

معلومات عن النوبة واثيوبيا من فترة القرن الخامس إلى القرن السابع. ويرى عالم الاثيوبيات الكبير إ. تشيرولليE. Cerulli أن ما نعلمه من تاريخ الحضارة الاثيوبية لا يتعارض مع ما جاء في هذه الترجمة. [173, p.28] . على أي، فهي تشهد بالاهتمام باثيوبيا ومصر في وسط المثقفين من الرهبان الكرج.

وروابط الأدب الاثيوبي بالأدبين الكرجي والأرمني ليست موضع شك [174, p.8] ، وإن حملت في العصور الوسيطة المبكّرة، وذلك على نقيض ما هو الحال مع العصور التالية لذاك، طابعاً غير مباشر. مثال ذلك أن آثار الأدب النصراني المكرّسة للنجاشي الا أصبحه نقلت إلى اللغتين الأرمنية والكرجية من اليونانية وذلك بعد اضمحلال مملكة اكسوم؛ كما نقلت أيضاً إلى اللغة الجعزية عن الترجمة العربية. ومثل هذا المصير تعرّض له عدد من الآثار الأخرى للأدب البيزنطي التي تحوي معلومات عن اكسوم. ولم تبدأ شعوب جنوبي القوقاز في الدخول في علاقات مباشرة مع شعوب النوبة واثيوبيا إلّا في عهد الحروب الصليبية، وبلغت هذه الروابط ازدهارها في الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

وثمة سؤال أضحى موضع نزاع شديد، ويحمل بدوره على التمعّن في الأهمية التاريخية حتى للروابط الحضارية غير المباشرة/ لبلاد القوقاز الجنوبية مع مملكة اكسوم في القرنين الخامس والسادس. هذه هي المشكلة المتعلقة بأصل الأبجديات الأرمنية والكرجية والاجوانية. وقد لفت العلّامة الأرمني المعاصر ج. سيفاك G. Sevak النظر إلى التشابه في الشكل بين الأبجديتين الأرمنية والاثيوبية الكلاسيكية . ويفترض د. أ. اولدروجه أن مسروب مشتوتس Mesrop Mashtots واضع الأبجدية الأرمنية أفاد من علامات الإعجام في الكتابة الاثيوبية (وإن أعطاها فحوى صوتية مخالفة). كذلك من الممكن أن الكتابة الاثيوبية قد أدخلت في وقت قريب من ذاك بأرمينيا على يد الأسقف السرياني دانيال، وذلك في نهاية القرن الخامس. [336, p.195–203] .

فإن كان هذا الفرض صحيحاً فإن السريان قاموا إذن بدور الوسيط في التبادل الثقافي بين الاكسوميين والأرمن، وأن هؤلاء الأخيرين نقلوا ذلك التأثير

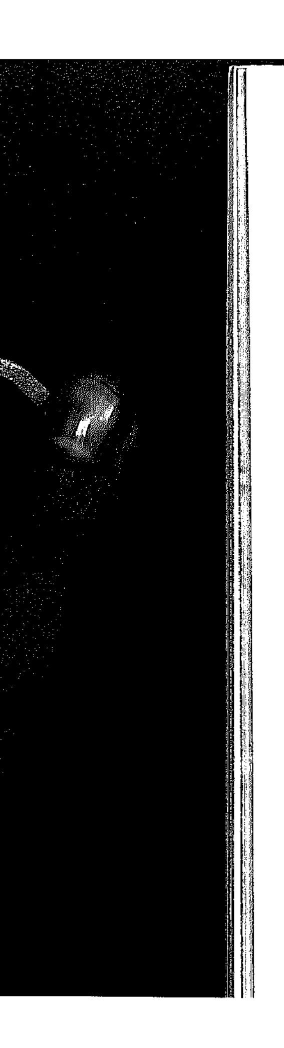
إلى الكرج وغيرهم من شعوب جنوبي القوقاز. ودور الوسيط الذي لعبه السريان يمكن ملاحظته أيضاً ببلاد الصغد بآسيا الوسطى، حيث انتشرت في الوقت ذاته الأبجدية السريانية المعجمة والتي تم تطويعها من أجل الكتابة باللغة الصغدية. ومهما كانت المسافة قصيّة بين أهل الصغد وسكان شمال شرقي افريقيا، فقد كان من المستطاع تبادل المعلومات بينهما عن طريق السريان.

ومن الممكن أيضاً ملاحظة الأثر الثقافي السرياني باكسوم في الخدمات الدينية وفي المصطلح الديني وفي المعمار في القرنين السادس والسابع. [134, p.761 -765] . ويبدو أنه عن طريق الوساطة السريانية نفذت إلى اللغة الجعزية ألفاظ من اللغة العبرية القديمة مثل «جهنم» و«طاغوت» و«الفصح» و«اطهره» (أي طهّر) و«مسوّات» (الصدقة). ويرى ك. كونتي - روسيني، الذي يتفق معه في هذا علماء الساميات من القرن التاسع عشر، أن هذه الألفاظ استعيرت من العبرية رأساً وإن تم الاعتراف بوجودها في الاستعمال الديني لدى السريان [200, p.114] . ولم يقتصر أثر اللغة السريانية في اللغة الجعزية على المعجم الديني وحده؛ فالعلّامة كونتي - روسيني نفسه يشير إلى استعارات ذات مغزى للمصطلحات المستعملة في الكلام عن الطيب والأحجار الكريمة - وهي السلع التقليدية لتجارة البحر الأحمر: «مايفري» (التوابل) وألوه (الألوه) ويقنت (الياقوت إلخ) وغير ذلك. بل إن الأثر السرياني الأرامي يبدو حتى في تركيب الجملة في الترجمات الأثيوبية القديمة للكتاب المقدس؛ وقد لاحظ الباحثون في الجعزية «الكنسية» العديد من القوالب(Calques) اللغوية المأخوذة من الأرمنية، وخاصة استعمال حرف اللام مع الإضافة المباشرة، والاستعمال المستفيض للضمائر المتصلة. وقد أثار هذا التساؤل فيما يتعلق بترجمة الكتاب المقدس و«كتاب اينوخ» المنحول (apocryphal) إلى الجعزية من السريانية الآرامية، حيث يمكن تفسير الترجمة (كالأخطاء التي وجدت طريقها إليها) بأن المترجمين استعملوا المتن اليوناني إلى جانب ذلك. [207, No. 172; 374; 242, p.229;406] .

ويكشف فن المعمار بالنوبة المسيحية ومملكة اكسوم في القرنين السادس والسابع عن أوجه شبه لا شك فيها مع معمار سورية الشمالية، مما يدفع إلى الافتراض بوجود أثر سرياني مباشر على المعماريين الاكسوميين وغير مباشر على النوبيين. وكان أ. مونيريه دي فيلار U. Monneret de Villard قد أثبت أن «النماذج الأولى/ لأقدم البيع الحبشية قدمت من سورية». [361, p.147] . كما أشار إلى أوجه الشبه بين البيع الاثيوبية المبكّرة وبيع صعيد مصر للقرن الخامس، لأنهما تذكّران من حيث تصميمهما بالباسيليقات (basilica) السريانية للقرنين الرابع والخامس. وتدعّم المعطيات الجديدة التي جمعها ف. انفراي F. Anfray هذا الاستقراء وتسمح بإجراء استقراء أكثر دقة، وهو أن بيع اثيوبيا الاكسومية إنما تقلّد النماذج السورية الشمالية. [134, p.761-765] . وابتداء من القرن السادس بدأ البناء المكثّف للبيع بأثيوبيا الشمالية (وإن كان تحديد لحظة البناء على وجه الدقّة لهذه البيعة أو تلك لم يتأت بعد). وقد تم الكشف بهضبة التيجرة وبمنطقة عدولى وبجزيرة دهلك الكبير عن أطلال عشرات من البيع القديمة. وتحظى بالأهمية من بينها البيعة الجامعة المشهورة باسم سيون باكسوم التي لم يبق منها سوى الأساس. وثمة بيع قديمة للغاية في انده تشركوس قريباً من ميلازو إلى الجنوب من اكسوم، وفي يهه . وبعدولى ومتاره تم الكشف عن بضع بيع (اثنتان أو ثلاث بعدولى، وثلاث بمتاره). وإحدى بيع متاره، وهي ليست ذات أبعاد كبيرة، أعيد ترميمها في القرنين السابع والثامن لمرتين أو ثلاث. وثمة بيعة أخرى بهذه المدينة مصلّاها فوق قبو، وهي تشكّل جزءاً من مجمّع بنائي كان مركزه قصر الوالي المحلي أو أمير المنطقة. أما البيعة الثالثة بمتاره فتمثل باسيليقا ريفية بثلاثة مبان رئيسة وموضع للتعميد، تحمل الماء إليها قناة مكوّنة من جرار متداخل بعضها في بعض من صُنع منطقة البحر المتوسط. [129, p.65 ff.; 134, p.756-757] . وخير نموذج للمعمار الاكسومي البيعة القديمة باجوله الواقعة إلى الشرق من هضبة التيجره. ويؤدي إليها مرقى من ثماني درجات، مما يعطيها شبهاً بالآثار القديمة للمعمار السابق للعهد الاكسومي. وثمة بيع قديمة جرى الكشف عنها بقرى كبيرة من العهد



قور اسقف فرس



الاكسومي وذلك بكويهو إلى الجنوب من هضبة التيجرة، وفي أراتو وسيهوف ـ أمنى ودكا ـ مهره وغيرها من النقاط إلى الشمال من هضبة التيجره. والبيعة من القرنين السادس والسابع التي لا تزال تعقد بها الخدمات الدينية إلى اليوم موجودة بدير دبره دمو، وهي طريفة بصورة خاصة لأن داخلها لا يزال في حالة جيدة على حين تعرّض للتخريب في البيع الاكسومية الأخرى. [287, p.182–194; 308, p.92; 159, photo 76–81] .

وقد أشار هـ. دي كونتنسون H. de Contenson إلى الشبه الغريب بين رسم البيع الاثيوبية القديمة والباسيليقات النوبية لفترة ما بين القرنين السابع والتاسع، وأيضاً الباسيليقات «ذات الدرج الثلاثي» بمصر في فترة القرنين الخامس والسادس وخاصة عدد من البيع بمنطقة طيبة وبيعة القديس سرجيس (أبو سرجه) بالقاهرة. [189, p. 18; 190, p.18–20] . وأول البيع ببلاد النوبة وفقاً لبحوث ك. ميخالوفسكي K. Mikhalovsky ـ هي الباسيليقا الأولى بفرس التي تم تحويلها إلى قصر ملكي عام ٥٠٠، ثم بيعة فرس التي بُنيت بدلا من الأولى وظلت تخدم إلى القرنين السادس والسابع. [311] . ومن الممكن أن بعض المعابد النصرانية المبكّرة شيّد منذ القرن السابع. [189, p.18; 190, p.24,25,36–37] . وهي تتميّز بالمحراب الثلاثي الناتىء المعروف باسم القنكي (apse)، وبأعمدة ذات رؤوس، وباستعمال اللبن المحروق والحجر المقطوع في البناء. هذا على حين أصبحت المادة البنائية في القرنين التاسع والعاشر هي الطين في اندماج مع / الأخشاب. وعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية في مواد البناء وفنه فقد ظلت باسيليقات أثيوبيا الشمالية وبلاد النوبة إلى القرن التاسع آثاراً معمارية لحضارات قريبة صلة الرحم. وكما عليه الحال مع بقية أقطار الحضارات القديمة الأخرى، لم يكن من النادر باثيوبيا الاكسومية وببلاد النوبة أن حوّلت المعابد والقصور القديمة إلى بيع، أو أن مباني جديدة شُيّدت على أطلال أبنية ترجع إلى العصور القديمة.

وابتداء من القرن التاسع حل محل القنكي المركزية في البيع النوبية «قدس الأقداس» المقفل والذي كثيراً ما وجد أمام جوقات النشيد البدائية.

ولعله من الممكن أن نبصر في هذا دليلا على التغيّر الذي طرأ على الخدمة الدينية وعلى الاتجاه الحضاري . وثمة ظاهرة ذات مغزى ربطت بصورة خاصة بين البيع الاثيوبية والنوبية المبكّرة ؛ ذلك أنه لم يكن من النادر أن وجد موضع التعميد في الجهة الجنوبية منها [189, p.18; 190, p.20] . وفي نهاية العهد الاكسومي يختفي موضع التعميد من الكنائس الاثيوبية ؛ ويلوح أنه أصبح يُعقد بالأنهار كما هو الشأن الآن . وفي البيع النوبية الكلاسيكية ، وكذلك في البيع القبطية بمصر ، كان موضع التعميد يشغل أماكن مختلفة من المعبد . وقريباً من نهاية القرن التاسع ، أي قرب نهاية العهد الاكسومي ، اختلفت الكنيستان النوبية والاكسومية على ما يبدو اختلافاً جوهرياً في طقوس عباداتهما .

ولقد وجدت روابط واسعة جداً للمعمار الكنسي بشمال شرقي افريقيا مع آسيا الدنيا ، بحيث ارتبط المعمار الكنسي المصري والنوبي والاثيوبي عن طريق سورية الشمالية بمعمار بلاد الكرج وارمينيا أيضاً . وكانت بلاد الكرج وارمينيا ، شأنهما شأن سورية الشمالية والجنوبية وأرض الجزيرة «مناطق مستقلة من حيث فنها المعماري» ، بما في ذلك المعمار الكنسي . [122, p.161] . وعلى الرغم من ذلك فإن أقطار جنوبي القوقاز لم تستطع في القرنين الخامس والسادس أن تتحاشى الأثر القوى للمعمار الكنسي لسورية الشمالية ؛ فقد أدخلت الطبقة العليا من رجال الدين نظام الباسيليقا على غرار ما كان عليه الحال بسورية الشمالية . غير أنه لم ينجح هاهنا كثيراً واحتاج بسرعة إلى التعديل ؛ وبهذا احتفظ المعمار الكنسي ، شأنه ، بوجه العموم ، شأن حضارة الكرج وأرمينيا في فترة ما بين القرنين الخامس والسابع ، بطابعه العضوي الخاص به . وإلى جانب هذا فإنه لم يلاحظ أثر واضح للمعمار الأرمني والكرجي على الأقطار الواقعة إلى الجنوب من ذلك ، المتاخمة منها أو القصيّة . [286; 119; 122; 123] .

وكما هو معلوم فقد نقل الكتاب المقدس وقطع من متون الأناجيل لأول مرة إلى الأرمنية من السريانية وإلى الكرجية من الأرمنية ؛ ويمكن أن نتتبع في الترجمة الكرجية أثر ألفاظ السريانية . [79] . وثمة وقائع شتى من شأنها أن تقنعنا بأن الثقافة السريانية للعصور الوسيطة المبكّرة ، على الرغم من عدم

ارتباطها بحكومة ما وأنها كانت تمثل تيارات مذهبية ـ سياسية ودينية ـ يناوىء بعضها بعضاً فقد لعبت دوراً بارزاً في عملية التكامل الثقافي لشعوب آسيا الوسطى مع شعوب شمال شرقي افريقيا. وإلى جانب هذا فإنه لا يجب التقليل من أهمية الثقافة القبطية أيضاً، التي كانت دون شك أكثر ثقافات افريقيا تطوراً في العصور الوسيطة المبكّرة. ولقد وجدت الثقافتان القبطية والسريانية/ في وضع متشابه فيما يتعلق بالحضارتين الغالبتين آنذاك وهما اليونانية ـ البيزنطية والساسانية ـ الايرانية ، فقد تطورتا في ارتباط وثيق بعضهما ببعض مؤكدّتين أثر كل منهما على الأخرى على أساس اعتناقهما لمذهب واحد هو المذهب المونوفيزي .

وعن طريق السريان والقبط بصورة أساسية نمت الصلات الثقافية لشعوب جنوبي القوقاز مع شمال شرقي افريقيا. وحدث في هذا الصدد تبادل للأفكار ليس من السهل تتبّعه خلال القرون المتتالية. وقد كشف عالم القبطيات والاثيوبيات الفرنسي المرموق ج. دوريس J. Doresse في « كبرة نجاست » عن « إيماءات إلى أرمينيا وإلى القديسين الأرمن : غريغوريوس المنّور وترتاج وسركيس » . ووفقاً لألفاظ ج دوريس فإن هذه « الذكريات الأرمنية » كانت انعكاساً لأحداث منتصف القرن الثاني عشر، وبالذات استيلاء الترك على اذاسا (الرها) [215, p.268] .

غير أن عرفان شهيد يرجع بتاريخ هذه « الذكريات » إلى الزمن الاكسومي ؛ إذ كتب يقول «إن الجاليات المونوفيزية بالمشرق ارتبط بعضها ببعض ، وليس هناك ما يحول دون التعرف على «رؤيا» [apocalyse] غريغوريوس الأرمني لدى الجاليات المونوفيزية الأخرى بما في ذلك الاثيوبيين في العهد الاكسومي المبكّر». [384, p.173] . ومما لا شك فيه أنه بالأطراف الشرقية والجنوبية الشرقية للحضارة البيزنطية النصرانية وجد ميل لقيام نظام حضاري مستقل تشكّلت أعضاؤه المكوّنة من شعوب جنوب القوقاز وآسيا الدنيا وشمال شرقي افريقيا التي وحّدت بينها المونوفيزية والنسطورية ، وإن اختلفت اختلافاً تاماً في لغاتها. ولقد برزت الأطراف الغربية والشرقية لهذا النظام متمثلة في ارتباط افريقيا الشمالية البيزنطية بمصر؛ وآسيا الوسطى بدولة الساسانيين حيث

كان التجار والمبشرون من النساطرة والمانويين ينفذون إلى حدود الصين الغربية وقاع مينوسين بسيبريا الجنوبية. أما فيما يتعلق بطرفه الجنوبي فإن حدوده بالقارة الافريقية ليس من السهل تحديدها.

غير أن هذا النظام الذي أشرنا إليه ظل إلى الأعوام ٦٣٠ ـ ٧٠٠ يتخذ صورة من الصراع الحاد لاتجاهات متضادة، بحيث أن مجرد استمراره أصبح موضعاً للتساؤل. والعلة في هذا هو افتقاد الترابط بين عناصره الذي من شأنه أن يكفل لها التكامل السياسي والعقائدي، والاقتصادي أيضاً.

وفي العلاقة السياسة بين بيزنطة والعالم الهندي البوذي (وأيضاً عالم آسيا الشرقية) لعب عدد من الدول كبيرها وصغيرها دوراً في ذلك، وكانت أكبرها ايران واكسوم. أما الشرق الأدنى مهد الحضارات القديمة فقد تحوّل منذ أيام الامبراطوريتين الرومانية والبارثية إلى حلبة للصراع بين القوى الكبرى، وإلى مناطق أطراف لنظمها الاقتصادية والسياسية والثقافية. فالكرج والأرمن والسريان والعرب تقاسمتهم هاتان الدولتان الكبريان، لأن الحدود بينهما كانت تمر وسط الأراضي التي تقطنها هذه الشعوب؛ وقد ورثت الدولتان البيزنطية والساسانية هذه التركة المثقلة. وكان من نتيجة ذلك أن تعرضت أراضي هذه الشعوب للدمار وسكانها للفناء/ وجرى سبيهم، أو اضطروا إلى المشاركة في الحروب ضد أبناء جلدتهم بجانب هذه الدولة الكبرى أو تلك. أما «السلام الاكسومي» Pax Axumita، أي سيطرة اكسوم على افريقيا الشمالية الشرقية، فقد بدا جذاباً بالنسبة لنصارى الشرق الأدنى بدرجة لا تقل جاذبية عن حياة «العرب السعداء» بالجنوب العربي أو «الاثيوبيين العائشين في النعيم الروحي» بافريقيا الحارة، بالنسبة لمواطني منطقة البحر المتوسط في العصر الهلينستي. وفي كفاحهم من أجل التكامل القومي والاستقلال من نير هاتين الامبراطوريتين الاقطاعيتين بحث السريان والأرمن وغيرهم من شعوب آسيا الدنيا عن الحلفاء ومن ربطتهم بهم صلة الرحم الروحية؛ ولم يكن هؤلاء في ذلك الوقت سوى المونوفيزيين إخوتهم في العقيدة حتى وإن سكنوا في أقاصي الجنوب باثيوبيا. ولقد أصبحت النصرانية المونوفيزية الديانة الاقليمية لمنطقة الشرق الأدنى في القرن

السادس، على حين لم تلعب ارثوذكسية الكرج ونسطورية السريان الشرقيين، وكذلك زردشتية الفرس، سوى دور قومي ضيّق أو محلي للغاية في مجال الدعوة الدينية.

ومما عقّد كثيراً من عملية التكامل الثقافي والعقائدي بالشرق الأدنى في الفترة ما بين منتصف القرن الخامس وبداية القرن السابع الاضطرابات السياسية وانقسام المنطقة، وأيضاً الصراع بين المونوفيزيين والنساطرة والزردشتيين والمانويين واليهود الذين من الممكن أن نضيف إليهم في شرقي العالم الايراني أيضاً البوذيين وبالجزيرة العربية وفي بعض مناطق افريقيا أتباع العبادات الوثنية القديمة. على أن النساطرة لم يكن لديهم في فترة القرن السادس وبداية القرن السابع دولتهم الخاصة بهم، هذا على حين أصبحت المونوفيزية الدين الرسمي باكسوم والنوبة العليا والسفلى وببعض إمارات بلاد العرب وبأرمينيا أيضاً. كذلك لم تصبح ايران، أكبر دول المنطقة الجغرافية التاريخية التي نعالج الكلام عليها، مسيحية وإن وُجد على عرشها عشية الفتح الاسلامي شاهنشاه يدين بالنصرانية.

وهذه الخلافات الدينية والمذهبية عاقت من فتوحات الفرس والاكسوميين، بخاصة الأول. فاكسوم وإن حظيت بتعاطف المونوفيزية بسوريا وبلاد العرب ومصر، لم يكن لديها القوة الكافية لتوحيد الشرق الأدنى تحت سيطرتها وكان عليها أن تكتفي بدور الحليف لبيزنطة أو كحكومة مستقلة تربطها بها رابطة الصداقة.

وقد تميّز النظام السياسي لعالم القرن السادس وبداية القرن السابع في جوهره بافتقار واضح إلى التكامل، انعكس في أجزائه الأوروبية والآسيوية والافريقية. هذا الافتقار إلى التكامل يمكن إبصاره أيضاً في النظام الثقافي والعقائدي، كما حدث وأن رأينا من مثال «المنطقة الفاصلة» الافريقية الآسيوية التي تهمنا هنا. وعلى الرغم من هذا فقد وجدت الشروط الأساسية لحدوث التكامل، فظهرت القوة المؤهّلة لتنفيذ هذا في قلب الجزيرة العربية وذلك على

الحد الفاصل بين دوائر النفوذ السياسي والحضاري لبيزنطة وايران واكسوم. ففي خلال جيل أو جيلين وحّد العرب المسلمون جميع الشرق الأدنى إلى حدود أوروبا اليونانية ـ الرومانية وإلى حدود الهند والصين. ووقعت افريقيا الشمالية الشرقية/ وراء حدود الدولة العربية، كما حدث في الماضي مع الامبراطوريات السابقة لها تاريخياً ـــ أقصد الخمانشية والمقدونية والرومانية إلخ.

وفي إثر التكامل السياسي جاء التكامل الثقافي والقومي في أبعاد لم تعرف من قبل. فعلى طول المساحات المترامية الأطراف والممتدة من المحيط الأطلنطي إلى الهند وجبال تيان ـ شان قامت وحدة الدين والقانون والنظام الحكومي والثقافة. كذلك تشكّلت بمرور الزمن في القسم الغربي من هذه الأراضي تلك الوحدة اللغوية والثقافية التي تسمح الآن باعتبار الأقطار العربية من موريتانيا إلى العراق وعمان وحدة قومية متكاملة. ولقد قامت بين الأقطار المختلفة للعالم العربي علاقات تجارية ذات أهمية بالغة بالنسبة لتلك الأزمنة وجرى تبادل واسع للمعرفة العلمية والأدبية.

أما حضارات إفريقيا الشمالية الشرقية فقد أصبحت منذئذ حضارات أطراف (periphery) بالنسبة للحضارة الإسلامية الكبرى. على أي، فان هذا الوضع كان الطابع المميّز لافريقيا كلها على مدى الفترة من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر. ولئن حدث أن تركت حضارة اكسوم في القرن السادس أثراً ملحوظاً على حضارة الجزيرة العربية وحضارة النوبة أيضاً، فقد اضطرت النوبة واثيوبيا ومنطقة القرن الافريقي، بل افريقيا الشمالية الغربية موطن قبائل البربر أيضاً، وذلك في الظروف الجديدة إلى الاعتماد دون خيار على الحضارة العربية للقرون الوسيطة للتعرف على أحداث العالم الخارجي. بل إن الشعوب الافريقية قامت علاقاتها حتى فيما بينها عن طريق الوساطة العربية بصورة أساسية (حتى وإن كانت العربية النصرانية أو العربية القبطية).

في مثل هذه الظروف فإن حضارات كالحضارة الاكسومية أو كحضارة النوبة الفتيّة وجدت نفسها أشبه بجزر في خضم المجتمعات البدائية. وهكذا اقتحمت الحضارات القديمة التي اعتنقت النصرانية، أي اثيوبيا الشمالية وبلاد

النوبة، طريقها إلى المجتمع ما وراء القومي والأقدم بكثير للشعوب الكوشية والنيلية وشغلت بينها مراكز الصدارة. ومن هناك انتشرت عبر القنوات التقليدية المعرفة والحضارة من اكسوم ومتاره وفرس ودنقلة وسوبه. ذلك أنه إلى الشمال والشرق من العالم الكوشي النيلي كان مستوى التطور الاجتماعي أرفع مما هو عليه في الجنوب والغرب. فمثلا في أقصى الشمال من هذه المنطقة كان العاملون بالزراعة في بلاد النوبة السفلى ودنقلة والرّحل أهل الإبل وقادة القوافل من البجا يمثلون فئات اقتصادية وحضارية متطوّرة بصورة عالية نسبياً. وأما بأقصى الجنوب وذلك بتنزانيا الوسطى فقد غلب أصحاب الماشية المزارعون الذين كان مستوى تطورهم الانتاجي والحضاري بوجه عام أدنى بكثير. غير أنه في مواضع منفردة مثل انجاروكا Engaruka المعروفة جيداً، / يلاحظ في العصور الوسيطة المبكّرة الانتقال إلى ضرب من الزراعة أكثر نسبياً؛ وإن اعتمد على المطر واندمج في تركيب واحد مع تربية الماشية يسوقها من مرعى إلى آخر.

ووفقــاً لبحــوث ن. تشتيك N. Chittick ول. ليكي L. Leakey وهـ. ساسون H. Sasson فإن انجاروكا «التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث»، إنما تمثل خليطاً من القرى ترتفع إلى عهود مختلفة؛ ومن بينها تنتمي إلى القرون الوسيطة المبكّرة مصطبات مرصوفة (terrace-platforms) لبناء المنازل تقع إلى الشمال من نهير انجاروكا. ومثل هذه المصطبات لا يزال منتشراً انتشاراً واسعاً إلى هذه اللحظة بالنصف الجنوبي لافريقيا الشمالية الشرقية. وفي الحفريات التي أجريت في أربع مصاطب من هذا القبيل تم العثور على قطع من آنية مهشّمة من الطين مزيّنة بخطوط متوازية وحزوز، وعلى عقود من قشر بيض النعام، وحجارة وصدف، وعظام الماشية من البقر والغنم. ويحدّد التحليل بالإشعاع الكربوني (radiocarbon age determination) عمرها بأنها ترجع إلى عام ٧٢٠ ± ١٢٠ بعد الميلاد و ٣٣٠ ± ٩٠ بعد الميلاد [372, p.91-92] .

أمـا إلى الجنـوب والغـرب من الكوشيين فقد انتشر بسرعة في العصور الوسيطة المبكّرة، وذلك بسافانا وغابات افريقيا الاستوائية، الحضارات الأولى لشعوب البانتو Bantu الذين لم يكونوا على معرفة بالزراعة وتربية الماشية البدائية

فحسب بل وأيضاً بصهر الحديد . وإلى عدادهم تنتمي حضارة الليليسو Lelesu بتنزانيا الوسطى والغربية وحضارة الاوريقه Ureve بمنطقة البحيرات (حوالي عام ٣٠٠) وحضارة موابولامبو Mwabulambo (٣٠٠-٤٠٠) والايكوبي Ekope بملاوى وعدد من الحضارات التي سبقت حضارة زمبابوي Zimbabwe ـ مثل هوكوميره Hokomere وزيوه Ziwa ودمبوه Dambwa (٥٠٠-٦٠٠ بالتقريب)، وحضارات زامبيا وزائير مثل كيريرمبوه kapwirimbwe وتشونده Chonde وكلندو Kalundu (القرون الخامس ـ الثامن) . [345] .

وإلى جانب الروابط مع العالم الكوشي النيلي كان للبانتو في العصور الوسيطة المبكّرة روابط حضارية أخرى، لأنهم اتصلوا عن طريق حضارة كواله Kwale (بشرقي كينيا وشمال شرقي تنزانيا) بعالم ما وراء البحار الذي كانت تمخره سفن الملاحين الرومان والعرب والهنود . غير أنه ليس بواضح إلى هذه اللحظة أصول تلك الخصائص الشديدة الأهمية لحضارة البانتو المبكّرة، مثل صهر الحديد [225, p.108] .

والمستوى المنخفض للتطور الاجتماعي في العصور الوسيطة المبكّرة لدى كل من الكوشيين والنيليين والبانتو وغيرهم من الشعوب الافريقية التي قطنت إلى الجنوب من مراكز الحضارة الاثيوبية والنوبية، قد جعل منها ضعيفة القبول للمعارف التي انتشرت من هناك وإن استطاعت بعض الأفكار على الرغم من ذلك أن تجد لها تربة صالحة بينها . فحتى الآن لا يوجد أساس يبرّر التواريخ التي حُدّدت للأعمال الحجرية الضخمة (ميجاليت Megalith) باثيوبيا الجنوبية؛ ولكنها إن كانت حقاً تقليداً للنصب الكبيرة باكسوم فمن الممكن القول إذن بوجود بعض التأثير العقائدي لاثيوبيا الشمالية في العهد السابق للنصرانية على القبائل الكوشية بالمناطق الداخلية للبلاد. وأثر النصرانية الاثيوبية على الكوشيين باثيوبيا الجنوبية يرجع إلى عهد تال لذلك بكثير، وذلك بنفس الطريقة التي تركت النظم السياسية للامبراطورية الاثيوبية في العصور الوسيطة أثرها عليهم . وأبعد من ذلك صوب الغرب نبصر في القرنين السادس والسابع انتشاراً واسعاً لمركزين قديمين من مراكز الحضارة قبل المدنية، وذلك بالنيجر

وموريتانيا الجنوبية (تتفقان مع حضارتي حلقة نوك Nok وحلقة جنجره Gangara
غير أن افريقيا الغربية للعصور الوسيطة المبكّرة لم تدرس بعد الدراسة الكافية من وجهة النظر الأثرية ، لذا اقتصر الأمر على معثورات منفردة هي التي تسمح لنا بالافتراض بوجود روابط لها مع أقطار أكثر تطوراً بالأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من القارة.

وإذا ما أوجزنا القول عن افريقيا العصور الوسيطة المبكِّرة ، فبإمكاننا أن نخرج باستقراء مفاده أنه في هذا العهد لم يحدث إمتداد كبير لمنطقة الحضارة في جوف القارة . . . كما حدث في العهود السابقة أو التالية لذلك. ولقد ظلّت مراكز الحضارة الرفيعة في الشمال الشرقي موجودة على خارطة افريقيا؛ وكانت هجرة شعوب البانتو الأسرع نسبياً إلى المساحات الشاسعة التي قطنتها شعوب بدائية من الأقزام البيجمي Pygmy والخويسان Khaisan هي المسؤولة وحدها عن دفع حدود أطراف الحضارة البدائية بعيداً إلى الجنوب من خط الاستواء.

كذلك لم تتغير بصورة خاصة حدود انتشار النظم المتطوّرة للكتابة. فمن القرن الرابع قبل الميلاد وإلى القرن الثالث بعد الميلاد عرفت الكتابة من بين اللغات الافريقية الآتية: المصرية والمروية واللغة السامية لاثيوبيا (العربية الجنوبية القديمة، السبئية) ولغة البربر الافريقية القديمة بسواحل البحر المتوسط. وفي فترة القرنين السادس والسابع اختفت اللغة المروية، ولكن ظلت الأخريات محتفظة بحدودها بالتقريب. ومن الممكن أن الأبجدية الليبية القديمة (سواء في صيغتها الشرقية أو الغربية) قد نفذت حتى قبل القرن السادس من نوميديا وموريتانيا إلى داخل الصحراء الكبرى؛ غير أنه في فترة القرنين الخامس والسادس لم تعد الرقوم الليبية في حيّز الاستعمال. أما بمصر فعلى الرغم من «النهضة القبطية» التي امتدت من القرن الخامس الى القرن السابع ، فقد ظلت اليونانية لغة الكتابة الغالبة إلى الفتح العربي بالتقريب. ولم يكن من الغريب أن دعّمت القبطية كثيراً من وضعها تحت الاحتلال الفارسي لمصر وخاصة في العمل الدواويني. على أي ، فانه من الممكن التأكيد بأنه في خلال الثلاثة والستين عاماً الأولى للحكم العربي بمصر ظلّت القبطية هي لغة الدواوين. ولم تحلّ العربية

محلها بهذه الصفة إلّا في عام ٧٠٥. وفي افريقيا الشمالية البيزنطية كانت اللغات الرسمية هي اللاتينية واليونانية، على حين ظلت هذه الأخيرة اللغة الرسمية في سورية إلى عام ٧٠٠. أما في بلاد النوبة واثيوبيا فقد حفظت اليونانية أيضاً مكانتها إلى القرن الثامن كأول لغة دولية، وبالنوبة أصبحت بخلاف هذا اللغة الرئيسة للخدمات الدينية المسيحية وللأدب الكنسي. ورغم أنه وجد بمواضع من النوبة في القرنين السادس والسابع أناس لهم معرفة بالكتابة المروية على ما يبدو، فإن الوثائق دوّنت هناك أساساً باليونانية والقبطية، كما أن الأبجدية اليونانية أصبحت القاعدة التي قامت عليها كتابة الأدب النصراني باللهجات النوبية وبالقبطية أيضاً. ومملكة اكسوم كانت الوحيدة لذلك العهد التي لها لغتها الأدبية الخاصة بها وكتابتها الأصيلة التي اضطر المبشرون النصارى إلى استعمالها من أجل خلق أدب محلي مترجم، ضروري لنشاط الكنيسة.

والاصلاح الذي أُدخل على اللغة الاثيوبية في القرن الرابع وذلك على عهد عيزنه [54, p.65-67]، لم يقرّبها من الكتابة اليونانية بل أبعدها في الوقت نفسه عن الأبجديات المعجمة للشرق الأدنى (الذي ترجع إليه جميع الأبجديات الافريقية ـ لذلك العهد ـ كالليبية والمروية والنوبية وأيضاً أبجديات الجزيرة العربية وسورية وايران) وأدخل القاعدة الهندية للإعجام. ومما لا شك فيه أن هذا كان نتيجة من نتائج العلاقات القديمة العهد التي امتدت لقرون بين الهند واكسوم وظلت محتفظة بأهميتها إلى القرنين السادس والسابع. وفي ذات الوقت يبدو مقبولا الفرض القائل بأنه إن لم يكن اختراع الأبجدية المصلّحة، فإن انتشارها على الأقل هو المسؤول عن ظهور الأدب النصراني المترجم إلى اللغة الجعزية.

وعلماء الاثيوبيات على علم بالصعوبات التي تحيط قراءة الرقوم المعجمة الجديدة المدوّنة باللغة الجعزية، على الرغم من محتوياتها المكرّرة والطابع الصارم لتركيبها اللغوي. وقد تزايدت هذه الصعوبات بصورة مستديمة بالنسبة لقارئي النصوص الواسعة والمتنوّعة؛ غير أن أمثال هؤلاء القرّاء (الذين كانوا قبل كل شيء من القسس الذين يقومون بالخدمات الدينية) كانوا في العادة على معرفة

بمختلف لهجات اللغة الجعزية (التي تنعكس آثارها في الرقوم)، وأيضاً على معرفة باللغات السامية التي تربطها بها صلة رحم قريبة كالسبئية والعربية والسريانية. غير أنهم اخطأوا قبل كل شيء في قراءة الحركات، مما أدى إلى فهم مناقض تماماً لمعنى الجمل. ومن المعلوم جيداً خصائص اللغات السامية وما يجد طريقه إليها من أخطاء لدى قراءة المتن وفهمه، وذلك عند نقله من إحدى اللغات (أو اللهجات) السامية إلى لغة سامية أخرى. والكتابة الاثيوبية المصلّحة (والتي من الواضح أنه لم يبتكرها مبشرو النصرانية) وضعت في أيدي القسس العاملين في الخدمات الدينية والذين باستطاعتهم القراءة، أداة أكثر اكتمالا لتلاوة الكتاب المقدّس باللغة الجعزية من أية كتابة أخرى من كتابات الشرق الأدنى لتلك العهود باستثناء اللاتينية واليونانية. غير أن هاتين الأخيرتين المرتبطتين باللغة الرسمية لبيزنطة في العصور الوسيطة المبكّرة كانتا غير مقبولتين للنصارى الاثيوبيين، أو بصورة أدق للاكسوميين المتنصّرين، وذلك لعلل سياسية وعقائدية.

ومن الجلي أن الأدب النصراني المترجم كان الأداة الأساسية لانتشار الكتابة الاثيوبية المصلّحة، التي أُستعمل إلى جانبها باثيوبيا لبعض الوقت نظم أخرى للكتابة؛ لعله إلى نهاية القرن السادس. ويمكن أن يُضم إلى عدادها الأبجدية الاثيوبية القديمة ذات الحروف غير المعجمة، والأبجدية السبئية - الحميرية المستعارة من بلاد العرب الجنوبية. ونلتقي بالأولى في رقوم جزئية من القرنين الخامس والسادس، أما الثانية فنلتقي بها في رقوم كالب ووأذب التي تحمل طابعاً رسمياً. ومن المحتمل أن هذه الآثار كانت تحمل - على غرار رقوم عيزنه - متناً مقابلاً مدوّناً بالكتابة الاثيوبية المعتادة، غير أنه لم يحفظ أو أنه لم يتم العثور بعدُ على أمثلة من ذلك. أما استعمال الكتابة الحميرية فقد استند على تقليد ثري للغاية لاستعمال خط المسند في النقوش الجنوبية العربية؛ وهو أمر لم يكن من شأن ملوك اكسوم أن يجهلوه.

وفي دراسة الرقوم الاثيوبية كأدب يلاحظ الأثر المتبادل ونمو بعض التقاليد. ففي رقوم القرن السادس على وجه الخصوص نرى أسلوب التأليف

النصراني، / كالاقتباسات من الكتاب المقدّس؛ كما نبصر تقاليد النقوش القديمة، التي تحدد التركيب الأساسي للرقوم الملكية ومصطلحاتها؛ وأخيراً فيما يبدو الإبداع الشفوي للمدّاحين الذين يمجّدون المآثر الحربية للملوك. وهذا التيار الأخير للإعلام الثقافي ينكشف في آثار الأدب الاثيوبي للعصور الوسيطة مثل رقيم الهزاني★ دانيال (القرن الثامن ـ القرن العاشر؟) وحوليات امده سيون (امده صيون) (القرن الرابع عشر) و«الأناشيد الملكية» المكرّسة لامده سيون وغيره من الملوك إلخ. [49; 52]. وفي رقيم وأذب يبصر عدد كبير من العناصر التي نلتقي بها في «القصص» الحربي - الملحمي، الذي ينعكس بصورة خاصة في رقيم الهزاني دانيال (DAE 12) الأكثر قرباً منها من الناحية الزمنية. ولكن أكثرها قرباً بوجه خاص للمواضع المقابلة من رقيم الهزاني دانيال وحوليات امده سيون هو ذلك المشهد المفجع عندما تلقّى وأذب الخبر عن هزيمة جيشه الذي كان أرسل به في مهمة تحت إمرة قادة سيئي الحظ، وقصة الغارة التأديبية التي قام بها الملك لسحق منتصري الأمس.

وعلى ما يبدو فإنه حتى من قبل اعتلاء وأذب العرش فإن الأدب الاثيوبي أثرى من الترجمات المعمولة باللغة الجعزية للكتاب المقدس. وليس من السهل القول ما هي الأقسام من العهدين القديم والجديد التي تم نقلها إلى اللغة الجعزية في فترة القرنين السادس والسابع. ونلتقي في الرقوم الاثيوبية لذلك العهد باقتباسات من المزامير تشهد ترجمتها بأنها ترجع الى عهد سابق لذلك. فمثلاً الرقيم القصير من سارو Saro الذي لم يُعجم إلّا في جزء منه يقتبس من المزامير ١٤٠ / ١٣٩، الإصحاح ٤ و١٨ / ١٧ والإصحاح ٤٩ [217, p.29]. كما أن رقيم مارب لالأصبحه يقتبس المزمور الثامن والستين [332, p.224-225] والرقيم من بيعة هام Ham الذي يرجع تاريخه إلى حكم إلّاشهل،

★ *لعل معنى لفظ الهزاني باللغة الجعزية هو المربّى، أشبه ما يكون مصطلح الاتابيك على عهد السلاجقة. وهذا الهزاني دانيال كان في الأصل قائداً، ولكنه لم يلبث أن عزل الملك وأخذ السلطة في يده. ولربما كان اللفظ تحريفاً للخصاني، أي الخصي. (المترجم)*

يسـوق اقتبـاسـات من أسفـار أيوب (الإصحـاح الـرابع عشر، ١) واشعياء (الاصحاح السادس والعشرون، ٩) ومن انجيل يوحنا (الاصحاح السادس، ٣٥) . [319, p.61 ff.; 174, p.22;120, photo 83] .

ونلتقي في رقـوم وأذب بعـدد من الاقتبـاسـات من الكتـاب المقـدس وإشارات تذكّر بالحوليات الاثيوبية للقرون من الرابع عشر إلى السادس عشر. وأكثر الاقتباسات من المزامير هي المزمور السابع عشر، الإصحاح ٣٨ و٤٠ و٤١ ؛ والمزمور الرابع والثلاثون، الإصحاح ٤و٥و١٢ ؛ والمزمور السابع عشر بعـد المائة، الإصحاح ١٥و١٦ ؛ والمزمور الثامن عشر بعد المائة، الإصحاح ١٠ . وتوجد اقتباسات من الرسل خاصة حزقيال، وهذا ما يؤكده على الأقل مؤلف الـرقيم الـذى يسوق جملة تذكّر ببعض الأعداد من الإصحاح التاسع والثـلاثين من سفر حزقيال. وأخيراً فإن أهمية خاصة يمثلها اقتباس من سفر الخروج (راجع السطر ٢١ من الرقيم).

والإشارات إلى هذه الأقسام من العهد القديم نلتقي بها أيضاً في الرقوم من جبل اديت [200, Tabl. LV, No 176] . ووفقاً لرأي تكله صـــادق مكوريا Tekle-Tsadik Makuria فـــإن كتــابــات سكـة ملوك اثيوبيا عيزنـه ووأذب وأرمـــاه وايوله تحوي إشـــارات إلى سفر الملــوك الثاني وسفر صمويل وانجيـل متى . [398, p.63-64] . ومن المحتمل أن الكشوفات الجديدة ستزيل القناع عن عدد كبـير من الإقتبـاسـات والاشـارات من التوراة والأناجيل في الرقوم الاكسـومية ، غير أن ما تم العثـور عليه إلى الآن يشهد بأن الترجمة الاثيوبية للقسم الأكبر من الكتاب المقدس، بما في ذلك أسفار العهد القديم، قد ترجع إلى القرنين السادس والسابع . ومما يؤكد هذا فيما يبدو/ الأسماء التوراتية لملوك اكسوم مثل كالب وغيره.

وفي ذلك العهد نفسه نقل إلى الجعزية من السنكسار (أي سير القديسين) اليونـــاني حياة القـديس بولــص الصحـراوي والقديس أنطـــون، كما نقل أيضـــاً « القواعد » الرهبانية لباخـــوم و « الفزيولوج » لكرلس الاسكندري

[174, p.23-27] والأخير من هذه الكتب الذي تم تدوينه بسورية في فترة القرنين الثالث والرابع يمثل شذرات من المعلومات بعضها علمي وبعضها سحري، تتعلق بالنباتات والحيوانات إلى جانب تعاليم أخلاقية شعبية. ومحتويات جميع الآثار التي عددناها فيما مر تقف شاهداً على متطلبات تلك الطبقة الاجتماعية التي احتاجت إلى الكتب، أقصد رجال الدين وخاصة الرهبان.

ووفقاً لافتراض ب. أ. طورايف B.A. Turaev فقد ظهرت الرهبانية باثيوبيا في القرن السادس في وقت واحد في شكلين مختلفين، انتشرا في ذلك العهد بسورية ومصر والأقطار المجاورة؛ هما الرهبانية الديرية بقواعدها التي تنظّم المعيشة الجماعية للرهبان التي وضعها باخوم الكبير، ثم الرهبانية الصومعية التي تستند قواعدها على النسك كما وضعها القديس شنوتي. وإلى المجموعة الثانية كانت تنتمي باكسوم صومعة مدر التي أسسها وفقاً للرواية المتواترة القديس الغيور اسحق؛ هذا على حين كان مركز الرهبانية الديرية هو دير دبره دمو الذي أسسه وفقاً للرواية المتواترة ميكائيل ارجَوَى [106, p.67] ، أغلب الظن في موضع مَقدس وثني قديم واستمر يعمل دون انقطاع خلال ألف ونصف الألف سنة إلى أيامنا هذه [308] . وعلى الحد الشمالي للهضبة الاثيوبية تم تأسيس دير هجر نجران («مدينة نجران») الذي دعي دون شك بهذا الاسم تكريماً للمدينة الكبرى بالجنوب العربي(١٠١)

وبأقصى الجنوب من مملكة اكسوم تم في آخر العهد الاكسومي تأسيس دير نصره، أي الناصرة. وبعد ذلك تم تأسيس أديرة باسم دبره كاسو (جبل كوش) ودبره بيزن (جبل بيزنطة) ودبره لبانوس (جبل لبنان) . وهذه الأسماء ترمز إلى تضامن نصارى اكسوم مع إخوتهم في الدين بالأقطار المجاورة - أي بلاد

(١٠١) تم تأسيس نجران جديدة في القرن السادس بولاية عرابية البيزنطية، وكانت تقع على أطراف الصحراء شأنها شأن نجران اليمنية ونجران الأثيوبية [205, p.239] . ومن المحتمل أن الاثنتين قد أسسها اللاجئون من المدينة الكبرى التي حملت الاسم نفسه. أما نجران العراقية فقد أسست في منتصف القرن السابع.

العرب الجنوبية والسودان وسورية، وأيضاً بيزنطة التي شغل المونوفيزيون بعاصمتها وضعاً مهماً على عهد الامبراطور انسطاس وعلى عهد الامبراطورة تيودورا.

ويبدو أنه على الرغم من الصراع الحاد بين الارثوذكس والمونوفيزيين فإن نصارى شمال شرقي افريقيا الذين انضمّوا إلى المونوفيزية، لم يفصموا عرى الاتصال مع الارثوذكس. وفي رأيي أن عرفان شهيد لم يتنكّب الصواب عندما رأى في المكاتبات المتبادلة بين كالب وشمعون الأرشمي حول مسائل العقيدة شاهداً على المونوفيزية المعتدلة نوعاً ما لملك اكسوم [383, p.106–108]، والقريبة من الدعوة الخلقيدونية لسويرس؛ وذلك على نقيض مونوفيزية الفانتازيين. على أن هؤلاء الأخيرين كان من الممكن الالتقاء بهم بين الاكسوميين، كما يبصر من أقوال لونجين التي وردت الإشارة إليها فيما مر. وببلاد النوبة السفلى وبمنطقة طيبه اتصفت المونوفيزية في جوهرها بالاعتدال أيضاً، وكانت قريبة من الارثوذكسية. فليس اعتباطاً أن ساند ملوك النوبيين وأساقفتهم قيام علاقات مع البطاركة والمطارنة الأرثوذكس بالاسكندرية/ واوريشلم وفيله وغيرها. بل إن الزعيم الديني المصري الارثوذكسي سعيد بن البطريق (البطريرك اوتيخوس) يؤكد في القرن العاشر أن النوبيين لم يصبحوا يعقوبيين إلا بعد الفتح العربي لمصر [70, p.111,112]، كما أن سويرس بن المقفع يصر على اعتبار ملك النوبة قرياقوس من ملوك «الارثوذكسية اليونانية» [80, p.95, 98].

وفي هذا الصدد يلاحظ الشبه الواضح بين الأدب النوبي المدوّن باللغة اليونانية والأدب الأرثوذكسي. وكان أول من لاحظ ذلك أ. روزوف A. Rozov في عام ١٨٩٠، وتلاه ج. يونكر G. Junker وغيره من الباحثين. ونلتقي بعناصر الليتورجية (liturgy) للكنيسة النوبية المبكّرة في الشواهد القبورية التي ترجع إلى القرنين السادس والسابع.[١٠٢] وهي تتفق في معظم الأحوال مع «الاوخولوجيا»

(١٠٢) جرى الكشف عن أكثر من ثلثمائة شاهد قبوري ببلاد النوبة تحمل طابعاً نصرانياً، ويرتفع حوالي الثمانين منها إلى القرنين السادس والسابع. ويوجد عدد من البحوث بصددها. ووفقاً لتعداد م. كراوزه M. Krause فإن ٢١٪ من هذه الشواهد يونانية و٧٩٪ قبطية [276, p.78–79].

أي كتـاب الـطقوس» Euchologion للكنيسة الارثوذكسية اليونانية التي جمعها ونشرهـا ج. جوار J. Goar ★. ولا تخلو من مغـزى خاص الصيغ التي تدعو للمتوفى بأن يرقد في أحضان البطاركة؛ وهذه الصيغ نادراً ما وجدت بمصر وإن كانت مألوفة تماماً بالعالم الارثوذكسي اليوناني [101, p.653-656] . وإلى جانب هذا يلاحظ الشبه بين قسم من صيغ صلاة الجنـازة على الشـواهد القبورية النصرانية ببـلاد النـوبـة المدوّنة باليونانية وبين الاوخولوجيا المونوفيزية . وأقدم القطع المعروفة لنا من هذه الاوخولوجيا عثر عليها في نيسانه Nessana بصحراء النقب في فلسطين الجنوبية ـ وذلك بمنطقة غلبت عليها المونوفيزية . هذه القطع مدوّنة باليونانية على بردية ترتفع إلى نهاية القرن السادس وبداية السابع . ونلتقي فيها بالصيغ «الأرثوذكسية» «في أحضان ابراهيم واسحق ويعقوب» ,277] p.309-310;280, p.83-84] . واعتـماداً على الشبه بين صيغ الصلاة التي عثر عليها بشواهد القبور المدوّنة باليونانية في بلاد النوبة وبين «الاوخولوجيا الكبرى» لجوار، فقـد خرج ج. يونكـر (بعـد خمس وثلاثين سنة من أ. روزوف[١٠٣]) باستقراء يشير إلى «الطابع البيزنطي للكنيسة النوبية» [263, p.148] . وفي ذات الوقت (كما بيّن م . كراوزه M. Krause) أشار ت . شيرمان T. Sherman منذ عام ١٩١٢ إلى «أوجـه الشبـه» بين صيغ الدعوات المستعملة بالرقوم اليونانية من النوبة «وصلوات الشكر التي استعملت في طقوس الكنيسة المصرية» [,276 p.81] . غير أنه في ذلك الوقت لم يكن قد تم التعرف إلّا على شطر ضئيل من

★ *جاك جوار Jacques Goar راهب دومينكي فرنسي، ارتحـل إلى جزر بحـر ايجه عام ١٦٣١ حيث توفّـر على دراسـة اليونانية وطقوس الكنيسة الشرقية الارثوذكسية لستة أعوام. وضع بعدها مصنفه الضخم «الاوخولوجيا» في طقوس الكنيسة اليونانية. Ευχ χοιδιΥιον sive rituate Graecaorum الذي ظهرت طبعته الأولى بباريس عام ١٦٤٧ . ولا يزال هذا المصنف كنـزاً لكـل من يريد التعـرّف على طقـوس الكنيسـة اليونانية الارثوذكسية ومصطلحها (المترجم)*

(١٠٣) يشيد أ. مونيريه دي فيلار «بالتحليل الجيّد الذي قدمه ج. يونكر»، ولكنه يعترف بأسبقية أ. روزوف حتى وإن لم يرجع إلى كتاب هذا الأخير [318, p.62, n.1] .

شواهد قبور النوبة . وخلال عمله لحصيلة البحوث التي أجريت في هذا المجال لمدة تقـرب من قرن من الزمان، وضع عالم النقوش (epigraphist) الايطالي م.ج. تبيلتي - برونو M. G. Tibiletti-Bruno تصنيفاً أكثر تفصيلا من ذي قبل لشواهد القبور المسيحية ببلاد النوبة، موزعّاً إياها على خمس مجموعات كبرى على أسـاس الصـلاة على المـوتى؛ وهي تتفق تماماً أو في جزء منها مع صلاة اوخولوجيا جوار. بل إن تبيلتي - برونو يفترض أن الصيغ المتفقة قد لا تكون عملت ببلاد النوبة [399; 400, p. 1-28] . غير أنه لا يوجد أساس لأن نستبعد مجرد الاستفادة من كتاب الصلوات اليوناني الارثوذكسي. وتقترح ي. كوبينسكا Ia. Kubinska الحل الآتي : من الممكن أن الصلاة اليونانية على الموتى قد تبنّاها بعض أساقفة النوبة فحسب ، بينما رفضها الباقون . ومن الممكن أن اولئك اجتذبتهم الدعوة البيزنطية الرسمية ، بينما اجتذبت الأخيرين المونوفيزية القبطية الأكثر تشددّا . لذا ليس اعتباطـاً أن دوّنت شواهد قبور أساقفة فرس وحدهم باللغة اليونانية ، بينما استعملت اللغة القبطية في شواهد/ الباقين [280, p.84]

ومن الممكن بوجـه العمـوم الاتفاق مع م. كراوزه على أن المسألة المتعلقة بانتشار الليتورجية المونوفيزية أو الارثوذكسية ببلاد النوبة المبكّرة ما تزال في انتظار حل نهائي [276, p.81] .

وإلى جانب هذا فليس بالوسع إيجاد حل للمسالة المتعلقة بأثر الخدمات الدينية الاثيوبية على بلاد النوبة المبكّرة : ولا علم لنا ألبتة بمدى انتشار طقوس الخدمة الدينية الاثيوبية بصورة خاصة ؛ ذلك أن الشاهد القبوري الاكسومي الوحيد الذي وصلنا من بيعة هام (باريتريا) والذي عمل على عهد ملك اكسوم إلاّ شهـل (القرن السابع ؟) مدوّن باللغة الجعزية ولا يرتبط إلاّ في القليل بالشواهد القبورية من بلاد النوبة [159, photo 83] .

ويتبين من الأسماء والرفات أن غالبية المدفونين بقبور بلاد النوبة من أهالي البـلاد ، وإن وجد بينهم أحياناً مصريون أقباط . أما الشواهد القبورية فقد اضطلع بنقشها أقباط ونوبيون ممن تعلموا اليونانية بصفة لغة أجنبية ، ولكنهم استعملوها وفقا للتقاليد المتبّعة . وكما يتضّح من مواد الحفريات وأقوال المؤرخين

العرب فقد ظل رجال الدين النوبيون يستعملون كتب الطقوس الدينية المدوّنة باليونانية حتى وقت متأخر ، وذلك جنباً إلى جنب مع الكتب بالنوبية والقبطية . ويمكن أن نسوق مثالاً لهذا شاهدين قبوريين باليونانية من دير في سبا . أحدهما أقصر ومدوّن أجمعه بلغة فصيحة ، وفي حالة واحدة فقط لجأ إلى استعمال الاضافة بدلاً من المفعول به (أثر اللغة القبطية) . أما الآخر فهو الشاهد الضخم المعمول من أجل الأسقف تامر (المتوفى عام ٦٩٣ على عهد الملك مرقوري) والذي يطفح بجميع ضروب الأخطاء من نحوية وهجائية بل وأحياناً في تركيب الجمل [101, p.652–656] .

وإذا ما أخضعنا لفحص دقيق الأطراف الشرقية والجنوبية للعالم النصراني في القرنين السادس والسابع الذي كان مركزه القسطنطينية ـ بوصفه كلا متكاملا إلى حد ما ـ لأبصرنا الوضع الآتي : كان التفتت الأكبر للطوائف النصرانية ونصف النصرانية وحدّة النزاع الناشب بينها ، من نصيب مناطق آسيا الدنيا وافريقيا الشمالية الأكثر تطوراً والأقرب إلى المركز الموجود بأوروبا وآسيا الصغرى؛ أقصد بالذات سورية والعراق ومصر السفلى وافريقيا الدنيا . هذا على حين كان الوضع الديني لسكان صعيد مصر وفلسطين الجنوبية ونوميديا وموريتانيا (أي الجزائر والمغرب الأقصى) وغيرها من مناطق الأطراف ، أكثر تجانساً وأقل تطرفاً في معارضته للمذهب الخلقيدوني . أما أبعد من ذلك في جوف افريقيا وببلاد العرب ، مثلا بفيله حيث جهد الأسقف تيودور في التفاهم مع الغالبية المونوفيزية لرجال الدين المصريين من جهة ومع السلطات الأرثوذكسية البيزنطية من جهة أخرى ، فإن النزاعات العقائدية بين الطوائف لم ترفع رأسها كثيراً . وهذا هو السب في انسحاب الأكسوميين « الفانتازيين » بسهولة عام ٥٨١ بعلوه أمام لونجين السويرسي ورفضهم « لضلالة يوليان » . / كذلك لم تختلف « ارثوذكسية » ابرهة ببلاد العرب الجنوبية في شيء بالتقريب عن مونوفيرية ملوك اكسوم المعاصرين له . ولقد وُلدت العقائد الجديدة قريباً من العواصم والمدن الكبرى بالدولتين البيزنطية والساسانية بما في ذلك الإسلام نفسه ، ولم تنتقل إلى داخل افريقيا وداخل الجزيرة العربية إلاّ نتيجة لما لحقها من

اضطهاد ديني ؛ وهناك دعّمت نفسها في تلك المراكز السياسية وأصبحت العقيدة الرسمية بها .

وعلى وجه العموم فإن الوضع الحضاري التاريخي في الأقاليم الشمالية والشمالية الشرقية لافريقيا في القرنين السادس والسابع ، وهي تلك الأقاليم التي لعبت على الدوام دور المركز التاريخي بالنسبة للأطراف الواقعة أبعد إلى الجنوب والغرب ، يبدو شديد التعقيد . فبالنسبة للبربر النصارى بشمال افريقيا ، سواء الكاثوليك منهم أو الدوناتيون ، كانت اللاتينية هي اللغة الرئيسة للكنيسة والأدب . وانتقال قوليوبيليس Volubilis وغيرها من المدن إلى أيدي دول بربرية مستقلة لم يغيّر من هذا الوضع . وإلى زمن الفتح العربي ، بل إلى ما بعد ذلك كانت شواهد قبور قوليوبيليس وغيرها من مدن موريتانيا ونوميديا تدوّن باللاتينية . ولقد مرت الثقافة اللاتينية بشمالي افريقيا بحال من الاضمحلال المتتابع ، وإن جرى ذلك بدرجة أبطأ بعض الشيء مما هو عليه الحال في الثقافة اليونانية البيزنطية بقورينية والاسكندرية ومنطقة طيبة . وفي عهد السيطرة العربية أنطفأتا تماماً ، ولم تشغل مكانها الثقافات الوطنية المولودة هناك ـ كالقبطية ودون ذلك البربرية . ذلك أنه على الرغم مما نالته «النهضة القبطية» من نجاح فإن الثقافة القبطية لم تستطع ولو لمرة واحدة أن تشغل وضعاً مسيطراً في بلادها نفسها واضطرت بالتدريج إلى الاكتفاء بالموضع الثاني أو الثالث ، أي موضع تال لثقافة العناصر الأجنبية التي تعاقبت الواحدة بعد الأخرى في حكم البلاد (الرومان واليونان البيزنطيون والفرس والعرب) ولثقافة الأقليات ذات النفوذ بالمدن . أما فيما يتصل بالحضارة المروية بالسودان فقد اختفت من الوجود، وقام على أساسها حضارة النوبة الوسيطة التي بدأت منذ فترة ما بين القرنين الرابع والسادس (بلاّنه وقُسطُل وفرس وفركه) ، ولكن لم تبلغ ازدهارها إلاّ في فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وأقل من ذلك كانت فرصة حضارة البربر لشغل موضع من المواضع المركزية في النظام الحضاري والتاريخي لعالم ذلك العهد في العصور المتوسطة المبكّرة؛ حتى عند ما كان حاملوها أكبر عدداً من جميع رعايا ملوك اكسوم في فترة قوتهم القصوى.

ولم يبلغ منها قمة الازدهار سوى الحضارة الاكسومية التي سرعان ما طردت حضارات الشرق الأدنى المتقدمة لذلك العهد. وفي هذا الصدد يمكن مقارنتها تماماً بالحضارات الأرمنية والصغدية والخوارزمية، وذلك عندما شغلت الحضارات البيزنطية والسريانية والهندية وضع المركز بالنسبة للاكسومية بل لجميع الحضارات الأخرى بافريقيا وبلاد العرب والعالم الايراني. ولقد احتلت الحضارة الاكسومية لوقت قصير المكانة الأولى بمنطقة البحر الأحمر، ولكن لم تلبث أن فقدتها سريعاً. أما العهد التالي لذلك فكان القرن الذهبي بالنسبة للحضارة الاسلامية الكبرى، كما كان في ذات الوقت عهد اختفاء الحضارة الاكسومية وارتفاع شأن الحضارة النوبية للعصور الوسيطة وإلى حد ما الحضارة القبطية.

وابتداء من منتصف القرن السابع عاشت النوبة واثيوبيا عملية تطور مؤلمة، وكيفتا نفسيهما لتصيرا من دول الأطراف بالنسبة لدولة الخلافة الإسلامية الكبرى. وكانت أسبقها جميعاً في عملية التكيّف هذه دولة المقرّه التي احتلت الموقع الأول في العهد التالي بين الدول الافريقية النصرانية. أما مصر التي صارت ولاية عربية - قبطية من ولايات الخلافة، فقد كانت المركز الرئيسي لهذا النظام الحضاري التاريخي الذي افتقر تماماً إلى التكامل والذي كان من الممكن تسميته بالافريقي النصراني المبكّر، وانجذبت إلى فلكها آخر الجاليات النصرانية المتبقية بليبيا وبلاد العرب الجنوبية كما انجذبت إليها أيضاً القبائل المختلفة العاملة بتربية الماشية والزراعة بصحراء النوبة والصحراء الكبرى الجنوبية الشرقية والمناطق الداخلية باثيوبيا والسودان التي قليلا ما مسها أثر النصرانية حتى وإن ارتبطت بحضارة اكسوم والنوبة.

وقرابة القرنين السابع والثامن لم تكن غالبية شعوب افريقيا الشمالية الشرقية قد بلغت ذلك المستوى من التطور الذي يمكّن من خلق امبراطوريات اقطاعية راسخة القدم من نوع البيزنطية أو العربية. وكما رأينا فقد كان هذا أحد العوامل التي حالت بين العرب والتوسع خلال القرنين السابع والثامن بجوف القارة الإفريقية. ولعله هو السبب بالذات الذي دفع الاكسوميين الذين كان

تحت تصرفهم قوات أقـل من تلك التي للعرب المسلمين للقرن السابع، إلى القيام بحملة ببـلاد العرب بدلا من التوجه إلى جوف القارة الإفريقية أو إلى السودان غربي النيل. وفي أحسن الظروف كان من الممكن خلق رباط حضاري وعقائدي بين أكثر الشعوب تطوراً لهذا الإقليم من القارة، وهي تلك الشعوب التي قطنت مراكز منفصلة للحضارة بوادي النيل وبهضبة التيجره. غير أن هذه المـراكز كانت أبعد من أن تكون قد انصهرت في منطقة حضارية واحدة، إذ فصلت بينها في واقع الأمر مساحات شاسعة قطنتها قبائل لم تتطور كثيراً.

ومن العسـير الالتقـاء بآسيا وأوروبـا في العصـور التاريخية بمثل ذلك التفاوت في مستويات التطور كما هو الحال مع افريقيا. فالاسكندرية التي كانت مركزاً من أرفع مراكز الحضارة الهلينسيتية والبيزنطية تقع قريباً من مصب ذلك النهر نفسه الذي قطنت على منابعه قبائل الأقزام (البجمي Pygmy) . ولقد ظلّت منطقة النيل الأعلى بأجمعها موطناً لجماعات بدائية إلى القرن التاسع عشر؛ حتى وإن وجدت إلى الشمال منها مباشرة ممالك وإمارات النوبة للقرون الوسيطة المبكّرة التي أحاطت بها مجتمعات اقطاعية للرحّل اعتمدت على السلطة الأبوية، وذلك بالصحراء الكبرى والصحراء النوبية. وحدود النوبة (بما في ذلك علوه) مع مصر ومع منطقة النيل الأعلى فصلت بحدّة بين بعضها وبعض مجتمعات مختلفة كل الاختلاف من حيث مستوى تطورها. وعلى الرغم من أنه منذ عهد الدولة الفرعونية الجديدة بمصر وبلاد النوبة السفلى، وأيضاً منذ عهد نبته ومروه ـ وكذلك «جزيرة مروه» وأرض الجزيرة بالسودان ومنطقة النيل الأبيض ـ انتمت المنطقة بأجمعها إلى تشكيلة تاريخية اجتماعية واحدة، فإن النوبة تميّزت عن جارتها الشمالية بقسمات ذات حيوية كبيرة في تركيبها البدائي. ومن المؤسف أن معطياتنا عن النظم العشائرية والقبلية لبلاد النوبة ترتفع إلى عهود سابقة (هليودوروس وغيره) أو تالية (المؤلفون العرب) للعهد الذي نعالج الكلام عليه. غير أنه لا يجوز التشكك في أن نُظُماً من ذلك الضرب قد وجدت هناك في القرنين السادس والسابع.

ولنحاول الآن تقديم حصيلة لبحثنا هذا، جاهدين في ذات الوقت للإجابة عن سؤالين يرتبطان معاً: ما الذي حدث بإيجاز في هذه المنطقة من العالم موضوع بحثنا بين نهاية القرن الخامس ومنتصف القرن السابع؟ وما العواقب التاريخية التي ترتبت على تلك الأحداث؟

ويمكن الاجابة عن السؤال الأول بالصورة الآتية: قرب نهاية القرن الخامس كانت حركة الهجرة الكبرى للشعوب بأوروبا وآسيا وافريقيا قد شارفت على نهايتها. أما الامبراطوريات الاقطاعية التي ظلّت على قيد الحياة فقد عرفت الاستقرار لبعض الوقت، بل اضطلعت بهجوم مضاد على الممالك البربرية الموجودة على حدودها والتي كانت احتلت قسماً من منطقة الحضارات القديمة. كما دخلت هذه الامبراطوريات في صراع مع بعضها بعضاً من أجل اقتسام العالم المتحضّر لذلك العهد، وهو ذلك الصراع الذي بلغ القمة في الأعوام ٦٠٤-٦٢٨.

وكانت حلبة القتال بين الدولتين الكبريين لذلك العهد، أي بيزنطة وايران الساسانية، هي أقطار الشرق الأدنى الممتدة من القوقاز وجنوبي القوقاز إلى مصر واليمن. فهنا في مهد أقدم الحضارات البشرية كانت تقيم في العصور الوسيطة المبكّرة شعوب تتحدث أساساً باللغات السامية واللغات القريبة منها كالقبطية والبربرية، مضافاً الى ذلك اللغات القوقازية واللغة الأرمنية بجنوبي القوقاز. وهذه الشعوب كانت لها حضاراتها المستقلة تمام الاستقلال والمتطورة تطوراً رفيعاً، ضاربة بجذورها في حضارات الشرق الأدنى القديم. كذلك اعتنقت هذه الشعوب ديانات مختلفة يأتي في مقدمتها المذاهب غير الارثوذكسية للنصرانية، كالنسطورية والمونوفيزية وغيرها. ولقد كان هذا عالماً حضارياً متكاملاً فصل بين أوروبا الرومانية النصرانية وآسيا الهندية ـ الايرانية والبوذية؛ أي عالماً غريباً عليهما الاثنين ومعرّضاً للخلاف والتمزق وللاحتلال والاستغلال سواء من طرف البيزنطيين أو من طرف الفرس. وكانت الكراهية في الشرق الأدنى قد بلغت حدها الأقصى تجاه الامبراطوريتين الاقطاعيتين، وحدث ضرب من التقارب العقائدي والحضاري بين شعوب هذا الشطر من عالم العصور الوسيطة فتردّدت الأصداء الأولى للدعوة من أجل توحيده سياسياً.

وقد انضمت إلى هذه المنطقة من ناحية الغرب افريقيا الشمالية التي اعتنق قسم كبير من سكانها الدوناتية* والاريوسية واليهودية القادمة جميعها من الشرق - كما انضم إليها العالم الايراني الذي تكاثرت فيه وجمّعت قواها الجماعات المتحدّثة بالسريانية سواء من المونوفيزيين أو اليهود. أما من ناحية الجنوب الغربي فقد انضم إليها العالم النصراني الشرقي الفريد في طابعه والصغير في مساحته بشمال شرقي افريقيا، حيث وجدت اكسوم في ريعان حضارتها وقمة قوتها الاقتصادية والسياسية.

ولم تكن فكرة توحيد الشرق الأدنى وشمال شرقي افريقيا تحت زعامة اكسوم تتمتع بفرص النجاح. غير أن الاتجاه نحو توحيد هذا القسم من العالم في كفاح ضد بيزنطة وايران قد هيّأ فتحه على يد العرب، الذين استطاعوا خلال ألف وخمسمائة عام أو ألفين توحيد الشرق الأدنى بأجمعه من ليبيا والسودان إلى آسيا الوسطى والقوقاز. حقاً إنه عند منتصف القرن السابع لم تتجاوز أراضي الخلافة الإسلامية حدود الدولة الساسانية للأعوام ٦٢٠-٦٢٥، غير أن الخلافة الإسلامية كانت ما تزال في بداية فترة انتشارها التي لم تلبث أن دفعت بالجيوش العربية فيما بعد إلى ضفاف الفولجا والسند وإلى ساحة بواتييه ووادي طلاس [طراز] بآسيا الوسطى.

أما الدول النصرانية بافريقيا - أي اكسوم ومقرّه وعلوه وغرما، التي فصلتها عن أوروبا وآسيا أراضي الخلافة الإسلامية - فقد ظلّت قطعة من عالم العصور الوسيطة المبكّرة، لها طابعها الخاص بها وإن دخلت بالتدريج في اتصال ومشاركة مع الحضارة العربية الإسلامية التي ازدهرت بالتالي ازدهاراً عريضاً.

★ *الدوناتية Donatism حركة انشقاقية طرأت على النصرانية في الشمال الافريقي خلال القرنين الرابع والخامس. بدأت دينية ولكنها لم تلبث أن اتخذت صبغة اجتماعية وعنصرية، موكّدة العداء بين البربر والرومان من جهة والطبقة الكادحة وملاّك الأراضي من جهة أخرى. وقد ضعفت بالتالي، ثم اختفت نهائياً خلال الفتح العربي للبلاد. راجع عن الحركة W.H.C. Frend, The Donatist Church, 1952.(المترجم)*

الملحقات

أ ـ قصة «استشهاد الحارث»

كان العلامة المصري الكبير والمؤرخ الجليل البروفسور عزيز سوريال عطية قد قام بفهرسة المخطوطات العربية الموجودة بمكتبة دير القديسة كاترينا بطور سيناء، وعمل منها فلماً مخطوطاً يوجد حاليا بمكتبة الكونجرس بواشنطن عاصمة الولايات المتحدة (١٩٥٥). وقد عثر على أربع نسخ من «استشهاد الحارث» في أربع مجموعات من المخطوطات. وهذه النسخ تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها بعضاً، كما تبيّن بالتالي للبروفسور عرفان شهيد الذي قام بفحصها ومقارنتها. وهي توجد في مجموعات المخطوطات رقم ٤٢٨ و٤٤٣ و٤٦٩ و٥٣٥ التي تحوي الى جانب قصة «استشهاد الحارث» آثاراً دينية أخرى للنصارى العرب. وأفضلها وأوضحها جميعاً هي المخطوطة الموجودة في المجموعة رقم ٤٤٣ وإن لم تكن أقدمها؛ ويحمل تاريخ تدوينها عام ١٢٧٨م. ونصها هو الأقرب الى الرواية اليونانية «لاستشهاد الحارث»، ومن المؤكد أنها نقلت رأساً عن اليونانية.

وقد رأينا أن نقدّم للقارىء نص مخطوطة المجموعة ٤٤٣ حتى يتمكّن من تكوين فكرة عن مادتها كمصدر من مصادر هذا الكتاب، إلى أن تضطلع الدوائر العلمية بإخراج طبعة علمية للترجمة العربية «لاستشهاد الحارث». ومن الملاحظ أن الترجمة مدوّنة باللغة العربية الدارجة، دون مراعاة لقواعد النحو أو الكتابة؛ وعلى الرغم من ذلك فإننا لم نجر فيها قلمنا بالتعديل حتى في الحالات التي قد يستعصي فهمها على القارىء.

أما الأصل اليوناني للكتاب فقد نشره مع ترجمة لاتينية مصحوبة بمقدمة طويلة وحواش وافرة الأب إ. كاربنتييه E. Carpentier في مجموعة Acta Sanctorum مجلد اكتوبر ١٨٦٦ (من ٧٢١ ـ ٧٥٩). ويرى كاربنتييه أن المصنف من مؤلفات القرن السادس. أما بصدد المؤلف فلم يمكن الجزم بشخصه إلى اللحظة. وفيما يلي صورة طبق الأصل للنص كما استللناه من المخطوطة ٤٤٣.

بسم الاب والابن والروح القدس

شهادة القديس الحارث وجماعته الذين
استشهدوا بمدينة نجران بارض الهند
كان في السنة الخامسة من ملك يوستينيانوس
المحب للمسيح والمومن به في الدورة الثانية عشر
وهي على حساب السريان الخامسة وثلثين في
شهر تشرين الاول وكان حينئذ البطريرك على
مدينة القسطنطينية طوماتيوس وعلى مدينة
الاسكندرية تيموثاوس وعلى مدينة انطاكية
افراسيوس وعلى مدينة اورشليم يوحنا وكان
السقاآن يملك على ارض الحبشة وكان رجل
صديق ورع ومدينة ملكه تسمى اقسوم
وكان ايضا في ذلك الزمان رجل يهودي

برهه ٢٩٤

بقال له ذو نواان رشيح هارق للدما اكثر
من غيره من الناس وكان قد تغلب وملك
علي عمل الرابيا اقدامين وهي البلده المدعوه
في كتب الله سبا وكل من كان في هذه البلده
سبا ساكنا كانوا حنفا او يهود ولا يسلكوا في
شي من وصايا الناموس الا ما كان من النهي
في الماكل والمشارب مما يضر ولا ينفع والمشرع
لذلك ليس الرب بل ايمه الفريسيين والصادوقيين
وكانت الدنيا كلها ممتليه من عباده المسيح
والامانه به الاله الحق مع ابيه وروح قدسه
ما خلا بلده سبا وحدها فانها كانت كافره
وكانوا فيما يزعمون انهم باليهوديه متمسكين
ولله عابدين واما بالحقيقه فكانوا يكرمون

الاوثان ولذلك كان القتال بين ملك الحبشه
المومن بالمسيح وبين اهل سبا حتي ان اهل
سبا كانوا يرضون ملك الحبشه ويرفعون
له الخراج والهدايا وكان السفا ان ملك الحبشه
لا يوثر ولا يختار اخذ شيا مما يدفعوه اليه
من ذلك لكفرهم بل كان يقاتلهم دايما ويتعاهد
ارضهم بالجيوش الي ان اضر بهم جدا وكان
مما يلي ارض سبا مدينه يقال لها نجران هذه
المدينه من السما استنارت وقبلت الايمان
من سمعان الرسول المعروف بالقانانى وكانت
علي الامانه المستقيمه المقدسه مومنه بالثالوث
الاقدس الجوهر الواحد فعرض ان ملك اليهود
انهزم من ملك الحبشه وهرب الي الجبال يتحصن

فيها وكان الشفا ان ملك الحبشه القديس لما
انهزم عدو الله الكافر وهرب منه انصرف
حينيذ الي ارضه وملكه وخلي فرسانا مركزه
وعليهم مقدم في ارض سبا وان الشيطان باغض
الخير حرك اليهودي المهزوم ملك سبا علي
الخروج الي القتال لان كان ملك الحبشه قد
استنابه بارض سبا فقاتلهم وهزمهم وجعل
يقاتل ايضا كل من كان من اهل الايمان بالمسيح
ايسوع مخلصنا ولم يدع بارض سبا احدا من
النصاري الا وقتله مع جميع من كان خلفه
ملك الحبشه بارض سبا ولما فعل ذلك حرك
جيوشه للمسير نحو نجران مدينه الصلاح
ليقاتل اهلها محبي التجسد المسيح لانه زدي

ان يبيدهم وهذه صفة ارض سبا مما يلي
اليمن من الشام يعني ارض الروم بعدها
ثلثين مرحله من الموضع المسمي فينيقوس الذي
تحت سلطانهم وهذه الارض التي لاهل
الاومريون طولها خمسه وعشرين مرحله
مسكونه عامره مثل الرمانه واما ارض الهند
من حيث تخرج العود والقرنفل واللولو المرتفع
والفلفل فبعدها منها سبعين مرحله منها
ستين مرحله في البر وارض الحبشه بعدها
ثمانين مرحله ثم من ارض الحبشه ايضاً الي
ارض سبا وذلك البحر من سبا يسار منه الي
الهند والعراق والفرس وبعدها من ارض
الروم الي ارض الحبشه ستين مرحله فاتفق

انه كان زمن الشتا ولم يقدر ملك الحبشه ان
تخرج اليه وهو محاصر نجران المدينه العفيفه
الكريمه الممدوحه التي تاويل اسمها بالعبراني
مدينه الرعد وايضا الغالبه التي لا تستطاع
فلما جا اليهودي اللعين الي ناحيه تلك المدينه
المقدسه نجران نظر علامه صليب ربنا
ومخلصنا اليسوع المسيح قايمه علي عود محيطه
بالمدينه مع جند مقاتله فبعث منادين وامرهم
ان ينادون باعلي اصواتهم ويقولون ايما
رجل لم يجدف علي المصلوب ويحقر هذه العلامه
الملعونه فانه يبادو ويقتل بالسيف والنار
ومن كان علي ديني ويكفر بما يقولون اصحاب
الجليلي فانه يصيب مني كرامه عظيمه ويكون

في ملكي فمن فاز فوزاً عظيماً واعلموا انني قد
قتلت جميع من كان ملك الحبشه قد خلفه
بارض سبا ومن كان بها ايضاً من النصاري
وكل كاهن وراهب قتلت الجميع بالسيف
واحرقت بالنار جميع ارضهم وكنايسهم
التي في مملكتي هدمت ونزعت من اساسها
وتركتها غباراً وانا فقد قدمت اليكم باهل
نجران بقوه كثيره وساعد عالي ومقاتله
محاربين وهم مايه الف وعشرين الف فاما
اهل المدينه فكانوا جاوبوا من فوق ويقولون
ايها الملك نعبد الاله الذي خلق كل شي الخ
وكلمته التي بها كان كل شي وروحه القدوس الذي
يحيي كل شي وليس نعرف كثره الالهه ولكنا

نقر ونومن بلاهوت واحد ثلاثة اقانيم الاب
والابن والروح القدس جوهرا واحدا وان
الواحد من هذه الثلاثة الذي هو الابن هو
الاهنا ومخلصنا ايسوع المسيح كالذي ارسله
القدسيين الذين اضوا العالم بتعليم الحق وهدوا
الناس الي سبيل الهدي وحققوا الحق
اليقين في تحقيق الحق وتصديق كلام الانبيا
الذين من قديم الدهر تنبوا واخبروا جميع
الناس يعلم الحق لمن اتبع قولهم وصدق كتابهم
وقبل ما اتوا به من عند الله وليس فيما اتوا
من عند الله شبهة ولا باطل ولكنه حقا واضحا
وكذلك كان اباونا ابراهيم واسحق ويعقوب
وموسي وهرون وصاموييل وداود وجميع

الانبيا ابو منوز حينيذ غضب الملك الملعوز
الزي كان يري علي الناموس وهو علي غير
الناموس وجعل يحاضرهم سنة اشهر
بمكايده شديده فلم يستطيع ان يحرك
مدينه كان اساسها علي صخرة الامانه بالمسيح
الزي هي مثل صهيون الشامخه واورشليم
التي الجبال حولها والله محدق بها وشعبه
الي الابد فناصب الملك الملعون لاهل تلك المدينه
فلم يدع احد ممن كان حول المدينه في البساتين
والمزارع الا وجمعهم + للعبوديه لعظا جيشه
وروسا قومه فلما علم الملعون انه لا يستطيع
لاهل المدينه لا بمكيده ولا بمقاتله ولا بشي مما
حاضرهم وكان اهل المدينه يخرجون في كل

+ فيهم من علمهم ومنهم من

حين علي غفله ويغيرون علي عسكره ويقتلون
خلقا كثيراً ويعودون الي المدينه فلما راي المارد
الملعون ذلك تشبه بالشيطان الذي هو قاتل
الانسان منذ القدم فبعث الي الذين يخافون
الله ويعبدونه وجعل يحلف لهم بايمان الناموس
العظيمه ويقول انني لا اضر احد من اهل المدينه
ولا اهرق فيها دماً ولا اكلف احد ان يحزن
علي ما يعبد من الدين ولا اريد سوي ان اضع
عليكم خراجاً تودونه الي وادخل الي المدينه
فانظر اليها واعرف كيف هي واعطي منكم ما انا
اهله في هذه السنه علي اني اضع علي راس كل
رجل وامراه حراً كان او عبداً شيخاً كان ام صبيا
او فلاح ارض او صانع اجعل عليهم خراج مثقالاً

واحداً ووزن هذا المثقال اثني عشر قيراط
بوزن الروم وتلك السنه كان قد صيّرها ملاً
شيا فكان ما اجتمع من ذلك القانون علي
ما شرط الملعون من اهل مدينه نجران من ارطال
الذهب الف رطل ونيف مايه رطل وسبعين
رطل فاما محبي الله الذين كانوا في المدينه فانهم
كانوا معتادين ان يخضعوا للوصايا المقدسه
التي اوصي المسيح المخلص فقالوا ايها الملك انا نحن
تعلمنا من الناموس ان نعبد الله ونخضع للملوك
فيما ينبغي فنحن فاتحين المدينه لك لتدخلها انت
ومن احببت واعلم انك ان انت غدرت ولم تفي
بما حلفت لنا وقلت فان لنا الاهاً قادراً ان يغنينا
ويرد شرك علي راسك وعلي ملكك وان لم

(ومن الانبيا والرسل القديسين)

نفعل ذلك فانا قايلون لك كما قال الثلاثه فتيه
حنانيا وعزاريا وميصايل انا لا نعبد الاهك
ولا نفز نحن يفك ونحن نري ان الموت لنا سلك
رنحا وعلي ذلك فنحن نتوكل علي المسيح الزي مات
من اجلنا واحيانا بموته ونحن به احيا ولما قالوا
ذلك فتحوا ابواب المدينه فدخل الغاشم الغدار
الي مدينه نجران وان رؤسا المدينه والحارث
قايدهم اتوا اليه وسلموا عليه وسجدوا له عند
ذلك امر ان يجتمعوا باجمعهم وكان اول ما بدي
به من الصنيع انه امر نقبض ما كان لهم من مال
وامر ان يقدموا اليه اسقفهم بولس فقالوا
انه قد مات منذ عامين فلم يصدق قولهم حتي
بعث الي موضعه ونشر عظامه وامر ان تحرق

عَظام القديسين بالنار ويذري في الريح جميع
مَا اخرج من القبر من عظام القديس بولس
الاسقف عند ذلك امر بربط جميع من قدروا
عليه من اهل المدينه ثم امر اصحابه ان يجمعون
حطباً كثيراً ويوقدون ناراً عظيمه ففعلوا
ذلك وبلغ ارتفاع النار شيئاً كثيراً ثم امر ان
يطرح فيها كافة الكهنه القسوس وَالشمامسه
وَالرهبان ومن كان من الارامل النسوان
البارات المثابرات الصلوات والقراات
بالليل في الكنايس وكل من كان متعبداً
لله في الكنايس في تلك المدينه وَملحولها
وَالعذاري الناسكات اللاتي كن يخدمن في
هيكل الله الليل والنهار وَامر بكل هولاء ان

يلقوا في جاميه النار التي اوقدت قصداً منه ان
يفزع منه جميع من بقي من النصارى وكان
عدد اوليك اربع مايه نفساً وتسعه وعشرين
نفساً ثم انه بعد ذلك امر ان تطرح الحارث في
على ثقيل وجميع من كان معه من الروسا والاشراف
من اهل المدينه يغلوا باغلال من حديد وكان
المنادي ينادي بلغته وهي الاومريه ويقول
اكفروا بالذي يقال له المسيح الناصري
وتهودوا وكونوا على دين الملك لكيما
تحيون وكان الشهدا القديسون يقولون
حاش لنا ان يكون لنا هذا او نكفر بالامانه
التي عليها عمدنا فاجاب الملك الكافر للقديسين
وقال ان الروم جهلوا فامنوا بمن ضلبه ابابنا

باورشليم وقد كان الذين صلبوه كهنه
ومشايخ وعلماء وانما اهانوه وشتموه وامانوه
بقتل قبيح لما عملوا انطليس بالله ولاشي فلماذا
تصلون انتم في اثر هذا الانسان العلكاو افضل
من النصاري الذين يقال لهم المنانيه الذين هم
عندنا اليوم لانهم يخبرونا ويقولون لنا انا
ليس نقول ان المسيح الاهًا لكنه نبيًا فلست
اريد منكم يا اهل نجران ان تكفروا بالاله الذي
خلق السما والارض ولا ان تعبدون الشمس
والقمر والنجوم التي في السما او شي مما في
الارض من المخلوقات او شي مما في البحر والانهار
لكنني اريد منكم ان تكفروا بالذي يسمى ايسوع
الذي كان يجدف كثيرًا ويجعل نفسه الاهًا

لكن نقولوا هذا فقط ان الذي صلب انسانًا
وليس الاهًا فقال له القديسون انا عن
انفسنا وعن جميع امتنا وعن كل من كان منا
مطلوب نجيب ونتكلم ونشهد ونعترف
بالاعتراف الصالح الذي به عمدنا باسم الاب
والابن والروح القدس ولا نكفر بجوهر الاله
ولكنا نقول ان المسيح ايسوع الذي انت
تجدف علينا به هو احد الثالوث القدوس
وهو كلمه الاب الذي تجسد في اخر الازمان
من اجل خلاصنا من روح القدس ومن مريم
العذري وقد علمنا في كلامه المقدس انكم
ستساقون الي الملوك والسلاطين من اجل
الشهاده عليهم وعلي الامم واما انت فنحن

نكفر بك وبما انت عليه انت الذي عذرت
بالله الناموس وكذبت بالحق عند ذلك راي
الملك ان ياخذهم برفق ولطف وحسن كلام
لكي يكفروا بالمسيح فلم يوافقوه وكان قولهم
له لو انك اردت ان تبيدنا بالعذاب والنار
لم نكفر به ولا بالايمان بالثالوث القدوس
لان حياتنا وموتنا بالمسيح وكان فيهم رئيسا
ومعلما للامانه بالمسيح رجل يقال له الحارث
الذي ذكرناه فيما تقدم وهو كان ابن رجل
حنيف وهو كان رئيس القوم ومتقدمهم
وكان اهل المدينه قد عرفوا كفر الملك
ونفاقه فهربوا واختفوا في الجبال والمغاير
واجحرة الارض وليس كان فرارهم من

الشهاده والسعاده لاجل الفزع منها لان
رجاهم كان ارث ملكوت السماوات لانهم
كانوا في الصحارى والجبال يصلون ويدعون
للذي يسمع دعا فراخ الغربان ويرزقهم
الطعام الذي يعطي الطعام لكل ذي جسد
وهم على ذلك لكي يخلصون ويكونوا بقيه زرع
في طاعه الله وعبادته كما قال اشعيا ايضا
لولا ان الله ابقى منا بقيه زرع لكنا مثل اهل
سدوم وشابهنا عامورا ولذلك حفظهم الله
تعالى لئلا يهلكون ويبيدون والذين قتلهم
الملك الكافر فكان يبلغ عدد من اخذ الرجال
والنسا والصبيان والشيوخ من اهل المدينه
والكور التي حولها اربعة الف وما ينيف

واثنين وخمسين نفسا فثبتهم علي الاعتراف

والشهاده بالمسيح ورفضوا الدنيا الزاهبه

التي هي دار الغروب والباطل وانه عندما

اراد ان يقبل الشهدا جمع النسا والاولادهن

وجعلهن في بيت علي حده مقابل الرجال صنع

ذلك يريد ان يرفق بهن ويطمعهن بالبين

وحسن اللفظ لكيما يكفرن بالمسيح واذاهم

اجمعين الرجال والنسا والصبيان يدعون

دعوه واحده باعلي اصواتهم قايلين نعوذ

بالله من ان يكون لنا هذا ولكنا نكفر

بنفوسنا وبالاشيا التي في هذه الدنيا

ونتهيا للموت اذ نحمل الصليب ونتبع الذي من

اجلنا صلب علي عهد بيلاطس البنطي. فلما راي

الملك الملعون ذلك جعل يكلمهم برفق ولين
ويطلب اليهم بخداع وحسن لفظ مع طمع
كثير يطمعهم به ويقول لهم لا تضلون
وتتبعون الذي يقال له المسيح الذي ضربه
اباونا بالعصي وصلبوه وقتلوه لكن اطيعوني
وتهودوا فتعيشون مع بنيكم وان لم
تطيعوني فستموتون موتًا شنيعًا عند ذلك
صاح النسا مع صبيانهم وقالوا نحن نومن
بالمسيح ومن اجل اسمه نموت طيبين الانفس
ونعوذ بالله ان نكفر به لكنا نسبحه ونعظمه
اذ هو الاه وابن الاه حيًا دايمًا ونحن له عبيد
نسجد لصليبه وعلى اسمه نموت ونعوذ
بالله ان نحيا بعد قتل ازواجنا فقال لهم

المنافق ايها النسوه وهل ترضون ان
تموتون في شان رجل ساحر ضال وان عشره
منهن من الصالحات وممن الكنسي كسوة العفاف
والعذره قالوا للملك اليهودي يقطع لسانك
المجدف وقال النجس بيسل ايها الكافر
عند ذلك غضب اللعين غضبا شديدا وامر
ان يذهب بهن الي حفره هناك ولتضرب
اعناقهن حيث قتل قبلهن الشهدا وكان
عددا وليك النسا اللاتي قتلن ما بين
وتسعه وعشرين نفسا وكان الجند يجرونهم
بشعورهن الي القتل وهن طيبات الانفس
بدلك فرحات فلما بلغوا المكان الذي امر
ان يقتلوا فيه جعلوا الرهبانيات يطلبوا الي

النسا العلمانيات اللاتي معهن ويقولوا انزلونا
ان نكون السابقات والاخذات هذه العطيه
الفاضله التي هي الشهاده لاننا نخاتم العذره
نحن ولابسون اسكيم الرهبانيه الذي
للملايكه وان كنا ليس لذلك اهلاً فانتم
تعلمن ان في اخذ القربان المقدس الذي المطهر
من الخطايا وحياة الانفس نحن كنا نتقدم الي
ملكنا المسيح والشمامسه ايضاً هم كانوا
يقدمونا الي القربان المقدس نحو ما ينبغي
ان يكون في شكل الكنيسه والصلوات
الموضوعه فيها وكنتن تتقدمون علي اثارنا
الي القربان المقدس وناخذنه فهذا انما يحملنا
ايضاً ان نتقدم الي كاس الموت قبلكن وقبل

ازواجكن ونذوق طعمه وكان هذا من
قول النسا الراهبات بطيبه الانفس وبشاشه
القلوب فاجاب النسا العالميان وقالوا ليس
كذلك نفعل ها هنا لانا نسا الشهدا وامهات
الشهدا وينبغي لنا ان نقبل قبلكم الشهاده
لكي لا نري بعد ازواجنا واولادنا احيا ولو
ساعه واحده وكانت كل واحده منهن تطلب
الي من كان يسوقها الي الموت من اوليك الجند
ان يوحيا بالموت وكان من حضر ذلك من الامم
وساير من اتبع الملك الكافر من جميع من في
تلك البلاد من الناس لما راو تلك الشهده والمنظر
الفظيع كانوا يضربون علي وجوههم وجدا
علي ما يرون يبكا وصريف اسنان وفزع

صدور وضربت اعناق النسوه القربياز
وهم يدعون باسم الاب والابن والروح القدس
عند ذلك قال الملك اليهودي الظالم لعظايه
وهو كالمستهزي الا ترون الي ضلاله ذلك
المصلوب كم قدر علي ان يجعل في الدنيا من باعه
ثم انه ارسل الي شيبزه المدينه وكان اسمها
دهما ابنه ازمع وامر عدو الله انا سا من عظايه
وروسا قومه ان ياتوا بها بكلام حسن وان
يوقفوها قدامه بكرامه ودعه ورفق يظن
بذلك انه يزيلها عن هواها وكانت ابنه
ازمع من الحسن والجمال علي صوره ليس احد
من الناس مثلها فامر ان تحفظ مع ابنتيها وكانتا
ابنتيها ايضا لهما من الحسن والجمال ما ليس يوصف

لاجل البنه مثلهن فلما اتاها رسل الملك في
السجن قالوا لها ان انت اطعتي الملك على ان
تكفرين بالزي يقال له المسيح تعش نفسك
بكرامه وانفس ابنتك فلما سمعت ما بعث
به الملك اليها قالت للرسل المبعوثين اليها
اذهبوا بنا الي الملك وانا ساحضر وارضيه
فيما يسالني وانما ارادت بذلك الي ان تخرج فتتبع
بنات عمها اللاتي استشهدن قبلها ولما
سمع الرسل ذلك منها اتوا بها الي الملك وظللوا
عليها بمظله وهي تمشي لكيما لا يصيبها ولا
بناتها الشمس وكن يمشين وهن حبيبات
الانفس بافران مستوحشات لانهن لم
يحضرن في الشهاده مع بنات عمهن وكان

الرسل يحملون المظله وهم يمشون لئلا يصيبهن
الشمس لان دهرها لم تكن اصابتها شمسا
قط الا شعاعها وان ذلك ربما كان لا يدخل
عليها وهي في خدرها داخلا فلما احضرن
البارات قدام الملك اللعين الرشيع الذكر
قال لها الملك ايها الامراه لا يغرك سحر المضلوب
ولا تريدين ان تسلكين مع من قتل من اهل مدينتك
من الرجال والنسا لانك انتِ امراه لك حسب
وكرم وموضع في البيت الشريف من الحسن
والجما الذي اعطيتيه انتِ وابنتيك وقد
بلغني انه لم يراك رجل قط غير زوجك الذي
تزوجتيه بالامر الجميل وقد كان في منزلك
ثلثمايه رجل يختلفون في امورك وحدمتك وضياعك

وامرالك الي يوم هذا الناس الذي انت فيه واقفه
بين ايديناً فاطيعي الملك لتكوني مكرمه بين
ومن الملكه في دار الملك وان الامراه اجابته
لست اكرم من انسان يعبد الهه كثيره ولا
اساكن مجزف ولا من يحب ان يكلف الناس
التجذيف ومن يسمي الاها باسم ساحر وهو
الذي جعل الملوك يملكون حينيذ امر ان يكشف
راسها ورا بناتها ويوقفون مكشوفات
الروس فالتفتت القديسه ونظرت الي جماعه
من النسا يبكين ونحن فقالت لهن ايها النسا
العفيفات الصالحات الذين هم علي هواي ومن
دار منكن يهوديات وحنيفيات اسمعن
كلامي انتن تعلمن انني امراه نصرانيه مسيحيه

وقومي اجمعين على ذلك من الرزن ولله
الشكر وانت تعرفين اي منزله كنت عليها
وكان مالي كثيراً من الذهب والفضه والنحاس
والخدم والمواشي والمزارع لم يكون شي
يعوزني ولو كان في نفسي ان اتخذ زوجاً
بعد وفاه زوجي لفعلت ولم يكون احد يقدر ذلك،
ان ينبوهم علي انني فعلت غير السنه وكلا ان
يكون ذلك لكنني في اليوم املك من المال اكثر
من عشرة الاف رطل من الذهب والفضه
مختوم عليه وانت تعلمين انه ليس للامراه فرح
اكثر من يوم عرسها ثم من بعد ذلك لا تزال في
الاحزان والاوجاع واشد ذلك كله حين
تحضر وقت ولادها وحين يموت ولدها وان

من بعد هذا اليوم ابين من هذه الامور كلها
واكون في الفرح مثل ايام عرسي وابنتي
ها بين عذرانين فنحن نتزوج جميعا في الشهاده
كعرس الفرح عند عريس الحق ايسوع المسيح
ابن الله الذي نشر جلنه للخمس عذاري
اللاتي حملن الزينه مع سرجهن وانتن يا اخواتي
تعلمن انكن لم تنظرن الي وجهي سوي دفعتين
فقط في كافه الزمان الدفعه الاولي في
خطبه عرسي الفاني الغير دايم وهذه الدفعه
الثانيه الان في عرسي هذا الدايم الغير فاني
فانظرن ونفطن الي والي بناتي لاننا لسنا
دونكن في الحسن والجمال ولا تظنوا اني
بوجه قبيح مع ابنتي جاهرنا لاننا ها نحن مشهورات

تجاهكن يا معشر الحراير وانتن يا جميع
نسا الجنود والجيوش فاعلمن اننا حفظنا
طهارتنا ويحفظ الله الذي يحفظ عذره بناتي
بغير فساد مع انا بالمسيح اصطبغنا ويشهد
الله ان هذا الملك لا يستطيع ان يصبرنا ان نكفر
بالمسيح وانتن اليوم لي شهودًا ودهبي وفضتي
فسيشهد ان لي في اليوم الاخر انني لم احبهما
بل قد كنت اعطي كل محتاج ولما سمع الملك ذلك
منها قال لها انني قد ضربت عليك منذ حين
وتركتك في سعه من الكلام تتكلمين بما شيتي
مسامع العالم لكيما اذا رايتي وجوههن عليك
وبكاهن لاجلك لعلك برق قلبك لهن فتسمعين
مني وتطيعني فقالت له المراه القديسه انك

تكلفني ايها الملك ان اكفر بالحياه الدايمه
واحيا في هزه الحياه الدنيه حياه ببسيره وانا
فاخاف من النار والدود الذي لاينام وان
احب الينا ان نموت ولا نطيعك ايها الملك
لانا ان متنا علي هزا الاعتراف حيينا الي الدهر
ثم التفتت الي ابنتيها وقالت لهن انظرن الا
تكفرن بالمجد من الساراقيم ملك السموات
ايسوع المسيح ابن الله الحي الجالس علي
الشاروبيم المجد من الساراقيم فحاشا لنا ان
نكفر بك الملك ابدا حينيذ قال لها الملك وهو
مغتاظ مغضب غضبا شديدا ايها الامراه
الطاغيه اعلمي انني ساعذبك عذابا شديدا
واقطع لحمك واخرج امعاك وامرح راسك

واقل ابنيتك حتي انظر هل يا بني ذلك الناصري
فخلصك من يدي واذا جد ابنتينها وهي الصغيره
منهما وكانت ابنه اثنى عشر سنه اقتربت
اليه وهي مغضبه وملت فاها بصاقا ثم
بصقت عليه حتي ملات وجهه اللعين الفاسق
فلما راي ذلك الذين كانوا حوله يحملون
السيوف المسلوله الذين يقال لهم السيافين
غضبوا غضبا شديدا وضربوا اعناق ابنتي
القديسه وان الملك اللعين امر بعض
من كان حوله من الرجال ان يجمع الرم
بكفيه ويسقيه لامهما ففعل ذلك فلما ذاقت
الرم قالت اشكرك ايها المسيح ابن الله
لانك وهبت لامتك ان تذوق دم ابنتيها

اذ هو قربان ذبيحه الشهاده عند ذلك
امر الملك اللعين بضرب عنق القريسيه فتمت
شهاده القريسيا على هذه الصوره واذ الملك
قال لعظمايه وروسا قومه اني لواجد في
نفسي حزنًا شديدًا وحلف لخاصته واحبابه
وقال لهم لقد حزنت على هذه الامراه وعلى
ابنتيها حزنًا شديدًا لانني لم اري فيما رايت
على صورتهن وجمالهن ومن اين وقع في
النصاري مثلها ولاد واني لاعجب كيف
يضلون في انسان مات موته سو وسمي
نفسه الاها ولما كان العزا مر اللعين
ان يوتي بالحارث القديس مع من كان معه محبوس
وكان عددهم ثلثمايه رجل واربعين رجل ثم

قال لك اقول ايها الحارث الخبيث المعتوه
ايام السو القديمه لاي شي لم تشبه اباك
الذي كان رئيس هذه المدينه والكور
التي حولها وكان له منزله عند كل من كان
قبلي من الملوك لنصحه وصدقه وحرصه علي
ما الغد رضا بهم غير انك هممت بالنفاق
وظننت في نفسك انك تكون ملك هذه
المدينه وما حولها ورجاول فهو بانسان
مات موته سو وهو الذي سمي نفسه الاها
وقد رجون انتان نقلت من يدي فالان
فاشفق علي نفسك وعلي كبر سنك واحفظ
نسبابك ولن يشيحا كريما واجبى نفسيك
ومن كان معك ماخوذا ومغلولا فامال

تكفر بالذي يقال له المسيح والا فانت
تموت موتا سيئا كنحو من مات من النسا
اللاتي سيقتلك لانه لا يستطيع ابن مريم
ويوسف ان يخلص كل من قتلته انا في مدينتك
هذه وفيما يلي ارض تيما ولا يقدر ان ينجيكم
من يدي عند ذلك اجابه الحارث الكريم
بالحق وقال انني لفي حزن شديد من النصاري
المقتولين كلهم وايضا من اجل النصاري
الذين في هذه المدينه لانني قد كنت قلت لهم
وحرضتهم كم من مره وامرتهم ان لا يفتحوا
لك ابواب المدينه فلم يطيعوني واشرت
عليهم ايضا ان نخرج اليك فنقاتلك دون
شعب المسيح فلم يرضون بذلك وانا كنت

واثق ومتوكل علي المسيح اننا نغلبك ونقتلك

انت ومن معك ولو كان معك الوف كثيره

حسبما قيل عن جدعون الذي قاتل ثلثمايه

رجل فغلب بعون المسيح معه اذ هوي المسيح

ورضاه يكون فينا وهذه مايه الف خمسه

وثلثين الف انت الينا من اجل خطايانا ولزللك

فعل بنا ما تري واسلمنا في يديك وانت لم

تاتي بصدق قط علي فمك فقال له جلسنا

الملك اهكذا يعلمك كتاب النصاري ان

تجاوب الملك اما تعلم ان ملوك اليهود

مسحا الرب فاجابه الشيخ القديس وقال

له زد في قولك قول ايليا النبي حيث

قال له اخاب ملك بني اسرايل انت

وحدك تفسد اسرايل فاجابه

عند ذلك ايليا س النبي وقال له بل انت
المفسد واهل بيت ابيك المفسدين لتعلم
انه ليس يخطي من وبخ ملكا حين يكفر
ويتبع غير الناموس فكيف لم يستحي هذا ان
يقول لي الكفر بالمسيح كلمه الله التي بها خلق
كل شي في السما وفي الارض وبها خلق الخلايق
كلها ما يرى وما لا يرى وهو الذي نظر الي
خلقه محبوسا في فخ الشيطان فلم يدعهم
ولكن جعل لهم ناموسا ووصايا لينادب
الناس بترك المعصيه والاخذ بالطاعه
كما ان بني اسرايل لما عملوا من الشر ما عملوا
ادبوا عليه ثم رحمهم الله ايضا عند ما ردهم
من بابل وان الخلق الذي خلق الله علي

صورته ونحتال تهنك حين رفض بوصايا
الله ومن اجل ذلك المسيح الاهنا نازل
فاتخذ الوافع وطلب الخطيه في الجسد الذي
اتخذ لنفسه فصار ذبيحه لله الاب بالجسد
الماخوذ منا ومن جميع الناس فكيف الكفر بالذي
صنع هذا الخير كله معنا وخلص جميعنا ولكني
لا احيا في هذه الدنيا ساعه واحده حتي لا
تبقي في حياتي وتريد انت ان تغريني من
ملكوت السماوات ايها الملك الكاذب الضعيف
الذي حلفت لنا واعطيتنا عهودا ثم لم تفي
لنا بعهدك ولا بما حلفت به ولقد رايت انا
ملوكا في الهند وفي الحبشه وفي هذه الارض
ولم ارى مثل هذا الذي رايته منك لان اوليك

كان عهدهم صادق وان في العالم الامم
والقبايل وجميع الجنود يخضعون لهم
بطاعه الله الذي جعلهم على الكون وانا اقول
لك ايها الملك اعلم علما يقينيا انني لا اتبع رايك
اذا انت مجدفا على الاله رب المجد العزيز
العظيم وان لي السلطان على نفسي ولست
ازول عن الاعتراف بالله وبالحق الطوباني
لانني في كبرشني وشيخوختي وانا ابن خمسه
وسبعين سنه فقد جعلني للمسيح الاهي
اهلاً ان اموت من اجل اسمه المقدس والان
عرفت ان الله يحبني ولقد كانت ايام حياتي
كثيره في هذه الدنيا وكان لي فيها اولاداً ورايت
للاولاد اربعه قرون ولقد حضرت معاركات

كثيره مختلفه ونسلمي المسيح ربي وانا افرح

ايها الملك ان كبري تكمل في شهادته مع

شهاده هولاء القديسين وانا ارجو من

ربي المسيح الذي اهلني ان اموت على اسمه

ان لا ينقص اسمي وذكري من هذه المدينه

وانا اصدق انه كما ان شجره الكرم اذا نصبت

في ايانها تطعم ثمرا كثيرا ولذلك سيكثر

في هذه المدينه النصاري وفي جميع ارض

سبا وانا اقول لك ايها الملك والله يشهد

لي انه ستعمر هذه الكنيسه الذي احرقتها

انت واعلم ان الله سيقيم في هذه الارض

ملك النصاري ويفسد ملكك ويبيدك

ويبطل دعوتك وتقع سريعا ثم ان الحارث

القديس لفت الى القديسين الشهدا الذين
كانو معه وصاح اليهم بصوت عالي وقال
لهم قد سمعتم يا اخوتي ماذا كلمني به
هذا الفاجر الظالم فاجابوه وقالوا نعم
يا ابانا الكريم قد سمعنا ثم قال لهم كيف
ترون الشهاده هل فيكم احدا خايفا
جزعًا من شر هذا الملك الملعون فليعتزل
عنا فقالوا له القديسين جميعنا لنا يقين
بالله فنقوي يا ابانا بانا في هذه الشهاده
جميعًا نموت معك على اسم المسيح وليس
احد منا يفارقك عند ذلك قال الحارث
القديس اسمعوا مني يا معشر النصارى
واليهود والحنفا من كان من اهل شبا

ونجران وغيرهم ان من سبيل عن الامانه
فكفر بالمسيح الذي يدين الاحيا والاموات
فهو يكفر به ولا يكون له معه نصيب يوم
القيامه وقد احببت ان اجعل وصيتي
وتكون فيها وراثه من مالي الكنيسه المقدسه
الذي ستبني بعدي فان ينفي احد من اولادي
وانسباي وتمسك بهذه الامانه فيكون
لي وارثا وليكن افضل ما املك من الميراث
ثلثه للكنيسه ثم ان الشيخ المومن بالمسيح
قال للملك الكافر الملعون اعلم انني قد
مدحتك في خصله واحده فقط وهو لانك
حفظت القديم من السنه المعروفه التي
هي للملوك والعظما لانك صبرت ولم تقطع

كلامي مع انك قد سمعت كل شي تكلمت به
فلا تسالني ايضًا فقد حضر الوقت فافعل
ما شيت ثم قال القديس من يكفر بهذه
الشهاده فسيكفر به الذي خلقه ويملك
من ارض الاحيا من ليس يستنقي فحرض
علي التقدم الي هذه الشهاده للدعوه
المقدسه ولا يعترف بان المسيح هو ابن
الله الحي وانه خالق كل شي يكون غريب
من الحياه المرتجاه ومن يكفر بصليب
المسيح يقع من الحزن الذي يرتجا ثم
قال للملك ايضًا من كان علي هواك
وعلى ما اليهود عليه فليكن بمنزله
داتان وابيروم وبني قورح الذين

فتحت الارض فاها وابتلعتهم وكانني قد

كنت المبدي والمقدم في اخوتي وبني عمي

هاولاء المكرمين وكنت الاول في تناول

كاس الشراب كذلك اكون اوهم ايضا في

اخذ كاس الشهاده لاشربه قبلهم ثم انه

ختم علي الشعب الذي كان معه بخاتم الصليب

وتسميته الاب والابن والروح القدس ثم صنع

كل واحد من اوليك الشهدا علي ذاته كذلك

صليبا بالايما والاشاره لانهم كانو مكتفين

الايدي الي وري حسب ايعاز الملك الكافر

وكانوا يصلون الي الرب قايلين اللهم اقبل

انفس عبيدك مثل القربان المقدس ودمانا

مثل ذبيحه التسبيح ثم صاح الشهدا الي الحارث

قايلين يا ابانا الكريم ان ريس لابا ابرهيم
بنتظرك فلاكان لنا ان نعيش بعزك
ولما ان راي الملك الكافرانه لايقدر ان
يرجعهم عن الامانه بالمسيح امر ان يذهب
بهم الي الحفره التي في الوادي التي ضرب
فيها اعناق القديسين وان تضرب رقابهم
هنالك ليكون اجسادهم ماكله للسباع
والطيور حسب مقال النبي ولما بلغ الشهدا
الي المكان الذي ارسلوا اليه وقفوا عنده
ورفعوا اعينهم مع هوايهم الي الله وصرخوا
بصوت عالي وقالوا يا يسوع المسيح احضر
لمعونتنا وليكن هذا الدم المهراق من عبيدك
علي اسمك عفوا ورحمة للذين يقتلون من اجل

اسمك من هذا الملك الكافر وغيره يا ايسوع
المسيح قدامنا بك واعترفنا باسمك قدام
الناس فورثنا ملكوتك يا ايسوع المسيح ارحم
وخلص واحفظ جميع شعب المسيحيين وعظم
شان الكنيسه وقوي الملوك المومنين وانصرهم
وادفع هذا الملك اليهودي الكافر الي ايديهم
ليفعلون به مسرتك يا ايسوع المسيح احفظ
جميع المسيحيين في ساير اقطار الارض
واهلك هذا الكافر واهدم قوته كما صنعت
بفرعون وعماليق وسيحون وعوج واجعلنا
اهلاً ان ننظر الي عزك وان نبشر من ملايكتك
القديسين بوقعه هذا الكافر التي تكون
سريعاً واهلك يا رب كبرا اليهود وعباد الاوثان

ولما فرغوا من صلاتهم ودعاهم صاح كل
واحد منهم الي صاحبه قابلين ببكاء الكم السلام
يا اخوه عند ذلك قال الحارث القديس السلام
الذي وهبه الرب للملايكه يكون مع كافتنا
يا اخوه امين ثم طاطي راسه وسجد وكذلك
جماعه الشهدا وان اربعه من الشهدا حاضروا
باسراع نحو القديس الحارث وقبلوا صدره
ثم رفعوا ايديه علي ايديهم كما صنع هرون
وهور بموسي في الجبل وللوقت تقدم رجل
من الجند وضرب عنق الحارث القديس عند
ذلك اخذ اوليك القديسين من دم الحارث
ولمسحوا به وصنعوا منه صلبانا علي اعينهم
وصدورهم فتعجب الذين وكلوا بهم من هذا

الامر وعند ذلك جماعة الشهدا مذ وا رقابهم
فضربت بالسيف اعناقهم وان امراه من المدينه
كان لها ابنا عمره اربعه سنين هذه كانت
واقفه تنظر الى صبر الشهدا وكيف تلطخوا من
دم الحارث القديس طلباً للتبرك منه فاخذت
هي ايضاً من دم القديس وتمسحت به ومسحت
على وجه ابنها وصاحت يا علي صوتها قايله
ليكون لملك اليهود ما كان لفرعون وجنوده
فقبض عليها الجند واحضروها قدام الملك
ووصفوا له ما صار منها فامر ان تحفر حفره ويجعل
فيها حطباً وزفتاً ونوقد بالنار وتلقي فيها تلك
الامراه ولما تسلم الجند الامراه ليربطوها نظر
ابنها الى الملك وهو جالس على مكان عالي فاسرع

نحوه ويدي يمسك رجليه ويقبلهم وان
الملك بسط يديه واخذ الصبي اليه ووضعه
علي ركبه وبدي يكلمه برفق وتلطف قايلاً
ايما احب اليك الذهاب مع امك او المقام عندي
وتكون لي ولداً فقال له الصبي الذهاب مع
امي احب الي من المقام عندك لان امي
قالت لي اذهب بنا يا ابني لنستشهد كما استشهد
غيرنا فقلت لها وما هي الشهاده يا ام فقالت
لي ان الشهاده هي الموت من اجل الله ثم الحياه
الدايمه بعد الموت ثم ان الصبي قال للملك
اطلقني اذهب الي امي فهو ذا اراها تربط وجعل
يصيح يا امي يا امي وكانت هي تجاوبه قايله يا
ولدي قد اسود عنك الي الله تعالي وهو قادر

ان نجمع بيني وبينك في ملكوته عند ذلك قال
الملك للصبي اتعرف الذي يقال له المسيح فقال
له الصبي نعم فقال له الملك ومن اين تعرفه فقال
له الصبي في كل يوم كنت اراه في الكنيسة عندما
كنت امضي مع امي لانه هناك مصورًا وان
شئت ان تراه فهلم معي لاريك اياه فقال له
الملك من احب اليك انا او الذي يقال له المسيح
فقال له الصبي المسيح احب الي منك لان المسيح
نحن نعبده فاتركني اذهب الى امي فقال له
الملك فلم تركت امك وجيت الي وقبلت رجلي
فقال له الصبي كنت اظن انك ملكًا مسيحيًا
وانك بتقبيلي قدميك تامر باطلاق امي فقال
له الملك انا يهودي انا وان اخترت المقام

عندي فسوف اطعمك الجوز واللوز والفواكه
الطيبه فقال له الصبي لا بل اتركني اذهب
الي امي لانني لستُ اخذ منك شيئاً فقال الملك
لجلسايه وعظمايه الا ترون الي هذا العرق
الشو كيف تجاوب بعقل شديد وكلام مستقيم
وان واحداً من جلسا الملك قال للصبي تعال
معي يا صبي حتى اذهب بك الي الملكه زوجه
سيدي الملك فلم يجاوبه الطفل بشي بل كان
نظره ممتد نحو امه متاملاً اياها كيف ربطت
والقيت في النار وصار يبكي ويقول اريد امي
ويريد ينقلب في يدي الملك ويتفلت ويطلب
القيام فكان الملك يمنعه من ذلك وان الصبي
غضب لان الملك منعه الذهاب الي امه فالتجي

وقبض علي فخذ الملك وعضه باسنانه واذا
اوجعت الملك العضه رفعه عن ركبتيه وسلمه
الي بعض قواده وقال له خذ هذا الصبي وربيه
التربيه الواجبه وعلمه الكتب اليهوديه والزمه
بالتحفظ الناموسي فمد ذلك الرجل يده وتسلمه
من الملك ومضي به ليوديه الي منزله وفي حال
توجهه صادف بعض اصحابه فوقفا وابتدي
القايد الذي تسلم الصبي يصف لصاحبه ما قاله
الصبي وما جاوب به للملك وكيف عض فخذ الملك
وكان وقوفهم غير بعيد من الحفره التي طرحت
فيها ام الصبي وان الصبي انفلت من يد القايد
علي غفله وحاضر نحو الحفره جريا والقي نفسه
علي امه في النار ومات مع امه شهيدا وكذلك

احضروا الي الملك امراه اخرى مسيحيه
فامران تطرح في النار ايضاً وكان في حضنها
طفلاً يرضع عمره تسعه اشهر ولما قربت من
النار ورات هولها تحركت احشاها بالحنو
علي ولدها وضمت الطفل اليها وبكت بحرقه
وقالت انني لارحمك يا ولدي ولا انطاوعني
الطبيعه ان القيك معي في حر هذه النار ففتح
الله فم الطفل الرضيع وقوي الله نطقه ووهب
له القدره علي الكلام فقال لامه امضي بنا يا ام
الي هذه النار فلا نار بعدها ولما سمعت الام
هذا الخطاب من طفلها الرضيع بحنان الله
وتقوي قلبها ورشمت علي وجهها ووجه ولدها
علامه الصليب وذكرت اسم الاب والابن والروح

القرش والفت نفسها وطفلها في حضنها في تلك
النار وهكذا تسلمت اكليل الشهاده ولما راي هذه
الامور جلسا الملك وعظمايه اقبلوا ابيسا لوا
الملك ويرغبون اليه ان يرفع القتل فيما بعد عن
الذين تبقوا فاجاب سوالهم وانكف عن شر ذلك
في ذلك الوقت ولما كان بعد ايام ابتدي
الفاجر ان يحرك ايضا شره وامر ان يجمع كافه
اولاد النصاري الاشراف منهم والادنيا ومن
كان من اهل المدينه ومن الكور والمزارع من
ابنا خمسه سنين وطالع الي ابنا خمسه عشر
سنه من الذكور والاناث ولما جمعوا وتم
ذلك احصيوا فكان عددهم الف ومايتين
وتسعه وسبعين نفسًا عند ذلك امر ان

بوزعوا على عظايه واعوانه الذين عاضدوه
على هلاك المسيحيين فاستعبدهم اوليك
واسروهم وصار الاحرار في الامانه تسل
ابراهيم عبيد النبي الخطيه وحدام المحال فما
اعظم امهالك يارب وطول اناتك والمحل ما
اراد من قتل المسيحيين واسرهم وخراب
مدينه نجران وهذه بيعها عاد الي مدينه ملكه
بعظمه وكبريا وتيه وخيلا وعند ذلك ظهر في
السما نار الي جانب الثريا وكانت تملي جهات
السما مفزعه تهول الناظر ولبثت تشاهد
اربعين يوما من العشا الي نصف الليل وفي
النهار كانت تصير سحابه مظلله وصار على
الارض غبره ودخان سحر وسمع من تلك

النار اصوات تنادي قايله يانجران المزنيه
الارضيه التي لها شرف السما لانها مترتبه
لكواكبها الذين هم الشهدا المعترفون بالشهاده
الصالحه يانجران المحاربه من ركون الظلمه
ومن شياطين الهوا . والقاليه بصاف
جنود الشهدا الذين برزوا لاستقبال الرب
نجران تشبه صهيون التي هي الجبال فاما
انت فان الشعب الذي فيك والشهدا هم جبالك
والرب يحفظك الي الابد يا نجران صهيون الثانيه
الذي ابرزت المبشرين بكلمه الله الذين صبروا
علي الموت من اجل اسمه بالواجب سميت نجران
التي تاويلها الرعده في اللغه العبرانيه
لان ذكر شهاده شهدايك ترتعد كالرعد

في سايرا الاقطار نجران دعيت لانك
اقمت دعايمك وابوابك الوثاق وعلاماتك
البينه الذين هم الشهدا المعترفين الذين لم
يطلبهم المصارع الطالب اياهم بالكفر والاثم
والباطل يانجران المدينه النابعه المياه
المختلفه الجيده المتكمله التي رات الموت زيكا
قدام سيدها ولذلك شهداها احيا الي الابد
ودعيوا احيا لانهم بالتعليم المعظم قاوموا
الكفر وبالشهاده والاعتراف نالوا الاكاليل
يانجران نحرايك نحزن ملوك الارض وبتجريدك
يفرح جنود السما هره الاصوات سمعت
ابانا ما عديده واما الملك الكافر المنافق
فكان يتذكر ما صنعه باهل نجران ويضيفه

ويكرره ويفتخر به ويتهلل فرحاً اذا اجري

ذكره ثم لم تقنع بشره الاول بل اضاف

اليه زياده رديه وذلك انه كتب الي ملك

الفرنس كتباً يصف له فيها ما صنعه بالمسيحيين

الذين في ارضه ويساله ان يقتل ايضا كل

الذين في ارضه من اصحاب هذا المعتقد اعني

المسيحي وحمله علي مثل ذلك بخدايع اعتمدها

اذ قال له ان الشمس ترضي بذلك ولبنا ايضا

الي مقدم الحرب الذين بارض الفرس كتبه

علي مثل ذلك ووعده ثلاثه الاف دينار يبعثها

اليه ولما توجه الرسل ووصلوا الي حيث

ارسلوا كان من تدبير الله وعنايته المهتمه

بالكل ان بوسنبيا نوس الملك المومن المحب

المسيح بعث الي مقدم العرب المذكور
المقيم بارض الفرس رسولا وكان رجل
قسيس عابد لله اسمه ابرهيم يدعوه الي
مصالحه العرب الذين في ارض الروم الداخلين
تحت سلطان الملك يوستنيانوس فاتفق
ورود كتاب اليهودي ملك سبا بما تقدم
ذكره وابرهيم هذا حاضرا فقري بمسمعه
وكان هناك ايضا رسول ملك الفرس
ورسول ملك العراق وكان فيهم من النصارى
المسيحيين الحسني العباده سمعان القسيس
ويوحنا الشماس ويوحنا هذا فكان ابن
وريد ان القومس وايوب ايضا كان حاضرا
وكان هنا لك من المخالفين الطرانقد اسقفا

بسمي اكيلا ومعه خمسين رجلا قد حضروا
ليحاذلوا من كان حاضرا من النصارى الحسني
العبادة وقصدهم بذلك التوصل الى قلوب
الحنفا واليهود ولما سمعوا ها ولا ما ذكره
ملك سبا تضرعوا الى مقدم العرب ان يقبل
ما طلبه ملك سبا منه وقالوا ان نحن قد علمنا
ايضا ان اليهود ما صلبوا الا انسانا ساذجا
وليس بالاه هذا سمعنا من معلمينا وشيوخنا
ان المصلوب كان انسانا ضعيفا ولم يكن الها
وبدوا يتهزون ويقولون كيف يمكن امراه ان تلد
الاها وكيف يليق ان يوصف الاله بالجوع
والعطش والخوف والاعيا والموت هذه
ونظايرها قال اوليك الهراطقه واما ابراهيم

ويوحنا والذين كانوا هناك من المسيحيين المحقين
لما راوا ذلك شققوا ثيابهم ونثروا التراب على
روسهم وقالوا معاذ الله ان يكون نعتقد
الروم كما يقول هولا الهراتقه لكن نعتقد نحن
على تعليم القديسين الانبيا والرسل واما هولا
فتباع نسطور واريوس ولما فرغ ابراهيم ويوحنا
ومن معهم من الحوايج التي لهم عند النعمان ابن
المنذر مقدم العرب واخذوا جواب كتبهم
انصرفوا عايدين ودخلوا على يوسطنيانوس
ملك الروم واخبروه بكل شي كان وبالذي
سمعوا وعاينوا من فعل عدو الله صاحب
سبا واخبروه بالذي هو عليه من القوه ولما
سمع الملك ذلك اشتد عليه جدا ولست للوقت

نيموثاوس بطريرك الاسكندريه كتابا
عز اليه فيه ان يكتب الى الاسقفان ملك
بشه كتابا يحثه فيه على الخروج بجيوشه
صاحب سبا ليهلكه ويهلك جيوشه ثم كتب
ستبيانوس ايضا الى الاسقفان ملك الحبشه
با مضمونه هذا انه قد بلغنا ان المنافق
ي بارض سبا وجد منك خلوه فغار على
صاري الذين بارض سبا ونجران وما يلي ذلك
ناحيتي ارض الروم وارض الفرس وقتلهم
نهم لم يجحدوا المسيح ربنا واحرق نجران
د بيعه الصالحه وقتل من اقتدر عليه من
ملها وبلغنا ايضا انه كتب الى ملك الفرس
لي مقدم العرب ان يفعلا بالمسيحيين

الذين نحن ايتيهم كذلك وانا فعارف بمسيحيتك
المحققه وديانتك الصادقه ولذلك اسالك
وانا انشدك بالثالوث الاقدس ان تخرج مستنجدًا
معونه الله وصيانه ملايكته في البر والبحر
الى هذا الخبيث المنافق وتستاصله عن وجه
الارض وان انت تكاسلت عن ذلك فان
الاله السماوي سيحزن عليك وعلى ملككم ثم انني
حينيذ اخرج بجيوشي العظيمه وامر بارضك
اولا لانها هي الطريق اليه فتخرب بلادك الذاك
ثم اغزو ذلك الخبيث وبقوه السيد المسيح
انتصر عليه لان الله خذل فرعون الاول
وغرقه لانه كان يضطهد الاسرايليين وهذا
فرعون الثاني فسيخذله الرب ويبيده

ويسلمه الي بدي جيوشك وجيوشنا لانه سيتر
الي الفرس والاعراب ان يبطلا نشل فعله ويهلك
المسيحيين وهذا سيقع في الحفره التي حفر
ويرجع وجعته علي راسه لان الحكيم يقول ان
الله يخلص الصديقين من الموت ويحبس الكفار
ليوم العذاب كن معافا بالرب ولما وصلت الكتب
الي تيموثاوس بطريرك الاسكندريه وقراها
جمع كافه النصاري الذين بمدينه الاسكندريه
والرهبان الذين في البريه وعملوا صلاه وسهر
طول الليل في هيكل الرسول المعظم مرقس
ولما اصبح الصباح ودنت الساعه التي فيها
تقرب القرابين خدم البطريرك القداس الالهي
ونقرب كافه الكهنه والشعب من يده

ونتضرعوا الي الله ان يقبل وسايلهم في اباده
ملك سبا واخذ البطريرك جزوا من القربان
الذي قدمه ووضعه في انا من الفضه وبعث
به صحبه رسول من جهته كاهن فاضل الي
الاسقف ان ملك الحبشه وبعث اليه الكتاب
المسير من جهه ملك الروم اليه وكتاب من
جهته يتضمن وعظا ودعاو بركه تم يحثه فيه
علي الخروج الي محاربه المنافق اليهودي
ملك سبا ليقتله ويبيده ويستاصل ملكه
ويخرب ارضه وضاهي فيما فعله هذا البطريرك
لصاموييل العظيم في الانبيا اذ امر شاوول
باباده ملك عماليق وكل من بارضه ولما وصل
الرسل الي ملك الحبشه بكتب الملك والبطريرك

وجدوه قد تهيا لذلك من قبل حضورهم لان
واحدا من اهل نجران كان من انسبا الحارث
الفريس قد تر اير الملك المنافق ووصل الى
ارض الحبشه ووصف للملك النفا ان سابرنا
صار من ملك سبا وصار نبو فيتى الله انه دخل الى
ارض الحبشه في تلك السنه سفن تجار من الروم
والفرس والهند والجزاير عدتهم ستين سفينه
وكذلك من ايله خمسه عشر سفينه ومن
القلزم عشرين سفينه ومن بوطانس تسعه
سفن ومن برنيقيوس ثلثين سفينه ومن فاران
تسعه سفن هذه السفن كلها اجتمعوا في
مينا يقال له عبرا من كوره اذين فامر الملك
ان تجمع تلك الفنس ولا تمكن من السفر والرجوع

ثم عمرهو تسعين سفينه وبعث في البريه

خمسه عشر الف مقاتل من السودان وامرهم

ان يكمنوا في بعض الجبال بارض سبا الى ان

تحضر السفن ليكونوا هم في الجهه الشرقيه

والمقاتله الذين في الجهه الغربيه ويصير ملك

سبا اللعين لذلك في وسط العسكرين فيسهل

هلاكه وان اوليك السودان المسيرين في

البر لما ساروا خمسه عشر مرحله عازهم الما

فما بعد واقاموا تسعه ايام يكابدن العطش

اذ لم يجدوا ما فهلكوا عن اخرهم ولم يرجع

منهم احد يصف ما صار منهم البته ولما كان يوم العصره

عبا السفا الى جيوشه وعزم على الخروج

واعطاهم مالا يستعينون به على الحرب

ثم ان الملك اسرع محاضرا نحو الكنيسه التي فيها
يقبرون ملوك الحبشه ورويسا كهنتهم وقام في
الاسطوان الذي مقابل المذبح وخلع ثيابه
وحله ملكه ثم لبس مسحًا شعريًا ودخل الي المذبح
ونطق نفرون المذبح ورفع نظره الي السما وصلي
قايلا ايها الرب الخالق كلما يري وما لا يري لك
تسبح الالوف والربوات من الملايكه وروسا
الملايكه والشاروفيم والشارافيم لك يمجدون
ويقولون قدوس قدوس قدوس انت ايها الرب
الصباوت الاه الالهه ورب الارباب ملك الملوك
ابا ربنا ايسوع المسيح الابن النور الغالب التام
المخلص سررت بارسال ابنك وكلمتك المساوي
لك في الجوهر لكي يسترد الانسان الضال

الخروف الثانيه من عرد المايه وانك تنزل
من السما كما شا ولم يفارق السما وتجسد من
الروح القدس ومن مريم العذري وصار بشرا
وضنع خلاصًا لبني ادم وانارنا من الظلمه
لنعرفك ايها الاله ونمجدك مع ابيك وروح
قدسك انت يارب قويني وعاضدني على مناصبة
هذا العدو اللعين المفتري على اسمك الذي قتل
كهنتك وشعبك الطاهر وذبحهم مثل الغنم
فلا تخزيني من رجاي يارب ولا تهملني من
نصرك ليلا يقولون الامم اين هو الاههم وان
كانت كثره خطاياي تمنع قبول صلاتي فليكن
قبول صلاتي بوسايل شهدايك وعجيب دمهم
لانك مبارك الي الدهور امين حينيذ اخرج

جيشه وكان عدده ثلثه عشر الف مقاتل
وان الملك الشفا ان محب المسيح سمع عن راهب
صالح منقطع ببعض الجبال في صومعه فانطلق
اليه مع نفر يسير من اصحابه الي الجبل متنكراً
ووصل الي حيث الصومعه وكان طولها خمسه
عشر ذراع وعرضها ذراعين وليس لها باب
ولا كوه لكن ثقبا صغيرًا في اسفلها وكان
الراهب قايمًا علي رجليه داخل تلك الصومعه
مده خمسه واربعين سنه ولم يكن يري
احدًا ولا احد يراه فقال له الملك من تلك
النافذه الصغيره ايها الاب صلي علينا ليخلصنا
الله في طريقنا ويعيننا علي ما نحن قاصدينه
فقال له الراهب يكون الرب معك وهو

الذي ملك الملوك لكن انزع الغش لينزع
منك فقال له الملك ومن هم نحن ايها الاب
فقال له الرهب لاتعود تسالني شيا اخر
وكان الملك قد روي ان يعطيه تسعة اقراص
من البخور كان في كل قرص منها عشرة دنانير
حينئذ علم الملك ان الراهب اراد بالغش تلك
الدنانير التي في باطن اقراص البخور فقال الملك ايضا
للراهب ايها الاب بصلاة نيموناوس رييس الكهنه
ودموع يوستينيانوس ملك الروم ودم الشهدا
الذين ذبحوا من اجل اسم الرب ولما قال هذا ودعه
الملك وعاد الي مكانه ثم امر الناس ان يستصحبوا
معه زادا الكفايتهم عشرين ليله فقط وفي
ذلك الوقت اتصل به خبر الفرسان المبعوثين

صح علينا فقال له الراهب نحن الاب

منه في البر انهم قد هلكوا فعلم انه لا يستطيع
المقاتله في البر فدخل في السفن هو وجنوده
متوكلا على الرب وان اخبار وروده اتصلت
باليهودي اللعين ذونواز صاحب سبا فتحيل
تحيلة ظن انها تمنع وصول السفن اليه وذلك
انه صنع سلسلة من حديد تشتمل على خمسين
عروه وزن كل عروه مايه وثمانين رطلا
وجعل في كل عروه عمدا من خشب النخل ثم وضع
هذه السلسله في مكان من البحر يقال له
المضيق وهو متوسط في طريق البحر التي منها
يوتي من ارض الحبشه الى ارض سبا وثقل تلك
السلسله برصاص كثير وقصد بتعليق الاخشاب
في السلسله لتطفوا على وجه الما فتمنع من يقصد

العبور بالسفن من هناك وكان عرض المكان
ثلثه اميال ثم اقبل اليهودي اللعين بجيوشه
الى المكان الذي عرف ان سفن السفا ان ملك
الحبشه ترد اليه وان السفا ان ملك الحبشه
اقبل في السفن الحامله له ولجيوشه الى ان
دنوا من المضيق حيث السلسله ولم يعلموا
بشي من امر السلسله وان السفينه الاولى لما
قصرت العبور في المضيق بعث الله ريحا
عاصفًا فارتفع الموج لاجله وعبرت تلك
السفينه سالمه وكذلك تبعها تسعه سفن
اخر ولم تلامس السلسله شيا منهم لان الريح
بارتفاع الموج حملتهم وابعدت السلسله عنهم
ثم ان الريح لم يزل يقوي والموج يرتفع الى ان

تقطعت السلسله وبطلت حيله القبين ومكره

تعبرا ايضا في ذلك المضيق عشره سفن اخر

وصاروا عشرين سفينه اتو وارسوا حيث

معسكر ملك اليهود الرشيح ليس بينهم وبينه

سوي خمسه وعشرين ميلا فبعث اليهم ثلثين

الف مقاتلا لابسين السلاح راكبين الخيل

متدرعين الحرب لا يبصر منهم سوى الاحداق

وامرهم ان يربطوا خيولهم في الما الي ركبها

ففعلوا كذلك ولما راوهم الحبشه الذين في السفن

تخوفوا وان الريح قوي على السفن بمعونه الله

وابعدها عن الجند ثلاثه اميال اخر الي الوري

وبعد ثلاثه ايام اقبل ايضا اربعين سفينه

اخري وارسوا قريبا من عسكر العدو ولبس

بينهم سوى ثلثه مراحل ويكث ملك الحبشه
في عشرين سفينه اخرى في مكان اخر واما
الحبيث ملك اليهود فانه كان قرنوهم ان ملك
الحبشه في الاربعين سفينه التي اقبلت بعد
العشرين الاولى فاخذ جيوشه التي تبقت
وانطلق الى حيث الاربعين سفينه ووقف
هناك وبعث الى السفن الاخر مقاتله وصار
مقابل كل سفينه عده وافره من الجند راكبين
على خيولهم وتلك الخيول داخله في الما الى ركبها
لكي تمنع من يقصد ان يطلع الى البر واذ مكثوا
على هذه الحال حصل كلي الفريقين في التعب
والضر الشديد اما عسكر اليهود الذين
في البر فتاذوا من شده حر الشمس واما عسكر

الجيش المقيمين في السفن فتزايد بهم الضر
لشده الجوع والعطش الا ان الخبيث اللعين
الملك اليهودي لما راي شده باذي عسكره
باشعه الشمس عمل مظالا ورفعها علي رماح
وكانت الجمال تحملها وصارت الظلال للفرسان
والخيل التي لجيشه فلما راي الحبشه ذلك
داخل السفن صغرت نفوسهم وتخوفوا ان
يخرجوا من السفن الي القتال وان ملك سبا
بعث ايضا نسيبا من اقاربه معه عشرين
الف من جيشه الي العشرين سفينه التي
كانت في ناحيه من الساحل وكان فيها ملك
الحبشه وان بعض الخصيان الخواص من خدام
ملك اليهود اعتقد ان نسيب الملك ذهب مع

اوليك الجند ليعرض الخيل فاتبعه واخذ معه

خمسة جامات مفضضه بالياقوت والزمرد

وحملهم بغلفهم الي ان بلغ قريبا من السفن

فوجد الجيش مستعدين ايضا فوقف نسيب

الملك بحزي السفن بخيله وجنوده ثم انعزل

هو والحصي وثلثه من غلمانه الي باطن الجبل

الزي كان يليهم وكان قوم من غلمان ملك

الحبشه قد خرجوا الي البر في قارب صغير

من شده الجوع والعطش ليلتمسوا ما ياكلوه

فتوافقوا هم ونسيب الملك في باطن ذلك

فاخذوه اسيرا والذين صحبته قتلوهم وحملوا

نسيب الملك في القارب الزي خرجوا فيه

الي البر ودخلوا به الي ملك الحبشه الى السفينه

فساله الملك عن كلما اراده واما اولئك الخماس

الخمس فان الملك لما راهم ارصدهم نذر الله ثم

بادر السفاان ملك الحبشه وخرج من السفر

هو وجنوده وصاروا في البر وتوافقوا هم

وذلك الحبيش الزي كان نسيب الملك زعيمه

فنصر الله عبده السفاان ملك الحبشه علي اولئك

الكفار اعدي الله فقتلهم حتي لم يبق منهم احدا

وان ملك سبا بلغه ان نسيبه قد اخذ وجيشه

قد قتل فجزع لذلك وان السفاان اخذ نسيب

الملك مربوطا حتي انطلق به في طريق اخري حتي

انتهوا الي مدينه الملك اللعين التي تدعي طافورن

وانه استحوذ عليها وسباها واخذ نسا

اللعين وانسباه وصاروا يدلوه علي شي شي

الى ان اشتنا ظل كل اموالهم واما الذين
كانوا في السفن الاخر فانهم لشدة الجوع
والعطش منهم خمس ماية رجل ولم يعلموا بما مات
ذا فعل ملكهم ايضًا ولذلك تشاوروا الرئيسيا
الذين فيهم وقالوا فيما بينهم نحن ليس نستطيع
ان نرجع الى ارضنا وها هنا قد هلكنا بالجوع
والعطش ولسنا نعرف ماذا صنع ملكنا
وان نحن لم نقاتل ومتنا من الجوع والعطش
فنصير المسيحيين ضحكة لليهود لكن هلموا
بنا ندعوا الى ربنا ان يعيننا في القتال وينصرنا
على هاولاء الكفار ثم انهم جمعوا سفنهم
والصقوها بعضها الى بعض وربطوها بالحبال
والمجاذيف والعيدان التي فيها باسرها الى

ان صار الجميع مثل مدينه ذات اسوار حصينه
ولم يكونوا ايضا عني السفن يتحركو لشده
ارتباط بعضهم ببعض ثم ظللوا غليهم بالقلوع
ثم اخذوا الشخاتير فالصقوها الي بعضها
بعض وجعلوها صفا واحدًا وصارت مثل
الحايط بينهم وبين العدو ثم صلوا الي الله
وتضرعوا اليه وذبحوا الذبحه التي لادم
لها وتقربوا جسد المسيح ونزلوا من السفن
الي الشخاتير وصاروا النوابته من بين ايديهم
يدفعوا الشخاتير وهي مثل الحايط بين الحبشه
والمنافقين واما الملك اليهودي فانه من قبل
ذلك بيومين سمع ان الاسقفان ملك الحبشه
قد دخل مدينته وحاز الاهل والاموال فخشي

ان يعرف اصحابه وانسباوه بما قد صار فيسلموه
الي اعدايه او يفروا وكان معه نشعه من
اقربايه فامر ان يربط كل منهم بسلسله ليلا
يهرب وربط هو ايضًا ذاته بسلاسل وكان
هو واوليك النشعه اقاربه جلوسًا في
مكان علي هيه للاصطوان علي كراسي من
الذهب وان جنوده المقاتلين جعلوا يطعنوا
السحاتير برماحهم لكي ينقبوها فضاق الامر
بالحبشه لاجل ما البحر فبكوا وصاحوا الي
الاله العلي الضابط الكل بصوت علي منتصر عين
نجاهم صوت من السما سمعوه باسرهم اعني
كلي الفريقين والصوت فكان هلذا غفريل
غفريل والوقت خرج راهب حبشي معه

عصاه من الحديد في راسها صليب وفي من
اسفلها شبه سنان الرمح فطلع من بين شجر
وتناول ذنب فرس من عسكر اليهودي بيده
اليسري وضربه بالعصاه التي في يده فبعج
بطنه بالسنان الذي في اخرها واظهر السنان
من الجهه الاخري فسقط الفرس للوقت
وانصرع فارسه ففزع هذا المنظر كافه
عسكر اليهودي وفروا هاربين منهزمين
وتبعهم اوايل الحبشه وقتلوهم عن اخرهم
وانتهوا الي حيث الملك جالسا فوجدوه هو
وانسبايه وهم مربطين بالسلاسل فاخذوهم
وكان في ذلك اليوم نصرا عظيما من الله وان
الشفا ان ملك الحبشه اتصل به ذلك فبادر

مسرعًا واخذ الملك اليهودي المارق واقاربه
السبعه وابنى في ذلك المكان مذبحًا وذبح
فيه ذلك الخبيث النجس اعني ملك اليهود
وكذلك صنع باقاربه وقربهم دماهم لله
انتقامًا عن دمًا المسيحيين حسب مقال
النبي القايل يفرح الصديق بالنقمه ويغسل
يديه بدم الخاطي ثم اخذ بقيه اصحابه وعساكره
الى مدينه سبا فاخربها واحرقها بالنار
وقتل كل من فيها من الناس والبهايم وساير
ما وجده في بلاط الملك ارصده وقفًا لله
تعالى ولبيوته وان الذين نجوا من القتل من
اهل مدينه سبا استغاثوا بالملك وتنصروا
وان السفا ان ملك الحبشه ابندى

حفر بيرم في الارض عند بلاط الملك سنين
يوماً ثم انه اسس فيه كنيسه لله تعالى
وبعث الي تيموثاوس بطريرك الاسكندريه
والي يوستينيانس الملك واعلمهم بالذي
كان من نصر الله وعونه وان تيموثاوس المبارك
بعث اسقفاً من جهته كان معروفاً بالبر
فصنع الشفا ان اسقفاً علي ارض سباكلها
وانه فرش الكنايس كلها التي بناها الملك
وعمد الذين بارض سبا باسم الاب والابن
والروح القدس ووضع في كل مدينه قسوس
وشمامسه ورهبان ثم انطلق السفاان
ملك الحبشه والاسقف ووصلوا الي نجران
المدينه فبناها الملك وجدد كنايسها وبني في

المكان الزي قتلوا فيه الشهدا كنيسه

وحصنها وصير ابن الحارث ريسًا على البلد

كله كما كان ابوه ووهب الملك لكنيسه

نجران خمسه مزارع من ارض المملكه وثلاثه

مزارع من مال الحارث القديس حسب الوصيه

التي كان اوصى عند قتله وشهادته ثم

انصرف الملك بفرح عظيم الي مدينته سبا

وجعل عليهم ملكًا رجلًا صالحًا وديعًا

نقي القلب طاهر السيره يسمي ابرهيم وجعل

معه الاسقف المزكور وعشره الاف

من نصاري الحبشه ثم انصرف السلطان

ملك الحبشه الي ارضه وملكه بغايه

الفرح والسرور من تلقا النصر الذي حصل

له وصنبه غنا كثير ولما انتى الي بلاده
واستقر في مملكته افكر في نفسه قايلاً
بماذا اكافي الرب عوض هذا الصنيع الذي صنع
بي الي الان ليس عندي ما اصنع سوي انني
اقرب له نفسي وجسدي والوقت ترك ملكه
وعزه وغناه وخرج في الليل وحده علي رجليه
الي ان انتهى الي دير كان في راس جبل وكان
في ذلك الجبل رهبان طيبين فرحل الملك الي
ذلك الدير في راس الجبل وصار صومعه
وسدها عليه وجعل علي نفسه انه لا يخرج
منها الي ان يموت فيها ولم ياخذ معه شيا
سوي مصاحفه الضروريه وكوز للما وقفه
وثيابه التي كان يلبسها علي جسده للرهبانيه

وكان طعامه كل ايام حياته شيا يسيرًا
من الخبز اليابس والملح الجريش وشرابه
الما فقط ولم يكلم في زهبا نبته علماني
ولا نظر الي وجه احد الي ان تنيح وكان
قد بعث تاجه الي بيت المقدس نذرًا لله
وهو الذي كان يلبسه علي راسه وكان
من الذهب مرصع بالياقوت والزمرد
وكتب الي يوحنا البطريرك ببيت
المقدس كتابا صحبه التاج بيساله ان
يعلق ذلك التاج علي باب المقبره مانحه
الحياه التي منها قام ربنا يسوع المسيح
ففعل البطريرك ذلك تذكارا دايمًا
لخادم الرب ومحبه السفا ازملك الحبشه

المناطق

شعوب وقبائل

الأعـــلام

ثبت المراجع

١ ـ أبو الفداء. تقويم البلدان.

٢ ـ الدينوري، أبو حنيفة. كتاب الأخبار الطوال.

٣ ـ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله. تاريخ، ليبزج ١٨٥٩.

٤ ـ البلاذري، أبو العباس احمد بن يحيى بن جابر، كتاب فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦.

٥ ـ الاصفهاني، أبو الفرج. كتاب الأغاني، بولاق ١٢٨٥هـ.

٦ ـ اليعقوبي، أبن واضح. تاريخ، ليدن ١٨٨٨.

٧ ـ القغى، احمد بن محمد. كتاب الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، بولاق ١٣١٥هـ.

٨ ـ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. الخطط الجزء الأول، القاهرة ١٣١٤هـ.

٩ ـ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. السلوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٤.

١٠ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. التاريخ، ليدن ١٨٧٩ ـ ١٨٨٩.

١١ ـ الفاكهي، محمد بن اسحاق. كتاب المنتقى في أخبار القرى، القاهرة ١٩٤٤.

12. Bartold V.V., O khristianstve v Turkestane v domongolskii period – ZVORAO, t.8, 1893.
13. Bartold V.V. Koran i more – Zapiski Kollegii vostokovedov..., t. I., L., 1925.
14. Bartold V.V., Museilima, IRAN, [L], 1925.
15. Bartold V.V., Islam – Sochinenie, t VI, M., 1966.
16. Beliaev E.A., Araby, Islam i Arabskii Khalifat v rannee srednevekove., M., 1966.
17. Berzina S. Ia., Meroe i Kitai v I-VIII vv – Meroe. Istoria, istoria kultury, iazyk drevrego Sudana, M., 1977.
18. Blok M., Apologia istorii ili remeslo istorika, M., 1973.
19. Bolotov V.V., Kistorii imperatora Iraklia, VV, t. XIV, 1907.
20. Bolotov V.V., Efiopskia istoriografia. Lektsii po istorii drevnei tserkvi, t. II, SPb, 1907.

21 . Beshem A., Chudo, kotorym byla India, M., 1977.
22 . Vasiliev A., Jitie sv, Grigentia, episkopa Omiritskogo —VV., t.XIV, 1907.
23 . Vestermann V., Istoria rabsta v Rimskoi imperii do Konstantina Velikogo — Vallon A., Istoria rabstva v antichnom mire, M. 1941.
24 . Geliodor, Efionika, M—L, 1936.
25 . Gornung M., Aksumskie monety — Soobshchenia Gosudarstvennogo Ermitaja, t.XXXVII, L., 1973.
26 . Gumilev L. H., Drevnie tiurki, M., 1967.
27 . Gumilev L. H., Poiski vymyshlennogo tsarstva, M., 1970.
28 . Guseinov P. A.,"Khronika" Mikhaila Siriitsa, PS, Vyp. 5 (68), 1960.
29 . [Destunis S.] Vizantiiskie istorikii... SPb., 1861.
30 . [Destunis S.] Prokopia Kesariiskogo istorii voin remlian s persami... t. I, SPb., 1876.
31 . [Destunis S.] Prokopia Kesariiskogo istoria voin remlian s persami... t.II, SPb., 1880.
32 . [Destunis S.] Prokopia Kesariiskogo istoria voin rimlian s vandalami, Kn. I, SPb, 1891.
33 . Diligenskii G.G. Severnia Afrika v IV—VI vv., M., 1961.
34 . Diakonov A.P., Ioann Efesskii i ego tserkovno — istoricheskie trudy, SPb., 1909.
35 . Diakonov A.P., Vizantiiskie dimy i faktsii v v —VII vv.— Vizantiiskii sbornik, M—L., 1945.
36 . Eremian S.T., "Ashkharatsuits" (armianskia geografia VII v.) VON AN Armianskii SSR. Yerevan, 1968, nö5.
37 . Julien Sh. — A., Istoria Severnoi Afriki, t.I, M., 1961.
38 . Julien Sh. — A., Istoria Severnoi Afriki, t.II, M., 1961.

٣٩ ـ ابن الأثير، على بن محمد. الكامل في التاريخ، الجزء الاول، القاهرة ١٣٨٦هـ.
٤٠ ـ ابن الأثير، على بن محمد. أسد الغابة، الجزء الثالث، القاهرة ١٢٨٦هـ.
٤١ ـ ابن تغرى بردى، أبو المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة، الجزء الأول القاهرة ١٩٢٩.
٤٢ ـ ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم. تاريخ الدول والملوك، الجزء السابع، بيروت ١٩٣٦.
٤٣ ـ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الثاني. بيروت ١٩٥٧.
٤٤ ـ ابن هشام. سيرة رسول الله. القاهرة ١٣٨٩هـ.

45 . Islandskie Sagi, M., 1967.
45a . Istoria Afriki. Khrestomatia, M., 1979.
46 . Istoria Vizantii, t. I, M., 1967.
47 . Istoria Indii v serednie veka, M., 1968.

٤٧ - ياقوت بن عبدالله الحموي. كتاب معجم البلدان، الجزء الرابع، ليبزج، ١٨٦٨.

48 . Kobishchanov Iu. M., "Armii" tsaria Ezany (perejitki voennoi demokratii v drevnem Aksume) – VDI, 1962, No. 1.
49 . Kobishchanov Iv. M., Skazanie o pokhode khadani Daniela (epicheskia nadpic po dnego Aksuma) – NAA, 1962, No 6.
50 . Kobishchanov Iu. M., Izbranie tsaria v drevnem Aksume – VDI, 1963, No. 4.
51 . Kobishchanov Iu. M., Zolotonosnia strana Sasu – PS, vyp. 11 (74), 1964.
52 . Kobishchanov Iu. M. K to ubil Zu-Nuvasa? VV, t.XXV, 1964.
53 . Kobishchanov Iu. M., U istokov efiopskoi literatury (aksumskia literatura) – Literatura stran Afriki, I., M., 1964.
53a . Kobishchanov Iu. M., Drevnii Aksum. Aksumskoe tsarstvo v period voznik-novenia i ratsveta (III–VIIvv.). Avtoreferat na soiskanie uchenoi stepeni kandidata istoricheskikh nauk, M., 1964.
54 . Kobishchanov Iu. M., Aksum, M., 1966.
55 . Kobishchanov Iu. M., Istochniki po istorii Aksuma–Nekotorye voprosy istorii stran Afriki, M., 1968.
56 . Kobishchanov Iu. M., Dokhody aksumskikh tsarei (k voprosu o sotsialno-ekonomicheskom stroe drevnikh afrikanskikh gosudarstr) – Sotsialnye struk-tury dokolonialnoi Afriki, M., 1970.
57 . Kobishchanov Iu. M., K voprosu o sotsialno-ekonomicheskikh otnosheniakh v srednevekovoi Nubii – Sotsialnye struktury dokolonialnoi Afriki, M., 1970.
58 . Kobishchanov Iu. M., Folklornye motivy v efiopskoi literature – Folklor i literatura narodov Afriki, M., 1970.
59 . Kobishchanov Iu. M., Sudan. Istoricheskii ocherk. S drevneishikh vremen do epokhi imperializma – Demokraticheskia Respublika Sudan (spravochnik), M., 1973.
59a . Kobishchanov Iu. M., "Poliudie" v tropicheskoi Afrike (k voprosu o formakh otchujdenia pribavchnogo produkta v rannefeodalnykh obshchestrakh) – NAA, 1972, No 4.
60 . Kobishchanov Iu. M., Prostranstvenno-vremennye struktury istorii Afriki – Afrika: vozniknovenie ostalosti i puti razvitia, M., 1974.
61 . Kobishchanov Iu. M., Afrikanskie feodalnye obshehestva: vosproizvodstvo i neravnomernost razvitia – Afrika: vozniknovenie ostalosti i puti razvitia, M., 1974.
62 . Kobishchanov Iu. M., Sistemy obshchinnogo tipa – Obshchina V Afrike, M., 1978.
63 . Kolesnikov A.I., Dve redaktsii pisma Mukhammeda sesanidskomy shakhu Khusrovu II Parvizu – PS, vyp. 17 (80), 1967.

64 . Kolesnikov A.I., Srajenie pri Zu-Kare – PS, vyp. 19 (82), 1968.
65 . Kolesnikov A. I., Iran v nachale VII v. PS, vyp. 22 (85), 1970.
66 . [Kondratiev S.P.], Psevdoarrian. Plavanie vokrug Eritreiskogo moria – VDI, 1940, No. 2.
67 . [Kondratiev S.P.], Prokopii iz Kesarii. Voina s gotami, M., 1950.
68 . [Kondratiev S.P.], Feofilakt Simokatta. Istoria, M., 1957.
69 . Krivov M.V., "Efiopia" v "Otkrovenii" Psevdo–Mefodia Patarskogo, – VV,t. 38, 1977.
70 . [Kubbel L.E and Matveev V.V.], Arabskie istochniki VII-X vv. po istorii i etnografii Afriki iujnee Sakhary. (podgotovka tekstov i perevod...], M.L., 1960.
71 . Levchenko M.V., Materialy dlia vnutrennei istorii Vostochnoi rimskoi imperii V-VIVV. – Vizantiiskii sbornik, M.-L., 1944.
72 . Levchenko M.V., Tserkovnye imushchestva V-VIII vv. Vostochnorimskoi imperii, – VV, t. 2 (27), 1949.
73 . Lipshits E.E., Pravo i sud v Vizantii v IV-VII vv, L., 1976.
74 . Lundin A.G., Iujnoarabskia istoricheskia nadpis VI v. iz Mariba – EV, vyp. IX, 1954.
75 . Lundin A.G., Iz istorii Aravii v nachale VI v– PS, vyp. 2 (64-65), 1956.
76 . Lundin A.G., K voprosu o Khronolagii khymiaritskikh nadpisei – PS, vyp. 3 (66), 1958.
77 . Lundin A.G., Iujnoarbskia stroitelnia nadpis nachala VIv. – EV, vyp. 13, 1960.
78 . Lundin A.G., Iujnia Aravia v VI v. – PS, vyp. 8 (71), 1961.
79 . Marr N. Ia., Znachenie vnor otkrytogo armianskogo teksta "Paralipomena" dlia voprosa o perevode sv. Pisania armianskii iazyk s siriiskogo – ZVORAO, t. XIV (1901), SPb., 1902.
80 . [Matveev V.V. and Kubbel L.E.], Arabskie Istochnika X-XII vv. po etnografii i istorii Afriki iujnee Sakhary (podgotovka tekstov i perevod V.V. Matveeva i L.E. Kubbela) M.–L. 1965.
80a . [Matveev V.V. and Kubbel L.E.], Arabskie istochnika XII-XIII vv. po etnografii i istorii Afriki iujnee Sakhary (podgotovka tekstov i perevod V.V. Matveeva i L.E. Kubbela). M.-L. 1985.
81 . Mednikov N.A., Palestina ot zavoevama ee arabami do Krestovykh pokhodov po arabskim istochnikam. Issledovanie I– PPS, t. XVII, vyp. 2, 1903.
82 . [Minaev I.P.], Kniga Marko Polo, M., 1956.
83 . Mikhalovskii K., Po-prejnomu li ostaetsia Zagadkoi "gruppa X"? – VDI, 1967, No. 2.
84 . Nadiradze L.I., K voprosu O rabstve v Aravii v VII v. – Voprosy istorii i literatury stran zarubejnogo Vostoka, M. 1960.
85 . [Obolenski V.I and Ternovskii F.A.), Letopis Vizantiitsa Feofana ot Diokletiana do tsarei Mikhaila i ego syna Feofilakta, M. 1884.
86 . Olderogge D.A., Zapadny Sudan v XV–XIX vv. Ooherki po istorii i istorii Kultury, M.L., 1960.
87 . Patkanov K. P., Anania Shirkatsi. Armianskia geografia VII v., SPb., 1877.
88 . Petrushevskii I.P., Islam v Irane v XII-XV vv., L., 1966.
89 - Pigulevskia N.V., Vizantia i Iran na rubeje VI-VII vv., L. 1946.

90 . Pigulevskia N.V., Vizantiiskia diplomatia i torgovlia shelko shelkom v V-VII vv. VV, t.1 (26), 1948, No 1.
91 . Pigulevskia N.V., Efiopia, Khymiar v ikh vzaimootnosheniakh s Vostochnorimskoi imperiei – VDI, 1948, No 1.
92 . Pigulevskia N.V., Pervoistochniki kushito- khymiariskikh voin – PS, vyp. 2 (64), 1949.
93 . Pigulevskia N.V., Zakony khymiaritov – PS, vyp. 3 (65), 1950.
94 . Pigulevskia N.V., Vizantia na putiakh v Indiu, L. 1951.
95 . Pigulevskia N.V., Kindity i Lakhmidy v V v. i nachale VI v. –PS, vyp. 9 (72), 1963.
96 . Pigulevskia N.V., Politika Vizantii na eritreiskom more – PS, vyp. 9 (72), 1963.
97 . Pigulevskia N.V., Araby u granits Vizantii i Irana v IV–VI vv. M.–L., 1964.

(راجع الترجمة العربية: نينافكتورفنا بيغوليفسكيا، (العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع إلى القرن السادس»، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٩٨٥).

98 . Pigulevskia N.V., Vizantia i Vostok – PS, vyp. 23 (86), 1971.
99 . Pigulevskia N.V., Blijny Vostok, Vizantia, slaviane, L., 1976.
100 . Piotrovskii M., Tema sudby v iujnoarabskom predanii ob As'ade al–Kamile, PS, vyp. 25 (88), 1973.
100a . Pirenne]., Otkrytie Aravii. Piat vekov Puteshestvii i issledovanii, M., 1970.
101 . Rozov A., Khristianskia Nubia, Kiev, 1890.
102 . [Rozov A.] Ioann Efesskii. Tserkovnia istoria – Prilojenie k kn. Khristianskia Nubia, Kiev, 1890.
103 . Senkovski O. I., Sobranie sochinenii, t, VII, SPb, 1859.
104 . Strabon. Geografia v 17 knigakh (Perevod, statia i kommentarii G.A. Stratanovskii), M., 1964.
105 . Suret-Canal]., Afrika zapadnia i tsentralnia. Geografia, tsivilizatsii, istoria, M., 1964.
106 . Turaev B.A., Issledovanie v oblasti agiologicheskikh istochnikov istorii Efiopii, SPb., 1902.
107 . Udaltsova Z.V., Polojenie rabov v Vizantii v VI v. – VV, t. 24, 1964.
108 . Udaltsova Z.V., Mirovozzrenie Prokonia Kesariiskogo – VV,t. 31, 1971.
109 . Udaltsova Z.V., Mirovozzrenie vizantiiskogo khronista Ioanna Malaly – VV, t. 32, 1971.
110 . Udaltsova Z.V., Stranichka i istorii vizantiiskogo kultury (Kosma Indikoplov i ego "Khristianskia Topografia") – VDI, 1977, No. 1.
111 . [Filishtinskii I. and Shidfar B.],Jizn i podvigi Antary. Sokrashchenny perevod s arabskogo, M., 1968.
112 . [Filishtinskii I. and Shidfar B.],Jizneopisanie Seifa, syna Zu-Iazana, M., 1975.
113 - [Filishtinskii I.], Arabskia poezia srednikh vekov. Sostavlenie, predslovie i primechania I. Filishtinskogo, M., 1975.

114 - Fikhman I.F., Egipet na rubeje dvukh epokh. Remeslenniki i remeslenny trud v IV-seredine VII vv., M., 1965.
115 - Fikhman I.F., K razvitiu patrotsiniev v vizantiiskom Egipte – VV, t.29, 1968.
116 - Fikhman I.F., Gorodskoe i imperatorskoe zemlevedenie v Oksirinikhe IV-VI vv., – PS, vyp. 23 (86), 1971.
117 . Fikhman I.F., Oksirinikh-gorod papirusov, M., 1976
118 . Khennig R., Nevidomye zemli, t. I-III, M., 1961-1962.
119 . Chekalova A.A., Konstantinopolskie argiropraty v epokhu Iustiniana – VV, t.34, 1973.
120 . Chechurov I.S., Feofan Ispovednik-kompiliator Prokopia – VV, t. 37, 1976.
121 . Chubinashvili G.N., Pamiatniki tipa Jvari, Tb., 1948.
122 . Chabinashvili G.N., K voprosu o nachalnykh formakh Khristianskogo khrama – VV, t. 33, 1972.
123 . Iakobson A.L., Armenia i Siria. Arkhitekturnye sopostavlenia –VV, t.37, 1976.
124. Abbeloos J.B., et Lamy Th. J. Gregorii Barhebraei Chronicon ecclesiasticum. T.I. Parisiis, 1872.
124a. Adams W.Y., The Vintage of Nubia — "Kush". Vol. XIV. Khartoum, 1966.
124б. Alcock A., Cyrus the Makaukas and Melkite Patriarch of Alexandria: Un trafiquant de chair blanche? — Mus. 1973, t. 86, Ne 1-2.
124в. Altheim F. und Stiehl R. Der Name Ezana.— Festschrift für Wilheim Eilers. Wiesbaden, 1968.
124г. Altheim F. und Stiehl R. Die Datierung des Königs Ezana von Aksum.— «Klio». 1961, Bd 39.
124д. Altheim F. und Stiehl R. Die Araber in der Alten Welt. Bd IV—V. B., 1964—1968.
125. Altheim F. und Stiehl R. Christentum am Roten Meer. B.—N. Y., 1971.
126. Amélineau E. Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte chrétienne aux IVe, Ve, VIe et VIIe siècles.—«Mémoires publiés par les membres de la Mission archéologique française au Caire». T. IV. P., 1888.
127. Amélineau E. Fragments coptes pour servir à l'histoire de la conquête de l'Egypte par les arabes.— JA. Sér. 8, t. 12, 1888.
128. Anfray F. La première campagne des fouilles à Matara.— AE. T. V, 1963.
129. Anfray F. et Annequin G. La seconde campagne des fouilles à Matara.— AE. T. VI, 1965.
130. Anfray F. Chronique archéologique (1960—1964).— AE. T. VI, 1965.
131. Anfray F. Matara.— AE. T. VII, 1967.
132. Anfray F. Aspects de l'archéologie éthiopienne.— JAH. 1968, vol. IX, № 3.
133. Anfray F. La poterie de Matara. Esquisse typologique.— RSE. 1968, vol. XXII.
134. Anfray F. Deux villes axoumites: Adoulis et Matara.— IV CISE. T. I.
135. Anfray F., Caquot A. et Nautin P. Une nouvelle inscription grècque d'Ezana, roi d'Axoum.— «Le Journal des Savants». 1970.
136. Anzani A. Numismatica axumita.— RINSA. 1926, ser. 3, vol. III.
137. Anzani A. Numismatica e storia d'Etiopia.— RINSA. 1928—1929, ser. 3, vol. V—VI.
138. Anzani A. Monete dei re d'Aksum (studi supplimentari).— RINSA, 1941, ser. 5, vol. I.
139. Arkell A. J. Archeological Research in West Africa.— «Antiquity». 1944, № 71.
140. Arkell A. J. Gold Coast Copies of 5—7-th Century Bronze Lamps.— «Antiquity». 1950, № 93.
141. Avalichvili A. Géographie et légende dans un récit apocriphe de St. Basil.— «Revue de l'Orient chrétien». 1927—1928, sér. 3, vol. VI (26).
142. Basset R. Les inscriptions de l'île de Dahlak.— JA. Sér. 9, t. 1—2, 1893.
143. Bates O. The Eastern Libyans. L., 1914.

143a. Becker C. H. Bakt.— EI².
144. Beeston A. F. L. Abraha.— EI².
144a. Beeston A. F. L. Notes on the Murayghan Inscription.— BSO(A)S. 1954, vol. XVI, p. 3—4.
145. Beeston A. F. L. The Realm of King Yusuf (Dhu Nuwas).— BSO(A)S. 1975, vol. XXXVIII, p. 1.
146. Belin M. Lettre à M. Reinaud... sur un document arabe relatif à Mahomet.— JA. Sér. 5, t. 4, 1854.
147. [Bidez M.] Filostorgius, Historia ecclesiastica. Ed. M. Bidez. Lpz., 1913.
148. [Boor C. de]. Theophanes, Chronographia. T. I. Lipsiae, 1883.
149. [Breyer L.]. Theophanes. Bilderstreit und Arabersturm in Byzanz. Das 8 Jahrhundert (717—813) aus der Weltchronik des Theophanes. Graz, 1957.
150. [Brooks E.W.], John of Ephesus. Lives of the Eastern Saints. P., 1923.
151. [Brockelmann C.], Labid. Die Geschichte des Labid nach der wiener Ausgabe übersetzt und mit Anmerkungen verschen aus dem Nachlasse des A. Huber, Leiden, 1891.
152. Browne E.G., Some Account of the Arabic Work Entitled "Nihayatu'l-irab ii akbari'l-Furs wa'l-Arab". — JRAS, 1900, p. 2.
153. Budge A.E. Wallis, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. I. L., 1928.
154. Buhj F., Abreha. — EI.
155. Bury J.B., A History of the Roman Empire. Vol. II. Ox., 1922-1923.
156. Butler A.J., The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion. Ox., 1902.
157. Buxton D.R., The Christian Antiquities of Northern Ethiopia. — Ar. 1947, vol. XCII.
158. Buxton D. R. Ethiopian Rock-Hewn Churches.—«Antiquity». 1946, vol. 80.
159. Buxton D. R. Travel in Ethiopia. L., 1949.
160. Buxton D. R. Ethiopian Medieval Architecture.— ES. 1963.
161. Caetani L. Annali dell' Islam. Vol. I—VI. Milano, 1905—1913.
162. Calderini A. Documenti per la storia degli etiopi e dei loro rapporti col mondo romano.— Atti del IV Congresso di studi romani. Vol. II. Roma, 1938.
163. Caquot A. et Leclant J. Rapport sur les récents travaux de la Section d'Archéologie de l'Institut éthiopen d'études et de recherches.— Comptes-Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. P., 1956.
164. Caquot A. La royauté sacrale en Ethiopie.— AE. T. II, 1957.
165. Caquot A. L'inscription éthiopienne de Marib.— AE. T. VII, 1965.
166. Caquot A. et Leclant J. Sur les traces des Axoumites.— «Annales publiées par la Faculté des Lettres de l'Université de Toulouse». Fasc. 3. Toulouse, 1955.
167. Caquot A. et Leclant J. Ethiopie et Cyrénaique. A propos d'un texte de Synésius.— AE. T. III. 1959.
168. Carpentier. Commentarium praevis ad Martyrium Arethae.— Acta sanctorum. Octobris. T. X. Bruxelles, 1861.
169. Caskel W. 'Ajam al-'Arab. Studien zur altarabischen Epik. — «Islamica». 1930, Bd 3, H. 5.
170. Caskel W. Entdeckungen in Arabien. Köln, 1954.
171. Cassa B. Necropoli precristiani di Seleclaca.— RSE. 1945.
172. Caussin de Perceval A.-P. Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme. T. II. P., 1847.
173. Cerulli E. Etiopi in Palestina. Vol. I. Roma, 1943.
174. Cerulli E. Storia della letteratura etiopica. Milano, 1956.
175. Cerulli E. Somalia. Scritti vari editi ed inediti. Vol. I. Roma, 1957.
176. Cerulli E. Punti di vista sulla storia dell' Etiopia. Discorso inaugurale.— ACISE.
177. [Chabot J. B.]. Chronicon Pseudo-Dionysianum vulgo dictam (Corpus Scriptores Christianorum Orientalium. Scriptores syri. Ser. III). Vol. II. P., 1933.
178. Chittick N. The «Shirazi» Colonization of East Africa. — JAH. 1965, vol. IV, № 3.
179. Chittick N. Unguya Ukuu: the Earliest Imported Pottery and an Abbasi Dinar.— «Azania». Vol. I. Nairobi — Lusaka — Dar es Salaam, 1966.

180. Chittick N. Six Early Coins from Near Tanga.— Azania. Vol. I. Nairobi — Lusaka — Dar es Salaam, 1966.
181. Clark W. L. Coins from Axum.— «American Numismatic Society. Museum Notes». № 3. N. Y., 1948.
182. Claessen H. and Skalnik P. (ed.) The Eearly State. The Hague — Paris — New York, 1978.
183. Contenson H. de. Les fouilles à Axoum en 1957. Rapport préliminaire.— AE. T. III, 1959.
184. Contenson H. de. Aperçu sur les fouilles à Axoum et dans les environs d'Axoum en 1958 et 1959.— AE. T. III, 1959.
185. Contenson H., de. Apercu sur les fouilles à Ouchatei Golo, près d'Axoum, en 1958. — AE. T. IV, 1961.
186. Contenson H., de. Trouvailles fortuites aux environs d'Axoum (1957-1959). — AE. T. IV, 1961.
187. Contenson H., Les principales étapes de l'Éthiopie antique. — CEA. 1961, vol. 5, p. 2.
188. Contenson H., de Ls. fouilles à Axoum en 1958. Rapport préliminaire. — AE. T.V., 1963.
189. Contenson H. de. Relations entre la Nubie chrétienne et l'Ethiopie auxomite. — PTICES.
190. Contenson H., de. Aksha I.P., 1966.
191. Conti-Rossini C., Note etiopichee. — Leggenda tigrai su Abreha e Asbeha. — "Giornale della Società asiatica italiana". 1896-1897, vol. X.
192. Conti-Rossini C., Note etiopiche. I. Una guerra fra la Nubia e l'Etiopia nel secolo VII. II. Leggende tigrai. III. Sovra una tradizione Bilin. Roma, 1897.
nel secolo VII. II. Leggende tigrai. III. Sovra una tradizione Bilin. Roma, 1897.
193. Conti-Rossini C. Documenti per l'archeologia d'Eritrea nella bassa valle del Barca.— RRAL. Ser. V. T. 1, 1903.
194. Conti-Rossini C. Note sugli Agaw. Appunti sulla lingua Khamta dell' Averghellé.— «Giornale della Società Asiatica Italiana». Firenze, 1905, vol. XVIII, p. II.
195. Conti-Rossini C. Les listes des rois d'Aksoum.— JA. Sér. 10, t. 14, 1909.
196. Conti-Rossini C. Un documento sul christianismo nello Yemen ai tempi del re Sarahbil Yakkuf.— RRAL. Seer. V, т. 19, 1911.
197. Conti-Rossini C. Expéditions et possessions des Habašat en Arabie.— JA. Sér. 11, t. 18, 1921.
198. Conti-Rossini C. Egitto ed Etiopia nei tempi antichi e nell' età di mezzo.— Aeg. Vol. III, 1922.
199. Conti-Rossini C. Monete aksumite.— Africa Italiana. Vol. I. Napoli, 1927.
200. Conti-Rossini C. Storia d'Etiopia. T. I. Bergamo, 1928.
201. Conti-Rossini C. Un' inscripzione etiopica di Ham.— RRAL. Ser. VII. T. 1, 1939.
202. Corpus Inscriptorum Semiticarum ab Academia Inscriptionum et Litterarum humaniorum pars IV. Inscriptiones Himyariticas et Sabaeas contiens. T. I. Fasc. 4; T. II. Fasc. 3. Parisiis, 1889—1929.
203. Coulbeaux J. B. Histoire politique et religieuse d'Abyssinie, depuis les temps plus reculés jusqu'a l'avènement de Menelik II. T. I. P., 1929.
204. Daniels Ch. The Garamantes of Southern Libya. Excavations on Zinchecra. 1965—1967.— «Antiquaries Journal». 1970, vol. 50, p. 1.
205. Devrésse R. Le patriarchat d'Anttioche depuis le paix de l'église jusqu'à la conquête arabe. P., 1945.
206. Devos P. Quelques aspects de la nouvelle lettre récemment découverte, de Simon de Beth-Aršam sur les martyrs himyarites.— IV CISE. T. I.
207. Dillmann A. Liber Henoch. Lpz., 1851.
208. Dillmann A. Über die Anfänge des Axumitischen Reiches.— APAW. 1878.
209. Dillmann A. Zur Geschichte des Axumitischen Reiches im vierten bis sechsten Jahrhundert.— APAW. Abh. I, 1880.
210. [Dindorff L.]. Joannes Malalae Chronographia. Bonnae, 1831.
211. Doresse J. Ethiopie: Annales d'Ethiopie. T. I.— BO. T. XII, 1955.

212. D o r e s s e J. Au pays de la reine de Saba: L'Ethiopie antique et moderne. P., 1956.
213. D o r e s s e J. Les premiers monuments chrétiens d'Ethiopie et église archaïque de Yeha.— «Novum Testamentum». 1956, vol. I, fasc. 3.
214. D o r e s s e J. Découvertes en Ethiopie et découverte de l'Ethiopie.— BO. T. XIV, 1957.
215. D o r e s s e J. L'empire du Prêtre-Jean. Vol. I. P., 1957.
216. D o r e s s e J. Histoire sommaire de la Corne Orientale de l'Afrique. P., 1971.
217. D r e w e s A. J. Inscriptions de l'Ethiopie antique. Leiden, 1962.
218. D r o u i n M. E. Les listes royales éthiopiennes et leur autorité historique.— JA. Sér. 8, t. 19—20, 1882.
219. Dunlop D.M., Another Ptophetic "Prophetic Letter". — JRAS, 1940
220. Dvornik F., Missions of the Greek and Western Churches in the East During the Middle Ages. — XIII International Congress of Historical Sciences, Moscow, 1970.
221. Emilia A., d'. Intorno ai — RSE. Vol. VII, 1948.
222. Esbroeck M. van, L'Ethiopie à l'époque de Justinien: S. Arethas de Negran et. S. Athanase de Clysme. — IV CISE. T. I.
223. Evetts B., History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria. T.I.P. 1915.
224. Evetts B., The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries. Ox., 1895.
225. Fagan B.M., Early Iron Age Pottery in the East and South Africa. — "Azania". Vol. I, Nairobo — Lusaka — Dar es Salaam, 1966.
226. Fagg W.B., Afro-Portuguese Ivories. L., 1959.
227. F a k h r y A. An Archaeological Journey to Yemen (March-May 1947). Vol. I—III. Cairo, 1951.
228. [F a r i s N. A.]. The Antiquities of South Arabia Being a Translation... of the Eighth Book of al-Hamdani's al-Iklil. Princeton, 1938.
229. F e l l W. Die Christenverfolgung in Südarabien und die himjarisch-äthiopischen Kriege nach abessinischer Überlieferung.— ZDMG. Bd 35, 1881.
230. F e s t u g u i è r e A. J. La vie de Sabas et les tours de Syrie-Palestine.— «Revue Biblique». 1963, t. LXX.
231. F i e y J. M. Chrétientés syriaques du Ḫorāsān et du Ségestān.— Mus. 1973, t. 86, № 1—2.
232. F r e e m a n - G r e n v i l l e G. S. East African Coin Finds.— JAH. 1960, vol. I, № 1.
233. F r e n d W. H. C. The Rise of the Monophysite Movement: Chapters in the History of the Church in the Fifth and Sixth Centuries. Cambridge, 1972.
234. G a r b i n i G. Una bilingua sabeo-ebraica da Zafar.— «Annali dell' Instituto Orientale di Napoli». T. 30. Fasc. 2. Napoli, 1970.
235. G a v i n o G. Ie Museo archeologico di Asmara.— «Bolletino». Asmara, 1953, vol. I.
236. G l a s e r E. Die Abessinier in Arabien und Afrika. München, 1895.
237. G l a s e r E. Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib. B., 1897.
238. G a u t h i e r H. Temple of Kalabcha. P., 1887.
239. G u i d i I. La lettera di Simeone vescovo di Beth-Aršam sopra i martiri omeriti.— ARAL (Memorie della Classe scienze morale, storiche e filologiche). Vol. VII. Ser. 3, 1881.
240. G u i d i I. Ostsyrische Bischöfe und Bischofssitze im V, VI und VII Jahrhundert.— ZDMG. Bd 43, 1889.
241. G u i d i I. Bizanzio e il regno di Aksum.— Studi bizantini. Roma, 1924.
242. G u i d i I. Storia della letteratura etiopica.— Publicazioni dell' Instituto per l'Oriente. Roma, 1932.
243. H a l l e u x A. d e, I r f a n S h a h î d. The Mortyrs of Najrân. New Documents.— Mus. 1973, t. 86, № 1—2.
244. H a l é v y J. Examen critique des sources relatives à la persécution des chrétiens de Nedjran par le roi juif des Himyarites.— «Revue semitique d'épigraphie et de l'histoire ancienne». 1896, 4 année.
245. H a m i d u l l a h M. Original de la lettre du Prophète à Kisra.— RSO. 1965, vol. XI, № 1.

246. H a r m a t t a J. The Struggle for the Possession of South Arabia between Aksum and the Sasanians.— IV CISE. T. I.
247. H a r t m a n n M. Der Najasi Aschama und sein Sohn Arma.— ZDMG. Bd 49. 1895.
248. H a r t m a n n M. Der islamische Orient. II. Die arabische Frage mit einem Versuche der Archeologie Jemens. Lpz., 1909.
248a. H a s a n G. F. The Arabs in the Sudan. Edinbourgh, 1967.
249. [H a u r y J.]. Procopii Caesarensii opera omnia. T. I. De bello persico. De bello vandalico. T. II. De bello gothico. Lipsiae, 1905.
250. [H e n r y R.]. Photius. Bibliothèque. Texte établi et raduit par René Henry. T. I. P., 1959.
251. Herzog R., Die Nubier. B., 1957.
252. Hevawasam J., Tamil Sources of Some Sinhalese Literary Works with Special Reference to Lokoparaya. — "Tamil Culture". Madras, 1961. vol IX. No. 3.
253. Hirschberg J.W., Nestorian Sources of North-Arabic Traditions on the Establishment and Persecution of Christianity in Yemen. — RO. 1949, t. 15.
254. Hitti Ph. K., A History of the Arabs. L., 1949 (4-th edition).
255. Höfner M., Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften. — L'antica società beduina. Roma, 1959.
256. Honigmann E., Évêques et évêchés monophysites d'Asie antérieure au VI s. Louvain, 1951.
257. Huard P., Contribution à l'étude du cheval, du fer et du chameau au Sahara oriental. — BLFAN. 1960, t. 22, No. 1-2.
258. Isaac E., An Obscure Component in Ethiopian Church History: An Examination of Various Theories Pertaining to the Problem of the Origin and Nature of Ethiopian Christianity. — Mus. 1972, t. 85, No. 1-2.
nation of Various Theories Pertaining to the Problem of the Origin and Nature of Ethiopian Christianity.— Mus. 1972, t. 85, № 1—2.
259. I s s e l A. Viaggio nel Mar Rosso e tra i Bogos (1870). Milano, 1872.
260. J a m m e A. Sabaean and Hasaean Inscriptions from Saudi Arabia. Roma, 1966.
261. J a m m e A. Research on Sabaean Rock Inscriptions from South-Western Saudi Arabia. Wash., 1965.
262. [J o n e s C. P.]. Philostratus. Life of Apollonius. Translated by C. P. Jones. Edited, Abridged and Introduced by G. W. Bowersock. Harmondsworth, 1970.
262a. J o n e s A. H. M. and M o n r o e E. A History of Ethiopia. Ox., 1955.
263. J u n k e r H. Die christlichen Grabsteine Nubiens.— «Zeitschrift für ägyptische Sprache». 1925, Bd LX.
263a. K a m m e r e r A. La mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité. T. I. Le pays de la mer Erythrée jusqu'à la fin de Moyen Age. Le Caire, 1929.
264. K a w a r I. Byzantium und Kinda.— «Byzantinische Zeitschrift». 1960, t. 53.
265. K i r w a n L. P. Oxford University Excavations at Firka. Ox., 1954.
266. K i r w a n L. P. Oxford University Excavations at Firka. Ox., 1959.
267. K i r w a n L. P. Tanqasi and the Noba.— «Kush». Vol. V. Khartoum, 1957.
267a. K o b i š č a n o v Yu. M. «Poludye» in the North-East African States.— IV CISE. T. I.
268. K o b i s h c h a n o w Y. M. Les données primordiales sur les chasseurs-cueilleurs de l'Ethiopie (Communication sur le VII Congrès international des sciences anthropologiques et ethnologiques). M., 1964.
269. K o b i s h c h a n o w Y. M. On the Problem of Sea Voyages of Ancient Africans in the Indian Ocean.— JAH. 1965, vol. 6, № 2.
270. K o b i s h c h a n o w Ju. M. Voyages of Ancient Africans in the Indian Ocean.— PTICES.
271. K o b i s h c h a n o w Ju. M. Extrait de l'histoire des rapports entre les peuples de l'Empire Russe et de l'Ethiopie.— La Russie et l'Afrique. Moscou, 1966.
272. K o b i s h c h a n o w Ju. M. The Origin of Ethiopian Literature.— Essays on African Culture. M., 1966.
273. K o b i s h c h a n o w J. M. Axum.— The Early State. The Hague — Paris — New York, 1978.
274. K o s e g a r t e n J. G. L. The Hudsailian Poems. L., 1854.
275. K r a u s e A. Die Anfänge des Christentums in Nubien. Mödling, 1930.
276. K r a u s e M. Die Formulare des christlichen Grabsteine Nubiens.— Nubia.
277. K r a e m e r C. J. Excavations at Nessana. Vol. III. Non-Literary Papyri. Princeton, 1948.

278. Krenker D. Deutsche Aksum-Expedition. Bd II. Altere Denkmäler Nordabessiniens. B., 1913.
279. Krenker D. Die grossen Stellen in Aksum.— «Forschungen und Forschritte». 1936, 12 Jg.
280. Kubińska J. La prière nubienne pour les morts et la question de son origine.— Nubia.
281. Labourt J. Le christianisme dans l'Empire Perse sous la dynastie Sassanide. P., 1904.
282. Lammens H. Les «Aḥābīš» et l'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'hegire.— JA. Sér. 8, t. 8, 1926.
283. Lammens H., L'Arabie occidentale avant l'hegire. Beyrouth, 1928.
284. Lane-Poole S., A History of Egypt in the Middle Ages. L., 1968.
285. Lantier R., Les bronzes Sao. Appendice. — J.P. Lebeuf et. A. Masson-Detourbet. La civilisation du Tchad. P., 1950.
286. Lassus J., Sanctuaires chrétiens de Syrie. P., 1947.
287. Lebeuf J.P., Archéologie tchadienne. Sao du Cameroun et du Tchad. P., 1962.
288. Lebeuf J.P., et Masson-Detourbet A. La civilization du Tchad. P., 1950.
289. Leclant J., Les fouilles à Axoum en 1955-1956. Rapport préliminaire. 2 AE.T. III, 1959.
290. Leclant J., L'art chrétien d'Éthiopie. Découvertes récentes et points de vie nouveaux. — Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit. Stuttgart, 1970.
291. Lefebvre G. Recueil des inscriptions grècques-chrétiennes d'Egypte. Le Caire, 1907.
292. Leipold J. Schenute von Atripe und die Entstehung des national-ägyptischen Christentums. Lpz., 1903.
293. Lepsius R. Denkmäler aus Ägypten and Äthiopien. Bd V. B., 1913.
294. Letronne A. J. Histoire du christianisme en Egypte, en Nubie et en Abyssinie.— Oeuvres choisies. Vol. I. P., 1881.
295. Lewicki T. On Some Libyan Ethnics in Johannis of Corippus.— RO. 1949, t. XV.
296. Littmann E. Geschichte der äthiopische Litteratur.— Geschichte der christianischen Litteraturen des Orients. Lpz., 1907.
297. Littmann E. Adulis. Aksum.— Realenzyklopädie des klassischen Altertums. Hrsg. von Pauly-Wissowa.
298. Littmann E. Deutsche Aksum-Expedition. Bd. I. Topographie und Geschichte Aksums. B., 1913.
299. Littmann E. Deutsche Aksum-Expedition. Bd IV. Griechische, Sabäische und Altabessinische Inschriften. B., 1913.
300. Littmann E. Eine neue Goldmünze des Konigs Israel von Aksum. «Zeitschrift der Numismatik». 1925, Bd 35, № 4.
301. Littmann E. Indien und Abessinien.— Beiträge zur Litteraturwisschenschaft und Geistesgeschichte Indiens. B., 1925.
302. Littmann E. Äthiopische Inschriften.— «Miscellanea Academica Berolinensia». Bd II/2. B., 1950.
303. Loundine A. G. Sur les rapports entre l'Ethiopie et le Himyar du VIe siècle. IV CISE. T. I.
304. Manzi L. Il commercio in Etiopia, Nubia, Abissinia, Sudan dai primordi alla dominazione musulmana. Roma, 1886.
305. Martyrium sancti Arethae et Sociorum in civitate Negran.— Acta Sanctorum. Octobris. T. X. Bruxelles, 1861.
306. Maspero J. Histoire des patriarches d'Alexandrie... (518—616). P., 1923.
307. Mantel-Nečko M. Staroamharskie pieśni Królewskie.— «Przegląd Orientalistyczny». Warszawa, 1957, № 3(23).
308. Matthews D. and Mordini A. The Monastery of Debra Damo, Ethiopia.— Ar. 1959, vol. XCVII.
309. Mauny R. Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidentale.— BIFAN. 1952, t. XIV.
310. McCrindle J. W. The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk. L., 1897.

311. Michałowski K. Polish Excavations at Faras, 1962—1963.—«Kush». Vol. XII. Khartoum, 1964.
312. Migne J. P. Patrologiae graecae. T. 25, 65, 66, 86, 88. P., 1834, 1862, 1862, 1864, 1866.
312a. Milne J. G. A History of Egypt under Roman Rule. L., 1924.
313. Mlaker K. Die Inschrift von Ḥuṣn al-Ġurāb.—«Wiener Zeitschrift für Semitistik». 1929, № 7.
314. Monneret de Villard U., Aksum. Recerche di topographia generale (Pontificum Institutum Biblicum. "Analecta orientalia". 16). Roma, 1935.
315. Monneret de Villard U., Un tipo di chiesa abissina. — "Africa Italiana". Vol. VI. Napoli, 1935.
316. Monneret de Villard U., L'origine dei pui antichi tipi di chiese abissine. — Atte del III Congresso di studi coloniali. Fiorenze, 1937.
317. Monneret de Villard U., Note sulle influenze asiatiche nell'Africa Orientale. — RSO. 1938, vol. XVIII.
318. Monneret de Villard U., Storia della Nubia cristiana. Roma, 1938.
319. Monneret de Villard U., L'inscrizione etiopiche di Ham e l'èpigrafia meroitica. — Aeg. 1940, vol. XX.
320. Monneret de Villard U., Pèrche la chiesa abissina dependeva dal patriarchato d'Alessandria. — "Oriente Moderno". 1943, vol. XXIII.
321. Monneret de Villard U., Aksum e quattro re del mondo. — "Annali Lateranensi". T. XII. Vatican, 1948.
322. Monneret de Villard U., Contributi per una storia sociale ed. economica della famiglia nell'Egitto greco-romano. — Aeg. 1937, vol. XVII.
323. Mordini A. Un'antica porta in legno proveniente dall chiesa di Gunaguna (Scimezana, Eritrea).— RSO. 1941, vol. XIX.
324. Mordini A. Su di un nuovo titolo regale aksumita.— RSE. 1949, vol. VIII.
325. Mordini A. Appunti di numismatica aksumita.— AE. 1959, t. III.
326. Mordini A. I tessili medioevali del Convento di Dabra-Dammo.— ACISE.
327. Mordini A. Storia della letteratura etiopica. Roma, 1961.
328. Mordtmann J. H. Die himjarisch-äthiopischen Kriege noch einmal.— ZDMG. Bd 35, 1881.
329. Møberg A. The Book of Himyarites. Lund, 1924.
330. Mullerus C. Geographi graeci minores. Vol. I—II. P., 1855, 1861.
331. Mullerus C. Fragmenta historicorum graecorum. T. IV. P., 1851.
332. Murad Kamil. An Ethiopic Inscription Found at Mareb.— ES. 1963.
333. Nau F. La politique matrimoniale de Cyrus (Le Mocaucas) Patriarche melkite d'Alexandrie de 628 au 10 avril 643.— Mus. 1932, t. XIV, № 1—2.
334. Nöldeke Th. Tabari. Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden. Leiden, 1879.
335. Olinder G. The Kings of Kinda of the Family of Akil al-Murar. Lund, 1927.
336. Olderogge D. A. L'Arménie et l'Ethiopie au IV siècle (à propos des sources de l'alphabet arménien).— IV CISE. T. I.
337. Orlandi T. Storia della Chiesa di Allessandria. Testo copto, tradizione e commento. Vol. I. Da Pietro ad Atanasio. Milano, 1968.
338. Pankhurst R. An Introduction to the Economic History of Ethiopia. From Early Tims to 1800. With a Foreword by K. M. Panikkar. [Essex], Lilibela House, 1961.
339. Pankhurst R. The History of Ethiopia's Relations with India Prior to the Nineteenth Century. IV CISE. T. I.
340. Papandopulos I. Africanobyzantina: Byzantine Influence on Negro-Sudanese Cultures. Athens, 1966.
341. Paribeni R. Ricerche nel luogo dell'antica Adulis. Roma, 1908.
342. [Partsch J.]. Flavii Cresconii Corippi Johannis seu de bellis Libycis.— «Monumenta Germanici Historica Auct. Antiquissimi». Vol. III. Pars 2. Berolini, 1879.
343. Payne-Smith J. John of Ephesus. Lives of the Eastern Saints.— «Patrologia Orientalis». Vol. XVII. P. I. L., 1860.
344. Pereira E. Historia dos martyres de Nagran. Lisbõa, 1899.
345. Philippson D. W. The Chronology of the Iron Age in Bantu Africa.— JAH. 1975, vol. XVI, № 3.

346. Pigulewskaja N. W. Byzanz auf den Wegen nach Indien. B., 1969.
347. Pirenne J. L'imbroglio de trois siècles de chronologie aksoumite IV—VIe s.— Documents pour servir à l'histoire des civilizations éthiopiennes. Fasc. 6. Addis Ababa, 1975.
348. Polk W. R. The Golden Ode by Labid ibn Rabiah. Chicago — London, 1974.
349. Praetorius F. Fabula de regina Sabaea apud Aethiopes. Halle, 1870.
350. Praetorius F. Bemerkungen zu den beiden großen Inschriften vom Dammbruch zu Marib.— ZDMG. Bd 53, 1899.

351. Priaulx B., On the Indian Embassies to Rome from the Reign of Claudius to the Death of Justinian. — JRAS, 1863, vol. XX.
352. Puglisi G., Alcuni vestigi dell'isola di Dahlac el-Chebir e la leggenda sui Furs. — PTICES.
353. Rémondon R., La crise de l'Empire romain de Marc Aurèle à Anastase. P., 1964.
354. Rodinson M., Ethiopien et sudarabique. Reports sur les conférences. — "Ecole partique des hautes études". IVe Section, sciences historiques et philologiques. Annuaire 1965/1966. P., 1967.
356. Rodinson M., Ethiopien et sudarabique. Reports sur les conférences. — "Ecole partique des hautes études". IVe Section, sciences historiques et philologiques. Annuaire 1968/1969. P., 1968.

357. Rodinson M. Mahomet. P., 1968.
358. Rodinson M. Notes sur le texte de Jean de Nikiou.— IV CISE. T. II.
359. Rodinson M. Sur une nouvelle inscription du règne de Dhoû Nowâs.— BO. 1969, t. XXVI, № 1.
360. Rodinson M. Éthiopien et sudarabique. Rapports sur les conférences.— «Ecole pratique des hautes études». IVe Section, sciences historiques et philologiques. Annuaire 1974/1975. P., 1975.
361. Roncaglia M. Histoire de l'Eglise copte. Beyrouth, 1973.
362. Rossi E. Sulla storia delle isole Dahlak (Mar Rosso) nel medio evo.— Atti del III Congresso di Studi coloniali. Firenze, 1937.
363. Rubin B. Prokopius von Kaisareia. Stuttgart, 1955.
364. Bubin B. Das Zeitalter Justinians. B., 1960.
365. Ryckmans G. Repertoire d'épigraphie sémitique. P., 1950.
366. Ryckmans G. Inscriptions sud-arabes (deuxième série). — Mus. 1953, t. LXVI, № 3—4.
367. Ryckmans J. Inscriptions historiques sabéennes de l'Arabie centrale.— Mus. 1953, t. LXVI, № 3—4.
368. Ryckmans J. La persécution des chrétiens himyarites au sixième siècle. Istanbul, 1956.
369. Ryckmans J. Le début de l'ère himyarité a-t-il coincidé avec une éclipse de soleil? — BO. 1961, t. XVIII.
370. Ryckmans J. Le christianisme en Arabie du Sud préislamique.— Atti del Convegno internazionale sul tema: L'Oriente Cristiano nella storia della civiltà (Roma, 31 marzo — 3 aprile 1963; Firenze, 4 aprile 1963). Roma, 1964.
371. Saint-Martin L. V. de. Eclaircisements géographiques et historiques sur l'inscription d'Adulies et sur quelques points des inscriptions d'Axum.— JA. Sér. 5, t. 2, 1863.
372. Sassoon H. Engaruka: Excavation During 1964.— «Azania». Vol. I. Nairobi — Lusaka — Dar es Salaam, 1966.
373. Scher A. et Dib P. Histoire néstorienne (Chronique de Seert).— «Patrologia Orientalis». Ser. 4. T. III, 1906.
374. Schmidt N. The Original Language of the Parables of Henoch. — Old Testament and Semitic Studies (in Memory of W. R. Harper). Vol. II. Chicago, 1908.
375. Schneider R. Une page du Gadla-Sadqan.— AE. T. V, 1963.
376. Schneider R. Trois nouvelles inscriptions royales d'Axoum.— IV CISE. T. I.
377. Schröter R. Trostschreiben Jacob's von Serug an die himjarischen Christen.— ZDMG. Bd 31. 1877.

378. Sergew Hable Sellassie. Beziehungen Äthiopiens zur Griechische-Römischen Welt. Bonn, 1964.
379. Sergew Hable Sellasie. Church and State in the Axumite Period.— PTICES.
380. Serjeant R. B. South Arabia and Athiopia: African Elements in the South Arabian Population.— PTICES.
381. Shahid I. The Book of Himyarites: Authorship and Authenticity.— Mus. 1963. t. LXXVI. № 3—4.
382. Shahid I., Byzantonoarabic: The Conference of Ramla. — "Journal of the Near East Studies". Chicago, 1964, vol. 33.
383. Shahid I., The Martyrs of Najran. New Documents. Bruxelles, 1971.
384. Shahid I., The Kebra Nagast in the Light of Recent Research — Mus. 1976, t. LXXXIX, No. 1-2.
385. Shinnie P.L., Excavations at Tanqasi 1953 — "Kush". Vol. II Khartoum, 1954.
386. Shinnie P.L. and Harden D.B., Excavations at Soba. Khartoum, 1955.
387. Shinnie P.L. and Shinnie M., New Light on Medieval Nubia — JAH. 1965, vol. VI, No. 3
388. Smith S., Events in Arabia in the VI-th Century A.D. BSO(A)S. 1954, vol. XVI, p. 3.
389. Smith S., The Nubian B-Group. — "Kush". Vol. XIV. Khartoum, 1966.
390. Sperber J., Die Schreiben Muhammads an die Stämme Arabiens. B., 1916.
391. Stein E. Histoiree du Bas-Empire. T. II. P., 1949.
392. Strates A. N. Byzantium in the Seventh Century. Vol. I. Princeton, 1974.
393. Strelcyn S. Kebra Nagast czyli Chwała Królów Abysinii. Warszawa, 1957.
394. Strelcyn S. La chrétienté dans la région de la Mer Rouge.— «Journal of Religions in Africa». Leiden, 1973, vol. V, fasc. 3.
395. Tedeschi S. Schizzo storico della isole Dahlak.— PTICES.
396. Tedeschi S. L'Etiopia nella storia dei patriarchi allessandrini. — RSE. Vol. XIII, 1969.
397. Tedesco-Zammarano L. Contributo alla numismatica aksumita. — «Numismatica». Roma, 1947, vol. XIII.
398. Tekle-Tsadik Mekuria. Les noms propres, les noms de bâptême et l'étude généalogique des rois d'Ethiopie (XIII-XIXe siècles) à travers leurs noms patronymiques. Beograd, 1966.
399. Tibiletti-Bruno M. G. Di alcune caracteristiche epigrafi funerarie cristiane della Nubia.— «Rendiconti dell'Intituto Lombardo». Classe di Lettere. Vol. 97. Milano, 1963.
400. Tibiletti-Bruno M. G. Inscrizioni nubiane. Pavia, 1964.
401. Tubiana J. Quatre généalogies royales éthiopiennes.— CEA. 1961, t. 7.
402. Tubiana J. Élements de toponymie éthiopienne (Tigré).— JA. 1956, t. 244, fasc. 1.
403. Ullendorff E. M. Note on the Introduction of Christianity into Ethiopia.— «Africa». 1949, № 19.
404. Ullendorff E. M. An Ethiopic Inscription from Egypt.— JRAS. 1955.
405. Ullendorff E. M. Hebraic-Jewish Elements in Abyssinian (Monophisite) Christianity.— «Journal of Semitic Studies». 1956, July.
406. Ullendorff E. An Aramaic «Vorlage» of the Ethiopic Text of Enoch? — ACISE.
407. Vaccaro F. Monete aksumite.— «Il Bolletino». Asmara, 1953, vol. I.
408. Vaccaro F. Le monete di Aksum. Casteldario-Montova, 1967.
409. Vasiliev A. A. Kaiser Justin I (518—527) und Abessinien.— «Byzantische Zeitschrift». 1933, Bd XXXIII, H. 1.
410. Vasiliev A. A. Justin the First. An Introduction to the Epoch of Justinian the Great. Harvard, 1950.
411. Vitucci G. La Nubia fra Blemi e Romani.— IV CISE. T. I.
411a. Wainwright J. A. Cosmas and the Gold Trade of Fazogl.— «Man». 1942, vol. 42.
412. Willet Fr. Nigeria.— African Iron Age. L., 1971.
413. [Winstedt E. O.] The Christian Topography of Cosmas Indicopleustes. Ed. with Geographic Notes by E. O. Winstedt. Cambridge, 1909.
414. Wolska-Conus W. Recherches sur la «Topographie chrétienne» de Cosmas Indicopleustès. Théologie et science au VIe siècle. P., 1962.

415. W o l s k a - C o n u s W. Cosmas Indicopleustès. Topographie chrétienne. T. I—II. P., 1970.
416. [Z o t e n b e r g H.] Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, évêque de Nikiou.— JA. Sér. 7, t. 10, 1877.
417. [Z o t e n b e r g H.] Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, eveque de Nikiou.— JA. Sér. 7, t. 12, 1878.
418. Z o t e n b e r g H.]. Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, évêque de Nikiou.— JA. Ser. 7, t. 13, 1879.
419. Zabkar L.V., The Eparch of Nubia as a King. — "Journal of the Near Eastern Studies". Chicago, 1963. vol. XXII, No. 4.

